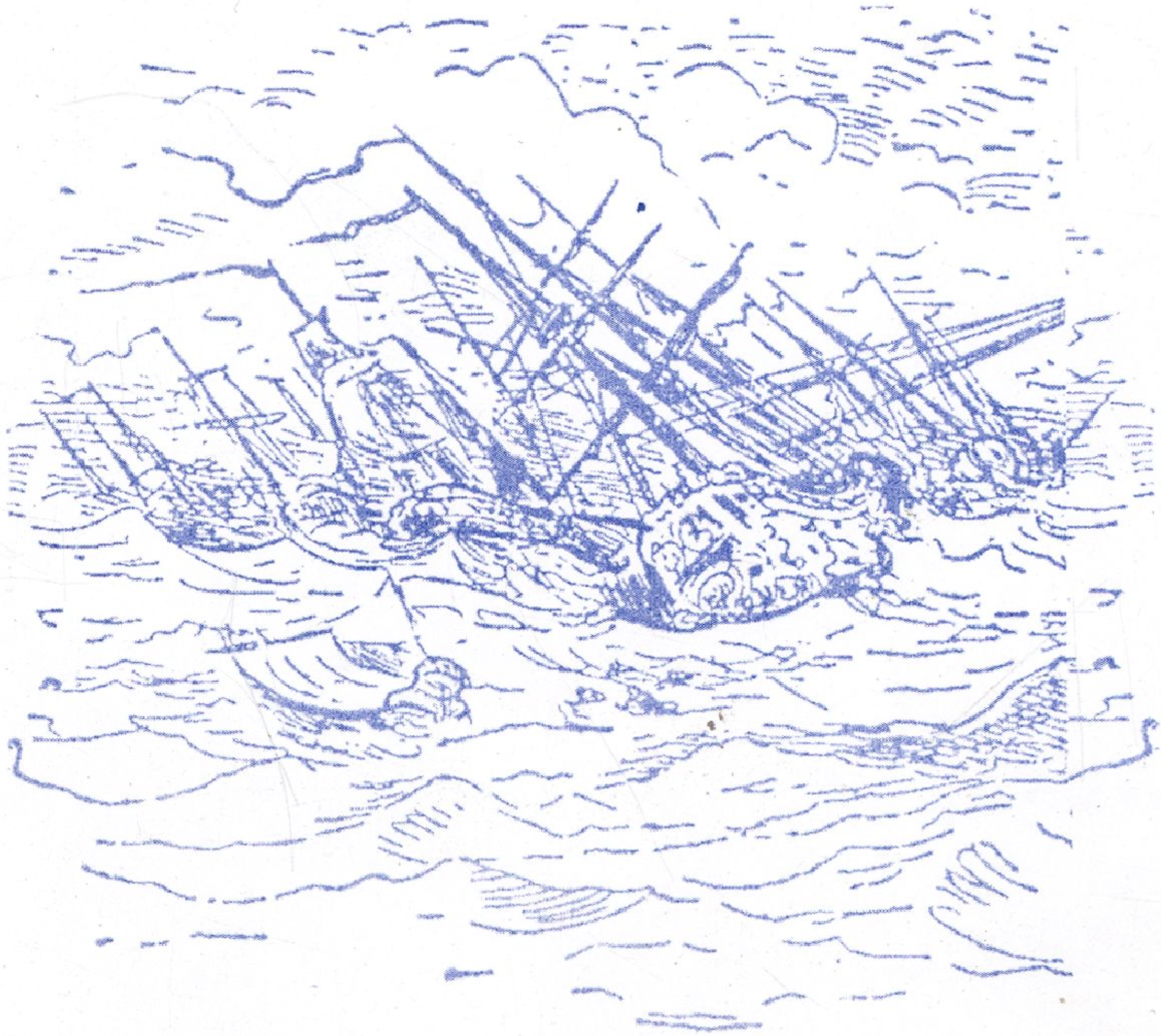
صوفي بيسيس

الغـرب والآخـرون

قصة هيمنة



ترجمة: نبيل سعد

كتاب العالم الثالث

GIFTS 2009

Centre Français de Culture et de Cooperation

Cairo

الغرب والآخرون

الغرب والآخرون

قصة هيمنة

تأليف :

صوفي بيسيس

ترجمة :

نبيل سعد

الطبعة الأولى

2002

الناشر :

دار العالم الثالث

32 صبري أبو علم/ باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس : 3922880

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

L'Occident et les autres

Histoire d'une suprématie

الناشر : ÉDITIONS LA DÉCOUVERTE,
9 *bis*, rue Abel-Hovelacque
PARIS XIIIe
2001

(صدر بالتعاون مع)

المركز الفرنسي

للثقافة والتعاون بالقاهرة

(قسم الترجمة)



رقم الإيداع: 2002/19756

الترقيم الدولي (I.S.B.N): 4-35-5222-977

صوفي بيسيس

الغرب والآخرون

قصة هيمنة

ترجمة:

نبيـــل سعـــــد

دار العالم الثالث

إهداء المترجم

إلى أمي

مُقدمة طبعة سنة 2002

لم يخطر على بالى قط فى بداية عام 2001 ، بعد أن فرغت من تحرير كتاب *الغرب والآخرون*، أن أحداث نهاية العام ستحوّل، بمثل هذه السرعة، الافتراضات التى احتواها إلى واقع حى. الواقع أن اعتداء الحادى عشر من سبتمبر والحرب الأفغانية التى قادتها الولايات المتحدة لمعاقبة من قاموا به، والتثبيت الحاسم على أحادية القطب الأمريكى، يبيّن بصورة ملفتة مدى التطرف الذى يمكن أن تبلغه علاقات عالمية تأثرت من ناحية بالوسواس الضاغط على القوة الأعظم للهيمنة على تلك العلاقات، وبعنف الذين أعلنوا عن أنفسهم خصومًا لها، من ناحية أخرى.

لا يزال الوقت مبكرا لكى نعرف إن كان يتيعن اعتبار ذلك الحدث، (الذى يرى البعض فيه علامة الدخول إلى القرن الواحد والعشرين)، كسرًا أصاب التوازن الكوكبى المتأرجح والذى بنى على أنقاض ازدواجية الأقطاب. لاشك أن 11 سبتمبر 2001 يمثل انعطافا تاريخيا هاما، حيث أن الامبراطورية الأمريكية رأت نفسها مطعونة فى مركزها ذاته من إرهاب من نوع جديد، بعيد الصلة عن أى مطالب ملموسة، يستمد زاده من تركة عدمية قننت ذاتها بمرجعيةالإسلام أكثر من إستلهامه موروثا حضاريا أيا كان أصله. إلا أن هذه اللحظة التى وصلت فيها الأزمة إلى قمتها والرد الذى تلاها يبدوان الآن كما لو انهما يؤديان الدور الكاشف عن أخطاء الأداء الناجمة عن خضوع الكوكب لثقل المنطق الإمبريالى وحده، أكثر من كونهما إعلانًا عن حدوث فوضى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية.

الأمر لم يكن في الواقع بالشيء الجديد. فطالما أرادت الامبراطورية أن تتوسع دون أن يتصدى لها ما يحدها، فالأزمات والثورات ستتضاعف عند أطرافها وفي قلبها. وإذا أضفنا إلى تلك القاعدة القديمة أثر عوامل الفوضى الراجعة إلى ضخامة التحولات الجارية حاليا في العالم، سندرك السبب وراء تعدد تلك الثورات، التي يشجعها، بالإضافة إلى ذلك، الصدى الهائل الذي تلقاه في وسائل الإعلام.

لنبدد على الفور أي لبس محتمل: فالمسألة ليست أن نعرف هنا إن كان يمكن تفسير الاعتداءات على البرجين التوأم وعلى البنتاجون بالعنجهية الأمريكية، ولا إن كان أسامة بن لادن شخصا يقيم العدل، مرفوعا إلى تلك المكانة بسبب نفاذ صبر المعذبين في الأرض. لا يمكن تلخيص العلاقات بين الشمال والجنوب في مواجهة من هذا النوع حتى لو أن العصر يعد مواتيا للصور الكاريكاتورية في نصفي الكرة الأرضية: شبكة الملياردير السعودي وأتباعه، يتميزون في جميع الأحوال باستخدامهم لكافة الوسائل التي أتاحتها لهم العولمة- بقدرة على الإيذاء من الأفضل أن تُحَيَّد بكل تأكيد. ولكن باسم من ؟

طرح -غداة الحادي عشر من سبتمبر- ولفترة قصيرة، تساؤل عما إذا كانت شدة الصدمة ستدفع الإمريكيين في هذه الحالة -والغربيين عموما- إلى أن يطرحوا على أنفسهم أسئلة حول طبيعة علاقاتهم بالآخرين، تجعلهم يعيدون تأسيس شرعية تدخلاتهم الخارجية ويقيمونها على كلِّية المبادئ التي يضعونها. لم يطل الوقت حتى اكتشفنا، مرة أخرى، أن الحديث عن الحق قد إستخدم كمبرر للجوء إلى القوة ولتدعيم المصالح الأمريكية في منطقة من العالم على درجة عالية من الأهمية الإستراتيجية.

في الوقت الذى أعلن فيه أن الأفغان المدينين بالأفضال لواشنطن هم من أهل الديموقراطية، تلبيةً لإحتياجات الحرب التى شنت ضد الطالبان لينتصر الخير، كانت أبسط الحقوق الإنسانية تنتهك فى نفس هذا الوقت فى أفغانستان وكان يتم خرقها بمعرفة قوم يصعب توقيع أى عقوبة عليهم نظرا لقيمتهم كحلفاء. القوة العالمية الأعظم التى جعلت من نفسها الأفق الأمثل للديموقراطية والذى لا يمكن تخطيه (ولا حتى الوصول إليه) إسترخصت متطلبات هذا المثل الأعلى بأن أصدرت القواعد التى تناسبها لإنزال العقاب على أعدائها أو لتبرير وقائع حرب لا تتناسب مع النموذج الذى تدعى أنه متجسد فيها. لن يكفى أبدًا تكرار القول بأن مثل هذا التلاعب بالمبادئ وعدم الترابط بين أقوال الغربيين وسياستهم الحقيقية هو السبب فى أن من سقطوا من حسابات الحق صفقوا لأعمال إبن لادن الإجرامية وأن الثلاثة آلاف قتيل فى مركز التجارة العالمية لم يثيروا إحساسًا حقيقيًا بالفضيحة فى جنوب العالم.

لم تهز وحشيةُ زلزال الحادى عشر من سبتمبر إذن المفارقة الذى بُنى على أساسها التفوق الغربى المتمثل فى الفصل بين التعبير عن المبادئ ذات الطبيعة الكلية وبين تطبيقها الملموس. وهذه الوحشية لم تثْنِ قادة الغرب عن رغبتهم فى أن يقيموا المعايير فى العالم وحدهم دون غيرهم. بل إن هذا الادعاء بحيازة الحق الأوحد قد أخذ بعد ذلك التاريخ أبعادا لم تكن معروفة له من قبل. منذ أن حولت هذه المأساةُ التى عاشتها بلاده، الرئيسَ الأمريكى جورج بوش من قائد مغمور إلى زعيم لحرب صليبية على مستوى الكرة الأرضية، فهو الذى أصبح يحدد على هواه، ودون أن يواجَه بأى مسائلة، النماذج الأصلية التى يفترض فيها أن تُبَيِّن الحدَ الفاصل بين أهل الخير

وخدام الشر. لم يحدث أبدا عبر التاريخ الحديث أن حُوّلت المبادئ التى تقوم عليها الحقوق الكلية الكونية إلى أدوات تستخدم لخدمة القوة، لدرجة أنه يمكن الحديث، فى بداية القرن الحادى والعشرين هذا، عن الوصول لقمة الهيمنة وعن بلورة لا مثيل لها للأحقاد التى يثيرها ذلك. لاشك أن تبوء الولايات المتحدة تدريجيا مكانة الإمبراطورية الكوكبية بدون منافس، قد سهل من حدوث هذا الإنحراف؛ ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد لمحاولة فهم مصدر القناعات التى تصيب الولايات المتحدة بالعمى؛ يتعين أن نسترجع مرة أخرى خطى الطريق الموصلة إلى اليوم، وأن نعيد قراءة شجرة العائلة التى ينتسب إليها هذا التفوق إذ لا يبدو أنه لا يوجد اليوم زلزال قادر على النيل منه. من أى تاريخ يستمد الغرب هذا اليقين بأن من حقه أن يدير شئون الكرة الأرضية ؟

فى الوقت ذاته نتساءل: ما هى التركيبات الجديدة التى تنبئ عن تشكيلها الهزاتُ متعاظمةُ التوحش التى تجتاح العالم ؟ يخشى الشمال أن يقرأ فى ذلك إعلانًا عن بداية إنحدار محتمل. كما أن جزءًا من سكانه يعتبر أن العولمة تتلخص فى كونها هبوطًا لا يحتمل فى قيمة مكاسب الهيمنة. ما الذى تكشف عنه تلك المخاوف، التى تغذيها حقائق جديدة وتهيؤات قديمة ؟ وما هو بالضبط الشيء الذى ترفضه قطاعات من الرأى العام الغربى، قد يستهويها الإنسحاب إلى خطوط خلفية يقترحه البعض عليها ؟

يعمل هذا الكتاب فيما وراء الأحداث المفاجئة المثيرة التى كشف عنها تسارع فى الأزمات، فى محاولة الرد على مثل تلك الأسئلة.

صوفى بيسيس، مايو 2002

مُقَدمة الطبعة الأولى

يأتي هذا الكتاب من بعيد. لعل البحث عن أحد جذوره يجب أن يتم داخل حوش ليسيه جول- فرّى في تونس في منتصف الخمسينيات، تحت الجزء العتيق المغطى من حوش المدرسة، في فترة الفسحة. لم تكن الفوارق الوطنية أو الدينية تخفض من درجة تحفزها في مواجهة التسامح المسكوني الظاهري لعلاقات الزمالة الصبيانية: توجد التونسيات، العرب منهن واليهود، تكاد تختلطن في مواجهة«الفرنسيات»، أي ذلك الكيان الكلّي الذى يتسامى تجانسه على الصداقات الخاصة التي قد تنعقد مع أحد أطرافها؛ فلقد كانت الفرنسيات تَمْحَقْنَنَا بازدرائهن لنا ؟ وإن لم نكن نتواءم مع غطرستهن فإننا لم نكن نشك نحن فى تفوقهن ؛ كُنَّ، بدايةً، شقروات، شعورهن تطول فى « سلاسة مسترسلة» تسمح لهن بالإطاحة بخصلاتها إلى الوراء بحركة من الرأس رشيقة؛ وأمام هذه الرؤية ذات الطبيعة الملائكية بحق كان تأملنا المازوشى لخصلاتنا السوداء المجعدة التى تزين جماجمنا مصدرا لا نهائيا للمعاناة.

وكن علاوة على ذلك يذهبن« للتناول» فى الكنيسة؛ يصلن إلى الفصل كعرائس صغيرات فى فساتين زفاف وطرح وأحجبة من التلّ وفى أيديهن كتاب طقوس القداس فيوزعن حولهن صوراً مقدسة ويدلفن إلى قاعات الدرس فى عظمة وخيلاء لتحية مدرستهن في تواضع هو الإنتصار بعينه فيحصلن منها على التهانى التى تعصف بقلوبنا؛ من منا -مسلمات أو يهوديات شريكات فى ذات العذاب

المتجدد– لم تحلم ولو مرة واحدة فى صباها أن تكون كاثوليكية لكى تتمكن من أن تحصل على القبول فى رحاب هذا العالم السحرى؟

وأخيراً كانت الفرنسيات تمضين إجازاتهن « فى فرنسا »؛ وعشية كل عودة إلى المدرسة في شهر أكتوبر كنا نعد أنفسنا لواجب الإقرار المهين بأننا أمضينا الصيف فيما حول قرطاج للبعض منا أو فى جنوب تونس للبعض الآخر أو –ذلك هو الأسوأ– بالنسبة للأكثر منا تواضعا –فى المدينة ذاتها؛ أما إذا طرحنا نحن السؤال فى حياء: « وماذا عنك» كان الرد يأتى حاسما: « فى فرنسا »؛ ساعتها كنا نرى هُوةً سحيقة تنشق أمامنا ونشعر أن هذا الجُب لن يختزله شىء ولا حتى أفضل النتائج المدرسية؛ لأن وراء كلمة فرنسا تتستر المعرفة الحميمة بالثلج الأبيض والمداخن والأسقُف المائلة التى يغطيها الطحلب الأخضر وكذلك الخضرة والفواكه المجهولة لنا، التى كانت تمتلئ بها كتب القراءة؛ وها هو البرهان: مجرد الإنتماء إلى هذا العالم الذى لا قِبَل لنا به كان يجعل تفوقهن علينا شرعيا ؛ مع مرور الزمن وبعد فترة طويلة عندما بدأت أتعرف على ذلك البلد الذى حفظتُ وأنا طفلة أدق تضاريسه وأصغر نهيراته رحت أتخيلُ زميلاتى القدامى –(وأقرُّ بأن ذلك كان يدخل على نفسى شيئا من السرور)– وهن محصورات طوال فصل الصيف داخل أحياء تفتقر للمسات الجمال أو مدن صغيرة لا تعرف أجواء المرح، وفى كافة الأحوال، داخل أماكن مجردة من كل مازيّنا بها خيالى.

معلمات الجمهورية (الفرنسية) كن حريصات –فى صرامة– على المساواة المدققة في تكوينهن لشخصيات تلميذاتهن، يتروعيهن كافة –ولمصلحتهن فى أغلب الأحيان– دون تفرقة بسبب الأصول أو الدين؛ وقد أحبتنى بالمناسبة إحداهن لدرجة أننى غرقت لفترة من الزمن فى هوة من الإرتباك؟ لقد واكبت آخر سنة لى فى المدرسة الإبتدائية بدايات مرحلة الإستقلال (التونسى)؛ وكان يتعين علينا –إستعداداً لدخول الفصل الدراسى– أن نختار اللغة الأولى التى نود دراستها. بالنسبة لوالداى

لم يكن السؤال مطروحا: إننا بالطبع يهود ولكننا كنا تونسيين قبل كل شيء، وكان الإختيار هو إذن اللغة العربية؛ فبعد أن قرأت الاستمارات بعد ملئها نادتني المُدرسة: معربة عن أسفها: « يا للخسارة لعدم إختيار الإنجليزية!»؛ ظلت نبرة صوتها الحزين عالقة في ذاكرتي وهي تعبر عن أساها للتدهور الثقافي الذي حكموا به على تلميذتها النجيبة، وهو الحكم الذي زاد من عدم فهمها لحيثياته من وجهة نظرها حيث أنني مادمت غير عربية فلم أكن مضطرة من الناحية الجينية أن أختار تلك اللغة.

هكذا علمنا مع مرور سنيّ الطفولة المجد في أن نكون ما نحن عليه؛ أعترف بأنني لم أعِ أبدًا وعن يقين الجانب الجبري في دونية وضعي، وهي الدونية التي ذُكِّرْتُ بها بالكلمات ذاتها تقريبا بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما عندما عدت من تونس بعد فترة إنغماس داخل بلاد المغرب العربي طالت لمقتضيات كتاب كنت أعده، وكنت في طريقي إلى أيرلاندا بحثًا عن أجواء مختلفة للإستجمام؛ كان تعليق إحدى الصديقات الباريسيات ذات الانتساب لليسار السياسي الحر الأصيل وهي تضحك: « بعد تونس تذهبين إلى المتحضرين»؛ غمرتني عندئذ ذكرى غامضة مثل فورة من حمى، ورحت أقذف في وجهها بقرطاج وإسطنبول وغرناطة موضحةً لها أنه يبدو لي على العكس مما قالت، أني ذاهبة -وإذ أنا قادمة من حيث أتيت- إلى البرابرة، وليسامحني الإيرلانديون.

إندهاش لا ينقطع للحظة واحدة إزاء اليقين الواثق الذي يُؤَكِّدُ به -(وسوف أعود إلى هذا التعبير فيما بعد)- شرعية تفوقهم؛ إن هذا اليقين يبرز إلى العيان من خلال أعمالهم الأكثر تفاهة ومواقفهم العادية جدا. إنه يشكل هيكل حديثهم العام وسلطان الفكر وخطاب وسائل الاتصال الجماهيري، وهو في أعمق أغوار وعي الأفراد والمجاميع، وهو يبدو مكونا للهوية الجماعية لدرجة يمكن الحديث بشأنه عن

ثقافة حقيقية للتفوق، هي بمثابة القاعدة لهذا الكيان الذى يطلق عليه اليوم: " الغـرب" والتي مازالت تُشيَّد عليها علاقات الغرب مع الآخرين.

أىٌ من هذه الملحوظات لم يثر لدىّ، ولفترة طويلة، فكـرة أن أخصص لـهذه «الغرابة» كتابا؛ آمال الشباب المسطورة فى لب يوتوبيات مرحلة دالــت جعلتنــى أعتقد فى البداية أن البشرية تتجه بطريقة عشوائية -ولكنها أكيــدة- نحــو الخـير، ستترجم -ضمن أشكال أخرى- بالإقرار بنوع من المساواة الكلّية. ثــم خصصـت جزءاً من عملى لدراسة تطور العلاقات المتبادلة بين الكتلتين العالميتين المســماتين - لسهولة التعبير: الشمال والجنوب وذلك في مجالات محددة بوضوح، وهــو مــا كان يُعتبر بداية طريقتى فى معالجة المسألة التى تشغلنى، وإذا عملــت الآن علــى مواجهتها بشكل مباشر، فذلك لأن تعاظم التطورات المعاصرة والســرعة الكبـيرة التى تتوالى بها، ولأن الانتهاءِ من عملية العولمة التى بدأت -إذا نحن أردنا تــأريخ بدايتها بطريقة رمزية- بانطلاق سفن فاسكو دى جاما وكريستوفر كولومبس، كــل ذلك يجب أن يشكل فرصةً لطرح مسألة المكان الذى يحتلــه الغــرب فــى العــالم وعلاقاته مع الآخرين بطريقة جديدة.

إلا أن هذه المسألة لم تطرح للبحث بعد. يوجد بالتأكيد أدب غزيـــر يســتعير مجازاً تطور الحياة الحيوانية للتعبير عن رضاه أو قلقِه إزاء ارتقاء بعض المنــاطق من الكرة الأرضية؛ إلا أنه لا يوجد توقع إقتصادى واحد حتى الآن تمكــنّ مــن أن يطول اليقين المتأصل بكون الأمم الغربية مؤهلة شرعيًا للتأكيد علـــى إســتمرارية تفوقها؛ بعض كتابات أخرى تهتم بإمكانية إحلال هيمنة محل هيمنة أخرى مذكــرةً بأن الحضارات تموت أيضا؛ ولكنها وإن كانت تتشبه فى لهجتها لغة الإنذار، تبــدو كأنها عملية طرد للأرواح الشريرة، ولا تعنى أن فكرة نهايــة محتملة « لتغريــب» العالم أصبحت مقبولة اليوم؛ بل على العكس مــن ذلــك فــإن الهشاشــة الحاليــة للمجتمعات الغربية والمقاومة التي تبديها بعضٌ من قطاعاتها للفورات الناجمة عــن

عوذة الليبرالية /الرأسمالية بعد نصف قرن من الإشتراكية/ الديموقراطية والتشويش على نقاط المرجعية الناتج عن ظهور أرخبيلات من الفقر يجرى إدراكها على أنها تسلل من الجنوب فى قلب الشمال ذاته، يبدو أن كل ذلك جعل من تأكيدهم العنيد على الهيمنة أكثر ضرورة الآن من أى وقت مضى. حتى أن مجرد احتمال فقدان احتكارهم لإدارة شئون هذا العالم لا يدخل فى نطاق إدراكهم.

بعد أن ولّت موجة الحروب الاستعمارية العاتية وبعد أن صُفِيَت تمامًا الحركات المسكونية المؤيدة للعالم الثالث المحملة بعمليات تفجير الثورات بالوكالة، فإن كل شيء يجرى كما لو أن الغربيين يعيدون الوصال -على الرغم من كافة الإعلانات بالمبادئ وكل الفروق السياسية- مع فكرة إستحالة المساواة المطلقة الغير قابلة للنقاش بين البشر جميعا. لا أوقات الإزدهار ولا الهزات التى حدثت عبر العقود الأخيرة زعزعت -بشكل مستديم- الاقتناع العميق الذى يسيطر على وعيهم بتفوقهم، كما أن التساؤل عن هذا التفوق يدخل فى مجال ما لا يمكن حتى التفكير فيه، لدرجة أن مجرد احتمال فقدان احتكارهم تسيير شئون هذا العالم تتعدى حدود الفهم بالنسبة لهم.

تتعين السيطرة على السخط الذي تثيره هذه الثقة بالنفس حتى نضع كشفا يَجْرُد كل مكونات بنيانها ونحقق فى دوافعها ونحلل توابعها؛ ذلك لأن محورية الغرب، وبالتالي محورية ما يفعله وما يفكر فيه، هى التى تنظم العالم؛ إن التذكير بمصادر هذه الثقافة ومحاولة إدراك كيف تمكنت من التواصل فى ثبات حتى الآن، علما بأنها لا تتطور سوى على الهوامش فقط، ومتابعة عثراتها الأخيرة ومحاولة رصد كيف يمكن مساءلة النفوذ الغربى، عاملين فى ذات الوقت على تقييم مبررات الإيمان بصلابته، تلك هى الدروب التى يود هذا الكتاب الخوض فيها.

تقديراً منى لمخاطر هذا العمل، ترددت طويلا قبل إتخاذ قرارى. كنت أخشى، وأنا أفعل ذلك، أن أدخل فى تلك السلسلة التى لا تنتهى من النقد السهل

للغرب الذى يسمح مرة أخرى بالسكوت عن فظائع الآخرين؛ ذلك لأن هذه القطعة من العالم الذى يطلق عليها هذا الاسم لا تحتكر العنف وحدها، كما أنها لم تحتكر عبر التاريخ الفتوحات والهيمنة؛ دون الرجوع بعيدا فى الماضى نستطيع أن نقدم كشفا مطولا من المجازر والغبن والخداع والأعمال الوحشية التى تدين بالشىء الكثير لهيمنة أوروبا والولايات المتحدة على باقى أنحاء العالم؛ إننا نعرف كيف تحوّل مُضْطَهَدو الأمس، وبكل سهولة، إلى مستبدين، كما يوجد العديد من المعذبين فى الأرض الذين لا يحتاجون للخوض عبر المحيطات للعثور على المسئولين عن سوء مصيرهم. بعيدة عنى إذن فكرة تبرئة هؤلاء الذيين ينتمون إلى جنوب الكرة الأرضية ويرفضون تحمل جانبهم من مسئولية الإخفاقات التى عرفوها والطرق المسدودة التى تاهوا فيها.

ومع ذلك فإن هذه الإيضاحات لا تقلل من غرابة موقف الغرب: فإذا كانت الأمم التى تشكله هى بالفعل بعيدة عن أن تكون وحدها التى أسرفت عبر التاريخ فى اللجوء إلى إستخدام قانون الأقوى، فهي، في المقابل، الوحيدة التى أنتجت الآلية النظرية -فلسفية وأخلاقية وعلمية- لمشروعيتها؛ فيما عدا الحروب المسماة حروب دينية التى شنت رسميا باسم مختلف أشكال الوحى التوحيدى، فإن الشعوب الفاتحة الأخرى لم تشعر قط بالحاجة لإيجاد مبررات أخرى لأعمالها الحربية سوى البحث عن السلطة وعن مصالحها؛ أما الغرب، وقد دخل فى القرن السادس لهيمنته التى لا يزال يدفع بحدودها إلى الأمام، فهو يواصل تنقيح الأسس النظرية لتفوقه بأن يعيد ضبطها حسب التطورات الآنية.

فهو لايزال فى صراع مع تناقض يشكل بنيانه ذاته منذ أن دخل عصر الحداثة؛ فإذا كانت واقعة التفكير فى الكلّية ليست مقصورة على الغرب وحده، فهو وحده الذى أخرج الجدل بعيدا عن الحقل الدينى من أجل إقامة كلّية مدنية إستخلص منها مبدأ المساواة؛ وما أن فتح، بواسطة هذا التفكير المدنى غير الدينى، إمكانية

العمل على جعل هذه المبادئ قوانين حقة، راح منذ ذلك الحين يعمل على تحديد مجال تطبيقها.

مفارقة الغرب تكمُن فى ملكة إنتاج كليات ثم رفعها إلى مصاف المطلق، وفى خرقه المبادئ التى يستخلصها من ذلك بفكر منظم يثير الذهول، وفى أن يشعر بضرورة وضع التبريرات النظرية لهذه الخروق؛ إن السمة الكوكبية لهيمنَتِه والبناء الدائم والعنيد لتبريرها وتَشَكُّله عبر القرون فى صورة منظومة ثقافية متطورة تُستَدعَى فيها الكلية باستمرار: هذا بالطبع هو التفرد المزدوج للغرب الذى يستحق التوقف عنده.

ومع ذلك فما يشغلنى لا يتوقف عند هذا الحد: إن البحث فى الثقافة الغربية للتفوق، له وزنه بالقطع فى حد ذاته، ولكن ليس ذلك فقط، ولعلنى فى الغالب لم أكن لأنغمس فى هذا العمل الصعب لو لم يكن سيؤدى إلى طرح تساؤل جوهرى في رأيى: ما هى الظلال التى تخيم بها على بقية أنحاء العالم ؟ كيف تتعين قراءة الأحداث التى تجرى فيما يسمى بجنوب الكرة الأرضية والأيديولوجيات التى تتشكل فيه والخطب التى يُستَمع إليها هناك والمشاعر الفياضة التى تتلاطم على ساحته ؟ هل هى ردود الفعل على هيمنة مرفوضة بشكل لم يحدث قط من قبل ؟ أى، وبكلمات أخرى، ماهى المكانة الخاصة التى يجدر منحها لكل ظاهرة من ظواهر ردود الفعل والتعريفات الإنشائية داخل دراسة التطورات وحالات النقوص الجارية فى قارات الجنوب؟ وما هو الرأى في الحِدَّة التى تتسم بها عمليات الطرد المتبادل التى تقوم بها الأطراف غير المتكافئة للعلاقات العالمية الحالية ؟ هل يمكن رصد شيء جديد فى العلاقات التى يقيمها الغرب مع باقى أنحاء العالم أم هى فقط إعادة لما حدث من قبل؟ لا أدعى أنى سأجيب على كافة هذه الأسئلة؛ إنما يبدو لى بكل بساطة أنه من المفيد اليوم أن نطرحها.

سأقوم بذلك بأن أختار بعض حقول استكشافية داخل مادة هي أكثر ثراءً مـــن ان تعالج فى مجموعها الكلى، وبأن أرجع فى التاريخ أولا ثم بأن أســـائل علاقـات القوى العالمية الحالية لمحاولة استكشاف إن كانت التطورات الجارية تجدد الأســس التى تقوم عليها الهيمنة الغربية وتدعمها أم أنها تجعلها هشة وتبشر بنهايتـــها؛ ثـم أسائل بعد ذلك عددا من السلوكيات الغربية المعاصرة لأرى ما هى الأشكال التـــى تأخذها ثقافة الهيمنة تلك؛ وأحاول في النهاية أن أضع فى الحسبان ما هـــو بـاطنى داخلى للتقلصات التى تهز أسواق العالم الغربى؛ مثلها مثل العين غير القادرة علـى كشف الواقع في كليّته فإن النظرة التى يلقيها هذا الكتاب على العـــالم هـي نظـرة جزئية، وأنا أعرف ذلك، فهو يترك اجزاءً منه بالكامل فى الظلام كـــان سـيضعها آخرون تحت الأنوار؛ بعض أوجه الموضوع حظت بمعالجة تفصيليــــة قـد يجـد البعض أنها غير مبررة؛ إن طموحى الوحيد فى هذا الأمر هو أن أتحاشى أن أكـون منحازة وأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك.

توضيح أخير: ما هو الغرب بالنسبة لى أنا التى أعمل على تخصيص كتـــاب له؟ ألستُ -على الرغم من مسقط رأسى- منتج من منتجاته الحرة الخالصة، بما أن مدارسه ومفكريه هم الذين شكلوا وَعى ؟ ولنذهب إلى أبعد من ذلك: أليـس تدخلـه فى عالم أجدادى هو الذى حررنى، مثل كثيرين غـيرى، مــن الطغيــان الوهمـى للجماعة ليسبغ على صفات الفرد الحر -زيادةً ونقصاناً- الذى هو أنا ؟ ألم تُحَـــرِرْ حداثتُه البشريةَ من قبضة القدر لتُدخلها فى عصر الحريات الممكنة ؟ لما كنا غـــير قادرين على معرفة إن كان من المستطاع وجود طرق أخرى غير طريقه فلنســجل هذه الثورات باسمه؛ إلا أنها لا تساوى تصفيةً للحساب، لا للذين ســـمحوا بـها ولا لأعمال العنف التى صاحبتها والتى يريد بعضـــهم أن يـرى فيـها رفيقـات درب التاريـــخ المفروضة عليه والتى تمثل ضراوتـــها مُوَلّدَتَـــه الوحيـدة؛ إنـــى أعتقـد

بالأحرى أن قدرة الغرب اللانهائية على الفصل بين القول والعمل جعلت حداثتـــــه، لفترة طويلة من الزمن، غير مفهومة وغير شرعية في آن واحد بالنســـبة لـــهؤلاء الذين عَيّنهم بأنهم الآخرون حتى لو أنهم إستطاعوا على الرغم من ذلك؛ الاســـتفادة منه. واليوم وهو يعد وسائله لتجديد أسس تفوقه، فإن نماذج العنف التى يســـتخدمها لتفعيله والأحاديث التى لا يزال يرددها ليدعم بها تبريره لهـــا، تمثـــل فى نظـــرى -وبما يوازى عددها- عراقيل أمام إعادة صياغة تحمل مآسٍ أقـــل فـــى العلاقـــات العالمية.

هذا هو على كل حال ما ألاحظه من موقعى وأنا داخل وخارج الغرب فـــى آن واحد، أنا داخل مجاله، وأرفض أن أُخضِع فكرى -فهو يحمـــل ذكريـــاتٍ أخـــرى وتجاربَ أخرى أيضا- لغواية التبسيط التى تشكلها تجريداته؛ ولعل ذلك يرجع إلـــى أن القبيلة الجامعة لهؤلاء القادمين والقادمات من أرجاء عدة، والتى أنتمـــى إليـــها، تعرف أكثر من غيرها تقدير درجة تعقد الأمور، وأن هذا الانتمـــاء يحـــث علـــى الغوص فى المعانى المتعددة لهذا التعقيد.

ليس لأنى أؤمن حقيقةً بفضائـــل الكلمـــات أعالج بـــها مـــن يســـميهم إيمـــى سيزار« المنتصرين علينا والعارفين بكل شيء والسذج» مـــن مـــرض الأوتـــيزم (التوحد والإسترسال فى التخيل تهربًا من الواقع). وإخراج المهزومين من أحلامـــهم عن الجنات المفقودة؛ التى لا ينفكوا يراجعونها. وإنما لأنى مازلت أؤمن بالكلمـــات بما يكفى للاعتقاد أن التعبير عن الأشياء يساعد أحيانا على الابتعاد عن اليأس.

الجزء الأول

تشكيــل ثقافــة

— 1 —

مولد الغرب

لماذا كان لدى زميلاتي الفرنسيات في ليسيه جول- فيرّي في تونس وعي بتفوقهن بهذه الدرجة الطبيعية، معبرات بهذه الطريقة عن وفائهن اللاإرادي تجاه سلفهن الذي أخذت مدرستنا عنه إسمها ؟ من المعروف بالفعل أن مؤسس المدرسة الجمهورية (في فرنسا) كان من المدافعين المتحمسين عن العملية الاستعمارية باسم واجب « الأجناس العليا [...] في تثقيف الأجناس الدنيا وجعلها متحضرة» وأقنع معاصريه بأن فرنسا ــ لكي تبقى « بلدًا عظيمًا » يتعين عليها أن تحمل« حيثما أمكنها ذلك، لغتها وعاداتها وتقاليدها ورايتها وأسلحتها وعبقريتها[1]» . إلى أي نقطة يجب أن نعود عبر التاريخ الأوربي لنقف عندها على جذور يقينهم ثم نتتبع من هناك خط سيره ؟ كيف نفسر أنه ظل حيًا بعد كل تطورات الفكر الأوربي وأنه لم يواجه فيما يبدو بتحديات سوى عند الهوامش منذ أن سقطت الإمبراطوريات الاستعمارية ؟

بما أن الذاكرة تحتاج للتواريخ فلنختر عام 1492 سنةً تأسيسية وهي التي احتفل شاطئنا الأطلنطي بكل أبهة، مع بعض التساؤلات في عام 1992، بمرور خمسة قرون عليه؛ إن اكتشاف أمريكا وطرد اليهود والمسلمين من إسبانيا -حتى لو كان طرد هؤلاء لم يصل إلى غايته النهائية على شكل خروج كبير

1. خطاب جول فيري أمام مجلس النواب في 28 من يوليو 1885.

ونهائى سوى في عام 1609- يشكلان فى الواقع حدود الغرب الحديث الـــذى نـــراه يولد عند حافة القرن السادس عشر تحت شعار مزدوج هما الاستيلاء والطرد.

لا يعنى ذلك أنه لم يكن للغرب وجود قبل العصر الحديث. فعلى العكس مـــن ذلك ظل العالم الأوربى البحر متوسطى ينظم ذاته عبر العصور القديمة وما يســمى بالقرون الوسطى حول شرقه وغربه الذين يختلفان في حدودهما عـــن تلـــك التـــى حددت لهما اليوم؛ فلم تتوقف اليونان أبدًا عن أن تنهل من منابعها الشرقية وهى فـــى رحلة غزوها لغرب بعيد، بأن أقامت فى القرن السابع قبل الميلادى على شـــواطئ صقلية وكلابريا؛ بعد ذلك بعد 5 قرون لم يكن ليخطر على بال أحـــد فـــى العـــالم الرومانى أن يحدد موقع الشرق فى الشمال الإفريقى الذى كان إحدى قلاع الغـــرب الرومانى، وكان قد إنفصل عن شرقه فى عام 395. احتفظ الأول بلغتـــه اللاتينيـــة والآخر باليونانية؛ وكانت للأول الكنيســـة الكاثوليكيـــة والآخـــر الأورثوذوكســـية والديانات المسيحية المنشقة، ففى عالم لم يشكل البحر المتوسط بالنسبة لـــه أى حدود جغرافية وحيث التقسيم القارى بين أوروبا وآسيا وأفريقيـــا لا يعنـــى بالنســـبة لـــه الكثير، كانت تلك هى إذن خطوط التقسيم التى تشكل الفروق وترسم مناطق النفوذ.

لاشك أن مولد ثالث وآخر الديانات الإبراهيمية فى القـــرن الســـابع والغـــزو الإسلامى لجزء كبير من حوض البحر المتوسط غير كثيرا من أصول اللعبـــة؛ إلا أن التغيرات العميقة التى تسبب ذلك فيها لم تكن قد أعطت بعد للغرب والشرق ذلـــك الوجه الذى سيرتسمان به اعتبارا من القرن الســـادس عشـــر؛ لأن الإمبراطوريـــة البيزنطية ظلت على شرقيتها في إصرار وأقـــامت مـــع جيرانـــها الأمويين ثـــم العباسيين، أى الشرق علاقات أكثر وثوقا، من علاقاتـــها مـــع ممـــالك المســـيحية الغربية. أما البعد الغربى لإسلام العصور الوسطى، فلم يفكـــر أحـــد فى مناقشـــته -على المستوى التاريخى على الأقل من صقلية- التى ظلت عربية حتى الاســـتيلاء

علىَ بالرمو فى عام 1072 –إلى إسبانيا الأندلسية، تلك التى طال إحتضارها لثلاثة قرون لأنها عاشت كما عاشت– تَربّعَ الإسلام، (أو لنكون أدق تعبيرا: ذلك التفاعل الثقافى القائمة على أساس مثلث عربي–يهودي–مسلم[2]) لمدة طويلة على الغرب الأقصى لأوروبا؛ أضف إلى ذلك أن الحد الفاصل بين الإسلام والمسيحية لم يشكل الفاصل الدينى الوحيد فى القرون الوسطى الأوربية–البحر متوسطية، وان الإنفصال الداخلى فى المسيحية كان له أهمية تكاد تكون متساوية؛ وذلك يساعد على إدراك أن غرب تلك الأزمنة كانت له حدود متحركة مَنْطِقُها يبتعد عن ذلك الذى سيسدد فيما بعد داخل الوعى الغربى.

مولد أسطورة

هذا الغرب ـ الذى ولد عام 1492 من إنفصال من قطع للعلاقات مع رسم خرائط جغرافيا العصور الوسطى والذى راح بحركة واحدة يُقْص ويتملك، ويفرض جغرافيا جديدة ـ أقام أسس شرعيته على هذا المشروع المزدوج. ذلك لأن الإتحاد ـ الذى قد يكون وليد الصدفة من وجهة نظر الأحداث ولكنه غزير المعانى إذا قرأناه فى إطار الإمتداد الزمنى ـ بين إقصاء ذى طبيعة سياسية دينية وإكتشاف أعلنت عنه كل ديناميكية أوروبا القرن الخامس عشر، هذا الإتحاد هو أيضا مؤسس لأيديولوجيا. فبينما كان« الكونكويستادوريون» (الفاتحون الإسبان) يقومون بعمليات« تفريغ» لما حولوه إلى« عالم جديد» من سكانه، كانت إنتليجينسيا –وليُسمَح لنا بهذه المفارقة التاريخية– عصر النهضة تُؤلِّف خطابنا كلّيا يضفى المعاني على الإقصاء والإستيلاء –فى آن معاً–؛ وإذ هو يفعل ذلك كان يصنع تاريخا يشكل أيضا القاعدة الأساس للفكر الغربى.

---

2. قد يتعين علينا ـ لكى نكون أكثر دقة ـ أن نتحدث عن كيان بربرى–عربى–يهودي–مسلم لكيلا نصمت عن أصول الأسرتين المالكتين للمرابطين والموحدين.

إن أوروبا الحديثة التى لم يبدأ تصورها على ما هى عليه سوى عبر القرن السادس عشر، راحت فى البداية تخترع لنفسها سلسلة من الأساطير تقوم كل واحدة منها على موضوع معين؛ كافة الحضارات تشكلت بالطبع على أساس أساطيرَ مؤسسةٍ لها، ولكن على عكس الكوسموجونيات(*) العظمى المُنْشِئة للأنظمة، فإن أوروبا أقامت أنظمتها فى اللحظة التى كانت تعلن عن العقل كمرجعية؛ وهكذا بدأت بالنسبة للغربيين القراءة الإنتقائية للتاريخ، وهكذا بدأ الشرق يغير من خطوطه المحيطة لكى يختفى من فكر أوروبى حولته القرون التالية إلى نصوص فولكلورية.

لأن أسطورة حق الإمتياز الوحيد المؤسس لمرجعية المصدر الإغريقى-الرومانى بدأت تأثيرها منذ القرن الرابع عشر الذى قام بترارك وآخرون معه خلاله بتشكيلها فى صورة آلة طرد لا ترحم للمصادر الشرقية أو غير المسيحية للحضارة الأوربية. مُحيت التأثيرات البابيلونية والكلدانية والمصرية والهندية التى ارتوت منها بلاد الإغريق، بداية من الفلاسفة الذين سبقوا سقراط حتى آخر أحفاد الإسكندر؛ تم تجاهل الهيبة والشهرة الهائلة التى كانت دائما لمصر فى العالم الإغريقى الذى إعترف مثقفوه عن طيب خاطر بما يدينون به لعلومها وديانتها؛ تم التعتيم على البعد الجوهرى للفترة الهيلينستية التى هى تهجين بين الهيلينية وبلاد الشرق؛ أُسدل ستار الصمت على التعددية الثقافية للإمبراطورية الرومانية التى يعتبر البرابرة، بالنسبة لها، القوم القادمون من الشمال، وليس الشعوب-المألوفة لها- ساكنة الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط؛ وأخيرا سمحت الرغبة المتعنتة لمفكرى عصر النهضة فى أن يخترعوا لأنفسهم إنتسابا مباشرا مع أجدادهم الآثينيين، أن يتناسوا كيف أمكنهم إعادة إكتشاف ما خلفه لهم هؤلاء؛ فمع الترحيل الجسدى للإسلام من الأراضى السياسية لأوروبا الغربية تَواكب طردُ الفكر اليهودى المسلم من النطاق الفكرى الأوربى.

(*) دراسات أو نظريات في نشأة الكون.

ومع ذلك فإننا نعرف الدور الذى أدته إسبانيا اليهودية الإسلامية ليس فقط فى نقل الفلسفة الإغريقية بل فى إعادة تأويلها أيضاً؛ كما نعرف كيف اكتشفت أوروبا المسيحية، ابتداء من الإستيلاء على طليطلة عام 1085، خلال بضعة عقود جزءً كبيرا من الثقافة الفلسفية المتراكمة منذ عدة قرون على أرض الإسلام. يتعين علينا إعادة قراءة فلاسفة القرون الوسطى لكى نتذكر أن الفكر المسيحى ظل لمدة قرنين من الزمان على الأقل يماثل بين العرب ورجال الفكر؛ ويوجد أيضا ما هو أفضل من ذلك: فإذا كان عصر النهضة قد تمكن بمثل هذه السرعة من إعادة تواصل الخطوط التى تقطعت كثيرا مع النسب الإغريقى الذى تدعيه فذلك لأن الإسلام الغربى كان قد مهد لها المجال، وذلك بأن قام بمجهوذ هائل من العمل لتكييف الفلسفة الإغريقية مع ديانة التوحيد الإلهى[3]؛ ودون أن نعيد هنا كتابة تاريخ العقلانية المسلمة فى القرون الوسطى التى تؤسس الفصل -المؤسس للحداثة- بين اللاهوت والفلسفة والذى وصل إلى قمته فى فكر إبن رشد Averroès- أفرويس بالنسبة للاتين، الذى شرح دانتى[4]، فلن ننسى أنه مهد الطريق لعلمانية عصر النهضة. لم يعد يذكر شيء عن كل ما سبق، وذلك اعتبارا من القرن السادس عشر؛ وبفضل فلاسفة حركتها الإنسانية الذين صنعوا لها ماضيًا وهميًا فى جانب كبير منه

---

3. عن مشاركة العالم الإسلامى فى فلسفة القرون الوسطى راجع:

Alain De LIBERA, *Penser au Moyen Âge*, Seuil, Paris, 1991, et *La Philosophie médiévale*, PUF, Paris, 1993.

4. «*Averois che'l gran comento feo*» (*Enfer*, IV, 144).

فى مقدمته للطبعة الجديدة لإرنست رينان،

Ernest RENAN, *Averroès et l'averroïsme* (Maisonneuve et Larose, Paris, 1997),

يرى آلان دى ليبرا أن بوساطة إبن رشد يكتمل «تاريخ إمتد لعدة قرون» الخاص بنقل وتجديد الفلسفة والعلوم القديمة الذى بدأ فى القرن التاسع فى بغداد الخلفاء العباسيين والذى إستمر فى القرن الثانى عشر فى قرطبة تحت حكم الموحديين وإستمر فى بلاد المسيحية [...] إبن رشد هو حجر الزاوية للبناء الفكرى الذى سمح للفكر الأوروبى بتشييد هويته الفلسفية؛ إن علمه فى الطبيعة وعلم النفس والميتافيزيقا رسمت لأوروبا الصورة الأعلى للعقلانية المسماة اليوم غربية أو إغريقية.

وقرروا ما هى مكونات تراثها، إخترعت أوروبا لنفسها حدودا استُبْعَد إلى ما وراثها كل ما يفترض أنه ليس إغريقيًا رومانيًا أو مسيحيًا.

أوروبا التى تمخضت عن الفوران الهائل للعلوم والتقنيات والثقافة في القرون الأخيرة من العصور الوسطى، تلك العصور التى ظلت تعمل على الإنفصال عنها، أوروبا التى بدأت سياسيا بعصر الريكونكويستا (إعادة فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وإنتزاعها من يد المسلمين) وبدخول شرق القارة تحت السيطرة العثمانية والتى تطمح إلى الهيمنة على قارات جديدة، أوروبا نبذ الآخرين تلك، لا تتلخص فى بناء فكرى: فبعد طرد اليهود مما كان الأندلس[5] مرت إسبانيا في سنوات قليلة من الانغلاق الدينى إلى الإقصاء العنصرى بأن اخترعت فكرة « نقاء الدم» (*limpieza de sangre*)؛ إبتداءا من عام 1535 كان على كل شخص يريد أن يحصل فيها على عمل عام أن يثبت أنه لا يوجد فى أسرته عضو يهودى أو مسلم وذلك لمدة أربعة أجيال على الأقل[6]؛ لم يكن اعتناق الكاثوليكية للذين لم يفضلوا ترك شبه الجزيرة الإيبيرية يكفى لأن يجعل منهم مسيحيين، ومرجعية الدين تراجعت أمام فكرة ضاغطة جديدة هى نقاء الجنس؛ وكانت هذه الفكرة حاكمة لدرجة أن الالتزام القانونى بإثبات عدم تلوث النسب لم ينتهو سوى فى عام 1865 أى بعد قرنين ونصف بعد أن تطهرت إسبانيا من أى وجود إسلامى متخفى.

5. أستبعد فكرة أن أعتمد الأسطورة العربية عن الأندلس، هذه الجنة المفقودة التي سادها التسامح والتي عرفت كيف تتفتح فى ظل مآذن الجوامع؛ إن عصر الموحدين، بين عصور أخرى، لم يكن فترة رخاء لا للأقليات ولا لذوى الفكر الحر؛ هذا لم يمنع على العموم إسبانيا المسلمة من أن تكون ولعدة قرون أحد أهم المراكز الثقافية للقارة الأوربية وقطاعًا أقل قسوة بالنسبة للأقليات عما كانت عليه أوروبا المسيحية.

6. Rodrigo De ZAYAS, *Les Morisques et le racisme d'État*, la Différence, Paris, 1992.

المسيحية هى العِرق؛ هذا هو النسب المزدوج الذى إستُخدم كشــرعية لغــزو أمريكا؛ وليس هنا مجال إعادة كتابة تاريخ هذا الغزو ولكنه مجال إعادة التذكير بـأن الأوربيين قاموا –فى سعيهم لإنجاح عملية الاستيلاء على القارة– بأول إبادة جنــس بشرى في التاريخ؛ كلمات رهيبة لا يثير استخدامها على الرغم من ذلــك، لتعييــن المصير الذى آلت إليه الشعوب الهندية الأمريكية، أى تشكيك فيــه، ولكــن الجــدل يدور بالأحرى منذ عدة قرون حول معرفة ما إذا كانت هــذه الإبــادة مقصــودة أم حدثت بشىء من الصدفة؛ نصوص عديــدة تشــير إلــى إرادة الســيطرة دون أى مشاركة من السكان المهزومين وتصف عمليات العنف المرتبطة بــالتعطش غــير المسبوق لتحقيق الربح الذى واكب الغزو معظم هذه النصــوص تشــير إلــى روح الحروب الصليبية التى كانت تحرك الغزاة، فقد كانوا أكثر ميلا إلى فرض الصليــب بالنار بدلا من الإقناع.

هذه هى المصادر التى يرجع إليها المدافعون عن نظرية الإبادة البشرية وهــى وإن لم يتم التخطط لها فقد حدثت على الأقل فى رأيهم بشكل واعٍ ومســئول. أمــا أصحاب الفرض الآخر فهم يأكدون على البعد الذى يعتبرونــه حاســما فــى هــذه القضية وهو الزيادة الكبيرة فى أعداد الموتى بين السكان الهنود الأمريكييــن التــى حدثت بعد الغزو: فهم يرون أن أمراضا غير معروفة فى أمريكا حتى ذلك الحيــن وراجعة إلى التحركات الجماعية.للسكان كانت لها أضرار مدمرة وإلــى الــنزيف الذى أدت إليه احتياجات أعمال السخرة، تلك هى في رأيهم الأسباب الجوهرية لــهذا الزلزال الديموجرافى المدمر والذى لا ينكر أحد فى جميع الأحــوال إتســاع مــداه بشكل كبير جدا: ففيما لا يزيد عن ثلاثين عاما تم القضاء على ما بيـن 80% و90% من سكان جزر الأنتىّ الكبرى ومحى من الوجود بهذه الطريقة كافة سكان المنطقــة

الأصليين تقريبا اعتبارا من منتصف القرن السادس عشر، أما في القارة ذاتها فقد إنخفض عدد السكان الهنود المكسيكيين من 25 مليون نسمة عام 1519 إلى 1.9 مليون عام 1580 وسكان بيرو من 10 ملايين عام 1530 إلى 1.5 عام 1590؛ لقد احتاج الأمر إذن أقل من نصف قرن لإبادة ما بين نصف وثلاثة أرباع السكان الأصليين الذين كان يصل تعدادهم عشية الغزو ما بين 60 إلى 80 مليون نسمة حسب التقديرات[7].

مهما كانت دوافعه فإن أساليب الغزو أدت في زمن قصير للغاية إلى إفراغ القارة الأمريكية من السكان؛ هنا يكمُنْ الجانب الفريد والجديد في هذه المغامرة التي تختلف من هذه الوجهة عن الغزوات التي شكلت عبر الزمان كله المصادر العادية للتاريخ؛ ففي واقع الأمر إذا كانت المجازر تتخلل صفحات التاريخ لدرجة أن الغزاة كانوا يمتعون أنفسهم بمحو مدن بأكملها من الوجود بعد أن يكونوا قد أعملوا في سكانها تقتيلا، فإن هذه الحلقات الدامية التي عجلت لأكثر من مرة بسقوط ممالك أو في خراب منطقة ما والتي أدت إلى تباطؤ نمو السكان في العديد من أجزاء الكرة الأرضية، إلا أنها لم تأخذ أبدا هيئة كارثة سكانية عظمى؛ فمثل هذه الكوارث التي ضبطت هي أيضا إيقاع التاريخ كانت لها في الواقع أسباب مسماة طبيعية، تتراوح بين الكوارث المناخية مثل فترات الجفاف إلى الأوبئة طويلة الأمد ؟ ومنذ البداية أدرك معاصرو الغزو بالفعل جانبها الفريد هذا، ومازالت الذاكرة الأوربية تتردد فيها أصداء المجادلات بين المنادين باستعمار أقل قسوة للأمريكتين، لإنقاذ ما تبقى

7. هذه أرقام تشمل سكان جزر الكاريبي والقارة معا؛ أما بالنسبة للمكسيك وبيرو فقد قام بحسابها باحثو مدرسة بركلي (راجع:
(Sylvie BRUNEL, dir., *Tiers mondes, controverses et réalités*, Economica/Libertés sans frontières, Paris, 1987)

نشير أيضا بالنسبة للمؤلفات الفرنسية الخاصة بغزو وإستعمار أمريكا المسماة لاتينية:
Eduardo GALEANO, *Les Veines ouvertes de l'Amérique latine*, Plon, Paris, 1981; Carmen BERNARD et Serge GRUZINSKI, *Histoire du Nouveau Monde. De la découverte à la conquête*, Fayard, Paris, 1991; Ignace BERTEN et René LUNEAU, *Les Rendez-vous de Saint-Domingue. Les enjeux d'un anniversaire 1492-1992*, Centurion, Paris, 1991.

فيها من سكان، والغزاة غير الأبهين بالثمن الباهظ الذى يكلفه إحتلالهم من أرواح بشرية، وهو الإحتلال الذى ارجعوا شرعيته بالمناسبة إلى ما أثير من إتسام الهنود بصفات بشرية دنيا.

هنا بيت القصيد! عدم إنتماء الهنود للمسيحية، لم يكن كافيا حقا فى تبرير القضاء عليهم -مادام كان من الممكن ادخالهم فيها- كما لم تكف قسوة المحتلين -بعد ما تم إعتناقهم للمسيحية- فإن المفكرين والعلماء إهتموا بوضع الأسس التى تقوم عليها شرعية حق الحياة والموت الذى منحه الأسياد الجُدد لأنفسهم على السكان الأصليين؛ من المؤكد أن غالبية الشعوب تميل إلى تعيين أنفسها بواسطة آلهتها على أنها أفضل إنسانيا من جيرانها وإلى رفع شعار هذا الإختيار لتبرر به عمليات السلب والنهب التى تمارسها، ولذا قد لا نرى فى الموقف الأوربى سوى شكل جديد من معتقد عادى للغاية.

غير أن فى هذه الفترة بالذات بدأ الخطاب الأوربى يعرج إلى درب فريد إذ راح يفرز أيديولوجيا للسيطرة مرتكزا فى ذلك على منتجات الفكر. فعلى الرغم من الوفرة الكبيرة فى المناطق التى تعتنق الديانات الموحدة بالله فى العالم للجيوش التى تعمل على طبع مغامراتها الحربية بصفات القداسة -من « إنها إرادة الرب» كما أسماها الصليبيون وهم يغرقون القدس فى بحور من الدماء، إلى صيحة« الله أكبر» التى أطلقها الفرسان العرب فى سباقهم المنتصر من الخليج إلى المحيط الأطلنطى، فإن الحجة الدينية الغادية لم تعد تكفى لتبرير إتساع مدى النهب[8] ولا القسوة التى إتسمت بها الهيمنة. لذلك أردفوا بها حجة تفوق الغازى، وإسبانيا التى كانت قد

---

8. منذ القرن السادس عشر إزدادت فى إسبانيا صعوبة تبرير أعمال العنف المتناهى التى يقوم بها الغزاة؛ أقر فرنشيسكو دى فيتوريا (1486-1546) فى كتابه *الدرس الأول عن الهنود*«أنه من غير المسموح به أن نرفض للذين لم يرتكبوا قط أى عمل غير عادل ما نمنحه للمسلمين واليهود الذين هم الأعداء الدائمين للمسيحية؛ فإننا نقر بالفعل لهؤلاء بسلطان حقيقى على ممتلكاتهم». (فى : Ruggiero ROMANO, *les Mécanismes de la conquête coloniale: les conquistadores*, Flammarion, Paris, 1972).

دعمت وجودها التوطنى بفكرة نقاء الدم راحت تقيم شرعية إمبراطوريتـــها علـــى فكرة التفوق العنصرى، وسارت أوروبا وراءها على ذات الدرب.

هل يتعين أن نرى فى هذا الانزلاق ضمن المرجعيـــة الدينيـــة إلـــى اللهجـــة العنصرية أحد الآثار التى تخلفت عن التباعد المتزايد فى علاقـــات النســـب بيـــن الدوائر الدينية والمدنية غير الدينية التى تزايد ظهورها إبتداءً من القـــرن الســـادس عشر؟ المهم هو أن الأمر لم يعد بالنسبة للأوربيين أن يجعلوا من أنفسهم ناشـــرين للحق الموحى به، بقدر ما أن يؤسسوا حقهم فى الهيمنة على تبريرهم لـــه. يقـــاس تعميم هذا التطور بواقعة أن مروجي النظرية الوليدة للتفوق العنصـــرى هـــم مـــن رجال الكنيسة الأكثر شهرة في ذلك العصر: فقد جعل خوان دى ســـيبولفيدا، (مـــن نفسه الرسول المنادى بالحق « الطبيعى» للهيمنة وظل شهيرا بســـبب أدائـــه لـــدور الشرير في وجه المدافع عن الهنود بارتولومى دى لاس كازاس):« وسيظل دائمـــا من العدل كما أنه يطابق الحق الطبيعى أن ينصاع هؤلاء الناس (« الأمم البربريـــة واللاإنسانية») لهيمنة أمراء وأمم أكثر ثقافة وإنسانية. [...] وإن هم رفضوا هـــذه الهيمنة فمن الممكن فرضها عليهم بالسلاح وتصبح هذه الحرب عادلة على أســـاس ما ينص عليه الحق الطبيعي. [...] وفي الخلاصة : إنه من العدل ومـــن الطبيعـــى وطبقا للحق الطبيعي أن يسيطر الرجال الأمناء والأذكياء وذوو الصفات الإنســـانية على كل من لا يتصفون بتلك الفضائل[9]» وإذا كان الجانب الإلهى غير غائب تمامـــاً من محاجة سيبولفيدا فقد استعين به لمجرد الدعم: « ويعتبر هـــذا عـــدلاً ونفعـــا أن يكونوا من العبيد ونرى ذلك مدعما بالقانون الإلهى ذاته، فقد جاء في سفر الأمثـــال: «سيخدم الأحمقُ العاقل»[10].

9. Juan De SEPULVEDA, *Dialogum de justis belli causis* (in Ruggiero ROMANO, *les Mécanismes..., op. cit*).

10. *Ibid.*

المدافعون عن الهنود يدفعون من جهتهم بإنسانية هؤلاء ولكن دون أن يدحضوا تماما هذه الهيراركية التى صنف بها أفراد الجنس البشرى. الواقع أن الكاردينال لاس كازاس يعبر بطريقة ما عن النسخة ذات النزعة الإنسانية للنظرية، وذلك بالمعنى الذى تُصبَغ به هذه الصفة فى القرن العشرين:« لا توجد أمم فى العالم ومهما كانت فظة وجاهلة ومتوحشة وبربرية وجلفة وقاسية وتكاد تكون بلهاء، لا يمكن إقناعها وقيادتها بالسير بها نحو النظام والحضارة [...] إذا استعين لذلك بالمهارة والكفاءة. [...] ذلك لأن الجنس البشرى واحد [...] ولا يولد أحد متعلما، ولذا نحتاج كلنا فى البداية أن يقودنا ويساعدنا آخرون ولدوا قبلنا فعندما نجد شعوبا فى العالم على درجة عالية من التوحش، فهم مثل الأراضى البور التى تدر بسهولة العشب الضار والشوك ولكنها تحتوى فى ذاتها كمًّا هائلاً من الفضائل الطبيعية، فإذا ما عالجناها واعتنينا بها غلّت الفواكه الصالحة للإستهلاك صحية ومفيدة[11] ...»

هذه هى أول نسخة من الحديث عن الوزر الذى يُثقِل كاهل الرجل الأبيض وهى التى يوردها لنا رجل الدين الطيب هذا، وقد ازدهرت كثيرا بين دارسى اللاهوت فى القرن السادس عشر تلك الفكرة التى تعتبر الهندى إنسانًا لم يتعد مرحلة الطفولة، وهكذا رفع مناصرو الأسلوب العنيف وخصومهم -كل على طريقته- الأوروبيين إلى قمة سلم الحضارات، لا بالرجوع إلى اختيار إلهى وإنما إلى تفوق يمنحهم حقا طبيعيا فى الهيمنة على الآخرين.

11. Bartolomé DE LAS CASAS, *Apologetica Historia* (in Ruggiero ROMANO, *Les Mécanismes...,op. cit.*).

أفريقيا تُستنزَف

ولكننا نعرف أن خطب لاس كازاس وصلت متأخرة للغاية للحيلولة دون إفراغ أمريكا من سكانها، وبدأت السواعد تندر فى مستعمرات المملكتين الأيبيريتين وفى جزر الكاريبى حيث عمَّ إقتصاد المزارع الشاسعة؛ كما نعرف أيضا أن المستعمرين ذهبوا إلى أفريقيا للبحث عن الأيدى العاملة التى يحتاجونها، فمنذ منتصف القرن الرابع عشر كانت بعض شحنات العبيد الأفريقية قد أخذت طريقها إلى أوروبا ولكن أول عملية نقل مباشرة من أفريقيا فى إتجاه جزر الأنتيى ترجع إلى عام 1518 مفتتحة تجارة سترجع إليها ولمدة أربعة قرون الثروات التى ستزدهر بها أوروبا والأمريكتان.

مهما اشتد التباين -كما هو الحال بالنسبة لأمريكا- فيما يخص أعداد الإفريقيين الذين رُحّلوا من ديارهم فلا أحد يجادل فى أن تجارة الرقيق كانت أحد الأسباب الأساسية لدوام إفتقار القارة الأفريقية للسكان حتى منتصف القرن العشرين؛ ذلك لأن« إذا كان الرق من نصيب كافة المجتمعات البشرية فى وقت ما من تاريخها فلا توجد قارة أخرى عرفت عبر هذه الفترة الممتدة (من القرن السابع حتى التاسع عشر) مثل هذا النزيف المستمر والمنظم[12] ».

من المؤكد أن أوروبا لم تكن وحدها المسئولة عن هذه العمليات الترحيلية والواسعة للسكان إذ أن العالم العربى كان قد سبقها بعدة قرون فى ممارسة هذه التجارة وواصلها حتى نهاية القرن التاسع عشر وهو يعد مسئولا، خلال المدة التى طال أمدها حوالى الاثنى عشر قرنا، عن نحو 40% من مجموع التراحيل، ذلك

12 .Elikia M'Bokolo, *Afrique noire, histoire et civilisations*, tome I, Hatier-AUPELFUREF, Paris, 1995.

بجمع ما قام به العرب وحدهم وما تعاونوا فيه مع البانطو [13]؛ إن الصمت الذى يلزمه العرب المعاصرون حول تجارتهم التى يتم التستر عليها بطريقة شبه منظمة أو بالتقليل من أبعادها بطريقة مفضوحة فى أفضل الحالات، هذا الصمت لن يسدل ستار النسيان، على أن ذلك كان واقعا رئيسيا ومتكررا عبر تاريخهم. الأحاديث الفاضلة عما كان يكنّه النبى محمد من عطف على الزنوج[14] وانبهار الرحالة العرب فى القرون الوسطى بالفخامة والثراء الذين اتسمت بها القصور الإمبريالية السودانية والساحلية لايمكن أن تحجب أيضا الازدراء الذى عبر عنه جزء ضخم من الأدب العربى إزاء الزنوج بالإضافة إلى تعبيرات الحديث الشعبى عنهم: إن استمرارية الخطاب التحقيرى لهم يشهد على أن تقنين تجارة الرقيق على يد رجال الدين -كما هو الحال بالنسبة لأوروبا (فالإسلام يعطى للمسلمين الحق فى إستعباد الوثنيين)- سرعان ما بدا غير كاف لتبرير مثل هذه العمليات الضخمة؛ ومنذ القرن العاشر بدأ المفكرون فى النهل من المعين الذى أصبح بعد ذلك لا ينضب أبدًا -وهو مبدأ بدائية الجنس الأسود- لكى يبرروا استعباده[15].

---

13. النزاع حول الأرقام الخاصة بعمليات تجارة الرقيق المختلفة لن تنتهى قط، بسبب صعوبة التقييم الدقيق على فترة بلغت هذا الإمتداد لعمليات ترحيل السكان نحو جهات متعددة للغاية؛ فلقد قام عشرات المؤرخين وأكثرهم متأثرين بنزعاتهم السياسية والأيديولوجية بعمليات حسابية متعددة ؛ فبالنسبة للتجارة عبر الأطلنطى فإن أرقام العبيد الذين وصلوا بالفعل إلى أمريكا تتراوح بين عشرة ملايين (الفرض الأدنى الذى يقدمه كورتن عام 1969) إلى نحو ستة عشر مليونا، ويتعين إضافة ما فقد فى البحار والذى يقدره المؤرخون بما يتراوح بين 10% و20% من الأعداد التى وصلت إلى السو؛ أما بالنسبة للتجارة عبر الصحراء الكبرى والتى إمتدت لفترة طالت عن ذلك بكثير فقد رحّلت ما بين 6 و9 ملايين نسمة؛ وأخيرا بالنسبة لتجارة الرقيق عبر المحيط الهندى والتى قام بها تجار عرب-بانطو وأوزيون بنغال وفرنسيون بشكل خاص فينسب لها ترحيل نحو 5 ملايين افريقى؛ لمراجعة أدق يمكن الإعتماد على دراسة إليكيا إمبوكولو صاحب المرجع المذكور سابقا.

14. بلال الأسود كان ـــ حسبما تقول الرواية ـــ من أول من تحولوا إلى الإسلام؛ كما أن مجموعة من المسلمين المكيين وقد تعرضوا للإضطهاد لجأوا إلى إثيوبيا عند النجاشى وذلك قبل الهجرة إلى المدينة.

15. تحقير الزنجى أحد المواضيع المتكررة فى الأدب العربى منذ القرن العاشر حيث إتسم الزنجى عند المسعودى (896-956) مثلا« بالتشكيل غير الكامل لمخه، مما ترتب عليه ضعف ذكاءه» راجع:
(AL MASUDI, *les Prairies d'Or*, cité par Elikia M'BOKOLO, *op. cit.*).

غير أن تجارة الرقيق الأوروبية تتسم مع ذلك ببعض الصفات الخاصة، إذ أن طول أمد التجارة العربية المثير للدهشة يفسره جزئيا في الواقع أن المجتمعات العربية والعربية العثمانية والعربية البربرية ظلت استعبادية حتى القرن العشرين، بل إن بعض أشكال الرق مازالت حتى اليوم مستمرة بشكل أو بآخر في بعض منها إلا أن العبودية كانت فى طريقها إلى الإنتهاء فى أوروبا الغربية فى نهاية العصور الوسطى وهى لم تستمر حينذاك سوى فى بعض المناطق المطلة على البحر المتوسط، قبل أن يعيدها البرتغاليون إلى الوجود اعتبارا من منتصف القرن الرابع عشر لكى يأمنوا -بفضل ما جلبوه من يد عاملة مستعبدة أفريقية- إزدهار الزراعة فى ماديرا وجزر الكناريا والأزور.

أحيا التجار والمستعمرون فى الممتلكات الأوروبية الجديدة نظامًا كان يحتضر فى أوروبا ذاتها -باستيرادهم المكثف «للأبانوس» الأفريقى إلى الأمريكتين-؛ هكذا بدأت، تلبيةً لاحتياجات الاقتصاد الاستعمارى، الممارسة التى عرفت بعد ذلك مستقبلا باهرا، القائمة على الفصل بين توأمة المنطق الإقتصادى وقواعد القانون الذى ينظم الحياة فى المستعمرات وتلك السائدة فى البلاد الأم. فى ذات الوقت الذى كانت تختفى فيه الأشكال الاقتصادية القائمة على اللجوء إلى اليد العاملة المستعبدة كانت هذه الأيدى نفسها تؤمن لأمد طويل ازدهار ممتلكات عبر البحار، أى لأوروبا ذاتها. الواقع ان ما من أمة واحدة من أممها لم تقم-فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر- بمزاولة تجارة مثلثة الأضلاع ساهمت فى تكوين ثروات مصنوعاتها وموانيها المطلة على الأطلنطى.

ذلك لأن السمة الأخرى للتميز الأوروبى فيما يتعلق بتجارة الرقيق تكمن فى ضخامة العمليات التجارية التى تتولد عنها، وهو ما يفسر أهميتها الحاسمة بالنسبة للسياسات الاقتصادية التى كانت تمارسها؛ ولا يقلل من ضخامة التجارة العربية

للرقيق تأكيدنا على الفرق فى الحجم بين التجارتين، لأن دمجها فى فترة أقصر -أى فى أربعة قرون مقابل إثنى عشر- وممارستها على وتيرة أسرع وبحجم أكبر من التجارة عبر الصحراء الكبرى إذ أنها انتزعت من أفريقيا السوداء ما يقرب من الضعف فى فترة زمنية أقصر ثلاث مرات، قامت التجارة الأوروبية بإحداث تدمير واضح للعيان وأكثر تأثيرا على المناطق الرئيسية من القارة التي مورست فيها هذه التجارة للرقيق.

وكما حدث فى أمريكا، شكّل وصول الأوروبيين إلى أفريقيا بداية مرحلة طويلة من التدهور السكانى، إذ انخفض عدد السكان من 20% من سكان العالم عام 1650 إلى 10% بعد ذلك بقرن ونصف وذلك طبقا لأكثر التقديرات مصداقية عن الديموجرافيا التاريخية. إذا اعتبرنا مع إيمى سيزار أن « وضع الحضارات المختلفة معا هو شيء جيد، فإن تزويج العوالم المختلفة هو الإمتياز ذاته»[16]، فيتعين علينا فى الوقت نفسه أن نقر معه بأن كل شيء يعتمد من ناحية أخرى على طبيعة الاتصال: فقد نزلت الكوارث الديموجرافية التى لم يسبق لها مثيل -فيما عدا تلك التى تسببت فيها الكوارث الطبيعية الضخمة- على الشعوب التى راحت تتعرف إبتداءً من القرن الخامس عشر على الغزاة والتجار الأوروبيين؛ بالنسبة لأمريكا وأفريقيا كان الإتصال باوروبا عصر النهضة بداية فترة مميتة مازالت الآثار المترتبة عليها حية إلى عصرنا هذا.

أما بالنسبة لتبريرات إخضاع الزنوج للرق فقد كانت معدة سلفا فى واقع الأمر عندما أخذت هذه التجارة أبعادا واسعة وكانت حججها الأساسية قد تمت تجربتها -إذا صح التعبير- على الهنود. شروط التجارة وحدها -والتى إعتبرت لا إنسانية لعديد من مفكرى العصر- هى التى كانت تشكل لهم مشكلة، أما الرق ذاته،

16 .Aimé CÉSAIRE, *Discours sur le colonialisme*, Présence africaine, Paris, 1995.

فقد ساعد على التسليم به أنه مسموح به صراحة في التوراة كما أن الأناجيل شرّعته، مع نصوص تأسيسية أخرى كرسالة القديس بولس إلى فليمون، وحثت عليه سلسلة من المستندات الموقعة من البابا صدرت إبتداءً من منتصف القرن الخامس عشر.

وكما لم يكن اللجوء إلى تبرير المصير الذى تحدد للهنود بإرجاعه إلى السجل الدينى كافيا فهو لم يكف أيضا لإقامة القاعدة الأيديولوجية لإسترقاق الأفارقة، فبإنكارهم أى جانب إنسانى فى بشرية السود وهو ما كانوا قد سلموا به للهندى، أوجد اللاهوتيون المدافعون عن الشعوب الهندية الأمريكية من جهة أخرى تناقضا كان عليهم أن يحلّوه.

بزغ عندئذ خطاب مناهض للزنوج تخصيصًا؛ وأخذ مصادره من مرجعية الأسطورة التوراتية الخاصة بلعنة أبناء حام ومن بدائية الزنجى والتى تلتقى مع نظرية الحق الطبيعى للمسيطر على المسيطر عليه. هكذا وضعت علامات طريق مناهضة الزنوج وذلك منذ القرن السادس عشر، وزادت تنقيحًا عبر القرون التالية مع تعاظم تجارة الرق حتى تولد عنها سجل محاجى متطور فى تركيباته عن دونية الجنس الأسود، تراجعت فيه الحجة الدينية بشكل متصاعد أمام الخطاب العلمى الذى انتصر ابتداءً من القرن الثامن عشر.

هذا هو أيضا القرن المؤسس للفكر الأوروبى الحديث الذى أطلقت عليه أوروبا اسم عصر النهضة، وبهذا الميلاد الجديد تنكرت وبشكل قاطع لما زودتها به مرحلة زمنية سابقة، اعتبرت بصورة أو أخرى عصرا من الظلمات. لعل هذا هو ما كان عليه الأمر فى الأساس، ذلك لأنه إذا بدت "النهضة" فى أوروبا ذاتها لحظة حضارة مزجت فى عملية تفاعلية ناجحة الإبداع الفكرى مع الإبداع الجمالى، وإذا كان الإحتفاء بها على أنها قرن الشعراء والفنانين والعلماء، فأوروبا تلك راحت

تُحرّر العالم الذى اكتشفته ولتحقيق ذلك حولت المقولة التاريخية عن مبررات مـــن هو أكثرة قوة، إلى نظرية علمية؛ ولنحاول تلخيص حركة هذه المرحلة الافتتاحية.

إنها تؤسس بدايةَ زمن العولمة، وبمعنى أكثر دقة عصـــر اســتيلاء أوروبــا الغربية على العالم وعصر الاعتماد المتبادل لكل أجزائه لتلبية حاجــات ســيطرتها عليه. الأراضى المجهولة -يعنى غير المعروفة للأوروبيين- راحــت مســاحاتها تتناقص على خرائط تزداد دقةً وذلك بفعل توسع إقليمى وتجارى غير مسبوق فـــى تاريخ البشر. أوروبا -التى تقول عن نفسها انها « العجوز » منذ أن أقنعــت نفســها بأن حضارتها سابقة ومنذ أن ضمت لها عوالم « جديدة» - راحت ترنو إلى ما هــو أبعد من حوض البحر المتوسط والمنطقة المحيطة به التى ظلت لفترة طويلة جـــدا أفقها الوحيد. إكتشفت وجود شعوب أخرى لم تكن قد سمعت عنـــها قـــط وهـــى إذ تكتشفها أخذت تخضعها وتستعبدها.

في ذات الوقت الذي إتسع فيه أفقها ليشمل كل أبعاد العالم والذى أخذت تعـــى فيه التنوع العجيب للبشرية التى هى أقل تجانسًا مما تصورته، راحت تقلص إقليـــم الجنس البشرى ليأخذ حجم حدودها هى فقط، منذ أن أقامت هويتها على رفض كـــل ما يشوه الصورة التى أرادتها لذاتها، وبعد أن اخترعت لنفسها تاريخًا استبعدت منــه ما اعتقدت أنه الشرق وبعد ان طردت هذا الأخير من مجالها الجغرافى والتــاريخى والفلسفى، هذه الأوروبا الجديدة تماما -التى ولدت بعد « ليل طويل» من العصـــور الوسطى- أعلنت نفسها الوريث الوحيد لمجمل الصفات البشـــرية، أمـــا الأجنـــاس البشرية الأخرى -(أخذت كلمة جنس معناها الحالى إعتبارا مـــن القـــرن الســـابع عشر)- فأفضل ما ورثته هو جزءٌ منها فقط. هذا الامتياز، لـــم يعـــد الأوربيـــون يحصلون عليه من الرب وحده، وإنما من التاريخ والطبيعة أيضا التى جعلتهم أكـــثر إنسانية من الآخرين.

لن ننسى بكل تأكيد أن اصطفاء الأوربيين لأنفسهم على أنهم أصحاب الصفة البشرية الكاملة قد سمح لهم فى البداية بأن ينهبوا بكل راحة بال كل من ليسوا كذلك، وأن يندفعوا فى عملية استغلال اقتصادى ذات أبعاد ووسائل لم تكن معروفة من قبل، وهى العملية التى أقامت عليها أوروبا ثروتها الحديثة والتى جعلت منها خلال بضعة قرون أكثر المناطق ثراءً على الكرة الأرضية. هل يتعين أن نَخلُصَ من ذلك فى المجموع إلى أنها إكتفت بأن سَنّت لنفسها الوسائل الأيديولوجية لهيمنتها ؟ يمكننا أن نتساءل دون أن تقوم بكتابة تاريخ يكرر ذاته -مستخدمين تعبيرات تساؤلاتنا المعاصرة- لماذا يبدو أنها لم تنطلق فى مغامرة العولمة سوى بعد أن سدت أمام فكرها سبل الوصول إلى الكلى الكونى بأن ألقت بكل ما لم تتمكن من التعرف على ذاتها فيه إلى غياهب خارجية ؟ هل كوَّن إنكارُ إنسانية الآخر وتشكيلُ الهوية المغلقة، الجانبَ الأيديولوجى الضرورى لهذه المغامرة ، أم أنهما يتعديان مقتضيات الهيمنة ؟ لقد شكل هذا الإنكار وهذا التشكيل بسرعة كبيرة على العموم دافعا رئيسيا لتشكيل الهوية الأوروبية المعاصرة وتشكيل ثقافة التفوق التى تقوم عليها.

- 2 -

الواضح ـ الغامض فى عصر التنوير

ثم جاء التنوير لحسن الحظ؛ وإذ هو يبتدع الإنسان الكلى ويزود هذا التجريد القانونى للحقوق الثابتة، فهو يغفر لأوروبا أعمالها الإجرامية السابقة وجرائمها اللاحقة، وأنا لا أعمل على تبسيط فكر ساد -من بريطانيى القرن السابع عشر وفرنسيى القرن الثامن عشر- مرحلة كانت ثرية للغاية به تُطرح فيها التساؤلات المجدِّدة بكثرة، فكر طرح أسئلة جوهرية بالنسبة للبشرية ذاتها، وأنا أحفظ فى ذاكرتى الحملات العظيمة التى شنها لنا مونتسكيو وراسين على خطأ العنصرية، وتلك التى ندين بها لفولتير، والذى ظل، على الرغم من بياناته، كارهاً لليهود عن إقتناع كما كان من مناهضى الزنوج أحيانا.

أوروبا تلك كانت أول من فكر فى التفوق المطلق للفرد وحريته على المتطلبات الجماعية وجعلت من هذا الفرد الأفق البعيد لكل شىء وسمحت، بواسطة التقديس ذلك، بالمولد الهادئ للأيديولوجية العلمانية لحقوق الإنسان[1]، ومع ذلك اتسم هذا القرن بالتناقض، فقد سمحت الأدوات التى شكلها - سواء فى وقته أو فيما بعد- فى تبرير الأسوأ وخدمة الأفضل معاً فى آن واحد.

1. سأعود لهذه التسمية التى لم تكن محايدة قط فى يوم من الأيام والتى سرعان ما جعلت من نفسها أداة لتحجيم هذا الكلى وإن كانت هى التى أعلنت فى البداية عن مولده.

السؤال هو أن نعرف إن كان التنوير توقع أو يُشكّل تمزقًا فى نسيج تاريخ علاقات الغرب بالآخرين أم أنه، على العكس من ذلك، كان اللحظة التأسيسية الأخرى لثقافة التفوق التى أعمل على تحديد خط مسارها، هل يتعين علينا -فى حالة لو أننا ملنا للأخذ بالفرض الأخير- إعتبار الجرائم التى أقتُرِفَت ضد الآخر فى القرون التالية من خلفائه الشرعيين ؟ هل يتلخص التاريخ منذ القرن التاسع عشر -بتعبير آخر- فى صراع يتجدد أبدًا بين المدافعين عن التنوير -وهم الذين استخرجوا منه حججهم فى نضالهم من أجل الحريات- وخصومهم الذين وقفوا بالمرصاد ضد المبادئ التى عبر عنها ؟ أم أن هذا الفكر يحمل أيضا، مثلما تحمل السحبُ العاصفةَ، الفظائع التى تلت، بالعمل -ما أن تمت صياغة الكلّى- على تعيين حدودها لكى يجعل من أوروبا حاملة هذا الفكر والمحافظة عليه وحدها ؟ فى جميع الأحوال فإن أوروبا -وقد تزودت بهذا الحمل الجديد- واصلت توسعها الذى بدأته فى القرون السابقة فى صور متجددة، وكما فعل عصر النهضة بأن ابتدع الغرب الذى جعل منه الأوروبيون فيما بعد موطنهم العقلى، فإن الغرب المعاصر قام بتحويل تركيبات التنوير على هيئة قصة تعليمية موضوعة لخدمة ضميرها الحى.

ومع ذلك فمنذ أن بدأ عصر التنوير وهو يحمل علامة ازدواج المعانى الذى طبع به وجهه المظلم. لاشك أن المفكرين أصبحوا منذ ذلك الحين يجعلون البشر يولودون أحرارًا ومتساوين تطبيقا لقانون طبيعى واحد متماثل بالنسبة للجميع، وهو لم يَعُد يستخدم فى تأكيد التفوق وإنما فى تأسيس المساواة بين الجميع، ومع ذلك فمنذ بَدْأ تطبيقه فى أعمال سياسية فإن النطق بهذا المبدأ لا يعنى ضمان احترامه من أولئك الذين نادوا به، وكثيرا ما كان الغرب يعمل -وهو ينادى بالتنوير- عَبْر القرن الذى تلاه، على خرق هذه المبادئ بشكل واسع وبشكل منظم يثير الإعجاب !

عن أمريكا والرق

وجد هذا التناقض الظاهرى منذ القرن الثامن عشر مجالا للتعبير عـــن نفســه وذلك فى مولد الإنسان الجديد فوق هذه الأرض الموعودة المتمثلة فى المســتعمرات الأمريكية للتاج البريطانى؛ فكما هو معروف، أراد الرجـــال الذيــن حرروهــا أن يجعلوا منها قلعة متقدمة للتنوير والقانون؛ هناك، بعيدا عـــن أوروبـا وإســتبدادها المتهالك، جاء فى إعلان استقلال الولايات المتحدة عام 1776:« إننا نعتبر الحقــائق التالية بيّنات فى ذاتها: جميع الرجال خلقوا متساوين، منحهم الخالق بعض الحقــوق الثابتة. من هذه الحقوق يوجد الحق فى الحياة والحرية والبحث عن السعادة.»

كرر واضعو الدستور هذا الإعلان بالمبادئ فى نـــص تأســيس الجمهوريــة الأمريكية فى ذات الوقت الذى تنشط فيه فوق الأراضى التى تحررت من الوصايــة الإنجليزية عملية رق لا تشكل لهم أى مشكلة. المواجهات بيـــن مندوبـــى ولايـــات الشمال والجنوب إلى الجمعية التأسيسية المكلّفة فى عام 1787 بوضع دستور أمـــة أسماها توماس جيفرسون« آخر وأجمل أمل للإنسانية» لم يكن لها سوى سبب واحد هو تجارة الرقيق والذى توصل الأولون إلى تحريمها عام 1808. قضية اليد العاملــة المستعبدة التى إستقرت بالفعل على الأرض الأمريكية لم تكن موضوع نقــاش فـــى هذا البلد الذى أراد الآباء المؤسسون حكمه بواسطة القانون الأخلاقى. بعـد إلغـــاء الإسترقاق فى الشمال عام 1804 بدأت جماعات مكافحة الرق تنشط فـــى ولايـــات الجنوب ولكنها لم تجد لها صدى، على حين جعل الكونجرس فى عام 1819 الـــرق مشروعا لفترة طويلة فى الولايات التى يعتمد على اقتصادها المزارع الكبيرة.

وبينما كان الجنوب يزدهر بدأت المشكلة الهندية تطرح نفسها ؛ فى الأعـــوام التى تلت الإستقلال لم يجرؤ مؤسسو الولايات المتحدة على الإطلاق الفورى لعنـــان تلهفهم على غزو أراض جديدة وأقروا بحق الهنود فى الملكية بصفتهم« المحتلـــون

الأوائل»؛ نستشعر هنا تأثير ديدرو الذى كان قد اعترف للأوربيين قبل عقد واحد فى كتابه تاريخ *الهندين* المنشور عام 1780 بحق الإقامة فى سلام فى بلد بموافقة سكانه وبأن يستزرعوا أراضيه بشرط أن يتنازل أصحابها الشرعيون لهم عنها؛ ويؤكد جيفرسون الذى ظل أمينا على هذا التراث بعد عدة سنوات أنه لا يمكن تملك الأراضى سوى « بكافة الوسائل الشريفة والمسالمة»[2] وأضاف مجلس الشيوخ إلى ذلك فى عام 1817، وبموافقة القبائل ؛ لم تحُل مثل هذه البيانات دون قيام الحملات العسكرية على الهنود التى بدأت عام 1794 أن تشتد، منذ بداية القرن التاسع عشر، لكى تبلغ بسرعة فائقة درجة من العنف ظل بعض النواب فى الكونجرس على إستنكارهم له.

وإذا كانت هذه التناقضات تقلق بال هؤلاء الرجال مثلما كانت تشغل واضعى الأنسيكلوبيديا، فقد كانوا فى الواقع يحلمون بأن يروا الهنود الحمر يوافقون على أن يُنهبوا بما يسمح لهم أن يعيشوا فى سلام مع مبادئهم، إلا أن الهنود ظلوا على رفضهم. ولما كانت مسألة التنازل عن التوسع غير مطروحة فقد تعيَّن على المبادئ أن تتطور؛ وفى عام 1820 أعلن وزير الحرب جون كلهون أن جميع الهنود يجب« أن يوضعوا تدريجيا تحت سلطتنا وقوانيننا. [...] أراؤنا هى التى يجب أن تسود لا أراؤهم فى إطار الإجراءات التى إتخذت لكى يصبحوا متحضرين وسعداء[3]» ؛ لم يكن الهدف من وراء هذه الكلمات -وهو ما يجعلها مدهشة- تحدّى الأساس الذى أرادت أن تقوم عليه الدولة الجديدة لمقتضيات الغزو وإنما كان

2.Carl N. DEGLER, Thomas C. COCHRAN *et alii, Histoire des États-Unis,* Economica, Paris, 1980.

3. نفس المصدر كما يمكن حول هذا الموضوع مراجعة:
Joëlle ROSTKOWSKI, et Nelcya DELANOË, *Les Indiens dans l'histoire américaine,* Armand Colin, Paris, 1996.

الهدف تأويله بما يجعله شرعيا؛ واعتبر الهنود منذ ذلك الحين مسئولين عن تبعات رفضهم صورة السعادة الخاصة التى إقترحها عليهم رواد أمريكا الحرة.

وكلما إستَعَر نهم هؤلاء للأراضى، كان من الصعب الحديث عن سعادة الهنود لمساندة الغزو، وبرفع الأمريكيين إلى مصاف الشعب المختار من الرب سمحت حجة « القدر البيّن»[4] ببدء المرحلة الأخيرة للتوسع والتى تنتسب من تلك اللحظة لعلمية إبادة بشرية منظمة للسكان الهنود لأمريكا الشمالية.

الواقع أنه إذا كان من الممكن إفتراض أن الغزاة القادمين من شبه الجزيرة الإيبيرية فى القرن السادس عشر لم يقدروا التبعات الديموجرافية للأعمال الوحشية والمجازر التى قاموا بها، فلا يوجد فى المقابل أى شك فى أن الرغبة فى إفراغ أراضى الغرب الأمريكى من سكانها الأصليين شكلت الدافع الرئيسى للحروب الهندية فى القرن التاسع عشر؛ إن الديموقراطية الأمريكية -هذه البنت الشرعية لقرن التنوير، قامت فى أقل من نصف قرن على إسترقاق شعوب تم ترحيلها من موطنها وعلى إبادة شعب آخر دون أن يثير فيها ذلك الشعور بخيانة المثل الأعلى الذى قامت عليه.

الكلّى ــ المحدود

لاشك أن خطاب« القدر البيّن» ينهل من منبع دينى اللهجة، يزدهر بصورة أفضل فى ثَرىً الأرض الأمريكية، وأن حجة الشعب المختار تبدو وجهةً بعيدة جدا عن المساواة فى الحقوق التى تشكل، -منذ الفيلسوف لوك-، قانون الإيمان بالنسبة

4. فى عام 1845 أكد الصحفى جون سوليفان من نيويورك أن « تحمل قدرنا البين يعنى أن ننتشر فى كافة أنحاء القارة التى منحتنا إياها العناية الإلهية». وظل هذا الإعلان يشكل لأكثر من نصف قرن جوهر الزاد الأيديولوجى لرواد عملية غزو الغرب الأمريكى.

للمفكرين المستنيرين، إلا أن مرادفها على الجانب المدنى غير الدينى كان قد إستولى منذ البداية على تفكير عصر التنوير؛ ونكرر مرة أخرى أننا لا نستهدف التعتيم على المناقشات التى عصفت بتلك المرحلة الخصبة ولا ننسى أن الإستعمار والاسترقاق إعتبرهما العديدُ من المفكرين والسياسيين خارجَيْن على القانون حصول يهود فرنسا على حق المواطنة وأول إلغاء للإستعباد الذى أمكن التوصل إليه فى عام 1794 –على الرغم من المعارضات القوية– فى الهيئة الدستورية التأسيسية، يشهدان على إرادة تأصيل النظرية الكلّية للحقوق فى قلب الواقع؛ إلا أن الذى حدث هو أن هذه النظرية وضعت بسرعة داخل حدود مقيدة للغاية.

بدايةً جرى تحجيم الكلّى منذ البداية فى الجنس الذكورى، وإذا كانت الثورة الفرنسية قد منحت النساء حقوقا مدنية فقد عادت واستردتها اعتبارا من عام 1804 فى الكود المدنى النابوليونى ظلت على ما هى عليه لأكثر من قرن على يد أجيال من رجال يؤمنون بالجمهورية والديموقراطية. فقد حرمت النساء من كافة الحقوق السياسية وتم إقصاؤهن من المجال المدنى الذى تشكلت فرنسا الحديثة داخل إطاره؛ عمل كشفٍ بجردٍ مفصلٍ لرفض الكلّية بعد أن أسدل عليها لفترة طويلة جدار الصمت (ذلك بأن يطلق على سبيل المثال « الإنتخاب العام (وعام هنا معناها أنه ينطبق على الكل أى كليّ) » (على حق إنتخاب ظل حكرا على النصف الذكورى لسكان الديموقراطيات الأوروبية) عمل هذا الجرد ليس هو موضوع هذا الكتاب، خاصة وأنه بُدىء فى وضعه منذ عدة عقود، إلا أنه من الضرورى أن نذّكر بذلك هنا، بمقدار ما هو مشاركة واسعة فى عملية إنهاء الكلّى والتى واكبت تقريبا تشكيله.

بزغ هكذا شيئا فشيئا، عَبْر عمَلية من التنوير، رجلٌ كلّى لا هو لمرأة ولا هو هندى ولا هو زنجي-عبد —(فرنسا بعد أن أعطت المثل عدلت فى عام 1802 عن إلغاء الرق الذى كانت قد اعتمدته فى عام 1794) — وسرعان ما تجسد فى صورة «الذكَر الأبيض[5]» وهو وحده صاحب الحقوق الثابتة التى ارتقى الدفاع عنها إلى مستوى كونه فرضا سياسيا وأخلاقيا ؛ حولت هذه العملياتُ الإقصَائيةُ الكلىَّ إلى حيلة قانونية يسمح تجريده فكريا بتزويده بنوع (ذكر أم أنثى) وبجغرافيا.

إلا أن العقل يحتاج لحجج يعتمد بها هذا التحول. تحمل أصحاب فكرة التفوق الحضارى الأوروبى ثم تفوق الجنس الأبيض مهمة تزويده بها؛ غير أن هؤلاء لم يعثر عليهم فقط بين الذين يشعرون بالحنين لنظام سابق على التغييرات السياسية العنيفة الناجمة جزئيا عن ثورة التنوير الثقافية، ولا فى صفوف الفاعلين الإقتصاديين المهتمين بتطور شركاتهم. لاشك أن -فى فرنسا كما هو الحال فى جنوب الولايات المتحدة- كانت« جماعات الضغط» من أصحاب المزارع أكثر المدافعين شراسة عن *ترك الحال على ما هو عليه* (*statu quo*)، باسم إزدهار أمّتَيْهما وإزدهارها الخاص بطبيعة الحال ؛ وفى فرنسا أيضا أعطاهم نواب الموانئ التى ترسو فيها سفن نقل العبيد مساندة قوية، إلا أن العديد من الثوريين ظلوا مترددين حول الخط الذى سيسلكونه كما لو كانوا غير متأكدين تماما من عدالة مبادئهم إذا ما بدأت الدخول إلى حيِّز الواقع.

وإذ لم يكن الاستعمار يبحث بعد على تبريره النظرى للعنصرية فإننا نكتشف على لسان رجال من القرن الثامن عشر أقوالا تنبئ بالنظريات التى ازدهرت فى

---

5. أصبح التعبير شائعا عبر آداب تحرير المرأة فى السبعينيات والثمانينيات من القرن وهو الأدب الذى ساهم بمشاركات رئيسية فى تحليل الكلىّ الأوروبى الأمريكى.

القرن التالى[6]؛ كما شارك كل من كانوا يؤمنون بمبادئ لـــوك ومونتسيكـــو فـــى القرن التاسع عشر مشاركة حاسمة فى تثبيت يقين التفوق وشرعية الهيمنـــة داخـــل الضمائر الغربية؛ ووجود أقليات من المفكرين ظلت على عنادها فى الدفـــاع عـــن تصور أقل تقييدا لحقوق الإنسان لم يمنع من أن يبقى خطابهم فى هذا القرن الغـازى هامشيا.

«إنى أكرر -قالها جول فيرى فى حدة بعد أقل من مائـــة عـــام علـــى إصدار الإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان والمواطن- أن للإجناس العليـــا حقـــاً لأن عليـــها واجب: فمن واجبها أن تُحَضِّر الأجناس الدنيا.[7]» وكان هذا بمثابـــة صـــدى قـــول رينان:« إن فتح جنس متفوق لبلد سكانه من جنس أدنى ليقيم فيه وليحكمه ليس فيـــه ما يشينه [...] وبمقدار ما يجب شجب الفتوحات بين الأجناس، فإن إعـــادة تجديـــد الأجناس الدنيا، أو تلك التى إنحطت، بواسطة الأجناس الأعلى، تدخل فـــى نظـــام العناية الإلهية للبشرية بنفس هذا المقدار.[8]» النسخة العلمانية للقدر البيّن الأمريكيـــة موجودة بكاملها فى تلك الجمل ؛ ولم يدم الوقت طويلا حتى تحول أبنـــاء التنويـــر إلى إعتناقها فى حماسة.

لحظة من التردد

فى نهاية الثورة الثقافية التى أقامت من فكرة المساواة ومبدأ الكلّية الذى تقـــوم عليه نظرية خاصة، أصبحت أوروبا إذن وأبناؤها عبر الأطلنطـــى هـــم وحدهـــم

---

6. حول هذه المواضيع يمكن مراجعة:

Yves BENOT, *La Révolution française et la fin des colonies*, La Découverte, Paris, 1987; Jean-Pierre BIONDI et François ZUCCARELLI, *16 pluviôse an II, les colonies de la Révolution*, Denoël, Paris, 1989.

7. خطاب جول فيرى أمام مجلس النواب فى 28 يوليو 1885.

8. Ernest RENAN, *Œuvres complètes*, Calmann-Lévy, Paris, 1947.

أصحاب الحقوق المترتبة عليها، بعد أن حولوا تلك إلى مزايا؛ إلا أنه من الصعب الانتهاء من الحديث عن التنوير بهذه الملحوظة، ذلك لأن عمق التساؤلات التي مرت بها هذه الفترة والنظرة الجديدة التي ألقتها على الشعوب غير الأوروبية والشجب العلني لقطاع واسع من النخب فيها لأكثر صور للاستغلال خسةً والذي كانت هذه الشعوب ضحية له، دون الأخذ في الإعتبار إكمال فلاسفة التنوير لعملية جعل الذات مستقلة بنفسها عن المجال الديني، كل ذلك يمنع تلخيص عصر التنوير في أكثر أخطائه سلبية حتى لو أن هذه الأخطاء قد غطت بسرعة على جوانبه الأخرى.

قد يكون من المناسب أيضا إعادة قراءته على أنه من أندر لحظات التاريخ الغربي في القرون الخمسة الأخيرة التي ترنحت فيها أيديولوجية التفوق والثقافة المواكبة لها؛ إذ يجب ألا ننسى -حتى لو كان هذا التذكير من البيّنات- أن التنوير هو التعبير الذهني والسياسي لنقلة مست كافة مجالات الوجود الجماعي للأوربيين من ثورات تقنية غيرت كثيرا في مجال الإنتاج إلى التطورات الإقتصادية والسياسية المفرزة لطبقات إجتماعية جديدة ولصور جديدة لنظام الدولة ولشرعيات لم تكن موجودة من قبل؛ العالم القديم القائم على نظم إقطاعية وإستبداد رجال الدين والملوك تحلل نهائيا، على حين أخذت تبزغ تدريجيا من بين أطلاله أوروبا الحديثة، أوروبا الدول الوطنية والبورجوازيات المنتصرة؛ وقبل أن تؤكد أوروبا إرادتها على توحيد المسكونة تحت هيمنتها تساءلت عن طبيعة وجودها في العالم ومدى شرعية عملياتها الماضية بأن طرحت للبحث المصادرات التي قامت عليها ؛ لقد رفضت على لسان مفكريها وفلاسفة الأخلاق صورتها الذاتية التي عكستها للآخرين كما أقرت لهم -قانونا- بنصيبهم في الإنسانية.

أرادت هذه الفكرة أن تقطع علاقاتها بشكل حاسم مـــع المــاضى لدرجـــة أن سياسيًا مثل سان-جوست إستطاع أن يقترح، دون أن يخشى أن يعد من الحـــالمين فى كتابه *بحث فى دستور لفرنسا*، بندًا ينص على أن « الشعب الفرنســى يصــوت على حرية العالم[9]». إنها رغبة هائلة فى تجسيد الكلّى الذى يتحدث عنـــه الفلاســفة وزعم متغطرس بأن أقول بتعيين نفسى مسئولا عن تولى هـــذه المهمـــة؛ إن هـــذه الجملة -مثل العديد من جمل أخرى تعددت فى هذه المرحلة الخصبة- تلخص تعــدد معانى كلمة المهمة وذلك بأن جعلت من الحرية أفق العالم المطلوب تشـــييده وبـــأن حملت فرنسا -وقد كان من الممكن أن تكون أوروبا- القيام بـــدور ريـــادة التعبـــير المنشود عنه؛ هذا هو -ضمن أسباب أخرى- السبب فى أن شخصا مثل فـــيّرى أو رينان لم يخطر على بالهما أنهما يخونان مبادئ التنوير عندمـــا قـــالا إن أوروبـــا مخولة بقيادة العالم لمصلحته العليا ولإسعاد هؤلاء الذين من« واجبـــها» أن تـــهيمن عليهم.

تلك الفترة القصيرة التى كان الآخر موجودا فيـــها -ليـــس فقـــط كموضـــوع تعاطف أو كشئ غريب يسترعى الإنتباه وإنما كشخص له حقـــوق- بـــدت أنـــها زعزعت للحظة ثقافة تفوق كانت قد تموقعت بالفعل داخل اللاوعى الغربى. الشـــهية الاستعمارية الأوروبية والمصالح الاقتصادية المرتبطة بالتوسع فيما وراء البحـــار، واشتهاء أراضى الأمة البيضاء الجديدة فى الشـــمال الأمريكـــى وديناميـــة الغـــزو المنتصر -وهى أيضا أحدى بنات إبداعات عصر التنوير- التى ســـتكون العلامـــة المميزة للقرن التاسع عشر الوليد، كل ذلك سيتغلب بسرعة على لحظة التردد التـــى شكلها غموض الخطب وإنحرافات التطبيق؛ وبعد ما يقرب من قرنين من الزمـــان

9. SAINT-JUST, *Essai de Constitution pour la France, in Œuvres choisies,* Gallimard, coll. «Idées», Paris, 1968.

يعود الغرب -في إطار مختلف تماما- للتواصل مع التساؤلات التي تدور حول طبيعة علاقاته مع الآخرين. عملية تحرير المستعمرات -التالية على الحرب العالمية الثانية التي قضت على العديد من المعتقدات اليقينية- إفتتحت بدورها -في بداية الخمسينيات- مرحلة بزغ فيها الآخر داخل الوعي الغربي، فراح يطرح التساؤلات حول الجرائم التي ارتكبت باسمه وعبر عن رغبته في إقامة علاقات جديدة مع الذين كانوا يعملون على التحرر من نيره. سأناقش فيما بعد مصير هذه اللحظة الثانية التي تغلبت فيها الأسئلة على اليقين.

قد تجمع بين هاتين الفترتين أنواع من طفرات الحكم المتبادل بين الأساليب المتعاقبة للهيمنة الغربية على باقي أنحاء العالم: فقد أعلنت الفترتان إنفصالهما عن النظام الإستعماري القديم دون أن يوقفا الطريق أمام ظهور صور أخرى من الإستعباد ؛ كلاهما عبر عن اقتناعات مساواتية مستقبلها مشكوك فيه؛ ذلك لأن أيا من هاتين اللحظتين لم تقطع صلتها باقتناعها الحميم بأن الإعلان عن الكلي -مهما كان مضمونه- هو من إمتيازات الغرب الطبيعية ؟ يتعين ألا نستبق الأمور ولنتحدث عن تلك القمة التي بلغها الإستعمار والتي اعتمدت خلالها ثقافةُ التفوق نصوصَ الخطبة التي لانزال نتعرف عليها منها، وهي التي تحولت إلى ثقافة شعبية وهو ما يعد حدثا فريدًا لم يحدث قط من قبل.

ـ 3 ـ

يقين يتأصل

مع مرور الزمن في القرن التاسع ومعه المغامرة الإستعمارية الحديثة، استدعيت كافة المعارف لكى تجعل من هذه الثقافة تدريجيًا منظومة عقائدية متماسكة؛ ومع التقدم الذى حققته علمانية الفكر لم يعد تبرير الاشتهاء الغربى للغزو منذ فترة طويلة يقوم على الحجة الدينية وحدها، وإن كانوا يرجعون إليها كلما دعت الحاجة إلى ذلك؛ التاكيد البسيط على فكرة التفوق التى شيدت عليها الحقوق الطبيعية فى استعباد الآخرين، كانت خطوطها المحيطة غير واضحة لدرجة كبيرة حتى تستطيع تلبية متطلبات الزمن؛ السجل العلمى سيتولى تجديد المحاجات القديمة بعد أن أضعفتها جزئيًا تساؤلات التنوير؛ والطريق الذى فتحه علماء التاريخ الطبيعى فى القرن الثامن عشر، تحول إلى فكرة ضاغطة فى تصنيف الفروق بين مختلف الأجناس وحتى أشدها تفاهة والتى هي علامة مميزة لتنوع الجنس البشري.

الإثبات بالجنس .

مع الأنثروبولوجيا الجسدية في القرن التاسع عشر ولدت التفرقة العنصرية الحديثة ذلك التنظير العلمى للتفوق « الأبيض[1] » أي الأوروبى، مادامت الشعوب

---

1. ما زال هذا التعريف يواجه بالنقد، على أساس أن كره الآخر هو من السمات التى تكاد تكون مشتركة بين كافة المجتمعات البشرية، وهذا صحيح ؛ إلا أنه من المناسب أن نفرق بين الاكزينوفوبيا أو كره الأجانب والعنصرية لأن الثانية تبحث لنفسها عن أسس نظرية أكثر تقدما من الأول الذى يكتفى عادة برفض الجار أو الأكثر بعدا ؛ كما أعترض أيضا على أن العنصرية ليست غربية بمعنى الكلمة مادمنا نعثر على نماذجها خارج أوروبا وأمريكا وفى عصور سحيقة فهى موجودة بقوة عند العرب مثلا الذى يشبه خطابهم جدًا فى هذا الصدد –كما رأينا– خطاب الأوروبيين، كما يمكن أن نذكر كمثال على تحقير المهزومين إزدراء شعوب البانتو تجاه الأقزام البيجمى وذلك من شرق أفريقيا حتى غربها، فواقعة رفض منح صفة الكيان البشرى الكامل لهؤلاء الذين تم غزوهم ليس إذن تخصصا غربيا ؛ ومع ذلك فإن الغرب قد ذهب إلى أبعد بكثير من الحضارات المهيمنة الأخرى فى تنظير هيراركيه –او التنظيم الهرمى لطبقات– الأجناس وفى وضع هذه النظريات موضع التنفيذ عمليا.

« ذوات البشرة الفاتحة» غير القادمة من أوروبا قد وضعت فى درجات وسيطة أو دنيا فى سلم هرمى دقيق التنقيح؛ وهكذا صنفت شعوب المجال البحر متوسطى طبقيا حسب قربها من السمات الأوروبية، وأزيح« الساميون» إلى إسفل الدرك، على حين يوجد بعض التردد بالنسبة لآخرين مثل بربر شمال أفريقيا، الذين اعتبرهم الإستعمارى، بذكاء مفيد له، ضمن السلتيين وذلك لخدمة الإستراتيجيين الفرنسيين وهو ما سمح بإيجاد التنويعات السياسية المعروفة حول التنافر الذى يمكن أن يسمى طبيعيا بين العرب والبربر[2]؛ من كان يطلق عليهم قوقازيون أو آريون الذين هم من الناحية العنصرية -وبالتالى ثقافية- متفوقين، كان يجب عليهم إذن أن يسودوا على البشرية المكونة من مجموعة تضم مجاميع تم ترتيبها طبقا للمسافة التى تفصلها عن الجنس المختار، وجريا على عادته يلخص رينان بكلمات نيّرة التقدم العلمى فى زمانه: « صنعت الطبيعة جنسا من العمال وهو الجنس الصينى الذى يتمتع بمهارة يدوية رائعة دون أن يكون لديه تقريبا أى إحساس بالشرف [...] وجنسا من عمال الأرض هم الزنوج [...] وجنسا من السادة والجنود هم الجنس الأوروبى[3]».

2. هذا أيضا هو ما قاله عن ذلك لويس هارمان المؤرخ الفرنسى للرومانية فى أواخر الخمسينات «شعوب شمال أفريقيا التى تكاد تكون دائما متخلفة عن ركب مرحلة ما قبل التاريخ الأوروبية قد تطورت بطريقة أكثر أصالة مما كان يعتقد [...] النوع البشرى القاطن لمنطقة الدورنون فى زمن ما قبل التاريخ له مقابل فى مِشتا (جنوب شاتودان دو-رومال) وهو صورة باهتة، ولكنها صورة على كل حال لل. هومو سابيانس- *Homo Sapiens* الذى عاش فى كهوفنا ؛ إن وجود الشقر بين هذه الشعوب البدائية فى شمال أفريقيا قد يكون إشارة إلى أنها من أصل شمالى»... وهو يضيف بعد ذلك: «تلك الأراضى [...] أوت، إعتبارا من لحظة ما، مجموعتين من السكان لا يمكن بطبيعة الحال القول بأنهما من سلالة دم واحدة [...] ولكن تجمعهما عادات وتقاليد متوازية يصعب إنكارها [...]: أعنى الأسرة السنية الكبيرة وتلك تمثل المقابل لها على الجانب المواجه على البحر المتوسط: ألا وهى الأسرة البربرية» (Louis HARMAND, L'Occident romain, Payot, Paris, 1960) نلاحظ التناقض بين الرغبة فى إرجاع البربر إلى أصول أوروبية لابعادهم عن العرب، مع العمل على الاحتفاظ بتسلسل هرمى دقيق بين سكان الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر المتوسط.

3. Ernest RENAN, *Œuvres complètes, op. cit.*

حتى فيما بين الزنوج -وقد إعتبروا في المجموع أكثر قربا من الحيوانية- فقد إعتبرت بعض من مجاميعهم أكثر إنسانية من الآخرين، لأن لهم سمات أقل «زنجانية» فيما يتعلق بخطوط الوجه واللون؛ هنا أيضا تولى العلم مسئولية تقديم «البرهان» على أن حجم المخ هو في تناسب مباشر مع درجة بياض لون البشرة. أما «الحاميون» قاطنو أفريقيا في منطقة البحيرات العظمى -وهو تصنيف جنسي تم إختراعه من لا شيء ملموس- فقد إعتبروا أكثر الزنوج بياضا ومنحوا الإمتيازات المترتبة على مثل ذلك الوضع؛ وعندئذ أصبح التعبير عن التفوق أمرًا سهلاً. إنه نتيجة لعوامل جسدية تنبع منها كافة التنويعات -العلمية والتقنية والثقافية والسياسية- الخاصة بعبقرية اختص بها الجنس الأبيض.

أدلت الفلسفة ومن بعدها علم الاجتماع أيضا بدلوها في هذا الموضوع؛ معروف هو مآل الفرض الهيجلي بوجود شعوب لا تاريخ لها، حرم الفيلسوف الألماني، الذي يعتبر وريثًا لمناهضي الزنوج مثل هيوم وكانط، أفريقيا من هذا العمق التاريخي الذي يمثل في رأيه الهيكل العام للحضارة: أفريقيا «ذلك البلد المنطوي على ذاته [...] بلد الطفولة الذي هو -فيما بعد يوم تاريخ الوعي- مغلف بلون الليل الأسود»[4] ليس له وجود خاص به سوى على خرائط العالم القديمة الذي كان يمكن التعرف عليه من هذه الكلمات اللاتينية *hic sunt leones* (هنا يوجد الأسود) التي يتصف بها المكان، ولم تكف كتابة التاريخ الغربية عن توسيع هذه الهوّة لكي تتمكن من إقصاء أفريقيا من مجال الحضارة وذلك بأن تخرجها من التاريخ.

يتعين في هذا الصدد أن نتوقف لحظة عند المعاملة التي إختصت بها مصر القديمة؛ الغريب أن هذه الأخيرة لا تنتمي إلى أي قارة، لأنها خرجت من جزيرة

4. Friedrich HEGEL, *La Raison dans l'Histoire, Introduction à la philosophie de l'histoire*, UGE 10/18, Paris, 1965.

تقع فى البحر المتوسط حيث يجرى أطول أنهار العالم دون أن يقال بالتحديد من أين ينبع نهر النيل؛ يقولون أنه يروى النوبة فيما بعد الجنوب، ويقال إن القوافل كانت تذهب لجلب الغراء والأبانوس من بلاد بونت البعيدة أى عن طريق البر. من المعروف أن فريسكات المقابر الفرعونية مليئة بصور رجال ونساء سمر البشرة، إلا أن إنتماء مصر لأفريقيا لم يذكر فى كتاب واحد، ويجب أن ننتظر المساجلات التى أثارتها النظريات الحادة للمؤرخ السنغالى شيخ أنتا ديوب فى الستينيات (من القرن العشرين) حتى يتم الإقرار لها ببعض أصول أفريقية، من السهل أن نتفهم فقدان الذاكرة هذا: فإحدى أقدم الحضارات وألمعها التى تولدت عن العبقرية البشرية والتى تركت آثارا بهذه الروعة والتى كان تأثيرها على العالم الإغريقى غير قابل لنكرانه بالكامل، وبرغم ان المؤرخين الأكثر شهرة قد عملوا باستمرار على إثبات تفوق هذا الأخير[5]، لم يكن من الممكن، مع كل الإحترام، أن تقع فى قارة بدائية وبربرية لا تاريخ لها فى آن واحد.

حققت كتابة التاريخ الغربية بعدم «تعيينها لمكان» مصر القديمة هدفين: فقد حرمت ولفترة طويلة أفريقيا الواقعة جنوب الصحراء من أن تكون فى العالم مادامت لا تشارك فى التاريخ المعترف به، ثم انها استولت لنفسها على الحضارة المصرية التى إعتُبرت قريبة من أوروبا للغاية وعظيمة للغاية حتى تكون غريبة عن العبقرية الأوروبية وذلك بجعلها حضارة من حضارات ذلك البحر المتوسط

5. لم يتردد شامبوليون على الرغم من ذلك من أن يكتب هذه السطور: «مهما كان إعتقاد العلماء الذين جعلوا من الإيمان الراسخ بتولد الفن فى بلاد الإغريق بطريقة تلقائية، ديانة يؤمنون بها، فمن الواضح بالنسبة لى كما هو الحال بالنسبة لكل من تعرفوا جيدا على مصر، أن الفنون بدأت عند الإغريق بتقليد لفنون مصر تقليدًا حرفيًا التى كانت أكثر تقدما مما يعتقده العامة، فى الفترة التى إتصلت فيها أولى المستعمرات المصرية مع سكان الأتيك والبيلوبونيز المتوحشين» (مذكور فى:
Jean-Claude SIMOËN, *Le Vayage en Égypte,* J-C.Lattès, Paris, 1989).

التى استولت عليه بأن منحتـه الخطـوط المحـددة «لبحرنـا» (***mare nostrun***) الإغريقى–الرومانى؛ وإلى يومنا هذا يجد معظم التلاميـذ الأوربييـن والأمريكـان صعوبة فى تحديد إلى أى قارة من القارات تنتمى مصر الفراعنة والتـى يدرسـون عظمتها.

نفس الرغبة فى إنتزاع الملكية المدعمة بالإقتنـاع بـأن الشـعوب المنتميـة للأجناس الدنيا لا تستطيع أن تشيد شيئا ذا أهمية، هـذه الرغبـة دفعـت أفريقيـا الجنوبية المستعمرين –الذين إخترعوا لسور زيمبابوى العظيم أصولا أسيوية تـارة وبرتغالية تارة أخرى–، فى محاولة منهم لإثبات أن أثار مونوموتابـا الشـهيرة لا يمكن أن تكون عملا أفريقيا؛ كما أننا نعرف أيضا، فى سجل علم الإجتماع النجـاح الذى عرفه التمييز الذى قام به ليفى–بروهل بين العقليات المنطقية وتلـك السـابقة على المنطق، وهو التمييز الذى ظل سائدا حتى بعد أن تبرأ منه واضعه ذاته.

عند نهاية القرن التاسع عشر بدا أن النهج الذى بدأ مع النهضة أخـذ يقـترب من نهايته؛ الأثر التراكمى للمحاجات المتوالية التى أقامتها اوروبا عبر أربع قـرون لكى تؤكد عليها مشروعية أعمالها الإقصائية والهيمنتية انتهى به الأمر إلى أنه أنتـج عنصرية «كاملة» وجدت فى النظريات العنصرية نظامها التفسيرى غـير القـابل للجدل. *طهارة الدم* *Limpieza de Sangre*، والإنتقاء الإلهى والطبيعى للذكر الأبيـض المسيحى اضطروا فيما سبق إلى تبرير إستعباده للرجـال ذوى البشـرة السـمراء والتقنينات التى تبلورت بعد جهد جهيد للإستغلال والتفرقة العنصريـة والإقصـاء، وجدت نفسها تتسامى بشكل ما فى دوجما الإجبـار البيولوجـى؛ وبعـد أن أثـرى الخطاب العنصرى منابعه من النهل من هذه المصـادر الجديـدة وجـد صـداه

يتضاعف عن طريق مسلسل المغامرات الإستعمارية والمشاعر الوطنية المناهضة للأجنبى وهى التى أعلنت عن بداية مرحلة إزدهاره[6].

السرعة التى تحول بها الخطاب العنصرى إلى ثقافة شعبية يفسرها تعمق جذوره التاريخية ولكن تفسرها أيضا مقدرته على التسامى فوق الفوارق السياسية والأيديولوجية مادام اليقين بوجود حق مطلق فى ممارسة الهيمنة قد حصل على الإجماع من النخب السياسية والثقافية الأوروبية والأمريكية[7]، فلا يوجد إذن أى عائق يعترض إنتشاره وسط مجموع السكان، وقد تمت العملية بكل سهولة خاصة وأن نهاية القرن أعلنت بداية عصر التدريس الجماعى الواسع للطبقات الشعبية؛ وفى فرنسا كانت المدرسة الجمهورية هى التى أرست بعمق داخل الوعى العام اليقين بتفوق الجنس وعملت على نشر ثقافة الهيمنة بين العامة.

مهما حاول اليمين واليسار الأوربيان إقامة تراث لهما متباين، فإن ما يفصل بين جوبينو -الذى يعتبره الأول رمز ما آل إليه من فكر- ورينان -الذى طالما رفعه الآخر إلى أعلى القمم- أقل أهمية مما يقرب بينهما. يتوحد اليسار واليمين فى القرن التاسع عشر وفى العقود الأولى من القرن العشرين فى الإيمان اليقينى بأن

---

6. هذا الإضفاء للسمة العنصرية على فروق هى فى أحيان كثيرة مفترضة أكثر من كونها حقة، استخدام أكثر من مرة فى إضفاء الشرعية بواسطة التبرير العلمى على تسهيزات اكسينوفوبية أو على مواقف مجموعة مسيطرة ؛ توجد حالاتان، ضمن أخرى، لتوضيح هذه الظاهرة: منهما هيستريا المناهضة الإيطاليين التى سادت فى فرنسا ضد المهاجرين القادمين من شبه الجزيرة فى بداية القرن العشرين وذلك الإزدراء اللاإنسانى الذى يواجه به الأشكناز فى إسرائيل اليهود الشرقيين ؛ مثلهم مثل الإسبان ظل الإيطاليون وخاصة أهل الجنوب منهم محل إرتياب حتى فترة قريبة لكونهم قريبين لأكثر مما ينبغى من السواحل الأفريقية لكى يكونوا أوربيين بحق ؛ وفى الحالة الإسرائيلية، التبرير «العنصرى» للرفض يبدو جليا بدرجة أكبر فقد كان يهود الشرق فى الخمسينات يعتبرون نصف-بدائيين، مثل سكان البلاد التى قدموا منها على يد الإنتليجنسيا القادمة من أصول أوروبية المحملة بثقافة التفوق الأوروبية.

7. ليس فقط من أمريكا الشمالية هذه المرة ؛ فالنخبة الإيبيرية فى أمريكا الوسطى والجنوبية التى قادت عبر الثلث الأول من القرن التاسع عشر المستعمرات الإسبانية والبرتغالية إلى الإستقلال باسم مبادئ التنوير، أقامت سلطانها على سلم دقيق جدا للإجناس. وظلوا على تهميشهم للسكان الهنود وعلى إسترقاقهم المستمر للزنوج فلم يلغ نظام الرق سوى فى عام 1860 فى بيرو، وفى عام 1888 فى البرازيل.

الجنس البشرى مرتب فى سلم يحتل الأوروبيون قمته، ولكنـــهما يتجـادلان حــول واقعة ما إذا كانت هذه الهيراركية ثابتة أم أنها قابلة للتطور ؛ وقد مال شـــكل مــن أشكال الداروينية اليسارية -إثر التوجه الإنسانى الأبوى لورثة التنويـــر الأوائــل- للتفسير الثاني، فبفضل تفانى الأوروبيين الإستعمارى ستتمكن الأجناس البدائيــة -أى تلك غير المزودة بمجموعة المميزات المكونة للحضارة، حتى لو إمتلـــك بعضــها شيئا من هذه السمات- ستستطيع فى يوم من الأيام البعيدة أن تصبــح جــزءاً مــن البشرية المتطورة وذلك بشرط أن تتقبل الوصاية الغربية؛ تلك هى -كما نعــــرف- المهمة الحضارية الثقيلة التى حددها الرجل الأبيض لنفسه والتى أضحى إستخدامها منذ ذلك الحين ممكنا لتبرير كافة أعماله.

على العكس من ذلك -عند اليمين- كانت الهوة تعتبر أعمق من أن يكون فـــى الإمكان ردمها فى يوم من الأيام؛ فمنذ عام 1865 نجح البريطانى فرانسيس جـالتون وخلفاؤه فى جعل النظرية تخطو خطوة عملاقة إلى الأمام وهى التى قدمــت علــى أنها تعبير علمى عن عدم المساواة بين الأجناس وعدم إســتحالة تحســين الجنــس الأدنى منها: « علموهم وحضروهم، إلا أنى لا أتصور أن يكون من الممكــن أبــدًا تعديل الجنس»، هذا ما كان يؤكده أهم تلاميذ مؤسس اليوجينية فى عام 1905[8].

هذه الإختلافات فى التأويل حول طبيعة التفاوت، والتـــى إعتــبرت باجمــاع الأراء بينةً من البينات، ستكون لها آثار هائلة؛ فمريدو جالتون مــن ابنــاء القــارة الأوروبية شاركوه إقتناعه بأنه ليس من العقل الوقوف أمام « الاختفـــاء التدريجــي

8. Karl PEARSON, *National Life from the Standpoint of Science*, Cambridge University Press, Cambridge, 1905 (*in* Michael BILLIG, *L'Internationale raciste, De la psychologie à la science des races*, Paris, Maspero, 1981).

لجنس أدنى»[9]، ونحن نعرف جميعا ما خلفوه ورائهم! ولكن -فى هذا المجال أيضا- لم تكن المسافة التى تبعد بين مناصرى المعسكرين بالأهمية التى يتحدثون عنها، خاصة وأن الهجرة من معسكر للآخر لم تكن من الحالات الاستثنائية: فاليسار -من بلانكى إلى برودون- قد شارك، ضمن ما قام به، فى تحويل مناهضة اليهود التقليدية إلى قضية عنصرية، فأضحت ما يسمى الان بمناهضة السامية، وتتميز فى هذا الصدد بالحث على أعمال التقتيل الأكثر دناءة، وإذا كان ليون دوديه قد وصف وجه الكابتن دريفوس بأنه « سحْنة قذرة، مفلطحة ووضيعة، لا أثر للندم عليها، وبالتأكيد أجنبية، هي من حطام الجيتو »، فقد صرخ برودون بأعلى صوت « إن اليهودى هو عدو الجنس البشرى » و « يجب الإسراع بطرد هذا الجنس إلى آسيا أو القضاء عليه[10] ».

إن واقعة المحاولات التى جرت لتقنين المجازر المواكبة للفتوحات الإستعمارية لم تنهل جميعا من المصادر الأيديولوجية نفسها، لا يجعلها جدّ متباينة: فتوكفيل -الذى لم يكن من مناصرى القضاء التام على العرب- لم يمتنع عن أن يُفضى إلى الكولونيل لاموريسيار بقوله « مادمنا قد إعتمدنا هذا العنف العظيم الذى هو الغزو فأعتقد أنه يتعين علينا ألا نتراجع أمام أعمال العنف التفصيلية التى هى ضرورية بلا ريب لتدعيمه[11] »؛ وكارل بيرسون -الذى لايجد أى غضاضة فى إبادة الهنود الحمر قاطنى أمريكا الشمالية- لاحظ أنه لاشك أن الأوروبيين قد اضطروا لإبادة قبائل بأكملها فى القارة الجديدة إلا أن النتيجة النهائية « قد غلّت علينا مكاسب

---

9. Francis GALTON, *Inquiries into Human Faculty and its Development*, Dent, Londres, 1907 (*in* Michael BILLIG, *L'internationale raciste, op. cit.*).

10. نصوص من مقال لجان-دوني برودان فى صحيفة لوموند، الأول من مارس 1997.

11. Alexis DE TOCQUEVILLE, *Travail sur l'Algérie*, Paris, 1841.

عوضت كثيرا جدا الأضرار الفورية [12]»؛ وبلا تردد -بضمير حيّ بُـررّت بـهذه الطريقة المجازر الجماعية- والذين إقترفوها رُفعوا بالإجماع إلى مصاف الأبطـال الوطنيين حتى لو عبر بعضهم عن أسفه لأسوأ الفظائع التى أرتكبوها.

... وتطبيقاته

المرحلة الأولى من التوسع الأوروبى فى جـزر الكـارايبى وأمريكـا التـى أصبحت أيبيرية، واكبتها عملية إبادة جماعية يمكن أن نسميها بدائية فـى حرفيتـها وإن جاءت نتائجُها ممتازة ؛ المرحلة الثانية من هذا التوسع أكدت على تأهلها فـى العصر الصناعى وذلك بأن برمجت بطريقة واعية استخدام المجـازر وإذا دعـت الحاجة لذلك- إلى الإبادة الجماعية؛ إذ لم تكن الأعمال الأكـثر دمويـة -إلاّ فـى حالات نادرة إستثنائية- من فعل رؤوس عسكرية هوجـاء أو مغـامرين يعملـون لحسابهم الخاص وإنما جاءت كمحصلة لقرارات هيئات أركان حرب مسئولة عـن تنفيذ إستراتيجيات دول.

كانت بعض هذه المجازر واسعة الأبعاد لدرجة أن آثارها الديموجرافية طـال أمدها جدا؛ فعندما وصلت سياسية «فرض السلام» فى الجزائر إلى غايتـها بعـد نصف قرن من الزمان كان تعداد سكانها قد نقص بنحو مليون من البشـر[13]؛ وفـى وسط أفريقيا أدت الأمراض المعدية التـى تفشـت بسـبب الجيـوش الأوروبيـة وتحركات الشعوب الناجمة عن الغزو، كما أدى على وجه الخصوص تجنيد العديـد من الأيدى العاملة المحلية لأعمال التغلغل داخل الأراضـى لإحتلالـها ولتسـخير

---

12. Karl PEARSON, *National Life...*, *op. cit.*

13. إستعان فرانسوا ماسبيرو فى كتابه شرف *سانتارنو* (بلون، باريس، 1993)، بالتقدير الذى يـرى أن سـكان الجزائر الذين كانوا ثلاثة ملايين عام 1830 أصبحوا 2 مليون و300 ألف فى عام 1856.

العمال المحليين فى حمل الأثقال، والاستقطاعات المنظمة من المواد الغذائية ومن ساعات العمل التى فرضت على السكان الوطنيين، وطرق الاستغلال التى مارستها الشركات صاحبة الامتيازات، والتجنيد لحرب 1914-1918، أدى كل ذلك إلى تدهور ديموجرافى مروع عبر المرحلة الأولى للإحتلال فيما بين 1890 و1920؛ فقد إنخفض عدد السكان فى بعض مناطق حوض نهر الكونجو بمقدار الثلث فى نحو ثلاثين عاما بل إن هذا المقدار قد وصل إلى نصف عدد السكان فى بعض المناطق الأكثر تأثرا؛ وتتعدد الأدلة على حدوث نزيف ديموجرافى رهيب فى الكونجو ليوبولدفيل بسبب تعميم السخرة والوحشية اللانهائية لوسائل الإستغلال[14].

بصورة أشمل، واكب الاحتلال الأوروبى لداخل القارة الإفريقية والذى تسارعت وتيرته كنتيجة للتقسيم الذى قرره مؤتمر برلين عام 1884، تراجع هام فى عدد السكان فى جميع أنحاء أفريقيا الواقعة جنوب الصحراء؛ من جديد تسبب التدخل الأوروبى -كما لم يفعل أى غزو من قبل- فى إنخفاض شديد فى عدد السكان استفحل أحيانا فى بعض المناطق التى دخلت تحت سيطرته؛ إلا أن هذه الأحداث الدامية جدا التى أدت لها عملية الدخول إلى قلب القارة وبدايات الاستثمارات الأوروبية لا يصح أعتبارها عمليات إبادة بشرية حيث إنها لم تُعَرِّضْ وجود السكان المعنيين الجماعى للخطر، ولذلك فإننا نكرر أنه لا سبيل للخلط بين

14. راجع ضمن مراجع أخرى عن العنف فى الكونجو المصادر التالية:
Jules MARCHAL, *E.D.Morel contre Léopold II. L'histoire du Congo 1900-1910*, L'Harmattan, Paris, 1996; et Adam HOCHSCHILD, *Les Fantômes du roi Léopold. Un holocauste oublié*, Belfond, Paris, 1998.
هذا الكتاب الأخير ذو المراجع المتعددة والمتينة جدا والذى يعالج بلهجة متحمسة الوسائل الدموية المستخدمة فى العصر الليوبولدى، أثار فى الصحافة الفرنسية، إنتقادات حول إطالة وقوفه عند مساوئ الاستعمار: « هل من العدل -والتساؤل للصحفية جوزيان سافينو فى صحيفة لوموند- الكتب- أن نتهم المستعمر بجريمة القتل عندما يكون الحديث عن أوبئة أو حتى عن إنخفاض فى الخصوبة ؟ نظرية وجود عامل أمر بإحتلال الكونجو من أجل الكسب المادى فقط [...] تعتبر وجيهة إلا أنها تتطلب التدعيم... »

إبادة بشرية ومجزرة ولا لنعت الأولى بالثانية كما فعل ذلك الخطاب المناهض للإستعمار في أحيان كثيرة للغاية.

غير أن الإبادة البشرية اعتبرت أيضا أداةً للتغلغل، وشكلت وسيلة أثيرة لديهم، حيثما كان من الواجب تفريغ أراضٍ لتلبية مقتضيات الإستعمار بالإسكان أو باستخدامها في مواجهة شعوب إستعصت مقاومتها على محاولات القضاء عليها؛ ولقد رأينا كيف استخدم أوربيو أمريكا الشمالية هذا الاسلوب أداة مفضلة للتقدم نحو الداخل، دون أن يثير ذلك المشاعر في القارة العجوز؛ وقد حَذَتْ ألمانيا حَذْوَهُم عندما نفذت فيما بين 1904 و1907 عملية إبادة جماعية لجنس الهيريرو بشكل رسمي مقنن، إذ يبدو أن العملية كانت ناجحة نسبيا إذ أن التقديرات[15] توضح أن شعوب الهيريرو إنخفض تعدادها من 80.000 فرد في بداية القرن إلى 15000 بعد الحملة التي قام بها الحاكم تروثا؛ وكان الجنرال الألماني يرى في الحقيقة أن« أمة الهيريرو يتعين إبادتها كأمة أو -إن أمكن ذلك- طردها من البلاد [...] إني أجد أنه من المبَرر تماما أن تموت هذه الأمة بدلا من تلويث جنودنا والتقليل من موارِدنا من الماء والغذاء[16]»؛ كما لم يتردد البريطانيون في إستخدام هذه الوسيلة الناجعة لكسر مقاومة السكان الأبوريجان في تسمانيا خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر، ففيما بين عامي 1831–1835 تم ترحيل نحو مائتين ممن بقي حيًا منهم إلى الجزر القريبة حيث توفي آخر واحد منهم عام 1876.

ليس هنا هو المجال لترديد سلسلة المآسي المترتبة على التوسع الأوروبي ولكنه تذكير بأن المجازر واللجوء المحدود إلى وسيلة « الحل النهائي» كانت عملا عاديا بالنسبة للغزو، وقد بررها من قاموا بها أو من أمروا باقترافها باسم

15. Helmut BLEY, *South-West Africa under German Rule*, Heinemann, Londres, 1971.
16. *Ibid.*

الضرورة وشرعية السلب بل وأحيانا باسم « فلسفة إنسانية» غريبة؛ فقد دافع هكـــذا بوجو عن إستخدام الإرهاب المنظم في الجزائر للتعجيـــل بوضـــع حـــد للمقاومـــة المحلية ولكى نتحاشى بهذه الطريقة إطالة أمد السكان المحليين إلى مالا نهاية، كمـــا بررت فى أفريقيا السوداء حملات عديدة بالواجب الأخلاقى لتحرير الســـكان مـــن استبداد واسترقاق الحكام التقليديين لهم؛ غير أن ردود الفعل فى فرنسا الأم ظلـــت، حتى الحرب العالمية الأولى على الأقل، نادرة وفيما يخص بعضا منها، بعيدة تمامـــا عن أى إهتمام إنسانى؛ وإذا كانت بعض عمليات« التدخين[17]» التى مورســـت فـــى الجزائر قد إنتقدها بعض النواب عام 1845 فقد جاء ذلك فى الأصل لأن مثل هـــذه الممارسات يمكن أن تضر بمعنويات الجنود وأن تعطى للخارج صورة سيئة عـــن العظمة الفرنسية؛ وإذا كان قد تم التسليم بالوحشية فأن وزير الدفاع راح يذكر فـــى إجابته على بعض التدخلات الحادة أن: « مثل هذا العمل فى أوروبا سيعتبر مروعـــا ومكروها؛ أما فى أفريقيا فهى الحرب بعينها؛ كيف تريدون منا أن نقوم بها[18]».

باسم الحضارة

سرعان ما أصبحت المهمة التى كلف بها القدر أوروبا الغربية إذن فى أعيـــن كل من تعدهم مثقفين شرعية تماما، أما الشكوك فستتولد فيما بعد، وإذا كـــانت قـــد أثيرت فى وجهها بعض الإنتقادات فليس ذلك من باب التشكيك فى حـــق الغربييـــن الطبيعى فى الهيمنة وإنما انصبت على عدم جدوى الغزو وتكلفته العالية، أو لأنـــه سيسئ إلى حرية التجارة من حيث حق القصر الإستعمارى -وكانت هذه هى وجهـــة

17. فى يونيو 1845 لجأت قبيلة ولد رياح فى الظهراء إلى بعض الكهوف مع قطعانها لتهرب من القوات الفرنســـية ؛ أقام الكولونيل بيليسيه حريقا ضخما عند مدخل الكهوف وتسبب بهذه الطريقة فى مقتل ما يقرب من ألـــف شـــخص باسفيكسيا الخنق.

18. ذكر ذلك فرانسوا ماسبيرو فى: *شرف سانتارنو، المرجع سابق ذكره.*

نظر الليبراليين- أى أن يبقى التبادل التجارى محصـــورا بيـــن البلـــد المســـتعمر وممتلكاتها الخارجية؛ فى فرنسا ظل اليمين وبعض الراديكاليين لفـــترة مـــا علـــى مناهضتهم لمغامرة إعتبروها -ضمن أمور أخرى- تحويلا للأنظار عـــن خســـارة إقليم الألزاس واللورين، إذ كانت أغلبية الجمهوريين فى الجـــانب المقـــابل مؤيـــدة للتوسع إذ رأت فيه -علاوة على كونه صفقة رابحة للصناعات الوطنيـــة- حملـــة مجيدة جديرة بالعبقرية الأوروبية؛ وظلت الخطب الرنانة لشخص مثل لافـــارج، أو حتى مثل جوراس، غير مسموعة تقريبا فى جو بقى -حتى الحرب العالمية الأولـــى على الأقل- متصاعدًا فى إجماعه.

الإحتجاج الأوروبى الواسع الوحيد، وهـــو علـــى العمـــوم لا ينـــاقش مبـــدأ الاستعمار وإنما وسائله، تسببت فيه وحشية الطرق الاستغلالية التى أسســـها ملـــك البلجيك ليوبولد الثانى فى الكونجو؛ فاعتبارا من عام 1890 يـــدأ بعـــض الشـــهود يسردون فى الولايات المتحدة وأوروبا رواياتهم عن البشاعات التى رأوهـــا وتلـــك التى شاهدوا آثارها، فانفجرت فضيحة الكونجو فى بليجكا عام 1908 بفضل شـــجبهم لهذه الأعمال الوحشية وأخذت أبعاد حملة واسعة -وهى الأولى- من أجل إحـــترام حقوق الإنسان فى الممتلكات الاستعمارية.

ولكن كما أن التعبئة المنتصرة لجزء من الرأى العام وللمثقفين الفرنسيين مـــن أجل رد إعتبار النقيب (كابتن) دريفوس لم تضعف همة مناهضة السامية التى ظلـــت على ترعرعها، فإن شجب الأعمال البشعة التى إرتكبت فى الكونجو البلجيكى لـــم تمنع تكرارها فى أماكن أخرى -ومن ضمنها الكونجو الفرنســـى حيـــث إعتمـــدت السلطة المركزية فى العاصمة الفرنسية نظاما مطابقـــا لنظـــام الجـــار الليوبولـــدى الخاص بتأجير المستعمرات للشركات صاحبة الإمتياز؛ فى عام 1905 حكـــم فـــى قضية جران-توكى Grand-Toqué بأحكام من حيث المبدأ علـــى المديريـــن بعـــد

إدانتهم بجرائم قتل وعمليات تعذيب متعددة فى حق الأفريقيين؛ وفى العـــام التـــالى أرسلت بعثة لتقصى الحقائق على الطبيعة برياسة سافورنيان دى برازا، وقـــد تـــم التعتيم على تقريرها؛ ثم بعد ذلك بخمسة عشر عاما أدى تشييد خط ســـكك حديـــد الكونجو–المحيط، والذى أطلق عليه أهل البلد إسم « عملية الموت»، فـــى ظـــرف عشر سنوات، إلى حدوث مجزرة لحوالى 000 20 رجـــل بيـــن ســـكان المنـــاطق المجاورة للخط وقد أجبروا على السخرة[19].

منذ منتصف القرن التاسع عشر كانت المظاهر غير المحتملة لما يجب تسميته بالفعل بالبربرية الاستعمارية، معروفة إذن فى أوروبا وتسببت فى بعض المناقشـــات البرلمانية وأدت إلى بعض أعمال الشجب المتفرقة؛ وأنا لا أستخدم هنا هذه الكلمة – التى إستُهلِكَت أحيانا –كلمة البربرية– باستخفاف، عما قام به الغربيون بـــكل هـــذه السهولة ضد من أرادوا إخضاعهم، إذ أنها بالفعل أعمال بربريـــة بـــالمعنى الـــذى نعطيه اليوم لهذه الكلمة –ويكفى للاقتناع بذلك قـــراءة بعـــض تقـــارير الحمـــلات التأديبية أو التجنيد الإجبارى– إقترفت جميعها فى نهاية الأمر باسم القيـــم الخاصـــة بالحضارة الوحيدة الجديرة بهذا الإسم وهى الحضارة الغربية؛ إن إتفاقية برلين لعـــام 1885 التى تقسم أفريقيا بين القوى الغربية تنص فى بندها 6: «تتعهد كافة القـــوى التى تمارس حقوق السيادة أو نفوذها على الأراضى المذكورة، بالمحافظـــة علـــى السكان المحليين وعلى تحسين ظروفهم المعيشية، المعنوية والمادية. [...] وستعمل على حماية وتشجيع كافة المؤسسات والشركات [...] التى تستهدف تعليم الســـكان المحليين وتعريفهم بمزايا الحضارة ليقدروها[20] ».

19. Catherine COQUERY-VIDROVITCH *Le Congo au temps des grandes compagnies concessionnaires, 1898-1930,* Mouton, Paris/La Haye, 1972.

20. *Centenaire de la conférence de Berlin,* actes du colloque international de Brazzaville, avril 1985, Présence africaine, Paris, 1987.

«الأمة هي مثل الفرد» هذا ما أكده بعد ذلك ببضعة أعوام جوزيف شامبرلين وزير المستعمرات البريطاني من 1895 إلى 1903 والمدافع الأعظم عن المهمة الاستعمارية للتاج البريطاني؛ فعلينا واجبات نؤديها ولم يعد في إستطاعتنا التنصل من واجباتنا إزاء كل هذه الشعوب الموضوعة تحت حمايتنا [...] هيمنتنا وحدها هي القادرة على تأمين السلام والأمن والرخاء لكل هؤلاء البؤساء الذين لم يعرفوا أبدا قبل ذلك هذه النعم، وبإكمال هذا العمل الحضاري نكون قد أدينا مهمتنا الوطنية للصالح الأبدي للشعوب المستظلة بالصولجان الإمبريالي [...] نعم إني أؤمن بهذا الجنس، أعظم الأجناس الحاكمة التي عرفها العالم على الإطلاق، أؤمن بهذا الجنس الأنجلو-ساكسوني الأبّي والعنيد[21].» وسنرى فيما بعد الآثار لهذا الفصل المأساوي والمستمر بين التطبيق والخطاب الخاص بالتاريخ الحديث وبين السلوك والممارسات السياسية للشعوب التي كانت واقعة فيما مضى تحت السيطرة.

حاولت بعض الأصوات التي إرتفعت -كما سبق أن رأينا- داخل الأمم «المتحضرة»[22] على شيء من النجاح تناضل ضد كراهية الأجانب التي أخذت تنتشر وتزدهر داخل بلادهم ذاتها وضد الاستبداد الدامي -صاحب الإدعاء الحضاري- الذي كان الموضوع الذي تتشدق به يوميا الإدارة الاستعمارية؛ وإذ إحذوا لهم الجبهة الأخرى لتراث عصر التنوير موقعًا، فقد أرادوا الإقناع بأن لا قيمة لمبادئ إلا إذا أصبحت واقعا؛ إلا أنه يتعين التمييز داخلهم بين موقفين إزاء الاستعمار.

---

21. MALET-ISAAC, *Histoire contemporaine 1852-1939*, classes terminales, Hachette, Paris. 1953. Actualisation de l'édition de 1930.

22 الأقواس الصغيرة المحيطة هذه الكلمة لا تعني أن أتشكك في كونها كذلك، وإنما تريد التذكير بأنها اعتبرت نفسها الوحيدة في ذلك.

الموقف الأول، وهو الذى يعترض على المبدأ ذاته، ظل هامشيا تماما حتى العشرينيات من القرن عندما أدت الشيوعية إلى هز رقعة الشطرنج الأيديولوجية والسياسية الأوربية هزًا، أما الأخرى التى كانت تنادى باستعمار ذى وجه إنسانى، كانت أكثر إنتشارا وإن ظلت أقلية إلى أبعد الحدود ودون تأثير يذكر على الرأى العام؛ كان هذا الأخير قادرا بالفعل على التعبير عن شعوره بالصدمة إذا ما بلغته أخبار الجرائم التى ترتكب باسم العظمة الوطنية أو المصالح التى هي أبعد من أن تكون دائما مصالحه هو، وكان يعبر عن قلقه إزاء مصير الجنود عندما تصبح الحملات العسكرية دموية جدا وينتقد المصاريف الباهظة عندما لا يدرك بوضوح العائد من ورائها وهو يظل مع ذلك وفى أغلب الأحيان غير مكترث بما يحدث خارج حدوده؛ ولكن لاشك يُداخِله: فقد لا تكون للمغامرة الإستعمارية الأولوية العظمى، إلا أن جنسه هو وحده الذى أنيط به القيام بها، وهو وحده الذى له الحق -وبالتالى الواجب- فى أن ينتشر فى كافة أنحاء العالم.

الحقيقة أن مجمل الإنتاج الفكرى المكتوب -والإنتاج السينمائى فيما بعد- الذى يعالج علاقات الغرب مع الشعوب المسماة غير أوروبية، جعل من نفسه-فى تماسك يثير الإعجاب- رسول ثقافة الازدراء؛ فمن النصوص العلمية والعليمة إلى الروايات الشعبية، نادرا ما كان يَشِذُّ رأىٌ عن هذا الاتجاه العام؛ كما أن الكتب المدرسية التى وزعت على أجيال من التلاميذ الأوربيين تمجد الفتوحات أولا ثم العمل على نشر الحضارة الذى يقوم به الاستعمار وأوجه التقدم الراجعة للتوسع الغربى على مستوى كوكب الأرض كله؛ وفى الولايات المتحدة سرعان ما أصبحت أسطورة الريادة وتقديس التقدم الأبيض إلى داخل الأراضى فى مواجهة البربرية الهندية، أيديولوجية وطنية وثقافة شعبية؛ والواقع أن فى هذا المجال كان القرن التاسع عشر مُبْدِعًا؛ فعلى عكس الفترات السابقة لم يعد يوجد قطاع واحد من

الرأى العام الأوروبى يجهل المغامرات التى يقوم بها بلده عـــبر البحـــار أو فـــرد أمريكى واحد لا يتتبع خطوةً بخطوة تقدم الحدود التى تواجهها مقاومات هنديـــة؛ إن قنوات الإعلام والدعاية تتكاثر، من المدرسة إلى وسائل الإتصال، ومن الجمعيـــات الأهلية إلى الروايات المسلسلة التى تتنازع الجرائد حقوق نشرها، وكان الجمـــــهور يرتعد إزاء المخاطر التى يواجهها المكتشفون والرواد وينتشى مع كل عمل بطولـــى يقومون به.

عشرات الكتاب، ومـــن بريطـــانيين وفرنســـيين خاصـــة -راحـــوا يـــروون المغامرات المجيدة والمأساوية للجنود الأبطال العائدين إلى ديارهم بعد أن واجـــهوا القسوة الخبيثة للمتمردين الأنامّيين فى فيتنام أو وحشية القبائل الأفريقية أو تطـورات حياة أسر المهاجرين الباسلة التى إفترستها أو نزعت فروة رؤوسها القبائل القاطنـــة أبعد مناطق فى العالم؛ وحتى دون الحديث عن أكبر الكتاب مثل ميريميه إلى هوجو ولوتى وكيبلنج فإن القرن التاسع عشر والجزء الأول مـــن القـــرن العشـــرين رأى ازدهار نوع من الأدب، قد يطلق عليه اليوم أدب الفئة- يســـتلهم مواضيعـــه مـــن الملحمة الإستعمارية ويصف بتفاصيل لا تنتهى البربرية السائدة فى المناطق التـــى فتح لها الغربيون أبواب المكاسب الحضارية؛ إنى لازلت أتذكر بشىء من الرعـــب رواية إنجليزية[23] تصف كيف قتل آكلو لحوم البشر من الماورى شابتين بيضـــاوين جميلتين، أو ضمن روايات عديدة أخرى، ما سرده أبطال شبان من رواية كونتيســـة دى سيجور لدى عودتهم من رحلة من رحلاتهم إلى أقاصى الكرة الأرضية.

---

23. نسى إسمها -بيما أتذكر- فى بلاد الدرويش الأخضر، ولكنى نسيت إسم المؤلف.

نحو أَوْرَبَة العالم

ولكن ما الذى راحت تفعله شخصيات هذه الروايات التى وزعت فى تلك الفترة عشرات آلاف النسخ فى هذه المناطق ؟ واقع الأمر أن أوروبا كانت فى دارها فى أى مكان من العالم منذ نهاية القرن التاسع عشر، لأنه لم يكن المُناط بها هو الغزو فقط ونشر الحضارة ولكن أيضا توطين مهاجريها فى قارات اعتبرت خالية أو تكاد تكون مسكونة بشعوب متوحشة وفتحت ذراعيها لهم؛ وفيما عدا آسيا التى كانت بالفعل مزدحمة بسكانها والتى خرج جزء كبير منها عن نطاق الاستعمار المباشر، فإن الكوكب بأكمله أضحى أرضا للاستقرار بالنسبة لشعوب تميزت طوال القرن التاسع عشر كله والعقود الأولى من القرن العشرين بدينامية ديموجرافية غير مسبوقة ونزوح ريفى لم يعرفه التاريخ من قبل؛ ومهما كانت السرعة التى تطورت بها الصناعة فى أوروبا الغربية فهى لم تتمكن من إستيعاب كل الفائض السكانى الذى تحرر بهذه الطريقة، والعالم الجديد إستقبل خلال قرن واحد ملايين الأوروبيين الذين نزحوا عن قارة لم يكن فى إمكانها إستيعابهم جميعا.

تأتى أمريكا الشمالية فى البداية ولكن ايضا القُمع الجنوبى من أمريكا اللاتينية والأقيانوس ومناطق الاستقبال الأكثر تواضعا المتمثلة فى الممتلكات الإستعمارية -وهي شمال أفريقيا بالنسبة للفرنسيين والإيطاليين والإسبان، وشرق أفريقيا وجنوبها بالنسبة للألمان وخصوصا البريطانيين- شكلت خزانًا يصب فيه الفائض الديموجرافى الأوروبى؛ فمنذ عام 1830 وحتى 1920 سافر ما يربو على 35 مليون أوروبى إلى الولايات المتحدة منهم 4.5 مليون بريطاني و4.6 مليون إيرلندى و2.5 مليون سكاندينافى و6.5 مليون ألمانى ونحو مليون بولندى وما يقرب من أربعة ملايين من رعايا الإمبراطورية الروسية وخمسة ملايين إيطالى؛ ما يقرب من نصف السكان الذين بقوا احياء بعد المجاعة التى احتاجت إيرلاندا عام 1848

هاجروا من بلادهم في الجزء الثاني من القرن، كما أن ما يقرب من نصف سـكان السويد التى كانت تتميز عندئذ بفقرها المُدقِع قد توجهوا إلى أمريكا فى بداية القـرن العشرين الى هذا الخروج نحو الولايات المتحدة، يجب أن تضيف الـهجرة نحـو مراكز هجرة التسكين الكبرى الأخرى: وصل 8 ملايين فردا إلى كندا خلال القـرن التاسع عشر، وفضّل ما يربو قليلا على مليونين مـن الأوربيين الاستقرار فـى إستراليا فيما بين 1820 و1940، كما ذهب حوالـى 12 مليـون إيطـالى وإسـبانى وبرتغالى وألمانى لكى يعمروا أمريكا الجنوبية، وفضل بضع مئـات الآلاف منـهم المستعمرات فى أفريقيا؛ فى المجموع غادر أكثر من ستين مليون أوروبى قارتـهم فى أكثر بقليل من قرن من الزمان اى ما يمثل نحو 14% مـن مجمـوع السـكان الأوروبيين فى عام 1914[24].

لم تكن أىٌّ من هذه الأراضى التى استولوا عليها خالية تماما مـن السـكان؛ بعضها يكاد يكون فارغا، والبعض الثانى، الذى كان عدد سكانه قليـلا ويعيشـون متفرقين. كما هو الحال فى أمريكا الجنوبية، ذابوا تحت تـأثير صدمـة المرحلـة الاستعمارية الأوروبية الأولى؛ والبعض الثالـث كان بـه شـىء مـن الكثافـة السكانيـة بمقاييس ذلك العصر. إلا ان السكان الأصليين لـم يكونـوا موجوديـن خارج روايات المغامرات والأبحاث العلمية واستراتيجيات مجالس أركان الحـرب التى كانت مهمتها إخضاع تمرداتهم أو تصفيتهم، وعلى العموم لم يكن وجودهم يعد بأى صورة كانت من المعطيات التى مـن طبيعتـها الحـد مـن نشـر السـكان الأوروبيين.

24 تحمل هذه الأرقام مأخوذ عن صوفى بيسيس.
Sophie Bessis, *La Dernière Frontière. Les tiers mondes et la tentation de l'Occident*, J.-C.Lattès, Paris, 1983.

بالإمكان أن تقرأ سطور الوصف التالية المنشورة في دليل من كتب "كيفية الإستقرار" التي يلجأ إليها المستعمر الذي يريد أن يستقر في الجزائر أولا، ثم في تونس وأخيرا في المغرب والتي كانت تنشره فرنسا بانتظام إبتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر: « تقدم تونس [...] مجالا واسعا لنشاطات مواطنينا؛ مثل ذلك المزارع الذي يعيش حاليا بالكاد على ملكية صغيرة دون أمل في توسيعها في يوم من الأيام [...]، سيجد على الجانب الآخر من البحر المتوسط وسائل توسيع أفق حياته؛ وصاحب الملكية الشاسعة سيجد في عمليته الإستعمارية طريقة للتخفيف من آثار قانون أيلولة الملكية، لأنه سيتمكن من الإحتفاظ بكامل أراضيه بوضعها في أيدي أحد أبنائه، إن هو أعطى للآخرين -وهو على قيد الحياة- ملكيات أخرى في تونس؛ فمن المستحيل [...] تعداد كافة الاحتمالات بالمزايا التي يمكن ان تقدمها إلى اصحاب العقول المنفتحة [...] مستعمرة تزداد شهرتها الحسنة وتتأكد كل يوم.[25]»، وعلى وجه الخصوص هذه السطور المأخوذة من باب اليد العاملة -« حضور العمال غير المتخصصين [...] يكاد يكون بلا معنى بسبب رخص سوق اليد العاملة المنافسة العربية والإيطالية والمالطية واليهودية»- أما أصحاب البلد الأصليون فهم غير مذكورين في بقية المستند سوى في هيئة عنصر من عناصر الديكور.

حتى في عام 1953 كان سكان المستعمرات لا يساوون سوى أقل بقليل من سطر واحد في كتاب من كتب التاريخ الفرنسي الخاصة بالفصول الثانوية النهائية في باب الأشكال التي اتخذتها الإمبرياليات التي تتميز فيما تتسم به بـ«غزو وفتح مناطق تسكنها شعوب متخلفة»، أما سكان البلاد المسماة جديدة فهم غير مذكورين

---

25. Régence de Tunis, Protectorat français, Direction de l'Agriculture, du commerce et de la colonisation, *Notice sur la Tunisie*, 6[e]édition 1909.

حتى من باب التذكرة بالشيء: « إن أهم الآثار المترتبة عليها [الهجرة الأوروبية] كانت استيطان بلاد جديدة [...]، والنهوض بها نهوضا يتراوح في درجته وفي سرعته لبلوغ مصاف البلاد المتحضرة والقوى الاقتصادية[26].»

على الرغم من كون الشمال الأفريقي أكثر سكانًا وأقرب جغرافيا ومعروفا أكثر من مناطق أخرى أصبحت أراضيه أراض إستيطانية؛ ولعل ذلك هو السبب الذي دفع المؤرخين الفرنسيين -لتبرير احتلاله- إلى إصطناع محاجة أكثر شمولا من مجرد الضرورة البسيطة لسد شهية أصحاب الريادة من السكان الأوروبيين في بحثهم عن مساحات حيوية جديدة؛ من المؤكد أن بوجو Bugeau قد مال إلى التبسيط الفكري عندما أكد أن « الجزائر تحتاج لغزو ضخم مماثل لما قام به الفرنجة وما قام به القوتيون[27] ».

ولكن إذا وجد آخرون[28] يشاركون وجهة النظر هذه التي هي أقرب للصراحة القاسية التي يتسم بها الفاتحون في كل زمان ومكان من وسائل التبرير الغربية المتحذلقة فإنهم لا يمثلون الأغلبية؛ يبدو أن لدى الغرب فكرة متسامية عن ذاته أكبر من أن يجعل من القوة والمصلحة المبررات الوحيدة لعملياته؛ فرنسا وهي تقيم إذن في أفريقيا الشمالية أخذت تعيد في الواقع علاقاتها مع ماض سحيق بأن إستعادت مشعل اللاتينية، ولعل المؤرخ إ.ف.جوتييه هو الذي أقام في الثلاثينات بأوضح ما

---

26. MALET-JSAAC, *Histoire contemporaine 1852-1939, op. cit.*

27. Cité par François MASPERO, *L'Honneur de Saint-Arnaud, op, cit.*

28. أحد كبار موظفي وزارة المستعمرات الفرنسية تمكن من الإعتراض بهذه الكلمات في بداية القرن على العطاء الأخلاقي الذي يعرقل المسيرة الإستعمارية: «إن ما يقوم عليه أساس أي سياسة إستعمارية هي القوة. [...] لقد سمعنا أن الأحراش الأفريقية "تدر" أعلى دخل. [...] ما الذي تفعله هنا العلوم والعدل وطيبة القلب وعلى وجه الخصوص التقدم؟» راجع:

(Charles RÉGISMANET, *Questions coloniales*, Larose, Paris, 1912, cité par Jean SURET-CANALE, *in Centenaire de la conférence de Berlin, op. cit.)*.

يكون هذا النوع من نظرية قانون العودة [قبل الحالى] وذلك بأن أوضح أن أفريقيا الشمالية قد عرفت أكثر فترات حضارتها بريقا خلال العصر اللاتينى والمسيحى القديم بما أنها أصيبت بألف عام من الركود و « النعاس الإسلامى» قبل عودة الأوروبيين التى تمت فى هيئة الاستعمار مما سمح بميلاد جديد؛ هكذا أصبح الاحتلال الفرنسي مشروعا عن طريق حجة الأسبقية الرومانية -المسيحية على الوجود العربى الإسلامى الذى وُسِم بعدم الشرعية[29].

حدود التقدم

فيما عدا شعوب أوروبا هناك نوعان من الشعوب يتقاسمون كوكب الأرض فى واقع الأمر؛ الشعوب الأولى ليست سوى مجرد وحوش مازالت غائصة فى وحل الحيوانية، والاستعمار وحده بإمكانه الإسراع بتطورها لما فيه مصلحتها العليا فيجعلها تتصل ببشرية أسمى؛ على حين توجد بعض الشعوب الأخرى التى يبدو أنها لا تستحقق تسمية البدائيين؛ أما العوالم الصينية والهندية والعربية أو الإيرانية فيما أنها أبدعت حضارات معترفًا بها فى الغرب فهى -فى أسوأ تقدير- حاملة لجزء فقط من صفات الحضارة، أو -فى أفضل تقدير- منغمسة منذ عدة قرون فى ظلمات لن تخرجها منها سوى الوصاية الغربية عليها؛ ويواجه الخطاب الأوروبى هذه الإمبراطوريات التى يرى أن مقوماتها تهالكت وأنها تتحلل فى ثباتها، بأن يتحدث عن دينامية حداثته وهو يقدم نفسه كنموذج لمجتمعات يمنعها عجزها، الذى قد يكون وراثيا، عن التطور.

29. Émile-Félix GAUTIER, *L'Islamisation de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs du Maghreb*, Payot, Paris, 1932.

ومع ذلك فيجدر بنا أن نذكر هنا أيضا بأن القوى الأوروبية لم تكف عن عرقلة أى محاولة تحديث للمناطق التى تود وضعها تحت وصايتها وتقدم مصر محمد علي والإمبراطورية العثمانية أمثلة معروفة عن تلك العراقيل. لا يمكن بطبيعة الحال أن نعرف إن كان تحديث مصر لأكثر من ثلاثين عاما على يد الباشا ذى الأصول الألبانية أو إن كانت *التنظيمات* العثمانية بإمكانها أن تؤدى - وبعد أى مدة زمنية- إلى تحولات حاملة لحداثة اجتماعاتيّه؛ ولكننا نعرف فى المقابل، أن القوى الإستعمارية قد وضعت حداً، وبأسرع ما يمكن، وبالقوة فى أغلب الأحيان، لمثل هذه المشاريع؛ فمنذ الثلاثينيات (1830) أصبحت الدولة التى أنشأها محمد علي منافسا مقلقا للمصالح البريطانية فهو يصارعها على السيطرة على منطقة جوهرية فى البحر المتوسط، وفى عام 1840 وضعت بريطانيا العظمى، بعد أن سحبت فى ركابها كلاً من بروسيا والنمسا وروسيا، حدًا عسكريا للتجربة المصرية وأعادت سلطة الباب العالى على هذا الإقليم، الذى أصبح مستقلا عمليا؛ وفى المقابل كان على العاهل العثمانى أن يعمل على فتح المنطقة العثمانية، دون أى عائق، أمام التجارة الأوروبية[30].

فى الجزء الأول من القرن التاسع عشر قامت دولتان فى شرق وجنوب البحر المتوسط برد فعل امام الاندفاعات الإمبريالية الأوروبية ذلك بأن بدأت عملية تحديث نفسها وحاولت أن تُدخل نفسها فى عملية التحديث، ظنا منهما أن بإمكانهما أيضا الإستفادة منها؛ وبخلاف القوة العسكرية رُفع سلاح حرية التبادل التجارى فى وجه الصناعات الوليدة: هذا السلاح نفسه سيعاد استخدامه فى أزمنة مختلفة.

---

30. حول هذا الموضوع يمكن مراجعة:

Jacques COULAND, «L'Égypte de Muhammad Ali, transition et développement», *in* Catherine COQUERY-VIDROVITCH, Daniel HÉMERY, Jean PIEL (dir.), *Pour une histoire du développement*, L'Harmattan, Paris, 1988.

كما يمكن، فيما يتعلق بشكل عام بالدولة العثمانية مراجعة:

Maxime RODINSON, *Islam et capitalisme*, Seuil, Paris, 1966

من المعروف أيضا أن هذين البلدين أصبحا منذ تلك الفترة ساحة لجدال واسع حول الحداثة وأن عددا كبيرا من الأفكار الجديدة القادمة من أوروبا قد نوقشت فيها، وسأحاول فيما بعد إلقاء الضوء على ما آلت إليه هذه التساؤلات، أما الآن فيتعين أن نؤكد من جديد على المفارقة التى تحكم القول والفعل الغربى، عبر كافة مراحل علاقته بمن يمثلون له الآخرين؛ فهو إذ أعلن نفسه يد العالم العلمانية راح يحثه على القبول بسمة التقدم الذى لا مفر منه وعلى أن يمتثل لشروط الحداثة، ولكن بشرط -وهو شرط غير معلن- أن يكون تحديث الدول الواقعة فى ضواحيه والمستوحى من النموذج الذى يقدمه، غير ضار بمصالحه.

مطبوعا بالكلية، يظل الخطاب الغربى مُحَمَّلاً أيضا بالحداثة التى استهوت بأكثر مما يُعتقد البعض مثقفى المجتمعات الأقل بعدًا عنه. ومع ذلك ظلت القوى الأوروبية، عبر الجزء الأكبر من العصر الإستعمارى تفضل ما هو قديم متهالك وتشجع الجمود وتعتمد على أكثر القطاعات رجعية فى المجتمعات التى دخلت فى نطاق منطقة نفوذها؛ فما أن إنتهت مرحلة« فرض السلام» على البلاد المفتوحة إلا وبدأت التحالفات تعقد فى جميع الأنحاء مع الشخصيات المحلية وتم التعبير والتأكيد عدة مرات عن رغبتها فى المطالبة بعدم القيام بأى شىء قد يمس الهيراركيات التقليدية، بل على العكس من ذلك جرى الإعتماد فى أكثر من مرة على هذه الأخيرة من أجل تنظيم طرق الاستغلال الاستعمارى وتركت فى عدة مناطق، للرؤساء المحليين والملوك، اليد الطولى للسيطرة على رعاياهم.

إذا كان الغرب قد حدد نطاق خطابه فى الدفاع عن مصالحه وحدها لكان من الممكن أن نعتبر حق اللجوء إلى مثل هذه الوسائل عاديا، إذ يبدو فى الواقع أن منع ظهور أمم منافسة أو تأكيد هيمنة فئات مازالت حديثة على السلطات المحلية التى تتمتع بشرعية أقوى من تلك التى للسادة الجدد وذلك بأن تؤمن لها بعض المزايا،

هو جزء من المنطق التوسعي الإمبريالي والاحتلال الاستعماري؛ إلا أن الغرب لـــم يتوقف عن الإعلان عن كونه حامل لواء الحداثة المنتصرة والمفروض أن يســـتفيد منها الجميع، وهو مع ذلك يستنكف أن يشاطره احد المزايا التي أعلن عنها.

يفسر هذا التناقض إلى حد بعيد بعض تناقضات السياسات الاستعمارية التـــي اتبعت في القرن العشرين، وبعد ذلك الإستراتيجيات الغربية المعاصرة، كمـــا أنـــها تعلن أيضا عن مجادلات هذا القرن حول سلامة الأسس التي قامت عليها المغـــامرة الاستعمارية؛ إلا أن هذه المجادلات لا تناقش في الواقع قَدَرَ الغرب فـــي أن يكـــون نموذج تحديث العالم وإنما تنصب أكثر على شرعية الوسائل المستخدمة في عولمـــة الحداثة، وهي لا تزعزع صلابة ثقافة التفوق التي وصلت إلى قمتها فـــي العقـــود الأولى من القرن العشرين؛ لاشك أن هذه الثقافة تتطور مع كل صدمة تواجهها بـــها الأحداث، إلا أن تأصلها عميق ومحاجتها تستقي حججها من مصادر مختلفة لدرجـــة أن في إستطاعتها تغيير خطابها عند الهامش مع الاحتفاظ في نفس الوقت بجوهـــر بنيانه.

—4—

الدوام، على الرغم من التمزقات

« أثرت فى باكورات تاريخ الشرق [...] حركاتُ هجرة متعددة نتج عنها [...] خليطٌ من السكان، يمكن أن نميز بينهم عددا من المجموعات الهامة: هناك الشعوب البدائية التى إستقرت فى الشرق منذ فجر التاريخ وخاصة الحاميون في مصر والسومريين فى جنوبى بين النهرين؛ والإيجيون ذوي الأصول غير الواضحة ؛ [...] والساميين الذين أنجبوا الفينيقيين واليهود والأكاديين أيضا، وأخيرا الأشوريين [...]».

« كافة هذه الشعوب هى من ذوات القامة القصيرة بعض الشىء، والبشرة البيضاء التى تميل أحيانا إلى السمار، والرأس المستديرة والشعر الأسود؛ فى حين تطول القامة عن ذلك، مع بروفيل يميزه الأنف المعقوف بدرجة ملحوظة.

« الهندو/أوروبيون أو الآريون: على حين كانت تتشكل فى الشرق دولٌ قوية للغاية فى كثير من الأحيان، كانت سهول وسط أوروبا وشرقيها يسكنها بشر آخرون بشرتهم بيضاء جدا وعيونهم زرقاء وشعورهم شقراء ورفيعة جدا [...] كانوا يعملون فى معالجة خام الحديد [...] على حين لم يكن الشرق يعرف سوى النحاس والبرونز».

هذا النص المطول الذى يعيد سرد مواضيع أنتروبولوجيا بنية الجسم فى القرن التاسع عشر، يرجع فى الواقع إلى مرحلة متأخرة عن ذلك بكثير، فهو مستخرج من كتاب مدرسى فرنسى للفصل السادس (السادس ابتدائى) يعود إلى علم

1950 طبقا للبرامج المدرسية التى أعدت عام 1947[1]؛ وهكذا كان الأولاد فى فرنسا -ولم تكن قد مضت سوى سنتين على إنتهاء الحرب العالمية الثانية تم الكشف بعدها عن أول عملية إبادة بشرية إقترفت فى قلب الحضارة الأوروبية ذاتها- يدرسون أن الساميين أنوفهم معقوفة وأن الآريين الشقر هم أسمى من جيرانهم، كما كانوا يتعلمون أن بلاد « اليونان بحضارتها التى تفتحت باتصالها بحضارات الشرق ولكنها تخطتها بكثير [...] أدت فى التاريخ دورا رياديا متفوقا[2]».

عالم الكتب المدرسية

كان التلاميذ الغربيون بعد الحرب يتعلمون أشياء كثيرة، إذ كان تلاميذ الولايات المتحدة يُلقمون باحداث ملحمة الرواد الأوائل ويلعبون لعبة الكاوبويز الطيبين والهنود الأشرار، ولا يعرفون عن الرق سوى عملية إلغائه دون أن يعوا أن جزءا كبيرا من بلدهم لا يزال يعيش فى ظل نظام تفرقة عنصرية (أبرتايد) صارم للغاية؛ أما تلاميذ إسبانيا فلم يكونوا يسمعون عن الماضى الأندلسى إلا عندما تعيد كتبهم المدرسية وصف الأحداث المجيدة للـ *Reconquista* (إعادة الغزو)، وهم إذ يشبون على إتباع شعائر الملوك الكاثوليك، لا يعرفون أن ابن رشد وموسى بن ميمون كانا من مواطنيهم فيما مضى ومن زمن طويل.

يتعلم مواطنو المستقبل للقوى الأوروبية العظمى أن الإمبريالية الاستعمارية تمثلت فى « غزو واستيلاء على مناطق تسكنها شعوب متخلفة»[3]. ويتعلمون أن بوجو وفيدارب وليوتى ولورد كرومر وسيسيل رودس أو لورد كينشز هم العظماء من الرجال الذيين يتعين عليهم أن يحذوا حذوهم؛ لاشيء يقال لهم عن« الفضائل

1. P. HALLYNCK et M. BRUNET, *L'Antiquité*, classe de sixième, Masson, Paris, 1950

2. *Ibid.*

3. MALET- ISAAC, *Histoire contemporaine 1852-1939, op. cit.*

الجهنمية» التي كان يقودها الأول ولا عن الطريقة التى قـــاد بـــها الثـــانى غـــزو السودان؛ كانت الامبراطورية الاستعمارية ترى الشروخ الأولى تنتشر فى أســـوار قلاعها وعلى حين لم تكن كتبها المدرسية تروى لهم ما حدث فى مدينـــة ســـطيف فى8 مايو 1945 ولا فى مدغشقر بعد ذلك بسنتين؛ الواقع أن الزمـــن كـــان زمـــن الدفاع عن الممتلكات الواقعة عبر البحار والتى كانت القوى الأوربية تعمـــل علـــى إنقاذ أهمها.

بعد عقد من الزمان وعلى حين كانت عملية انقضاء الاستعمار تصل لنهايتـــها لم تكن الكتب المدرسية الفرنسية قد غيرت بعد من لهجتها، وظلت تمجـــد أعمـــال نشر الحضارة على اليد الغزاة من المستعمرين وظل الصمت مخيمًا على الأعمـــال الوحشية التى واكبتها ؛ كتاب للسنة الأولى (أى الثانية الثانوية) نشر عام 1961 يعد نموذجا فى هذا الصدد[4] ليس فقط لأننا نقرأ فيه أن السنغاليين« تطورهـــم ضعيـــف» وهو ما يعد فى ذلك الحين قولاً عاديا، وإنما اللغة التى تكاد لا تختلف فـــى شـــىء عن تلك التى كانت مستخدمة فى مرحلة الغزو العظمى، إذ يقال فيه عـــن فيـــدارب (Faidherbe) أنه « صديق الإنسان المحلى ويعمـــل على تعليمه وتحريـــره»؛ بعـــد ذلك نقرأ :« على المستوى الأخلاقى يعد التوسع الأوروبى فى كثير مـــن الأحيـــان مفيدا [...] ويحل النظام والسلام محل حرب العصابات التى لم تكن لـــها نهايـــة»؛ ولكن، ويا للأسف ستترتب على التوسع« أحداث مخيبة للآمـــال وغـــير متوقعـــة؛ وخيبة الأمل العاطفية مصدرها رد فعل الســـكان المحلييـــن إزاء التوســـع [...] إذ واجـــه المستعمر الحقد وبعض حركات التمرد أيضا بدلا من الإعتراف بـــالجميل، لماذا ؟».

4. L. GENET, *L'Époque contemporaine 1848-1914,* classe de première, programme 1959, Hatier, Paris, 1961.

وفى كتاب[5] آخر يتعلم التلاميذ عن خروج الاستعمار أن استقلال الهند عام 1947 يعود إلى« عدم تفاهم» قام بين الإنجليز والهنود وأن« تطرفاً فى الوطنية» دفع الإيرانى مصدق إلى تأميم شركة البترول الإيرانية البريطانية عام 1951 وأن خروج الاستعمار من الهند الصينية الفرنسية وجزر الهند الهولندية تم بعد« تكاليف باهظة من التجارب الطويلة والرهيبة »، وسيظل القارئ الشاب يتساءل لمن كان الثمن باهظا ؛ كما سيتعلم أن « اضطرابات، بعضها خطير جدا، حدثت فى عدة مناطق من أفريقيا بعد عام 1945 دون أن تكون لديه وسائل يعرف منها ماهية هذه الخطورة، كما أن كلمتى "خروج الاستعمار" وضعت بين أقواس التنصيص».

هذا هو زاد تلاميذ الستينات الذى سيسمح لهم بفهم العصر الذى يعيشون فيه ؛ أما عن تراثهم، فالكتاب المدرسى يعلمهم أن الغرب هو الوريث الأوحد لبلاد الإغريق -(التى إبتدعت العقل)- ولروما والمسيحية[6]،« ولعل القيمة التى يوليها الغرب الأوروبى أعلى قدر هى *إحترام الكائن البشرى* » وذلك دون أية إشارة -كما سبق أن رأينا- إلى الإهانات التى وجهت للتجسيدات الآسيوية والأفريقية لهذا« الكائن البشرى» ؛ فقد أدى الموروث الحُرّ لعصر التنوير -الذى هو التوجه الإنسانى المجرد- إلى حجب أعمال اغتصاب حقوق الإنسان الفعلية التى ما يزال الغرب يمارسها.

وفى مجال آخر لم تعدل الكتب المدرسية الإسبانية أيضا بعد حكم فرانكو من نظرتها إلى الماضى وذلك على الرغم من التطور البيِّن الذى طرأ على الخطاب الرسمى والجامعى إذ عادوا يدمجون فيه المرحلة الأندلسية فى الملحمة التاريخية الوطنية ؛ فالكتب المدرسية مازالت تعلم الأجيال الجديدة أن الأسبان « الحقيقيين» فى العصر الإندلسى كانوا المسيحيين فقط وأن القرون الثمان من

5. Antoine BONIFACIO, *Histoire*, classes terminales, Hachette, Paris, 1962

6. كتبت بالخط الأسود الثقيل فى النص الذى نشره الكتاب المدرسى.

الوجود العربى لا تشكل وجودا حقيقيا فى تاريخهم ؛ إذ نقرأ فى كتاب مدرسى صادر عام 1992« أن جزءاً من السكان المسيحيين، أى الموزاراب، ظل أمينا على وطنيته على الرغم من عدم امكانية التفادى من حدوث تلوث ثقافي تدريجي» . كما يدرس كتاب فى التاريخ والجغرافيا للقسم الثانوى نشر عام 1989 من ناحيته أن « كارلوس الأول كان قد منح فى عام 1525. للمور فترة اربعين عاما لكى يبتعدوا عن شعائرهم، وفى نهاية المهلة ظل المور على ما هم عليه كالجيب المتكلس الذى لا يقبل الاندماج»؛ نرى بذلك أن ذات المحاولة للحفاظ على ثقافة أقلية فى مواجهة هيمنة الأغلبية إعتبرت شهادة لعمل مجيد فى حالة المنوزاراب، أما فى حالة المور فقد إعتبرت برهانا على غرابة خِلْقِيةّ؛ فبمثل هذا الزاد يستطيع التلميذ أن يبرر طرد آخر المسلمين من إسبانيا عام 1609؛ كما يؤكد كتاب لغة إسبانية صادر فى عام 1992 أن« الغزو العربى قام بإفساد التاريخ الإسبانى من جميع الأوجه»[7].

موجة ما هو« سليم من الناحية السياسية» التى إجتاحت الولايات المتحدة إعتبارا من الثمانينات لم تَطُلْ إيمانهم بفكرة « القدر الواضح» الذى إختُصَّ به شعب الرواد ؛ ولايزال إحتلال الأراضى الأمريكية يقدم فى معظم كتب التاريخ المدرسية على أنها عملية شرعية تدخلُ فى إطار الضرورة التاريخية التى كان يتحتم مع ذلك القيام بها بطريقة إنسانية أفضل: لقد تطورت اللهجة فى معظم هذه الكتب دون أن تطرح لمناقشة حقيقية الأسس التى يقوم عليها التاريخ الرسمى، وأصبحوا يعطون وصفا أقل انحيازا عن غزو الغرب وعن الأعمال الوحشية التى إرتكبت فى حق الهنود الحمر وعن الخرق المنظم للمواثيق التى وقعت وأقرت بأن

---

7. النصوص المأخوذة من الكتب المدرسية الإسبانية واردة فى:

Gema MARIN MUÑOZ, Begoña VALLE SIMÓN, Maria Àngeles LÓPEZ PLAZA, *El islam y el mundo àrabe, guia didàctica para profesores y formadores,* Ediciones mundo àrabe e islam, Madrid, 1998 (traductions de Sophie Bessis).

« حل المسألة الهندية[8]» اتخذ فى أغلب الأحيان شكل المذابح المنظمـــة ؟ ونتوقــف هنا للحديث عن التناقض الذى قد يثور بين الرغبـــة فـــى أن تقـــوم الجمهوريـــة الأمريكيـــة على تقديس الحرية وعلى اســـتعباد الســـود؛ ولكـــن مـــازال التـــاريخ الأمريكى هو الملحمة البيضاء العظمى اللتى صححت إنحرافاتها أعمـــالُ الرجـــال البيض « الطيبين» الذين عملوا على تهدئة الحماس الإجرامى لجيل الرواد المتســـرع وعلى إنهاء الاسترقاق الذى طال أمده فى مزارع الجنوب[9]؛ وإذا لم يطل الحـــديث -كما كان يحدث من قبل- عن وحشية الرواد وبربرية الآخرين فـــلا يجـــئ ذكـــر الهنود والسود على أنهم مؤثرون فى الأحداث.

ألم يحدث شيء إذن منذ بداية القرن حتى تحتفظ المعتقدات الدوجماتيـــة التـــى إختُرِعَت عبر قرون من الهيمنة بوضعها على أنها من البيِّنات وحتى يستمر تعليـــم الشباب الغربى انهم أبناء بشرية عليا ؟ كيف يمكن تفســـير أن المعتقـــدات اليقينيـــة السائدة فى القرن التاسع عشر ظلت سائدة على الرغم من الزلازل التى طبـــع بـــها هذا القرن (العشرين) ؟ ثلاث فترات جوهرية هى علامات علـــى الطريـــق الـــذى سلكته ثقافة التفوق فى تطورها، قد تضعف أحيانا ولكنها تتدعم أيضا فتغـــير مـــن لغتها عبر القرن العشرين دون أن تختفى تماما وهى: الشيوعية وإدراكها للعلاقـــات مع الآخر غير الأوروبى، والموجة العاتية لإبادة الجنـــس التـــى إقترفتـــها ألمانيـــا النازية، وانتهاء عصر الاستعمار.

---

8. هكذا تسمى العديد من الكتب المدرسية هذه الحقبة من تاريخ الولايات المتحدة ؛ راجع ضمن كتب أخرى:
Samuel E. MORISON, Henry S. COMMAGER, William E. LEUCHTENBURG, *The Growth of the American Republic,* Oxford University Press, New York, 7ᵉédition, 1980.
هذا الكتاب المخصص لمدارس يعتبر نموذجا للتغير فى لهجة الخطاب الرسمى وللغموض الذى لا يستطيع الفكاك منـــه ؛ وهو يذكر -دون أن يصف ذلك- إبادة الهنود الذين نقص عددهم من 000 35 إلى 000 10 بـــين 1850 و1860، إلا أنه يغفر أمريكا البيضاء بطريقة ما، إذ يذكر أن العديد من السياسيين فى ذلك العهد عبروا عـــن امتعاضـــهم الشـــديد لعمليات التنيعة التى إرتكبها الغزو.

9. راجع من بين مراجع أخرى:
Oscar et Lilian HANDLIN, *Liberty in America 1600 to the Present,* volume 2, *Liberty in Expansion 1760-1850,* Harpers & Row, New York, 1987.

تناقضات شيوعية

الشيوعية -وهذا قول بديهى- هى لحظة تمزق. فمنذ مولدها على الأشلاء التى تسببت فيها الحرب العالمية الأولى كانت الحركة الشيوعية التيار السياسى الوحيد الذى طرح فى تلك الفترة للمناقشة مبدأ الاستعمار ذاته وليس وسائل تحقيقه فقط. وهى وحدها التى طبقت على الإطار الإستعمارى مقولة ماركس: « الشعب الذى يظلم شعبا آخر لا يمكن أن يكون حرًا»، هذه الجملة التى استوحاها مؤسس الأُمَمِيَّة الأولى من المسألة الإيرلاندية وطالبت منذ نهاية الحرب باستقلال البلاد التابعة للإمبراطورية الإستعمارية.

كان الشرط الثامن من الواحد والعشرين شرطا لمؤتمر "الأُمَمِيَة الشيوعية" الثانى الذى انعقد عام 1920، ينص على ما يأتى: « فى مسألة المستعمرات والجنسيات المضطهدة، يتعين على أحزاب البلاد التى تمتلك برجوازيتها مستعمرات أو التى تضطهد أمما، أن يكون لها سلوك واضح ومحدد للغاية؛ كل حزب ينتمى للأممية الثالثة عليه واجب الكشف بلا هوادة عن أعمال "رجاله من المستعمرين" فى المستعمرات وأن يساند، لا بالكلام وإنما بالفعل، كل حركة تحرر فى المستعمرات وأن يصر على طرد الإمبرياليين التابعين للبلاد الإستعمارية من المستعمرات. وأن ينمى فى قلوب عمال بلده المشاعر الأخوية الحقة إزاء سكان المستعمرات العاملين والجنسيات المضطهدة وأن يُزْجى بين قوات البلد الاستعمارى الإثارة المتواصلة ضد أىَ اضطهاد للشعوب المُستَعْمَرَة [10] ». وفى المستعمرات ذاتها، ظلت الأحزاب الشيوعية -حيثما وجدت- ولمدة طويلة، التشكيلات التى تتجمع فيها كافة الملل والجنسيات، وفى العالم العربى مثلا عكست بالفعل -ولكن ليس عددا- التشكيلة الموزايكية الوطنية والدينية لبلاد مثل سوريا ومصر وفلسطين وتونس[11].

10. *المؤتمرات الأربعة الأولى للأممية الشيوعية*، باريس، ماسبرو.

11. عن الأحزاب الشيوعية المغربية راجع: جولييت بيسيس:

ومع ذلك لم يشكل الشيوعيون قط -حتى فى فترات الذروة التى وصلوا إليها قبل[12] وبعد الحرب العالمية الثانية، وحتى خلال فترات مناهضة الاستعمار التى أشعلوها فتوهجت، (مثل تدخلاتهم لمناصرة الأمير عبد الكريم وحرب تحرير الريف (فى المغرب) أو فيما بعد من أجل إستقلال الهند الصينية الذى نادى به فى الحقيقة حزب شقيق)- لم يشكلوا بوتقة تعاد فيها للمناقشة الأسس التى يقوم عليها تصور التفوق الغربى مناقشة تكون على مستوى اتساع نطاق الواقع تحت تأثيرها؛ ما يبدو غريبا للوهلة الأولى يفسره استخدام المسألة الاستعمارية دائما أداة تتشكل طبقا للتحالفات السياسية الأوروبية والتى توضع برامجها فى موسكو وتقوم على تنفيذها بالحرف الواحد الأحزاب الشيوعية الوطنية التابعة للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى؛ وعلى الرغم من عرائض المبادئ الأولى التى نشرت، لم يكن تحرير المستعمرات يشكل أحدى أولويات واضعى إستراتيجيات الكومينترن، ثم الكومينفورم، وإنما كان يستخدم ورقة حمراء مفيدة عندما يكون من المناسب إحراج موقف الحكومات البورجوازية فى الفترات التى لم تكن فيها من حلفاء الحزب.

وعلى العموم كان هذا التحرر يدخل -بالنسبة لمنظّرى الحركة الشيوعية- فى إطار مجموعة الثورات التى ستعم فيما بعد البلاد الاستعمارية، فكما أنهم -فى الجانب الذى يضم مؤيدى الاستعمار- يشيدون بمهمة نشر الحضارة التى يقوم بها الغرب، كان النموذج التحريرى للشعوب لا يمكن أن يأتى -بالنسبة لمحترفى الأممية- سوى على يد البروليتاريا الأوروبية، وقد عبّر القرار الذى إتخذته شعبة

Juliette BESSIS, *Maghreb, la traversée du siècle*, L'Harmattan, Paris, 1997

12. لم تحدث هذه القمم فى تواريخ واحدة بالنسبة لأحزاب أوروبا الغربية ؛ فالحزب الشيوعى الإيطالى دخل منذ العشرينيات فى فترة إنكماش لن يخرج منها سوى فى فترة المقاومة؛ وبدأ الحزب الألمانى مرحلة تدهوره الشديد فى عام 1933، على حين عرف الحزب الفرنسى فترة أمجاده مع " الجبهة الشعبية؛ الحزب الشيوعى الفرنسى استخدم هنا كخط سار عليه تحليل مواقف التشكيلات الشيوعية فى الدول الإستعمارية الأم إزاء المسائل الإستعمارية؛ كانت فرنسا فى الواقع الدولة الإمبريالية الوحيدة التى كان لها حزب شيوعى قوى.

سيدى بلعباس للحزب الشيوعي الجزائرى عن شعور عمّ جزءً لا يمكن تجاهله في الكوادر الشيوعية، ولو أنها ووجهت بالنقد في ذلك الوقت: « إن نجاح ثورة جموع الشعب المسلحة في الجزائر إن لم تكن تالية لذات الثورة المنتصرة للجماهير البروليتارية في البلد الإستعماري سيؤدي بالضرورة في الجزائر إلى العودة نحو نظام قريب من الإقطاع وهو ما لا يمكن أن يكون الهدف من العمل الشيوعي[13]. »
بل أكثر من ذلك، فعندما كانت حركة تحرير وطني تقلب تسلسل الأولويات الذى وضعته الطليعة الثورية الأوروبية رأسا على عقب، كان الشيوعيون يقاومونها، فلم يكن هؤلاء يناصرون في النهاية التشكيلات الوطنية إلا عندما يكونون في موقف ضعيف وفي اللحظة التى تكون هذه الأخيرة قد أثبتت مقدرتها على قيادة جماهير البلاد المستَعْمَرة المهتمة بتحررها أكثر من إهتمامها بالثورة العالمية.

ومهما كان البعد الذى وصل إليه « التضامن الأُمَمي » في بعض الفترات فقد ظلت المسألة الإستعمارية، بالنسبة للاتحاد السوفيتي ومجمل الحركة الشيوعية، تالية لعمليات الكفاح التى تقوم بها الحركات البروليتارية في المراكز الإمبريالية... ولمصالح الاتحاد السوفيتي؛ وإذا كان الشيوعيون يؤمنون بشرعية طموحات الشعوب المقهورة في التحرر، وإذا كانوا مستعدين لمساعدتهم بشرط ألا يغيروا من تسلسل المخطط الزمني الذى وضعته الأممية الدولية فإن الشيوعيين لم يناقشوا حقيقةً حق الغرب « الطبيعي » في الاحتفاظ باحتكار الفكر وفي أن يقدم نفسه على أنه موضوع التاريخ الحقيقي الوحيد.

هل هي الخطيئة الأصلية ؟ لقد كررنا بما يكفي القول بأن الآباء المؤسسين قد شكلهم القرن الذى عاشوا فيه ؛ كما نعلم -وعلى الرغم من حدوسه القوية للغاية والقصيرة للغاية أيضا عبر حديثه عن بعض طرق الإنتاج غير الأوروبية- ما هو

---

13. Résolution de la section de Sidi-Bel-Abbès en Algérie, *in* Jacob MONETA, *Le PCF et la question coloniale*. Maspero, Paris, 1971.

مدى المركزية الأوروبية عند ماركس، هذا الإبن الشرعي والمعترف به للكلية العالمية النرجسية لعصر التنوير وللفلسفة الألمانية، التي جعلته يكتب، فيما كتب: « إن المجتمع الهندى لا تاريخ له على الإطلاق -أو على الأقل- ليس له تاريخ معروف ؟ إن ما نسميه تاريخه ليس سوى تاريخ الغزاة المتتاليين عليه الذين أقاموا إمبراطوريتهم على الأساس السلبى لهذا المجتمع غير القادر على المقاومة ولا على التغيير[14].» ونتعرف، فى كتاب *أصل الأسرة والملكية والدولة* لإنجلز، على التأثير الذى كان لعلم الأجناس فى عصره على مفكر متقد الذهن من وجوه عديدة، ولبدلاء المذهب النشوئى التطورى البعد ـــ داروينى من مذهب الثقافيين، حتى لو أن أعماله قد نصت على وحدة الفكر الإنسانى غير القابلة للجدل.

ماركس ذاته والذين ساروا على دربه من المفكرين الماركسيين -كما علم مؤخراً- وافقوا على العملية الإستعمارية متعللين بأنها تسرع من دخول المجتمعات القبل-رأسمالية فى مجال رأس المال، فتدفع -دون أن تدرى- بالإنتشار الكوكبى للشيوعية؛ وإستطاع ماركس بهذا الشكل أن يعتبر أن « إنجلترا مُنَاطَةٌ بها مهمة مزدوجة فى الهند، واحدة تدميرية والأخرى مجدّدة: القضاء على المجتمع الآسيوى القديم ووضع الأسس المادية للمجتمع الغربى فى آسيا[15] ». وإن كان فى كتاباته الأخيرة قد رد جزئيًا اعتبار إمكانيات التطوير التى يمكن أن تكون للبنّيات القبل-رأسمالية ؛ إلا أن الغرب وحده هو الذى ظل -فى رأيه- يعطى إشارة هذا التقدم.

على الرغم من أن روح شيوعيّى القرن العشرين قد شكلتها المساواة ذات الجذور العميقة داخل الثقافة السياسية الأوروبية والتى جاءت ترجمتها على المستوى العالمى فى الحركة الأممية، إلا أنهم لم يجدوا ضمن تراثهم آداة واحدة

14. Karl MARX, «La domination britannique en Inde», article de 1853 (*in Œuvres complètes*, Éditions sociales, Paris, 1968).

15. *Ibid.*

تساعدهم على تخليص فكرهم من البنيات الهيراركية للعالم، وهى تشـــكل القـــاعدة التى تقوم عليها ثقافتهم، بل على العكس من ذلك فإن قادتهم ومناضليـــهم هـــم مـــن أبناء أوروبا هذه، الواثقة من ذاتها والمقتنعة بأنها تسرع من التقدم حيثمـــا نشـــرت أسلحتها ومصانعها أو طلائعها العمالية.

لذلك فبينما كان الخطاب الشيوعى -يقف بما فيه من غمـــوض وتناقضـــات- عند امتداد فكرة الكلّية التى أفرزها عصر التنوير، كان الشيوعيون ينتجون النمـــاذج المنبثقة عن ثقافة التفوق التى بقوا متشبعين بها والتى تعد نسختها المقبولة سياســـيا هى " الأبوية ". وقد أكد التقرير "عن الشيوعية والمستعمرات" المقدم للمؤتمـــر الأول للحزب الشيوعى الفرنسى فى مرسيليا فى ديسمبر 1921: « صعوبة أخرى تكمُـــن فى عدم المقدرة التى تكاد تكون عامة لدى السكان الأصليين على تحريـــر أنفســـهم بأنفسهم، وليس لهم ماضٍ ثورى. [...] إن مجهوداتنا من أجل تحررهـــم وبالتـــالى من أجل جعلهم يساندون عملنا الثورى، لن تجد تأييدا جادا من ناحيتهم فـــى بدايـــة الأمر على الأقل[16] ». كما يوجد مستند آخر يكاد يكون معاصرا لهذا الأخير يشـــير ضمنيا إلى صعوبة الاختلاط فى الوضع الاستعمارى: « جهود يجب أن تبذل لكـــى يأخذ كل قسم فى أعضائه عناصر من المواطنين المحليين، إذ من الملاحظ فى هـــذا الشأن أن عدد هؤلاء المواطنين المحليين فى خلايا الأقسام داخل فرنسا كبـــير ؛ إلا أنهم نادرون جدا فى الجزائر، ولاشك أن ذلك يرجع إلى أن لديهم أفكـــارا مســـبقة ويخشون الطريقة التى سيلقاهم بها رفقاؤهم من أوربييّ الجزائر[17] ».

لاشك أن مثل هذه الجهود قد بذلت وشاركت فى إعطاء الأحـــزاب الشـــيوعية غير الأوروبية شكل مجتمعات -مضادة فى بيئات علـــى درجـــة عاليـــة مـــن

16. Cité par Jacob MONETA, *Le PCF...*, *op. cit.*

17. «Le communisme dans l'Afrique du Nord, projet de programme d'action présenté au congrès fédéral d'Alger du 14 janvier 1923», cité par Jacob MONETA, *Le PCF. . , op. cit*

الجماعية؛ إلا أن فكر الهيمنة المتمركز حول أوروبا- للرفاق من مواطني البلد الإستعماري قد أبعدت عنهم العديد من « أولاد البلد » الذين إستهواهم في البداية أول خطاب غربي يقر بشرعية طموحاتهم؛ وجعل (Aimé Césaire) سزار من نفسه في خطاب إستقالته الذى أرسله إلى الحزب الشيوعي الفرنسي في عام 1956 المُعَبِّر عن المرارة التي خلفتها خيبة الأمل هذه بأن قدم كشفاً يَجْرُد فيه« العيوب البارزة جدا التي نلاحظها لدى كافة أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي: في إرادتهم المتأصلة في استيعاب الآخرين؛ في إقتناعهم الذي يتسم لدرجة كبيرة بالبدائية بتفوق الغرب في كافة الأمور؛ -وهم في ذلك شركاء للبورجوازيين الأوروبيين- في إيمانهم بان التطور بالصورة التي تم بها في أوروبا هو الممكن الوحيد والمرغوب الوحيد [...]؛ وبشكل عام في إيمانهم -غير المعلن إلا نادرا ولكنه حقيقي- بالحضارة بمعناها الواسع. فإذا كان الهدف من أي سياسة تقدمية هو إعادة الحرية في يوم من الأيام إلى الشعوب المستعمرة فيتعين على الأقل ألا يدخل العمل اليومي للأحزاب التقدمية في تناقض مع الهدف المنشود وألا يدمر يوميا أسس [...] هذه الحرية ذاتها[18]».

التناقضات الشيوعية والتقاعس في بعض المواقف، مثل إنضمام الحزب الشيوعي الفرنسي إلى الاتحاد الفرنسي في الخمسينات والرجوع المتكرر إلى الحديث عن« العظمة الفرنسية» وإلى « مصالح فرنسا» ما إن دخل في الحكومة عام 1945 ثم في بدايات حرب الجزائر[19]، لم تأت فقط كنتيجة لصلة النسب التي

18. Aimé CÉSAIRE, *Lettre à Maurice Thorez du 24 octobre 1956*, Présence africaine, Paris, 1956.

19. في عام 1945 دار النشر الإجتماعي Éditions sociales نشرت مجموعة تقارير موريس توريز (إلى المؤتمرات 8 و9 و10 للحزب الشيوعي الفرنسي بالإضافة إلى تقريره المقدم إلى إجتماع اللجنة المركزية المنعقد في 19 مايو 1939) تحت عنوان *سياسة من أجل العظمة الفرنسية*؛ أما بالنسبة للمصالح الفرنسية فهي مذكورة بين أشياء اخرى في بيان الحزب الشيوعي الفرنسي عن الوضع في الجزائر الصادر في نوفمبر 1954 وفي نصوص أخرى عديدة.

يدخل فى إطارها الفكر الماركسى ثم اللينينـــى، ولا هـــى مـــن نتـــائج الحســـابات السوفيتية، إنها تعكس أيضا غمـــوض مواقـــف الطبقـــات الغربيـــة العاملـــة إزاء المغامرات الإستعمارية والتى حصلت على نصيبها -(الذى هو أقل مما حصل عليه غيرها ولكنه نصيب على أى حال!)- من أرباحها. إن الخطاب الشيوعى النضـــالى المناهض للرأسمالية سمح للشيوعية بأن تختزل من واجباتها القيام بتحليل علاقـــات البروليتاريا الأوروبية مع الواقع الاستعمارى، ثم واقع الهجرة وأيضا مـــع مســـألة العلاقات بين الأجناس؛ فلما كانت العنصرية والتفرقة بين الرجل والمرأة ومناهضـــة السامية تعتبر فى خطابه من عيوب الرأسمالية وهى محكوم عليها بأن تغرق معـــه، فإن البروليتاريا معفاة منها بطريقة طبيعية إن صح هذا القول.

السمة الانتقائية جدا للانتماءات الفلسفية والسياسية التـــى يعلـــن الشـــيوعيون انتسابهم لها، والتستر على القالب الثقافى للماركســـية واللينينيـــة، وإرجـــاع كافـــة المفارقات التى تمر بها المجتمعات البشرية إلى التناقض الوحيد الـــذى لـــه معنـــى بالنسبة للتاريخ وهو التناقض بين الطبقات الاجتماعية، كل ذلك ســـمح لـــهم بـــأن يُبْعِدوا عن إشكالياتهم أى تفسير لعلاقات الهيمنة؛ وبهذا الشـــكل بـــرأت الشـــيوعية الطبقات العاملة الغربية من أى مسئولية عن الاستغلال الاستعمارى أو انحرافـــات التطرف الوطنى التى عم الوقوع فيها كافة البلاد الأوروبية.

ومع ذلك فإن الاستغلال الامبريالى الذى وصل إلى قمته فـــى النصـــف الأول من القرن (العشرين) ساهم فى التخفيف من شدة ضغط طَوْق البـــؤس الـــذى كـــان يحيط بأعناقها (الطبقات العاملة)، وليس فى هذا القول ما يقلـــل مـــن قيمـــة الـــدور الحاسم للنضال العمالى الذى تركت حلقاته بصماتها على تاريخ التصنيع والـــذى أدى إلى التنازلات التى إنتزعت من يد أصحاب الأعمال. إلا أن عمليات التقدم المتواليـــة التى عرفها الغرب فى بداية القرن العشرين، دَفع ثمنها جزئيا الاســـتغلالُ المـــتزايد

لشعوب المستعمرات وللبروليتاريا الدنيا من الجنسيات المهاجرة الأجنبية، والتي حصلت مجمل الشعوب المنتمية للبلاد المستعمرة على فُتاتها[20].

وقطاعات الطبقات العاملة من مواطني البلد الاستعماري إذ رفعت من نفسها إلى مصاف أرستوقراطية العاملين بأجر راحت تغير من إستراتيجياتها؛ ولم تعرف أوروبا الغربية قط أي ثورات عمالية ضخمة بعد الحرب العالمية الأولى؛ وجاء سحق الحركة الاسبارتاكية في ألمانيا المهزومة والمحرومة من إمبراطوريتها بمثابة العلامة المميزة لانتهاء التعبير العنيف عن صراع الطبقات، وهو الصراع الذي أخذ يعبر عن نفسه في إطار الشرعية البورجوازية ؛ كما أن الحركة الإصلاحية التي أخذت الأحزاب العمالية تعتمدها تدريجيا، واكبها -كلما تقدمنا زمنيا في القرن- موقف ازداد غموضا تجاه الحركات الوطنية التي بدأت تهز الإمبراطوريات الاستعمارية؛ البروليتاريا الغربية، مُسْتَغَلَّة ومُسْتَغِلَّة بطريقة غير مباشرة، راحت تعبر، من خلال خطب قياداتها السياسية، عن مدى التناقضات التي وقعت فيها.

ويشرح إلتقاء مختلف هذه العوامل معا لماذا لم تتمكن الشيوعية -على الرغم من مواقفها المبدئية المعلنة عن المساواة- من إقامة بديل متماسك لثقافة التفوق؛ بل إنها على العكس من ذلك قدمت طبعة جديدة لها بأن أوكلت إلى بروليتاريا البلاد الرأسمالية المهمة الكبرى مهمة تحرير العالم من الاستبداد. إن الشيوعية في هذا الشأن لا تحمل داخلها ثورة ثقافية.

---

20. الهجرة إلى فرنسا كانت أقدم من تلك التي ذهبت إلى بلاد أوروبا الغربية الأخرى وبدأت بوصول أعداد كبيرة من الإيطاليين والبولنديين فيما بين الحربين العظميين ؟ وبعد أن تفرنست تدريجيا حل محلها في الخمسينيات مدٌ قادم من شبه الجزيرة الإيبيرية، كما إستقبلت فرنسا منذ تلك الفترة أيضا في أعداد ضخمة ومتزايدة -مثلها مثل بريطانيا العظمى وألمانيا الإتحادية وبلاد البينيلوكس- عمالا قادمين من المستعمرات أو من الضواحي الفقيرة من داخل القارة الأوروبية مثل يوغسلافيا أو تركيا.

عن النازية

إذا كان الفشل -وقد يكون جزئيا- للشيوعية في إدخال البلاد الواقعة في الضواحي المستعمَرة للعالم الغربي، إلى مجال علاقات المساواة يؤكد تجذر ثقافة التفوق، فإن النازية تطرح من جهتها مسائل من نوع مختلف: لماذا يمكن وصف عملية الإبادة التي تمت تحت لوائه بأنها فريدة ولماذا يصمها الغربيون بهذه الوصمة ؟ لماذا عبّروا -بعد الحرب- عن اندهاشهم الكبير لدى« اكتشافهم» جرائم النازية ؟ هل تعتبر النازية في تاريخ الغرب صاحبة إختراعٍ أم هي صاحبة إرث ؟ هل يتعين إعتبارها حادثا أم أنها نقطة وصول تدخل في إطار ممكنات تاريخ بدأت حلقاته قبل ذلك بعدة قرون في زمن *نقاء الدم* limpieza de sangre الإسبانية، أو كقمة مرحلة، رهيبة ولكنها منطقية ؟ ولنذهب لأبعد من ذلك قليلا ونتساءل: هل كانت عملية إبادة اليهود والغجر و « المتخلفين عقليا» ومن كافة الأوجه، الذين اختفوا في أوروبا الرايخ الثالث، فريدة من نوعها من حيث أنها ترجمة لإدارة لها برنامج موضوع للإبادة، أم أن تفردها يرجع فقط إلى الأشكال التي اتخذتها ؟

لقد جرى التأكيد كثيرا على السمة التي لم يسبق لها مثيل لعملية تصنيع الإبادة البشرية وذلك بواسطة بيروقراتية الإجرام الذي أنيط بها إدارة المسلسل المؤدي إلى معسكرات الموت، كما تم التوقف كثيرا عند السادية الفائقة للجلّادين الهيتلريين مما يعفيني من إطالة الحديث هنا عن الجانب المستحدث في آلة القتل النازية؛ ولكن هل يمكن وصف العمل الإبادي في حد ذاته بأنه شيء جديد في تاريخ الغرب ؟ سبق أن رأينا أنه من سهول الوسط الغربي الأمريكي إلى أحراش الجنوب الغربي الأفريقي إستخدم أبناء أوروبا -ودون أن يرجف لهم جفن- سلاح الإبادة حتى ينظفوا المكان وإعداده لاستقرارهم فيه؛ وعلمنا أن مثل هذه الأعمال قد شرعتها، بطريقة مقززة، نظرية طال عمرها وضعها مفكرون محترمون أساءوا استخدام حجج التفوق لجنس الغزاة، وضرورة فتح مساحات جديدة أمام قدرتهم على

التوسع؛ وبدخول مُنَظِّرى النازية إلى طريقٍ جرى تعبيده لهم ولفترة طويلة من قبل فهم لم يداخلهم أى إحساس بأنهم مبدعون؛ لقد إستوحوا أفكارهم بطبيعة الحال من أكثر المنادين بالمذهب اليوجينى راديكالية، إلا أننا نعرف أن هؤلاء لم يحتكروا الخطاب العنصرى، فقد إستخدمه كثيرا قادة الديموقراطيات؛ ففى عام 1924 أصدرت الولايات المتحدة مرسوما حول الهجرة يهدف إلى الحدّ من دخول أشخاص من « أجناس دنيا»؛ وفى بريطانيا العظمى وفرنسا ظلت الإشادة بمناقب الجنس الإبيض، فى زيٍّ جولوازى أو أنجلوساكسونى، طوال فترة ما قبل الحرب، تستخدم فى تبرير الهيمنة الإمبريالية.

لا فكرة النقاء الضاغطة ولا الإقتناع بالإنتماء إلى بشرية متفوقة ولا الرغبة فى إنتزاع مجال« حيوى»، يمكن إرجاعها إلى الإختراعات الهتلرية؛ كما أن النية الإبادية والحجج المستخدمة لتبريرها ليست سمة فريدة للبربرية النازية؛ ولكن يتعين ألا يحدث لبس حول قولى هذا: إن حديثى لا يهدف إلى« جعل الشر أمرًا عاديا[21]»، وإنما التذكير بأن الشرَّ كان قد أصبح عاديا منذ فترة طويلة.

فيما عدا الوسائل التطبيقية للإبادة البشرية، يبدو أن تفرد النازية يعود إلى واقعين: الانتقال إلى الفعل الإبادى داخل أوروبا ذاتها، والسمة« غير النفعية» للفعل ؛ فالغرب كان قد سما بنفسه إلى موقع تقديس الحضارة وهو بذلك قد أقنع نفسه بأن البربرية غريبة عنه، من ناحية الجوهر ذاته، حتى لو كان من حقه -عند الضرورة- اللجوء إلى وسائل تشبهها للغاية فى وجه « البرابرة» ذاتهم. لنتذكر هنا خط دفاع الحكومة الفرنسية أمام الإنتقادات التى أثارتها عمليات« التبخير» الجزائرية: « فى اوروبا مثل هذا العمل يصبح فظيعا ومكروها، أما فى أفريقيا فهى الحرب بعينها ؛ كيف تريدون منا أن نمارسها (الحرب)[22] ؟» لقد كانت أعمال

---

21. شكرا، هانا أرندت.

22. راجع أعلاه ص63.

الإبادة البشرية التى إرتكبت فى أمريكا أو أفريقيا جميعها « ضرورية ونفعية »: كان يجب تحرير مساحات من الأراضى أو كسر مقاومة الشعوب المقهورة بطريقة حاسمة؛ لا يبيد المرء شعبا وهو سعيد ولكن الأمر فرض نفسه لضيق المكان أو بسبب مقاومة أصحاب البلاد الأصليين ورفضهم الإنصياع لإرادة الغازي؟ قد يكون النازيون قد أوصلوا إرادتهم الضاغطة فى النقاء إلى درجة غير معقولة، بناءً على وعيهم بتفوق جنسهم -فقاموا بعملية إبادة لا طائل من ورائها أى إلى عملية إبادة بدون ثمن؛ هل نستخلص من ذلك مثلما فعل سيزار أن النازية لم تخطىء فى نظر الغربيين إلا لأنها إرتكبت جريمة إبادة جنس بشرى فى قلب أوروبا ذاتها وأن هذا التعدى وحده هو الذى تحاسب عليه ألمانيا الهتلرية ؟[23].

إذا كان يبدو من الصعب أن نُرجع السمة غير المحتملة للنازية إلى هذا السبب فقط -وإن كان له وزنه الثقيل فى تشكيلها- بالنسبة للضمير الغربى فإن ما أكده سيزار يجب أن يجعلنا ندرس الطريقة التى حاول بها الأوربيون تفسير هذا الجانب الملعون من تاريخهم؛ فعبر العقود الأولى من مرحلة ما بعد الحرب كذبوا واقعة أن الملحمة الهيتلرية التعيسة يمكن أن تكون إبنة هذا التاريخ؛ وكان وارثا مدرسة فرانكفورت: أدورنو وهوركهايمر، هما وحدهما اللذان أكثرا من التساؤلات حتى أصبحت مساءلة مباشرة للفكر التنويرى، وقد رجعا عبر التايخ حتى الفلسفة الإنسانية لعصر النهضة، للبحث فيها -على عكس ما هو معلن- عن علامات

---

23. « أنهم يعربون عن دهشتهم، إنهم يشجبون ؛ يقولون: « كم أن الأمر غريب! ولكن ..! هذه هى النازية، سيمر الأمر!» و... تكتم الحقيقة ن الذات فى أن هذه هى البربرية، إنها البربرية العظمى تلك التى يتكلل بها، تلك التى تلخص حياة البربريات اليومية، وفى أن هذه هى النازية -نعم- ولكن قبل أن نكون ضحيتها كنا من شركائها ؛ إن هذه النازية تحملناها قبل أن نكتوى بها، سامحناها وأغضضنا عنها الطرف، شرعناها لأنها حتى ذلك الحين لم تكن تطبق سوى على شعوب غير اوروبية ؛ إن هذه النازية راعيناها وكنا مسئولين عنها ... نعم! إن الأمر يستدعى [...] أن نكتشف للمحترم جدا والإنسانى جدا والمسيحى جدا بورجوازي القرن العشرين [...] أنه ما لا يغفره فى واقع الأمر لهتلر ليست *الجريمة* فى حد ذاتها، *الجريمة ضد الإنسان* ... إنما الجريمة ضد الرجل الأبيض .» الكلمات المائلة هى من تأكيد لدى سيزار ذاته. (Aimé CÉSAIRE, *Discours sur le colonialisme*, Présence africaine, Paris, 1955)

الاستبداد وعدم التسامح؛ وبقيا لفترة طويلة وحدهما يريان في الهيتلرية نتيجة لتسلسلٍ نَسَبيّ، لا عملا منقطعا وقع بذاته[24].

وبشكل عام تأخر الأوروبيون طويلا، وإن لم يقبلوا ذلك جميعا، عن الإقرار بأن إبادة اليهود كانت العبور إلى الفعل أُعِدّ له منذ عقود من الحقد الدينى والعنصرى شكلت قرناً بأكمله مضى فى التّنظير لمناهضة السامية العلمانية وشاركت فيه كافة الأُسر الأيديولوجية، وكذلك عشرات السنين من نداءات هستيرية لقتل «أعداء الجنس البشرى»؛ أقروا تدريجيا أن هذه القرون التى مضت فى التعايش مع الحقد سمحت لأغلبية السكان الأوروبيين بألا يروا الشىء الرهيب الذى كان يقترف أمام أعينهم وألا يرغبوا فى معرفة ما يجرى عمله، ولقادة البلاد الديموقراطية الكبرى التى كانت تحارب ألمانيا ألا تفعل شيئا لمنع الإبادة التى كانت لديهم الوسائل لمعرفة أبعادها وذلك منذ وقت طويل.

ولكن إذا كانت أغلبية الأوروبيين مستعدة الآن لتحمل هذه المسئولية فجانب كبير منهم مازال لا يقر بأن تكاثر المجازر واسعة النطاق -وهو ما أصبح معترفًا به بشكل عام الان- واللجوء إلى الإبادة البشرية[25] فى مناطق العالم الواقعة

---

24. ليس موضوعنا هنا هو مناقشة سلامة الأساس التي قام عليه نقد فكر التنوير على يد ممثلى مدرسة فرانكفورت، وإنما الإشارة إلى أن مسألة شجرة عائلة النازية قد طرحت منها للبحث ؛ لقد تساءل بعض المفكرين -وهم أقلية- حول الأساطير المؤسسة للحداثة الغربية لكي يتمكنوا من تفسير الإنزلاقات التي وقعت فيها. راجع ضمن مراجع اخرى:
Max HORKHEIMER et Theodor ADORNO, *La Dialectique de la raison*, Gallimard, Paris, 1983.

25. وأكرر دون أن أخلط بين الإثنين ؛ إلا أنه يبدو من المستحيل أن نرفض -مثلما يفعل حتى الآن عدد كبير من المفكرين الغربيين- كلمة إبادة بشرية لوصف -على سبيل المثال- إبادة هنود أمريكا ؛ النسخة الرسمية لتاريخ الولايات المتحدة تسلم بنفسها فى ملخص تعليمى يستطيع أى أمريكى أو أى سائح أن يقرأه فى متحف إلّيس فى نيويورك، أن «عدد السكان الأصليين الأمريكيين هبط من خمسة ملايين فى عام 1500 إلى أقل من 250 000 فى عام 1900»، فإذا نحن سلمنا بأن السبب الجوهرى وراء هذا التناقص الشديد قد تم فيما يقل قليلا عن قرن واحد وأن رغبة الفاتحين المعلنة فى تصفية شعوب تعرقلهم هى السبب الرئيسى فى ذلك، فيتعين علينا أن نتساءل لماذا يصر البعض بكل هذا الإصرار على تسمية ذلك جريمة إبادة بشرية ؛ هذا هو ما يفعله -مع كثيرين غيره- الفيلسوف الفرنسى كريستيان دو لاكامبانى بأنه لا يقبل تسمية إبادة جنس إلا بمجازر الأرمن على يد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (إبادة اليهود خلال الثانية ومحاولة إبادة التوتسى فى رواندا عام 1994) Christian DELACAMPAGNE, *Essai sur la banalisation du mal*, Odile Jacob, Paris, 1998.

تحت هيمنتهم أديا دورا فى نشر النظريات النازية، وسهلا من قبول واقع حدوث الجريمة على أرض أوروبا ذاتها؛ صعوبة أن تدرك بعض الشعوب التى عرفت أسوأ جانب الوحشية الاستعمارية أن النازية شيء فريد، يعيدونها إلى إحساس بعدم المبالاة إزاء الفظاعات الرهيبة التى وقعت فى أوروبا النازية. الأسوأ من ذلك هو أنهم -فيما عدا أقليات بسيطة جداً- قاموا بصرف هذه المجازر من ذاكرتهم كما لو أنهم كانوا يعملون بما نادى به رينان عندما قال: « النسيان، بل وأضيف: حتى الخطأ التاريخى ذاته يعدان من العوامل الأساسية فى تأسيس أمة ما[26].» وعلى هذا المنوال إستطاع مؤرخ فرنسي، فى معرض تعليق له على أحد كتب التاريخ -فى زمن ليس ببعيد- أن يصف القرن التاسع عشر (1814–1914) بأنه« قليل العنف نسبيا، إذا ما عدنا بالذاكرة إلى المجازر التى سبقته والتى تلته»، واضعا بذلك تحت ستارٍ من النسيان وبجملة واحدة، المغامرات الدموية التى واكبت التوسع الأوروبى[27].

حالة الصدمة التى إنتابت الغربيين أمام المقبرة الجماعية الهائلة التى خلفها النازيون ورائهم دفعتهم إلى التسليم بمسئوليتهم الجماعية فى الإبادة التى تعرض لها اليهود الأوروبيون، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر إلى أبعد من ذلك عند الآثار المدمرة التى ترتبت على الخطاب الخاص بالعنصرية ؛ وقد كان لهذا الوعى غير المكتمل أثران متناقضان، إذ أنه وسم بالخزى مجمل المحاجة اليوجينية العنصرية ووضع هذه النسخة من العنصرية فى مصاف الآراء التى لا يُعَبَّرُ عنها علنا، ولكن دون أى تعديل جذرى لطبيعة النظرة التى كان الغرب يلقيها حينذاك على الآخر غير الأوروبى.

---

26. Ernest RENAN, conférence prononcée à la Sorbonne en 1882, *in Œuvres complètes, op. cit.*
المؤرخ الأمريكى سكوت إلسوورث الذى درس مذبحة السود المنظمة التى وقعت فى تولسا عام 1921 وصف هذا الموقف بأنه «تفرقة للذاكرة» (*The Economist*, 24 avril 1999).

27. Alain CORBIN, «Lâge d'or de l'agressivité», *Le Monde des livres*, 13 novembre 1998.

هزات إستعمارية

إبتداءا من عام 1945 لم يعد فى إمكان الأوروبيين تأسيس شـــرعية هيمنتـــهم على تفوقهم الجينى، فقد قدم النازيون البرهان على أن من الكلام ما يقتل، كمـــا أن المقاومة التى تصدت لبربريتهم فى البلاد التى إحتلوهـــا -إلـــى جـــانب النـــداءات الوطنية- كانت قد قامت تحت راية مبادئ كلّية تنص على التساوى المطلـــق بيـــن كافة البشر ؛ وباسم هذه المبادئ أيضا ومن أجـــل الدفـــاع عـــن الحريـــة قـــادت الديموقراطيات الأنجلو-ساكسونية الحرب ضد ألمانيا، على حيـــن كـــان الإتحـــاد السوفيتى والأحزاب الشيوعية من جانبهم يناضلون باسم المضمون التحررى للكلّـــى البروليتارى؛ المنتصرون فى حرب راح ضحيتها ملايين الأفراد لأنهم« آخـــرون» وبشكل راديكالى، كان من واجبهم إذن أن ينبذوا دون رجعة أى حديث عـــن عـــدم المساواة؛ كما أن إقرار الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى عام 1948 كان بمثابـــة التعبير العلنى عن هذا الرفض ؛ وبالفعل سجل الخطاب العنصـــرى تقـــهقرا فـــى السنوات التى تلت الحرب.

مثل هذا التحول فى المواقف لم يكن ليمر دون أن تترتب عليـــه آثـــار علـــى تطور العلاقات بين البلاد الاستعمارية ومستعمراتها، إذ أن استمرار الاحتـــلال لـــم يكن يقبل التبرير بادعاء التدنى الجنسى لسكان المستعمرات، ولكـــن ظـــل الوعـــى الغربى الجديد يتسم بعدم الإكتمال، وظلت أغلـــب الشـــعوب الأوروبيـــة والشـــمال أمريكية على إحتقارها« لمن ليس أبيض البشرة» إذ عملت مصالح مختلفة وقويـــة على الاحتفاظ بالإمبراطوريات وإن كانت مستعدة لتحديث أساليب استغلالها؛ ولـــم يؤد ذلك إلى إحتضار ثقافة التفوق والهيمنة ولكن إلى إعادة التعبير عنها بكلمـــات تقبلها ضمائر جماعية كانت قد صارت، أكثر من أى وقت مضى، مقتنعـــة تمامـــا -بعد أن تغلبت عى الوحش- بأنها حاملة للواء الكلية الإنسانية مع إيمانها العميـــق والمتأصل بتفوقها.

ومع ذلك فإن التطور -وهو شديد التباين في جميع الأحوال- الذى طرأ على الخطاب السياسى جاء فى رد الواقع عنيفا؛ فمن جديد أثبت الغيرب، الذى أراد أن يظل أكثر من أى وقت مضى -لكى ينسى جانبه المظلم- وريث عصر التنوير، أنه مصاب بهذا الانفصام الغريب فى الشخصية الذى انطبع به تاريخه منذ قيامه وحتى الحداثة، فقد أطاح بعيدا من نصوصه بكل ما يمكن أن يذكر بالعنصرية الإنسانية والاجتماعية التى سادت عقود ما قبل الحرب، تاركا لليمين المتطرف هذا الميراث المحرج؛ ولكن من الممكن ان تَشْجُبَ الإنحرافات الفكرية التى أدت إلى المقابر الجماعية النازية وأن تُقيمَ نفسك بطلا عالميا للحرية وذلك -بالنسبة لأوروبا- بأن تقوم بسلسلة مخيفة من المجازر الإستعمارية وبالإحتفاظ فى جنوب الولايات المتحدة كله بنظام شرعى للأبرتايد -الذى مازال لا يعطى للزنوج سوى مكانة الإنسان الناقص- ويعاقب دون هوادة أى مساس بنقاء جنس الأسياد.

فرنسا -التى هى أقل براجماتية من بريطانيا العظمى التى اقتنعت بسُرعَة، غداة إنتهاء الحرب، بان ساعة نهاية الإستعمار قد هلّت- ميزت نفسها فى عام 1945 بالوحشية التى أعادت بها سلطاتها على إمبراطوريتها، عاملةً فى ذات الوقت على محاولة تهدئة إحباطات الشعوب المستعمرة ببعض الإجراءات التجميلية ؛ وطالت قائمة أعمال القمع الدموى التى اتسم بها رفضها العنيد للتخلى عن ممتلكاتها: من مجازر صتيف (فى الجزائر) فى 1945 إلى مجازر مدغشقر فى 1947، دون ذكر مئات الآلاف من قتلى حروب الهند الصينية والجزائر[28]. إلا أن هذه المجازر وهذه الأعمال الوحشية التى صاحبتها واللجوء الشامل للتعذيب ضد الوطنيين قد جرت عبر الخمسة عشر عاما التى تلت الحرب العالمية الثانية، على حين كانت ذاكرة الفرنسيين مازالت تحتفظ بذكرى حية للبشاعات التى إقترفها

28. Voir Yves BENOT, *Massacres coloniaux, 1944-1950. La IVe République et la mise au pas des colonies françaises*, La Découverte, Paris, 1994.

الإحتلال الهتلرى، وكانت فرنسا الرسمية تشيد ببطولة المقاومة؛ فمن ديجول إلى الإشتراكيين الذين رأسوا العديد من حكومات الجمهورية الرابعة، كانت هذه المجازر تتم بأوامر من هؤلاء الذين يتشدقون بأمجادهم التى حرروا بها بلادهم من نير الأجنبى. إن هذا الإزدواج فى الشخصية يقبل التفسير بخلاف تطابق موقف الأغلبية العظمى للطبقة السياسية الفرنسية مع مواقف متطرفى اللوبى الإستعمارى وامتداد منطق الحرب الباردة ليشمل التعامل مع حركات التحرر الوطنى باستمرار عملية الإقلال من قيمة الشعوب غير الأوروبية التى راحت تُتَهمْ بأنها مصابة بالعمى إزاء التقدم الذى تجلبه لهم وصاية الأمم المتحضرة.

إذا كان الترتيب الهرمى (الهيراركى) للشعوب لم يعد قائماً على أساس السمات الجسدية فإن اقترابهم الجغرافى من الحضارة استمر مع ذلك فى فرض نفسه بالقوة التى تُشَكِّل القناعات، أما الحضارة ذاتها فمركزها بقى فى مكانه ومنه -أى من الغرب- إستمرت فى بث مناقبها، وعبر تلك السنوات اخذ خطاب التفوق يؤقلم نفسه مع المقتضيات التى فرضتها الأزمنة الحديثة التى أخذت تَهِلّ وذلك بأن أعاد تمركُز مجال التفوق الغربى فى أبعاده التقنية والعلمية والإقتصادية والثقافية.

لم يعد هناك حديث عن« شعوب بدائية» علماً بأن الكلمة لم تختف بعد من القاموس الغربى؟ وحلت محلها« الأمم المتخلفة» التى يتعين على أبنائها من الصفوة أن يدركوا أنهم لن يجنوا شيئا إن هم أرادوا قطع الرباط الذى يجمعهم بالأوصياء عليهم؛ وبذلك أصبح عدم فهمهم لذلك وإصرارهم الشديد على المطالبة باستقلالهم بسبب عدم« نضجهم» الكافى له بمثابة برهان على غياب التمييز الفكرى عندهم وعلى السمة غير المكتملة لتحولهم نحو التقدم؛ وكان هذا اللحن الذى يَعزِف على عدم النضج الثقافى للشعوب المستعمرة مضافا إليه عدم العرفان بالجميل يشكلان الأغنية التى لا يملون تكرارها فى خطب المسئولين عن النظام الاستعمارى؛ ففى مقابلة جرت فى 26 يونيو 1942 بين فرحات عباس والرئيس الفرنسى فانسان

أوريول قدم له فيها مشروعه لإقامة الجمهورية الجزائرية في إطار إتحاد فيدرالـــي مع فرنسا أجاب الرئيس الفرنسي:« لم تكونوا دولة أبدا وقد حررناكم من العبوديـــة [...] وبالمناسبة إنكم رمز حيّ لما قامت به فرنسا ؛ إنكم مشبعون بحليبنـــا الـــذي أطعمناكم به وبثقافتنا، ومثلكم كل الذين يريدون اليوم تمزيـــق الوحـــدة الفرنســـية ؛ ولكن بدون فرنسا ما الذي ستفعلونه، ماذا تريدون[29]؟ » أما ديجول فقد أكد من جهته بعد ذلك بعدة شهور لدى زيارته للجزائر العاصمة:« الفرنسيون الأخيار يريدون أن توالي فرنسا عملها وذلك لمصلحة الجزائريين جميعا[30] ».

كما لو أن مخزون تبريرات الهيمنة لا ينضب، فـــإن الحجـــة القديمـــة قِـدم الفتوحات الأولى -التي تتحدث عن واجب مصاحبة الشعوب في طفولتها حتى سـن الرشد قبل تحريرها من الوصاية- عادت إلى شبابها من جديد قبيـــل قيـــام حركـــة التحرير الكبرى من الإستعمار. العديد من الذين يؤيدون هذه الحركة وعلى الرغـــم من تشجيعهم لتحرير الشعوب المقهورة لأسباب تتعلق بالعدالة، لـــم يكونـــوا علـــى يقيـــن من أنها قد وصلت إلى الدرجة الضرورية من « النضج» لتحمل مســـئولياتِ قدرها؛ فلقد دافع بول ريكور -وهو أحد أوائل المثقفيـــن الفرنســـيين الذيـــن نـــادوا باستقلال المستعمرات وهو أيضـــا أحـــد الأوائـــل الذيـــن أكـــدوا أن«خطيئـــة الاستعمـــار الأولى سبقت كافة الاعتداءات التي قام بها الســـكان الأصليـــون مـــن جانب واحد»- دافع عن رغبة المستعمَرين في الحصول على حريتـــهم بكلمـــة لا تخلو من الغموض:« ضرورة الحصول على الحرية -حتى لو كانت سابقة لأوانها- لها وزن أخلاقي أكبر من كل عمل حضاري قام به الاستعماريون[31]».

29. Vincent AURIOL, *Journal du septennat,* tome 1, Armand Colin, Paris, 1970.

30. Discours du 23 octobre 1974, *in* Charles DE GAULLE, *Discours et messages,* tome 2, Plon, Paris, 1970.

31. Cité par Yves BENOT, *Massacres coloniaux. 1944-1950, op. cit.*

إختفى البدائيون (ولو بقوا فذلك على هيئة آثار من عهد مضى) ولكن لم يختف معهم الخوف من المتوحشين؛ فكثيرا ما فسرت أعمال العنف لردود الفعل الوطنية على وحشية القمع، ببربرية الشعوب التي لا يتعدى سُمك الحضارة لديهم طبقة الطلاء السطحى ؛ أما المجازر الحقيقية جدا التي اقترفها الأوروبيون لدى وقوع أحداث سطيف في 8 مايو 1945 أو في سايجون في سبتمبر من نفسه العام، فقد إعتبرتها معظم الصحف والرأى العام الفرنسي الدليل على أن الذين يقومون بها مازالوا غير قادرين على التحكم في طبيعتهم الحقيقية ؛ أقلية فقط من المثقفين هي التي أقامت العلاقة بين العنف الذي يَحْتَلُ أرضا والذي إحْتُلَت أرضه؛ كما أن وجود سكان يزداد عددهم إعتبارا من الخمسينات، قادمين من كل ما تبقى من إمبراطوريات أو أراضى تابعة لها -(هنود وباكستانيون ومن الكاريبى بالنسبة لبريطانيا، وجزائريون ومن جزر الأنتيى بالنسبة لفرنسا)- أثار من جديد ودعم الحجج العنصرية التي ظلت تترنح لفترة بسبب إعادة التركيبات التي بدأت بعد إنتهاء الحرب؛ وهذا ما سنعود إلى الحديث عنه فيما بعد.

زمن الشك

وهكذا أخذت ثقافة التفوق تتحول، عبر سنى ما بعد الحرب، دون أن تختفى تماما وإستمرت تتمتع بكل ما تغذيه به القنوات التي إحتفظت لها بوضعها كثقافة شعبية ؛ ألم تتغير إذن علاقة الغربيين بالآخر في هذه السنين التي تغير فيها العالم؟ الواقع أن هذه العلاقة لم تتطور مثلما فعلت في الربع الثالث من القرن العشرين ؛ ذلك لأنهم مهما إحتفظوا بوعيهم الحاد بتفوقهم ومهما إستمرت مدارسهم تنقل معتقدات يقينية تريد أن تعتبرها أبدية ومهما استمر العالم مملوء بشعوب «تطورها ضعيف» فقد إندفع الآخر دالفا إلى قلب الغرب ذاته، وراح يعيش ويوجد -ليس، كما كان الحال في القرون السابقة، بأن يعمل على مقاومة

غير مجدية لقوة الغزاة الضاربة– وإنما بأن استعاد المبادرة التاريخية التي كان قد فقدها منذ زمن بعيد، مستخدمًا في ذلك لغة مفهومة تماما من سادته.

الآخر موجود لأنه يتكلم اللغة نفسها: حقيقة أن الهند مازالت تتميز بجموعها الجائعة ولكن غاندي ونهرو كانا يخاطبان ماونتباتن على قدم المساواة؛ كما اختفت الصين الغربية بمندرينها وأمراء الحرب فيها، تحت صور ماركس ولينين؛ وظلت أفريقيا والمغرب« العميقان» مستعصيان على الفهم ولكن إنكروما أخذ يذكر لوك وبورقيبة، أوجست كونت، وأخذ إيميى سيزار يَحُضُ الشعراء الزنوج على « تزنيج » [32] اللغة الفرنسية، كما استولى كاتب يسن على اللغة الفرنسية« كغنيمة حرب» ليكتب *نجمة*؛ وفي الولايات المتحدة رفع الزنوج نص الدستور ليطالبوا بحقوقهم وليقتحموا أبواب الحافلات والجامعات. صارخين بأعلى صوت أنهم متساوون وأنهم يحلمون بأمريكا تستقبلهم كمواطنين؛ كما راح شعراء وكتاب قصص وكتاب مقالات جدالية وفلاسفة وسياسيون –ولدوا جميعا في ظل الاستعمار في الحزام الاستوائي الكبير– يطالبون بعمل كشف حساب لما حدث وبالحرية باسم الحقوق التي يتفاخر الغرب بأنه اخترعها. لقد كان بعض المفكرين القادمين مما سيطلق عليه فيما بعد اسم العالم الثالث قد ظهروا على الساحة قبيل الحرب العالمية الثانية، إلا أنهم لم يخرجوا حقيقة من الظل إلى النور إلا بعد 1945.

سنناقش فيما بعد سوء الفهم الكبير الناجم عن الوهم الغربي بأنه طبع صورة منه، ولكن ما حدث الآن هو أن مثقفين من أوروبا وأمريكا الشمالية، أو قطاعًا

---

32. بينما كان الجدل الشعري محتدما بينه وبين أراجون كتب سيزار قصيدة بعنوان «رد على ذوباتر، شاعر من هايتي»:
Laisse leur/le ronron de leur sang à menuets l'eau fade dégoulinant/le long des marches roses/.../ marronnons-Les Depestre marronnons-les/ comme jadis nous marronnions nos maîtres à fouet/.../ fous-t'en Depestre fous-t'en laisse dire Aragon...» (*Présence africaine*, nouvelle série n° 1-2, avril-juillet 1955).

كبيرًا منهم على الأقل، اكتشفوا أن لهم تلاميذ وأخذوا يصغون إلى هؤلاء الذين يتحدثون مثلهم ليقولوا أشياء مختلفة ويعلنون انتهاء عصر الانصياع، وفي خليط من الزهو -لأن هؤلاء الرجال الجدد كانوا من تلاميذهم- ومن الشعور بالذنب لعدم معرفتهم بقصصهم وثقافاتهم التى كشفوا عنها لهم طوال هذا الزمن الممتد ناصر هؤلاء المثقفون بكل قواهم معارك النضال الذى قام به في الخمسينيات هؤلاء الرعايا المتمردون ضد الإمبراطوريات، ثم، فى الخمسينيات لتأسيس دول فتية محررة من نير الاستعمار، وفى كثير من الأحيان، على أسنة الرماح؛ هنا أيضا كان عدد حالات سوء الفهم كثيرة. ولكن لم يكن أحد قد أدرك ذلك بعد.

لأول مرة من عدة قرون أخذ اليقين يهتز، وأخذت حركة واسعة للغاية من الشك تستولى على نفوس قطاع كبير من الإنتيلجنسيا الغربية أمام هذه الموجة العاتية التى راحت ترتفع أمام أعينهم؛ فلم يعد الأمر بالنسبة لها مجرد إنتقاد لأساليب التوسع الكوكبى وحده الذى يندرج تحت البند الإيجابى فى تاريخها، وإنما أصبح الأمر يتعلق بنقد مبدئه ذاته، وذلك بالتأكيد أمام الرأى العام على أن الهيمنة لا يمكن أن تَتَدَثّر بأى شرعية ويتعين الانحناء أمام الجانب الإنسانى المعترف به لدى الآخر؛ ولأول مرة، منذ اختراعه، توقف الإنسان الكلّى عن أن يكون فكرة مجردة ناقعة تتنوع حدودها طبقا لمصالح رجال غربيين بعينهم وراح يأخذ صورة الوجوه المتعددة للجنس البشري.

تغير الزمن بكل تأكيد! وتم إكتشاف كُتّاب عظام جاءوا من مكان آخر لم يكن أحد يعرف عن وجوده شيء، وكتب سارتر مقدمة للعمل الرمز لفرانز فانون *المعذبون فى الأرض*[33] يضع فيها « الجرائم القديمة المتأصلة» فى قفص الإتهام،

33. Frantz FANON, *Les Damnés de la terre*, Maspero, Paris, 1961.

وأعاد مؤرخون مثل بازيل ديفيدسون إلى أفريقيا تاريخها[34] وجعلـها تولـد« قبـل ميلاد الرجال البيض» ؛ أخذ العديد من المناضلين الغربيين يضع نفسه فى خدمتـهم يحركهم خليط من الأممية (التى جعل الشيوعيون من أنفسهم أبطالـها الغـامضين) والتعاطف مع الشعوب التى يبدو أنها كانت فى طريقها إلى الحرية، والإيمان أيضـا بأن الأمم، وهى فى مرحلة التكوين هذه، عليها « أن تتعلم كل شيء» منهم.

لحظة نهاية الإستعمار تمثل كسرًا فى تاريخ الغرب حتى لو ظل يسحق العـالم تحت وطأة قوته وليس مستعدا للتخلى عن قمة التسلسل الهرمى الكوكبى الذى حـدد وحده قواعده، ولأول مرة منذ عصر النهضة اضطر إلى القيـام ببعـض التقـهقر ورأى خريطة العالم تتبدل دون أن يكون هو مصدر هذه التعديـلات، ولأول مـرة تبزغ إلى الوجود صفوة من المفكرين والسياسيين غير « تقليديين» مـن بيـن هـذا المسمى حديثا« العالم الثالث» ، تعبر عن رغبتها فى إعادة تنظيم هذا الأخير بعيـدا عن الوصاية الغربية، وأخيرا ولأول مرة إذ بالكلمات، التى ظل الغرب يسـتخدمها لعدة قرون لإلباس وضع يده على العالم لباس العفة تتحول ضده؛ لقد تعلم رعايـاه كيفية إستخدامها، وإذ آمنوا بها أو حركوها على هواهم بدورهم، إستخدموها سـلاحا لتحرير أنفسهم.

ندرك إذن أن مثل هذه التحولات الضخمة أدت بقطاع كبير من الغربيين إلـى أن يأخذها مأخذ الجد وأن يعيد دراسة ما كان يعتبره يقينا، وراحوا يسـلمون أمـام البرهان البيّن أن آخرين غيرهم لـهم حقـوق ومـن حقـهم الشـرعى المطالبـة بممارستها؛ وهم على هذا الدرب، لم يعد العديد من بينهم يكتفى بـالإقرار بإنسـانية الآخر، وإنما رأوا فيه تدريجيا المُساوى لهم وعلى عكس أسلافهم الذين لم يكونـوا -فيما بين الحربين- يؤثرون سوى فى جمهور محدود بواسـطة شـجبهم العنيـف

34. Basil DAVIDSON, *L'Afrique avant les Blancs*, PUF, Paris, 1962.

صدر الكتاب باللغة الإنجليزية عام 1959 تحت عنوان: *Old Africa Rediscovered.*

ووصفهم الذى لا تهاون فيه لآثار الهيمنة الغربية، لم يعد الإتهام الموجه من السيرياليين إلى إندريه جيد أو ألبير لوندر من العقائد القديمة، إتهاما سريًا بل أصبح واقع من وقائعًا مجاميع من القوم، وهى إن لم تكن تمثل الأغلبية، كانت على أقل تقدير كبيرة بما يكفى لكى يكون لها أثر متنام.

يتعين أن نقدّر أبعاد ما بدا فى حينه -وعن حق- أنه ثورة: أخذ البعض يتساءل عن السبب الذى من أجله طال الانتظار لهذه المدة الطويلة للاعتراف بالمساواة مع الاخر وعن المسئولية الجماعية الواقعة علىَ كاهل أوروبا فى هذا الإنكار للحق، أوروبا التى إزداد الحكم عليها صرامة بمقدار ما صَعُب على هذا البعضَ التعافى من آثار انحرافاتها الاستبدادية؛ أبدًا لم يكن الشك الذى تسلل إلى العقول بهذا العمق؛ لم يطرح الغرب -أبدا من قبل- علاقاته مع العالم للنقاش أو بالأحرى عدم مقدرته على إقامة علاقات مع بقية العالم لا تقوم على الاستعباد؛ ولكن على عكس مما حدث فى فترة التنوير، جاء الشك الذى تسلل داخل الآلةِ الفكرية الغربية نتيجة لمجابهة مباشرة مع الآخر.

اهتم مفكرو القرنين السابع عشر والثامن عشر قبل أى شيء آخر بنقض الشرعية الإلهية للسلطات الملكية وابتدعوا فى هذا الصدد إنسانا: يكون إنساناً قبل أن يكون مؤمناً أو أحد رعايا مليكه؛ لقد أدى بهم مولد رجال هم من بعد« أحرار ومتساوون فى الحقوق» -وهو ميلاد كان ضروريا للعالم الحديث الذى كانوا يضعون الأسس التى سيقوم عليها- أدى بهم إلى الأخذ فى إعتبارهم مصير أولئك الذين قذفوا بهم خارج نطاق هذه الحرية وهذه المساواة وبالنسبة لبعضٍ منهم، التشكك فى أسباب هذا الإنكار للحريات والمساواة؛ غير أن الآخر لم يكن يملك فى ذلك الوقت ثيابًا أخرى غير تلك التى كانت لـ« زنجى سورينام[35]» ولم يتمكن لُوى دالجيرى ولاتوسان لوفرتور من تعديل الصورة التى سادت أوروبا وأبناءها الأبوار

---

35. راجع اللقاء مع زنجى سورينام كما ورد فى رواية *كانديد* لفولتير.

فى أمريكا عنهم؛ ولكن بعد قرنين من الزمان كانت الحركة فى الاتجاه العكسى والصدمة أكبر؛ لقد صوت رجال التنوير بمبادرة منهم من أجل حرية عالم كانوا يمتلكونه، أما الغربيون أبناء الخمسينيات والستينيات فقد كانوا مضطرين لقبول التخلى عما كان آخرون ينتزعونه من بين أيديهم.

وبنفس الطريقة أدت الإثارة التى عمت عصر التنوير إلى فتح باب جديد فى تاريخ الغرب، افتتحت إعادة تشكيل العالم فى الربع الثالث من القرن العشرين مرحلة لا نعرف حقيقةً حتى الآن كيف يمكن قراءتها؛ هل هى تعلن عن نهاية مرحلة الهيمنة وهى النهاية التى يصعب على الغرب الإقرار بها ؟ أم أنها افتتحت فقط عصرا جديدا فى تارخ هيمنتها الطويل وذلك بتعديل الجغرافية السياسية لكوكب الأرض ؟ وهل غيرت هذه الهيمنة فقط من أساليبها للاستجابة للتطورات التى طرأت على العالم وللتأقلم مع مقتضياته أم أنها ضعفت أمام الإرادات المتعددة وغير المنظمة التى تعمل على وضع حد لها ؟ وبقول آخر هل يعتبر العقدان اللذان تعدلت خلالهما خريطة العالم مرحلةً بين عهدين يجد الغرب فيها نفسه مضطرا للتراجع قبل أن يستعيد ما فقده بعد ذلك فى صور مختلفة، أم أنها بمثابة فجر هيولى لمرحلة بدأت فيها تفك من قسوة قبضتها على المور ؟ سنحاول فى بقية هذا الكتاب إعطاء بعض الإجابات على هذه التساؤلات؛ وعلى العموم كانت هذه المرحلة الإنتقالية -سواء كانت بين أساليب متتالية لهيمنة واحدة أو كانت بين مرحلتين متباينتين فى تاريخ البشر- مناسبة لإيجاد الشك.

مسيح بديل ؟

أوروبا وأمريكا أخذتا -فى مرحلة ما بعد الحرب- تطرحان الأسئلة على نفسيهما؛ أما الجيل التالى فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، فهو لم يكتف برفض القتال

من أجل ما سُمّى حينذاك بالإمبريالية، معلنًا أنه ألد أعدائها ؛ وأخـــذ جــزء مـــن الشبان الغربيين المنتمين للسبعينيات يبحث عن أبطاله وســـط الشـــعوب المتخلفـــة القديمة، وراح هؤلاء الشبان يرفعون صور « العم هو » (هوشي منه) فى مظاهراته، كما راحت قطاعات هامشية منه -الأكثر راديكالية- تتعلم ما تصورت أنه الثـــورة، فى معسكرات الفلسطينيين، وأصبح معلموها وقادة فكرها هـــم ماوتســـى تونـــج أو أنجيلا ديفيس؛ وإختطف كوماندوز ألمان وفلسطينيون الطائرات وأطلق اليابـــانيون نار بنادقهم الرشاشة باسم مستقبل أفضل على السياح فى مطار اللد الإســـرائيلى[36]؛ وكان ما يسمى حينذاك« مناصرة العالم الثالث» قد وصل إلى أعلى قمة له.

ولكن ما الذى عنته هذه القمة الجدالية وفى أى إطـــار دارت ؟ مـــرة أخـــرى إرتفعت جدا أعداد المتناقضات خلال هذه العقود التى أخذ الأبناء يعبدون مـــا كـــان الآباء قد حرقوه، ولكن خلالها أيضا أراد الآباء والأبناء إعادة تشكيل الآخـــر طبقـــا لصورتهم وبدوا كما لو أنهم لم يقبلوا بتحرره إلا بشرط أن يسير على آثار خطـــاهم وأن يقتصر ما يصبو إليه على أن يصبح متطابقا معهم.

أخذت هذه الرغبة صورتين: لقد كانت الحملة العالمية من أجل العالم الثـــالث ونظرية مراحل التطور متزامنتين وبدتا لأول وهلة متناقضتين إلا أنهما فى الواقـــع كانا تعبيرين لميل واحد هو الإستيلاء على الآخر، أكثر من كونـــهما تعبـــيرًا عـــن

---

36. لم أتكلم حتى الان عن اليابان. لقد أدى تطور البلد الغنى والمتطور غير الغربى الوحيد كما هـــو معـــروف إلى تأويلات متعددة ؛ إن ما يخرجه من نطاق حديثى هو أنه لا ينتمى إلى الغرب ولا يعد جزءا من تاريخه ؛ بل إن جـــزءا من تاريخه تشكل فى مناهضته للغرب ؛ إن ذاكرة اليابانيين ووعيهم الجماعى ممُلا من منابع مختلفة وقاما بملاحم أخرى ؛ أما فيما يخص الأهداف الإمبريالية اليابانية فقد إنتشرت، مثل تلك الخاصة بالصين، داخل حدود آسيا الشرقية ولم تكـــن أحلامهم ذات أبعاد كوكبية ؛ فالتوسعات الآسيوية ظلت إمبرياليات جهوية ؛ أما وجود يسار متطرف فى اليابـــان – الأكثر راديكالية فى العالم– فى الستينات والسبعينات، تفسره أولا سلسلة من الأسباب المحلية ؛ ولكـــنه شباب –مثلـــه مثل الشباب الأوروبى والأمريكي– تمرد على المستقبل المجرد من الأحلام الداخل فى إطار المشروع التجارى للمجتمـــع الإستهلاكى وأقنع نفسه أن بالإمكان« الجمع فى نضال واحد بين المتمردين على الثراء والذين يحاربون الفقـــر» وهـــو التعبير الذى إستخدمه السينمائى كريس ماركر (فى فيلمه *بدون الشمس*، باريس، 1982).

تناقض غربي جديد؛ ومثلما يحدث دائما بطبيعة الأمر في مثل هذه الظروف فإن الواقع يتهرب جزئيا من الرغبة في إدخاله ضمن التبويبات التي يراد منها إدراك معانيه. لم تكن الحملة من أجل العالم الثالث في يوم من الأيام من منتجات فكر ماكيافيللي يبحث عن قصد في فرض رؤيته لمعنى التاريخ على شعوب الجنوب. أخذ المتمردون على الرفاهية الغربية من الشباب في الغرب -في خصامهم مع الأحزاب الشيوعية التي انصب اهتمامها على إسدال ستار النسيان على أخطائها السابقة بأن راحت تشيد لأقصى درجة بأنظمة العالم الثالث « ذات التوجهات الاشتراكية»- يؤيدون أو ينضمون -فيما يخص بعضهم- إلى حروب عصابات المناطق الإستوائية وفي يقينهم أنهم يشاركون في نشر السعادة على كافة أنحاء المسكونة؛ لقد تشكلت النظريات الرئيسية للتطور بأسلوب التجربة والخطأ على مراحل متوالية وعلى أساس الإيمان بأن لا أحد محكوم عليه بأن يبقى متخلفا في تطوره ؛ ولكن التوقف للحظة للتأمل في هذين البابين من سفر العلاقات المسماة« شمال-جنوب» يسمح -فيما وراء التعدد الكبير للآراء التي ظهرت في هذه السنوات الخصبة والأحلام التي راودتها- بادراك متانة الإقتناع اليقيني لدى المثقفين الغربيين الذين كانوا متأكدين من أنهم يمتلكون « بصورة طبيعية» وجدهم امتياز الفكر؛ الثورة، مثل التطور، كانا لا يمكن في نظرهم أن يكونا سوى محاكاة تاريخية لما حدث في الغرب.

بعد إنتهاء الحرب كانت البروليتاريا الغربية قد تبرجوزت؛ فعَبْر« الثلاثة عقود المجيدة» التي تلت الحرب العالمية الثانية، أصبحت الأحلام بالعدالة قد تحققت جزئيا بفضل تنفيذ أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية لسياسات الـ *welfare* (الرفاهية الإقتصادية)؛ لقد وجد التعطش للوصول إلى معيشة أفضل ما يطفئه، في ديموقراطية الإستهلاك، التي جعلت إشباع الرغبات في متناول اليد وجعلت عدم

المساواة أكثر قبولا للتحمل وذلك بتوحيد أساليب المعيشة بين الجميع؛ هنا أصبحت البروليتاريا تشعر بأنها تمتلك أشياءًا يمكن أن تفقدها، ففضلت التوسع في الانتصارات المادية على أن تدخل في مغامرات غير مضمونة العواقب؛ وعلى العموم كان النظام الناتج عن الصراع بين الشرق والغرب قائما أمامها ليثنيها عنها؛ أما في الجزء الشرقي من أوروبا فقد وجدت شعوب نفسها وقد فرضت عليها اشتراكية« تحققت» ومن المفروض فيها أن تلبى متطلباتها، والتى حرمت عليها إعادة طرحها للنقاش بواسطة "التثليج" السوفيتى ؛ وهكذا لم تعد الثورة موجودة على أى جدول أعمال؛ النساء فقط -وقد إحتللن، كما لم تفعلن من قبل أبدا، المناخ العام وخضن في ذلك الوقت معارك حاسمة- كان بإمكانهن استخدام هذه الكلمة لوصف التغيرات التى كنّ يقمن بها.

بما أن جماهير البلاد الثرية تبدو كما لو أنها تريد تحسين مصيرها بأن لا تنادى سوى بالإصلاحات، وبما أن التغيرات الوحيدة ذات الطبيعة الثورية تحدث في الجنوب فقط إبتداءً من عام 1945 فقد راح الشباب -اعتبارا من الستينيات- يقبلون المصادرة الشيوعية لفترة ما بين الحربين بأن عينوا « المعذبون في الأرض» أبناء العالم الثالث على أنهم حاملو مشعل الدفع الثورى الجدد، وهو الاندفاع الذى فتر للغاية في العواصم العمالية القديمة ؛ وبدت الثورة الوحيدة التى حدثت في الغرب في ذلك الحين، وهى التى أطاحت في البرتغال في عام 1974 بآخر صورة من صور الفاشية الأوروبية، كما لو أنها تؤيد وجهة نظرهم، ذلك لأن شبان الضباط البرتغاليين تعلموا دروسهم في السياسة عبر محاربتهم ثوار غينيا بيساو وقراءتهم لما كتب أميلكار كابرال وبتعرفهم على قادة الرأس الأخضر وأنجولا وموزمبيق في نضالهم الوطني؛ ولقد أكد أهم قادة « ثورة زهرات القرنفل» البرتغاليين في حينه أن الثورة بدأت في أفريقيا باتصالهم بجيل جديد من الأيديولوجيين الأفارقة ربطتهم معا علاقات مشاركة حقيقية.

ولكن لا يعد هذا التغيير فى الرؤية -كما إعتقد البعض- مساويا للاعتراف بمقدرة شعوب الجنوب على أن تنسج من جديد خيوط تاريخها؛ ذلك لأنه مناط بها مهمة عالمية ولكن بشرط ألا يخرج روادها عن النصوص الموضوعة لهم وعن المبادئ التنظيمية التى حددها الآباء المؤسسون. لاشك أن الوقائع فرضت إدخال بعض التعديلات: فلقد رفع الواقع الصينى وتنظيره على يد القادة المحليين من الحزب الشيوعى، الفلاحين إلى موقع الفاعل الرئيسى فى الملحمة الثورية؛ وبنفس الطريقة تم خلع ثوب الشرعية على نضال حركات التحرير الوطنى بعد أن كان ينظر إليها مسئولو الأممية قبل عقود قليلة بنظرة كلها شك، وذلك بعد أن تم تحويلها إلى« مرحلة وطنية» من العملية الثورية على يد المنظرين الماركسيين فى الستينيات والسبعينيات؛ وقد أخذ هؤلاء -بسبب عدم وجود ثورات حقيقية كثيرة يمكن أن يؤدوا عملهم من خلالها- يخلطون باستمرار بين نوعين من النضال على الرغم من التباين الكبير فى منطق كل منهما الخاص؛ صفة الثورية التى طبعت بها تَعْدِيًا حرب التحرير الجزائرية، وبعدها النضال الفلسطينى من أجل وجود وطنى، يعتبران أفضل الأمثلة على هذا الخلط.

سيتعين علينا الرجوع إلى الحديث عن استخدام بعض من صفوة البلاد المعنية لهذه الفكرة الضاغطة للمحاكاة، كأداة فاعلة للعمل، وعما جنوه من ورائها من أرباح، أما الآن فعلينا أن نكتفي بالتذكير بالرغبة التى راودت اليسار فى الغرب فى التفتيش فى كل مكان عن أحزاب طليعية يمكنه أن يضع فيها آماله الثورية؛ وقد ساهم فى هذا الإطار وصف الحركات التسلطية للتحرير بأنها« الممثل الشرعى الوحيد» للشعوب المعنية، فى التحضير لأرضية نظام الحزب الواحد الذى تلى المرحلة الإستعمارية.

نلمس هنا إحدى مآسى بلاد الجنوب التى تحررت من الإستعمار: ففى الوقت الذى كانت النظم الاشتراكية-الديموقراطية الأوروبية والأمريكية تهزم نفسها -من

الجزائر إلى فيتنام– بإدارتها للحروب الإستعمارية أو الإمبريالية، كانت حركات التحرير الوطني، وقد تحولت بعد الإستقلال إلى مؤسسات دول، تجد أصلب سند خارجي لها في هذا الجزء من الصفوة الغربية الذى كان قد إنفصل عن « الحريات الصورية» للـ« ديموقراطيات البورجوازية» المدانة فى رأيه لإرتكابها العديد من الجرائم ومنها جريمة الاستعمار، وباسم ضروريات اعتبرت صاحبة أولوية، أخذ هذا اليسار الراديكالي يغض الطرف عن عمليات الاختطاف السياسى التى قام بها هؤلاء الذين كانوا يعتقدون أنهم يضعونهم تحت حمايتهم وخرقهم لحقوق كانوا يتمتعون بها ويعتبرونها ثانوية –فى ذات الوقت– ؛ حاولوا إذن وهم يرتدون ازياءهم الشيوعية –تروتسكية أو ماوية[37]– ولمدة عقدين، فى ممارسة الثورة بالتوكيل.

وكما هو متوقع كان الفشل ذريعا؛ ومع ذلك فإن نهاية الأحلام الثورية التى سرعان ما تحولت إلى كوابيس فى العديد من بلاد الجنوب لم تثر التساؤلات التى كان يؤمل فى طرحها عن المعنى الحقيقي للدور الخلاصى الذى عُقِدَ على شعوب العالم الثالث؛ وعدم مقدرتهم على أن يغدوا كما كانوا، بعد أن خيبوا الآمال التى كانت منعقدة عليهم، فقد طردوا من المجال السياسي ليهبطوا إلى مجالات التنمية وأعمال الخير.

الحالة الخاصة بأمريكا اللاتينية تؤكد هذه الملحوظة: عن قصد، امتنعت حتى الآن عن ذكر فيديل كاسترو وتشى جيفارا –ضمن معبودى شبان الغرب الأجانب– لأن أمريكا الأيبيرية، التى هى فى آن واحد معروفة ولكنها بعيدة، تحتفظ بمكانة

---

37. تمثل الحركات الماوية –وقد أخذت بعضاً من محاجاتها من النضال الشامل من أجل العالم الثالث والذى كان يكتسح الساحة فى ذلك الوقت، كما إستلهمت أفكارها من التأثير الذى كان له وقع السحر عليها للنسخة المتشددة للماركسية اللينينية التى وضعت خارج أوروبا، وهى فى جميع الأحوال بعيدة كل البعد عن واقع بلادها– تمثل أفضل تعبير عن التهيؤات الثورية الغربية ؛ ويعتبر قصر عمرها الضعيف جدا برهانا على الغياب الكامل لأى جذور لها داخل البلاد الغربية ذاتها.

خاصة داخل الوعى الغربى؛ ذلك لأن آليات حصولها على سيادتها الوطنية التى جرى الإعلان عنها فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر تحت لواء التنوير، كانت أقرب لانفصال الولايات المتحدة الأمريكية عن الوطن الأم البريطاني من حالات الاستقلال التى تمت فى النصف الثانى من القرن العشرين، كما أنها أوصلت إلى سدة الحكم أفرادا من صفوة البلاد الأم؛ « أمريكا اللاتينية -هذه الساحة المُهَجَّنة، متعددة الثقافات والأعراق- اغتنمت فرصة الثورة الفرنسية لكى تصبح بحركة واحدة حديثة وتقدمية وغربية، تاركة وراءها "البربرية" الإسبانية والهندية والزنجية[38].» هذه الصفوات البيضاء التى تشكل الأقلية كلما إبتعدنا عن القُمع الجنوبى للقارة -ولكنها فى كل مكان مهيمنة سياسيا وإقتصاديا- ظلت تنظر إلى أوروبا -قبل أن تتوجه أيضا شطر الولايات المتحدة- على أنها الوطن الفكرى، ولم يمنع اندفاع جزء من المثقفين نحو الأصول المحلية من أن تتمتع التبادلات عبر الأطلنطي بشبه احتكار فى التشكيل الفكرى؛ ولقد عرفت الإنتيليجينسيا الغربية باستمرار كيف تعبر للاتين-الامريكيين عن امتنانها لمثل هذا الوفاء ولكونها هنا« الوجه التبادلى للغرب[39]»، وردت لهم المعروف بأن تبنَّتهم.

كان من آثار هذا التاريخ الطويل من الحميمية أن الثوريين الغربيين فى الستينيات كانوا فى أمريكا اللاتينية على أرض ثقافية معروفة لهم وهم يحققون أحلامهم التغريبية، كما أن الثوار اللاتينو-أمريكيين كانوا فى كثير من الأحيان أقرب لأبناء عمومتهم الأوروبيين من مواطنيهم « الهنود والزنوج، والكريول والهجين والسمر وآلاف الفروق البسيطة الوسيطة[40] » ؛ ولقد رأى البعض -ولكن

38. Carlos FUENTES, «Révolution: Annonciation», *in L'Amérique latine et la Révolution française,* La Découverte/Le Monde, Paris, 1989.

39. *Ibid.*

40. *Ibid.*

هذه قصة أخرى- فى هذه المفارقة أحد أسباب فشل حروب عصابات الستينيات؛ إن هذه « الغَربانية» اللاتينية الأمريكية نسجت بين شطىّ الأطلنطى صلات تضامنية من نوعية مختلفة عن تلك التى كانت قد بدأت خطوطها تظهر مع قارات الجنوب الأخرى ؛ فمن هذا المنظور أُدرِك إنقلاب 1973 فى شيلى وسقوط حكومة سلفادور الليندى على أنه حدث يكاد يكون داخليا بالنسبة للغرب، كما كان هذا هو الحال أيضا بالنسبة لنضال اليسار البرازيلى ضد الحكم الديكتاتورى، كما أن المثقفين الهاربين من أعمال القمع العسكرى قد استقبلوا بكل ترحاب من نظرائهم الغربيين.

الواقع أنه بالنسبة لهؤلاء لم يؤخذ الصدعُ بين الشمال والجنوب أبدًا هنا على أنه جغرافى وإنما على أنه يقسم المجتمعات إلى جزئين، ودون أن يذكروا ذلك بالقول ولا حتى أن يدركوه بوضوح، فقد أدمجوا الصفوة من أمريكا اللاتينية فى قرائتهم السياسية للتاريخ وأقصوا منها الجموع الملونة، دافعين بها إلى المجالات التنموية وأعمال الخير. كما فعلوا من قبل مع الأفارقة ثم مع الآسيويين، بعد أن تبدد وهم النضال الشامل الجالب للخلاص؛ إن إفتتان الشبان الغربيين بالرومانسية الثورية المتجسدة فى الـ " شى" (جيفارا) مثلت نوعا من المطلق لهذا الوهم: فلقد تعلقت بأمثاله من اصحاب الذقون الطويلة *barbudos* في حروب العصابات وهم يعتقدون أنهم يتقربون من الآخر.

نموذج اقتصادى

الجانب الاقتصادى لهذه الرغبة فى اختزال الآخر فى الذات والذى كانت تعبِّر به ثقافة التفوق عن نفسها فى ذلك الوقت، يبدو لأول وهلة سهل القراءة؛ فعلى الرغم من أن المدرستين الليبرالية والماركسية تختلفان بعمق فى قراءة كل منهما

المتناقضة مع الأخرى للتخلف الاقتصادى، فإنهما تلتقيان فــــى عرضــهما للبــلاد المسماة متخلفة النمو فى طرح حلول مأخوذة فقط من التجربـــة الغربيــة، كمــا أن ميولها الاقتصادية تفرق فيما بينهما أكثر مما تفرق الإختلافات بينهما ؟ فالمدرســتان تلخصان التنمية فى النماء الإقتصادى، ورؤيتهما للأمور كّمية فقط وســـيتم تقويــم آثار ذلك بعد فوات الأوان.

النظرية المسماة بالنظرية الروستووية[41] عن مراحل النمو دفعــت الإصــرار على محاكاة الغرب إلى حدود كاريكاتوية، إذ إفترض أن التنمية عمليـــة تاريخيــة جوهرها خطى المسار، يمر كل بلد بذات مراحلها تقريبا للوصول فى نهاية الأمـــر إلى حالة التطور؛ فليس إذن على الدول المتخلفة سوى أن تسير على خطى الأمـــم التى سبقتها على هذا الدرب الأوحد وتتبعها حرفيا للوصـــل بدورهــا -بعد فـــترة غير محددة- إلى المستوى الذى وصلت إليه البلاد الصناعية. يوجد ما هو أفضـــل من ذلك: فالبلاد المتخلفة محظوظة لأنها ستسير بخطى أسرع من الدول المتقدمـــة مادام أن فى إستطاعتها أن تحظى بإمكانية نشر مكتسباتها للإسراع بمرحلة النمـــو والتراكم والتى من المفروض أنها تُعِد « لعملية الإقلاع ».

الأخطاء المترتبة على هذه النظرية -(مثل ثنائية آرثر لويس الــذى يــرى أن القطاع التقليدى، إذ يتعايش مع القطاع الحديث فى اقتصاد البلاد المتخلفــة محكــوم عليه بأن يختنق بفعل هذا الأخير)- لا تمس المنطق الذى تقوم عليـــه[42]؛ لا يوجــد سوى نموذج واحد ولا يوجد أمام العالم غير النامى أى خيار آخر سوى الانضـــواء تحت لوائه.

---

41. Walt Whitman ROSTOW, *The Stages of Economic Growth, A Non Communist Manifesto*, 1960 (trad. Française: Seuil, Paris, 1963).

42. Arthur LEWIS, *Economic Development with Unlimited Supplies of Labour*, The Manchester School of Economic and Social Studies, 1954

النظرية المعروفة بالمرحلية، والتى لها ميزة لا تقدر بثمن إذ هى تُعفى البلاد الصناعية من أى مسئولية فى ظاهرة التخلف وتُبعد من مسيرة التاريخ أى ديالكتيك للصراع، قد نالت موافقة واسعة للغاية من ممثلى الآلية الضخمة جدا لمنح المساعدات للتنمية والتى أنشئت فى الستينيات، والتى بنت عليها الوكالات الدولية والدول الغربية سياساتها الخاصة بالمعونة والتى كانت مصدرا لعدد من الانحرافات. ونحن نعرف اليوم أن ما كلفه ذلك كان غاليا؛ هذه الرؤية للتطور والتى لا ترى فى التخلف سوى تأخر زمنى فى التنمية تنقل فى واقع الأمر فلسفة التطور التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر إلى المجال الاقتصادى دون أن تغير فيها كثيرا.

وكما أن مفكرى الحضارة الغربية جعلوا منها نموذجا للبشرية وأعلنوا أنفسهم القادة المستنيرين للشعوب التى لم تتطور، فإن رجال الاقتصاد الليبراليين فى الستينيات لم يتصوروا قط للبلاد المتخلفة أى مستقبل آخر غير الذى اقترحه العالم الصناعى نموذجا لها؛ كما أنهم لم يتصنوروا أيضا أن التاريخ الخاص بكل بلد يمكنه أن يخط طرقا أخرى للدخول إلى الحداثة مغايرة للتى سارت فيها الدول الغربية؛ وفى هذا المجال أيضا أثبتوا أنهم مخلصون لأصحاب النظريات الذين سبقوهم ولكن فى مجالات فكرية مختلفة، ويرجع ذلك إلى أن استحالة تفكيرهم فى تعددية التكوينات الإجتماعية والثقافية وبالتالى فى تنوع طرق الدخول إلى الحداثة، تقف على الخط نفسه لتأكدهم من انتفاء الوجود التاريخى للبلاد المعدة غير متطورة.

بالنسبة للماركسيين وابنائهم شبه الشرعيين الذين هم أصحاب تيار التبعية يرون التخلف أحد منتجات التطور، وهو إذن لحظة تاريخية مستقلة وليس مرحلة يتعين على كل مناطق العالم دون استثناء أن تمر بها؛ ويقف رجال الاقتصاد

الماركسى وزبانيتهم وعلى رأسهم أبناء أمريكا اللاتينية من الـــ CEPAL (اللجنــة الاقتصادية للأمم المتحدة لأمريكا اللاتينية، وكان مفكروها الأكثر تأثيرا همــا راؤول بريبيش وسيلزو فورتادو) خارج الخط الفكرى التطــورى الــذى أعــاد زملاؤهــم الليبراليون تشكيله ليتواءم مع أذواق القرن العشرين؛ فهم يرون أن الشرط المســبق للخروج من التخلف هو إعادةُ تعريفٍ راديكاليةً للعلاقات الإقتصادية العالمية، تضــع حدًّا لمنطق التبعية وعدم المساواة الذى يشكل بنيان العلاقات بين الشمال والجنــوب؛ أما فكرة الملحق، وهي جزء لا ينفصل عن الإستراتيجيات التــى وضعــت تحــت رعاية الفكر الليبرالى، فهى لا تظهر صراحةً ضمن أولويات اهتمامـــات أصحـــاب نظريات التبعية، على الرغم من أنها ليست غائبة عن صلب مذهبهم؛ ذلك لأنــهم إذا كانوا يجعلون من النضال ضد النسخ المعاصرة للإمبريالية شــرطا للدخــول إلــى الحداثة الاقتصادية، فإن قراءتهم لهذه الأخيرة لا تختلف بتاتًا عن قراءة خصومـــهم الأيديولوجين لها.

سواء أُغرِب النموذج على النهج الليبرالى أو على النهج الإشتراكى، فهو يظــل واحدا، ويرسم العالم على هيئة مجتمع صناعى يدار -تبعا للفكر السياسى الســائد- إما بآليات السوق أو الدولة؛ وتؤكد المرجعية السوفيتية، وهى تعــد جوهريــة فــى المدرسة الماركسية وهى التى تشبع بــها تلاميذهــا التطوريــون، علــى المدخــل الصناعاتى للنظرية؛ فقد قُدم الإتحاد السوفيتي كمثل يُحتذى على أنه الحالة المثلــى «للاختصار التاريخى» الناجح. هذه الأمة التى ظلت متخلفة حتـــى بدايــة القــرن العشرين بالمقارنة بأوروبا الرأسمالية عرفت فى ظرف جيل واحد أو يكــاد عمليــة تصنيع مكثفة وإعادة بناء الدولة الحديثة فى وسط تاريخى زراعى. البديل الوحيـــد للطريق الرأسمالى يتمثل إذن فى بلد كانت العملية التصنيعية فيه متـــأخرة ولكنـــها أكثر سرعة منها فى أوطان الرأسمالية الصناعية الأوربية والأمريكية -وهو الــذى

يريد أن يكون رمزا للحاق بالتقدم (المؤدى إلى الحداثـــة)؛ ومـــهما كـــانت بعـــض مصادرتهم فى محلها، فإن الاستراتيجيات القائمـــة علـــى إيجـــاد بديـــل للبضـــائع المستوردة والتى ظلت لفترة طويلة حاكمة داخل بـــلاد العـــالم الثـــالث الكـــبرى، الإستراتيجية المتفرعة عنها والتى تستهدف بناء « صناعات تصنيعية» تشهد علـــى قوة نموذج همَّش كافة الأفكار البديلة -بأن جعل منها مـــادة فولكلوريـــة- ســـواء خرجت من البوتقة الليبرالية أو المجَّرة الإشتراكية.

ولما لم يطرح الفكر الخاص بالتنمية للتساؤل كثيرا، حتى بدايات الثمانينيـــات -(وقد نرى فى هذه الثقة به، درجة قرابة إضافية تربط بين الوجهين المتضـــاربين للنظرية الاقتصادية الغربية)- فقد ظل قائما بكامله على نفى الوجود التاريخى للبـــلاد المسماة متخلفة، وبناءً عليه كان من الواجب مواجهة التحديـــات المعـــاصرة التـــى تواجهها هذه المادة الخام بأن يدفع بها للسير فى إثر الغرب، الذى ظل، أكـــثر مـــن أى وقت مضى، متيقنا بأنه تجسيد لتقدم ذى نزعة كلّية؛ فإذا قدرت الأمـــور بـــهذا المكيال، فإن أكثر بلاد الجنوب نجابةً هى التى ظلت على الدوام تبذل أعظم الجـــهود لتتطابق مع النموذج؛ فبالنسبة للمنادين بالاشتراكية التصنيعية الحكومية التـــى مـــن المفروض أن تشكل عامل اختصار الطريق التاريخى، كانت الجزائر أفضل النســـخ الممكنة انضباطا، فرُفِعَت إلى عنان السماء إلى أن إنهارت؛ ومن ناحيتـــها كـــانت النسخ الليبرالية المتتالية تحيىّ المعجزات الآسيوية أو اللاتينية-الأمريكية ولا تـــرى فى أسباب أدائها سوى ما تريد أن تراه؛ ولكن أياً من الجانبين لم يستطع أن يلاحـــظ التاريخ -لدى تلاميذه المطيعين- وهو يؤدى دوره ولا الديناميـــات التحتيـــة التـــى كانت تحول صورة النموذج من الداخل.

إلى أن أصبحت البّينات واضحة لدرجة أن بريقها أعمى الأنظـــار بجلائـــه، أثبت العالم الثالث بكل تأكيد أنه غير قادر على إعادة حمل مشعل الثورة من جديـــد

ولا على طبع النسخة بشكل متطابق -عبر أقل من جيل واحد- مع مرحلة من التطور أخذت عدة قرون لتصل إلى تشكيل الأصل.

هنا بدأ زمن خيبة الأمل فى الغرب، ولاحظ مفكروه ورجال اقتصاده وأصحاب الفكر التطورى فيه الذين تقمصوا بيجماليون، أن التلميذ متقاعس وأنه لا يطبق مقادير الطبخة الموضوعة له والمأخوذة من تعاليمهم بالسهولة المقدرة له؛ وأخذت النتيجة المستخلصة من هذا الدرس تغذى إعتبارا من الثمانينيات تفكيرا جديدا مبنيا على المصادرة التى تقول إن التنمية لا يمكن أن تحبس داخل القوالب التى صنعت لها، وإن العوامل المستوطنة لا يمكن التخلص منها وأنها تدخل فى إطار عمليات« الفهلوة» التى لا يمكن ضمان نتائجها.

وكما حدث فى فترة انتهاء الاستعمار، أجبر ميل الجبهات غير الغربية نحو التسيير الذاتى، جزء من الإنتيليجنسيا إلى التراجع عن بعض اليقينيات وعن الأخطاء التى قد تكون متولدة عنها؛ غير أن مثل هذا التحرك هو أبعد من أن يمثل الأغلبية؛ بل على العكس من ذاك وضع التغيير الشامل لديكور الثمانينيات حدًّا للتساؤلات التى جاءت بها المرحلة السابقة وجعلت الذين اهتزوا من إعادة تشكيل العالم يعيدون اكتشاف راحة البال التى يجلبها اليقين.

ـ 5 ـ

زمن الهزة الارتدادية

غريبة تلك السنوات التي شاهدت، في أمريكا وفي أوروبا، ظهور أكثر المظاهرات غرابة من حيث إنها قديمة في شكلها الذى عفا عليه الزمن، والممثلة لثقافة التفوق؛ فهى كما نعرف لم تقع صريعة أمام مساءلات القرن وإن كان البعض قد اعتقد لفترة ما أن قواها قد خارت؛ وفى عالم مازال يتبدل راح مؤرخون وصحافيون وعلماء أجناس ورجال اقتصاد سواء قدموا من أقصى اليسار الراديكالى أو من اليمين الليبرالى، يعيدون تركيب خطاب تقنين تفوق وتقدم الغرب على الآخرين.

خطاب جديد

هذه المهمة وهي تكيف ذاتها مع الأطر التى تتم داخلها، أخذت أشكالا عدة؛ فى الولايات المتحدة أجابت نصوص جديدة فى علم الأجناس الاجتماعى على التهميش المتزايد لقطاع من السكان السود بأن أعادت إلى الظهور نظريات تشير إلى ملكاتهم الذهنية المتدنية[1]؛ الأوروبيون من جانبهم تمسكوا برد اعتبار المغامرة

1. هذا الموضوع رفع من شعبيته باحثان أمريكيان فى كتاب بعنوان *تقوس الجرس* (*The Bell Curve*) يستهدف إلى «إثبات» أن الزنوج أقل ذكاءا بشكل متوارث من البيض ؛ وقد بيعت منه آلاف النسخ فى الولايات المتحدة الأمريكية:

(Richard HERRSTEIN et Charles MURRAY, *The Bell Curve,* Free Press, NEW YORK, 1994).

الاستعمارية؛ وعلى جانبي الأطلنطي جرى العمل -من جهة أخرى- على إعادة الشباب لأدب الدفاع القديم عن العبقرية الغربية التي تضمن توجهها نحو الهيمنة؛ فنقرأ مثلا في كتاب *تاريخ أوروبا العام* الصادر في فرنسا عام 1980:« تميل أوروبا باستمرار إلى اعتبار الإنسان قيمتها الأولى، تلك القيمة التي تتسم أكثر من أي قيمة أخرى بالقدسية» وأن سكانها« لديهم ميل لا يقاوم لأن يحملوا إلى البشر في كافة أنحاء العالم ما يعتقد الأوروبي أنه الأفضل لذاته »؛ ولكن بما أن الأوروبيين متواضعون أكثر مما ينبغي « فهم يرفضون لأنفسهم أن يناقشوا ويقدروا ويستخدموا ما هو أفضل لديهم وما هو متفوق على ما هو موجود في أماكن أخرى[2]»؛ كان الغرب قد بدا كما لو أنه قد قبل فكرة أنه ليس وحده في العالم وأنه لم يصنع تاريخه وحده؛ إلا أن المراجعة التي بدأت في الثمانينيات أخذت تعمل على إزاحة الشكوك وإلى إعطائها من جديد، داخل الوعي الجماعي لأبنائها، مكانة بدت للحظات أنها تترنح.

منذ لك الحين وُسِمَ ما يسمى بتيار دعم العالم الثالث بالازدراء والذين أصروا على السير فيه أصبحوا محل نقد قاس؛ الواقع أن الإفلاس الاقتصادي والسياسي للتقدميين في المناطق الاستوائية قد أساء إلى سمعتهم كثيرا، فلا كوبا ولا فيتنام يمكنهما أن يشكلا النموذج المضاد، كما أن فظائع كمبوديا كتمت أصوات من قاموا بالبروباجندا للفضائل الخلاصية للحروب الثورية. ارتفعت أصوات تشجب الذين أعمتهم الرغبة في إيجاد مسيح بديل للبروليتاريا الغربية؛ ولكن إذا كانت الإنحرافات الديكتاتورية للرفاق في الجنوب والفوضى الاقتصادية، التي اعتبرت تنمية، قد أثارت إعادات للتساؤل صحية، إلا أن معظم مناهضي تيار العالم الثالث، سرعان ما تلاقوا مع الذين ينفون واقع عدم المساواة الدولية أو يجدون التبريرات

2 . Georges LIVER et Roland MOUSNIER, *Histoire générale de l'Europe*, tome 3, PUF, Paris, 1980.

للتسلسل الهرمى الذى يشكلها؛ إن الجرائم التى ترتكب فى المناطق الإستوائية والمهازل الدامية التى يقوم بها بعض الاستبداديين الذين زينوا أزياءهم العسكرية بالنجوم بأيديهم و" السّرقاتوقراطية أو "السرقات-توقراطية" لعدد من الفرق الحاكمة للبلاد التى نشأت من إعادة ترتيب الخرائط الاستعمارية زودتهم بالفرصة التى لم يحلموا بها لألا يُرْغموا على دراسة العلاقات الدولية وأن لا يعزوا مرحلة الركود والتقهقر التى بدأت بعض بلاد الجنوب تدخل فيها سوى إلى أسباب محلية؛ وهم يجيبون على الذين ظلوا لفترات طويلة جدا يعتبرون الإمبرياليات، التى تلت المستعمرات، المسئولة الوحيدة عن بؤس « الأمم البروليتارية[3]» بأن أعفوهم من أى مسئولية إزاء تواصل هذا البؤس.

يمثل العالم الثالث فى الحالتين السمة المميزة الفريدة فى كونه موضوعا مركزيا للمجادلات التى تهز الإنتليجنسيات الغربية وفى أنه لا يمثل لها فى ذات الوقت أى واقع ملموس؛ ومثلما فعل أصحاب الفكر اليوتوبى لليسار الراديكالى، لم يهتم أولئك الذين اعتبروا أنفسهم واعين فى الثمانينيات بالتحولات التى تحدث تحت أغطية الأوانى التى تغلى بداخلها تفاعلات ما يحدث تدريجيا فى بلاد الجنوب، ذلك لأن العالم الثالث الذى بسببه يمسك المدافعون عن التيار الداعم للعالم الثالث وموجهو الاتهامات له من مناهضيه، بخناق بعضهم لا يعدو فى الواقع كونه ديكورا لمجادلاتهم، إذ هى لا تدور حول ما يحدث داخله، لأن هذا لا يهم، بأكثر ما تهتم بالمواجهات التى تحدث بين مناصرى الجبهتين المتصارعتين بالدور الذى يؤديه الغرب؛ فقد كان العنوان الفرعى: *العالم الثالث، الذنب وكره الذات* لكتاب باسكال بروكنر[4] الذى أعطى إشارة بدء المعركة، يشهد على السمة الداخلية لتصفية

---

3. تلخص هذه التسمية التي هي أيضا عنوان نشره بيير موسى في عام 1959، إنتقال النموذج الشيوعى لصراع الطبقات إلى مجال علاقات الشمال والجنوب (*Les Nations Prolétaires*, PUF, Paris).

4 . Pascal BRUCKNER, *Le Sanglot de l'homme blanc. Tiers monde, culpabitié, haine de soi,* Seuil, Paris, 1983.

الحسابات، ذلك لأن الموضوع الحقيقي الذى تدور حوله هذه المواجهة هو التصفية النهائية من أفق الغرب لآخر الأحداث المؤسفة لليوتوبيا الثورية للقرن التاسع عشر وهى التى كلفت الجماهير المقهورة فى الجنوب -وبالنسبة للولايات المتحدة الأقليات القادمة منه أيضا- بمهمة إحتلال الأرض التى هربت منها بروليتاريات الشمال التى تبرجوزت.

ولكن، فيما وراء ذلك، كان عدد من المفكرين -الذين صفوا حسابات خيبة أملهم بأن أحرقوا أوثانهم- بتصنيع معتقدات يقينية أخرى وذلك بمشاركتهم فى تحرير الخطاب الاعتذارى الجديد الذى بدأ يظهر فى الغرب، وقد أيدهم فى مشروعهم هذا استسلام بعض الأنبياء المجهدين الذين اعترفوا بالهزيمة بأن سلموا أسلحتهم وبأن عادوا إلى صفوف نظام كانوا قد أقسموا أنهم سيهزمونه؛ وفى الولايات المتحدة عاد القادة الأسطوريون للفهود السوداء مثل إلدريدج كليفر إلى صفوف المفكرين المحافظين فى أمريكا؛ هذا القائد السابق الذى طالما حيَّر -على عكس معظم أقرانه- كافة أجهزة الشرطة الأمريكية بأن عاش فى الجزائر تارة وفى كوبا تارة أخرى، أقر أمامى فى أحد الأيام برجوعه اليائس عن تعهداته السابقة إذ لم يعد يرى أنه لا يمكن أن يعيش فى الولايات المتحدة، هذه الديموقراطية النسبية التى يوافق فى نهاية الأمر على اعتبارها وطنه[5].

إذا كان بعض الضحايا/ الرموز للنظام قد توقفت عن تحقيره فإنما يعنى هذا أنه لابد أن تكون له بعض الفضائل فعادوا إلى جردها، مزيحين بحركة واحدة من ذاكرتهم أسئلة كان غيرهم قد طرحوها قبل ذلك بخمسة عشر عاماً؛ فعملت الجرائم التى اقترفتها نظم الجنوب الديكتاتورية على نسيان جرائم الإستعمار وعلى تمجيد

---

5. مقابلة صحفية مع إلدريدج كليفر بقلم صوف بيسيس (مجلة جون أفريك، العدد رقم 29، سبتمبر 1986).

زمن السلام الاستعماري[6]، وإلى إعاقة الوصال مع ذاكرة أسطورية كانت سُمعتُها قد شوّهت لفترة ما، وعادت أعمال العنف التي حدثت في فترات ما قبل الاستعمار تُستخدَمْ هي أيضا ذريعة للتي واكبت التوسع الأوروبي، وأثير الجانب الدموي للسلطات العسكرية-الدينية لشعوب الأزتك أو الأنكا حتى تجعل الأعمال الوحشية التي إرتكبتها عصابات كورتاس أو يتزاري[7] مسألة نسبية، كما سمح وجود ممالك تعمل في مجال تجارة العبيد في أفريقيا كصائدي زنوج لتجارة العبيد الأوروبية لبعض الكتاب بأن يقلبوا الاتهام بالذنب فجعلوهم المسئولين الرئيسيين عن تجارة " خشب الأبانوس ".

هذا هو ما قام به -في فرنسا- إيف لاكوست الذي عمل -بعد ما ذكَّر عن حق بأهمية تجارة العبيد العربية في أفريقيا الإستوائية في القرن التاسع عشر- وفي نفس الوقت على رد إعتبار الأوروبيين، مُرجعا جوهر مسئولية المآسي الأفريقية إلى الأجهزة المحلية التي كانت تعمل في هذا المجال وإلى النشاط الرقّي بين الأفارقة أنفسهم: « قد يكون ثقل التجارة فيما بين الأفارقة في القرن التاسع عشر في مجموعه أقل وطأة فيما يتعلق بعدد الضحايا [...] وعلى العموم فإن تجارة العبيد في القرن التاسع عشر هي التي لها اليوم الآثار الجيوبوليتيكية الأخطر، لأنها الأقرب منا زمنا»، هذا ما كتبه في عام 1987[8].

---

6. حتى أن صحفيا كتب في صحيفة يومية أمريكية كبرى أن« الصراعات القبلية القديمة التي وضعت القوات المسلحة الأوروبية لها حدًا خلال المرحلة الإستعمارية، عادت إلى السطح بكل وحشيتها القديمة مدعمة هذه المرة بالأسلحة الأتوماتيكية» (لوس أنجلوس تايمز، 25 يناير 1985).

7. هكذا يفكر ديفيد س. لاندس فهو يصرف معا وحشية الإمبراطوريات قبل الكولومبية ووحشية الغزاة، في كتابه: *The Wealth and Poverty of Nations. Why Some are so Rich and Some so Poor* (Norton, New York, 1997; trad. française: *Richesse et pauvreté des nations*, Albin Michel, Paris, 2000).

8 . «Géopolitiques internes en Afrique», *Hérodote*, n° 46, Juillet-septembre 1987, La Découverte, Paris.

إثارة مثل هذه الأمور تسمح باللجوء إلى نوعين من التبريرات: إما أن أعمال العنف الغربية قد وضعت فى إطار التاريخ الطويل العادى للقسوة البشرية، وبقياسها بهذا المعيار فهى لا تعتبر أسوء من سابقاتها، وكان يمكن الدفاع عن هذه الرؤية للموضوع لو لم يؤكد أصحابها من ناحية أخرى على إنسانية الحضارة الغربية وهو ما يجعلها فريدة فى نوعيتها، وبالتالى فى تفوقها ؛ وإما يتم التأكيد على الإهتمامات« الإنسانية» (وبدأت هذه الكلمة تنتشر فى كل مكان) للعمليات الأوربية وهى التي تنفرد بالتقدم الذى جعلت الشعوب التى أخضعتها لها تتمتع به؛ بخلاف واقعة ان هذا الخطاب الجديد عن السمة المفيدة للتوسع الغربى يتكتم عن أقل أحداثه عظمة، فهو يعيد تأسيس شرعية هيمنته دون أن يثير ابدا التناقض المتضمن فيه مع الكلية المفترضة للحقوق الإنسانية؛ إن التاريخ الذى تعاد كتابته إبتداءا من الثمانينيات يقدم المرحلة الاستعمارية بهذه الصورة على أنها مغامرة جميلة، شابتها للأسف بعض أخطاء مؤسفة متقطعة، لا تطرح على الرغم من ذلك شيئا من نتيجتها النهائية الإيجابية فى مجملها والتى يحق له أن يتقدم بها للتاريخ[9].

لما كان التاريخ هو أحد الأعمدة التى شيدت عليه الأسطورة الغربية فقد كان من الأمور الطبيعية أن يؤدى المؤرخون دورا رئيسيا فى عملية ترميم صورة الغرب.

من عملية إحياء الأساطير ...

الحنين للماضى هو ما طبعت به فى أغلب الأحيان مجموعة هذه المقولات التى كان لها فى فرنسا صدى كبير ووجدت مساندات قوية لها ترددت فى

9. فى فرنسا تعتبر الأجزاء الستة التى خصصتها دار النشر Denoël *إلى مغامرة فرنسا الإستعمارية* تعتبر مثالا على ذلك: الكتاب الأول *الإمبراطورية المنتصرة L'Empire triomphant (1871 -1936)* يمتدحها بمبالغة، وفى تقييمه للجزء الأخير فى جريدة لوموند الصادرة فى 18 يوليو 1997 يعتمد الصحفى برتران لوجوندر هذه الرؤية مع إضافة: «هذا التاريخ المجيد الذى لم يخلو من ظلال».

الصحافة؛ أحد أهم من مثّل هؤلاء العاملين على هذا الإحياء للصورة، هو المؤرخ -الذى غدا صحفيا- الكسندر أدلر، وسيتعين علينا أن ننقل عنه الكثير حتى ندرك قوة هذا الحنين للإمبراطورية الذى انتاب العديد من أقرانه، ويضاعف من قوة هذا الحنين وهم الكرم الفرنسي: « قد يكون من العدل السليم والطيب أن نذكر أيضا عظمة هذا العمل الضخم. [...] استعارت الجمهورية [...] من اللاتينية المتأخرة هذه المقدرة على خلط دمها بدماء الآخرين واعتبار الأفريقيي الخاضع لقوانين فرنسا كما لو أنه فرنسي فى حالة كمون [...] وهذا كله ما لا يمكن للعالم الأنجلو سكسونى أن يدركه بسهولة. [...] على الجانب الأفريقى أحبوا فى فرنسا أفضل ما فيها: القساوسة البيض ورعاة الكنائس الذين كانوا يبشرون "الموسيس" فى أقاصى منطقة الساحل و"القاسربس" فى توجو؛ وقادة الجيش الاستعمارى الذين أمضوا حياة بأكملها وسط جنودهم من المشاة الأفارقة، والأطباء الذين أسسوا منذ قرن كامل العمل التطوعى، والماسونيين الذين كانوا يعلمون أبناء السحرة الأفارقة تقاليد يبدو أنهم الذين اخترعوها، وأخيرا أعضاء البرلمان من أبناء الجمهورية الذين أفسحوا مكانا تحت شجرة القرية فى البرلمان (سراى البوربون) لمن سيصبحون فيما بعد رؤساء جمهوريات أفريقيا المستقلة. [...] من المؤكد ان فرنسا تحب " أفريقياتها " وتشعر بالحنين المؤثر تجاه جمهورية تذهب قطعة وراء قطعة أدراج الرياح ؛ من المؤكد أن من داكار إلى أبيدجان بل وليبروفيل أيضا وياوندي وتاناناريف فرنسا لم تقصّر.[10]» إن ما تقرأه حقيقة ولسنا فى حلم: إن كاتب هذه السطور التجميلية فى هلوستها من المثقفين اليساريين وكان شيوعيا فى وقت من الأوقات.

يجب أن نقر له بنقطة فى صالحه وهو أنه لم يكن الوحيد الذى قال ذلك: فقد كتب جان-بييركوت، الذى لم يطل به الأمر وزيرًا للتعاون فى أولى الحكومات

10 . Alexandre ADLER, *Courrier international*, n° 338, 24-30 avril 1997.

الاشتراكية لعصر فرانسوا ميتران فى عام 1981 وهو الذى جسد لفترة قصيرة الآمال الوهمية لجزء من اليسار فى محو الفكر الإستعمارى من التعاون الفرنسى، كتب فى عام 1984 فى كتاب هو كشف حساب لما قام به: « لا أعتقد أن الاستعمار قد قصر فى عمله؛أعرف أن عهده قد ولىّ؛ ويجب اليوم أن نستخلص النتائج[11].» كما يمكن أيضا أن ننقل هنا -ضمن العديد من التنويعات على هذا اللحن- ما كتبه كاتب الافتتاحيات كلود أمبار فى 1997 فى المجلة الأسبوعية *لوبوان*: فرنسا« إستراحت إلى فكرة أن نجاحاتها التى لا تقبل الجدل فى مهمتها الإستعمارية و-أكثر من ذلك- فى تفكيكها لمستعمراتها - ستكافأ بصداقة لا تنفصم[12]».

بذلك أرجعت هذه العودة إلى القناعات القديمة الممتلكات السابقة إلى الغَيْرِيّةِ القابلة للإدراك التى كانت تتسم بها عند الغزو؛ وتحجب سذاجة الخيال من جديد، لدى وصف هذه الممتلكات، تركيبات الواقع الذى لم ينجح، فى الحقيقة، أبدًا فى أن يفرض ذاته؛ وعادت الأوهام تستعيد الأرض التى كانت فقدتها؛ الفوضى الأفريقية تلخص فيها كل وضع القارة، فاستردت ثوبها القديم فبدت من جديد منطقة يكتنفها الغموض، خطيرة ومتوحشة[13]، وغير قادرة بكل تأكيد على حكم نفسها بنفسها، مما دفع صحفيا آخر لوصف المأساة السيراليونية بأنها « مقبرة لبعض الأفكار الكريمة التى لم تستطع أفريقيا الدفاع عنها بعد ما تركت أمورها للأفارقة وحدهم[14]».

---

11 . Jean-Pierre COT, *À l'épreuve du pouvoir, Le tiers-mondisme, pour quoi faire*, Seuil, Paris, 1984.

12 . *Le Point*, juin 1997, cité Par Jeune Afrique, n° 1906, du 16 juillet 1997.

13 . هذه العودة إلى صور الماضى تبينها مسرحية ظهرت فى عام 1997 فى باريس، وقد جاء فى النشرة الموزعة حينذاك أن آرنو بيدويه صاحب مسرحية *كينكالى* (يناير- مارس1997، مسرح لاكولين الوطنى) «أمضى طفولته كلها فى أفريقيا» ؛ بما أن أفريقيا ساحة واحدة فقد أعتبر إسم البلد الذى أقام فيه غير ذى أهمية ؛ فى أفريقيا الموحدة تلك تدور أحداث المسرحية كما يقول مخرجها« داخل أبواب مغلقة فى وجود ثلاثة أجيال من الأوروبيين المهاجرين وسائحة وعجوز وشابة أفريقية وهى تقول لنا أكثر ما يمكن أن تقوله مقالات عديدة» ؛ لقد حُسم الأمر إذن بما أن الخيال يصف قارة الأمور الغريبة، أفضل من سرد الواقع عنها ؛ أما الشخصيات الأوروبية فهى -كما يؤكد المخرج أيضا- تطالب بأن نتساءل« عن الطبيعة الحقيقية [...] لهذه الرغبة التى إنتابت أولا المستعمر: القيام بمهمة إنسانية أم مشاعر عمياء» ؛ كاتب المسرحية من مواليد 1958 وهو ليس مستعمر عجوز، ومع ذلك فإن كل شيء يحدث كما لو أن إختيار الديكور الأوحد -الذى هو أفريقيا- قد فرض عليه اللجوء إلى أكثر الشخصيات غرابة فى قدمها إستلهمتها ذاكرة واهمة كما حمله يفضل تكليف المستعمر بمهمة بطولية مهما كانت هذه المهمة.

14 . Stephen SMITH, «Le rêve fracassé de Freetown», *Libération*, Janvier 1999.

لا أعنى، من وراء نقل هذه النصوص المختارة، أن التطورات الخطيرة الجارية في بعض مناطق الجنوب لا تثير التساؤلات، وأنه لا يتعين علينا مناقشة المجازر التى تحدث فيها، كما أنى لا أنكر أن التغيرات التى أحدثها الاستعمار للشعوب التى أخضعت له تشكل -إذا ما وضعت معا- نوعا من الثورات، كما أن الأمر لا يعنى التقليل من قدر الفظائع الحالية على أساس أن الغربيين قد ارتكبوا أفظع منها؛ فهناك جرائم ارتكبت دون أن تكون مدينة بأى شيء للميراث الاستعمارى ولا لوصاية الغرب على بقية أنحاء العالم، كما أن الكوارث التى تغوص بعض البلاد في أعماقها اليوم ليست كلها من عزف آلة جهنمية هدفها الوحيد هو إرسالها إلى حتفها؛ سأحاول فيما بعد الفصل بين ما هو عائد إلى التراث المحلى والذاكرة الوطنية وما هو جديد فى الانحرافات المعاصرة التى انزلقت إليها عدة مناطق من العالم.

إلا أن خِصِّيصة *الهزة الارتدادية*[15] التى أعطيت للتو بعض توضيحات لها، هى عدم طرح الأسئلة وعدم محاولة فهم المبررات العديدة لهذه التغيرات الإرتدادية والتحجج بالاضطرابات الحالية لتمجيد زمن السلم الاستعمارى والمطالبة بالحق فى الشعور بالحنين للعصر الإمبريالى؛ وقد عبر أحد المؤرخين الفرنسيين فى معرض حديثه عن الأراضى والمناطق التابعة لفرنسا عبر البحار (DOM-TOM) عن رأيه بقوله: « هذه البقايا المتناثرة لإمبراطورية ولى زمانها ثمينة جدا، فهى تضمن لفرنسا فرصةً للبقاء قوة بحرية عظمى[16] ». التاريخ لا يزال جاثما، ثقيلا: لا تستطيع فرنسا -ولا الولايات المتحدة ولا بريطانيا كذلك- أن تفكر فى ذاتها إلا على أنها قوة عظمى؛ كل شيء يجرى على أساس أن هذا « المصير البيّن» الذى

15. إنه تعبير مأخوذ من قاموس النضال من أجل حقوق المرأة: Susan FALUDI, *Backlash*, Éditions des femmes, Paris, 1993. تصف المؤلفة في هذا الكتاب « الحرب الباردة ضد النساء» بعد حركة التحرر التي سادت السبعينيات.

16 . Denise BOUCHE, *Histoire de la colonisation française*, tome II, Fayard, Paris, 1991.

حدد له طريقها هو -فى نظر مفكريهم وسياسييهم- شرط من شروط وجودها كـأمم غربية عظمى.

هذا الطريق لم تخطه لها -حسبما تقول الأسطورة- سوى عبقرياتها الذاتيـة؛ فمازال الغرب يُقنع نفسه أنه بنى نفسه بنفسه وأنـه لا يديـن بعظمتـه إلا لذاتـه؛ والصحافة -(دائما هى!)- عكست مرارا هذا الاعتقاد الراسخ، فهى تعتـبر الناقـل المفضل لثقافة التفوق هذه التى لم ينقطع حبلها قط منذ عدة عقود[17]، كما أنها تعتـبر مؤشرا ذا قيمة كبيرة على هذه التطورات.

فى عام 1998 خصصت الصحيفة الأسبوعية (التى لم يطل بها العمر كثـيرا: الأوروبى *L'Européen*) عدد الصيف (الذى يضم ثلاثة أعداد فـى عـدد واحـد) لتاريخ أوروبا[18] ؛ كتبت رئيسة التحرير كريستين أوكرانـت موضحـة أن « لقـد حملت هذه الملحمة -التى مازال التذكير بها يبهـرنا حتى اليـوم- ثقافـةً وقيمًـا وعادات حتى آخر أنحاء العالم .. إننا لا نمجدها بما يكفى ومن حقنا أن نكون بهـا فخورون» ؛ المسألة ليست هنا فى الإعجاب بحضارة هى مثيرة للإعجاب بـالفعل فى عدة جوانب منها وإنما الموضوع هو فى الطريقة التى وصفت بها: لقد صنعـت أوروبا ذاتها وحدها، وإمعانا فى إقناع القارئ بذلك، يأخذ الكتـاب كـامل حريتـهم وكما يحلو لهم فى التعامل مع التاريخ وذلك دون ذكر عدد الأخطاء الفعلية التـى لا حصر لها والتى ترصع هذا الملف: فمنه نتعلم أن فى عهد إمبراطورية الانطونيـن « كان السلام مُخَيِّمًا على المنطقة الممتدة من مصـب نهـر الرايـن حتى دلتـا الدانوب، مع إقصاء الشعوب« البرية»؟ فى أفريقيـا والشـرق الأوسـط تتحصـر

17. إستبعدت عن قصد من أبحاثى كافة الصحف المنتمية لليمين المتطرف فى أوروبا وفى الولايات المتحدة ؛ فمـا يهمنى هو الرأى العام المشترك للغرب.

18 . «Histoires d'Europe de Jules César à l'éuro», *L'Européen*, n° 19-20-21 du 29 Juillet au 23 août 1998.

الإمبراطورية في حافة (ساحلية) ضيقة »، وهذا يعتبر مثالاً جيدا في التاريخ بـأثر عكسي، إذ أنه يتعين طرد أفريقيا والشرق الأوسط عن روما لكي تصبح الإقصاءات الحالية شرعية بواسطة عمق تاريخي انتفى عنها، أما المناطق المحيطة من شمال أوروبا وشرقها فقد أُدخلت في المقابل بكامل هيئتهما إلى داخلها حتى تتطابق الإمبراطورية مع أوروبا المعاصرة؛ أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية فهي« تجمع التصورات السياسية الرومانية والمسيحية والتراث الإغريقي معًا»؛ وما عدا هذه المكونات الثلاثة لا تدين بيزنطة بشيء لأحد ولا كلمة واحدة عن علاقاتها بالإمبراطوريات العربية أو الفارسية التي عاصرتها ؛ ثم إن كانت العاصمة الشرقية« قد أدت دورا جوهريا في نقل النصوص القديمة [...] - فإن عصر النهضة يدين لها بالكثير ». لا كلمة واحدة أيضا عن الطريقة التي وصل بها هذا التراث إلى الغرب ؛ ولن يعرف القارئ كذلك إن كانت توجد أوروبا غربية ومسلمة في القرون الوسطى إذ لا توجد كلمة واحدة عن الأندلس ولا عن جزيرة صقلية في القرون الوسطى ؛ ويسمح بذلك هذا الإغفال بالصمت عن طرد اليهود والمسلمين من إسبانيا.

أوروبا كما تراها صحيفة الأوروبي *L'Européen*، وريثة اليونان وروما، مسيحية فقط ولم يلوثها أي تأثير خارجي، ولم تعرف سوى صفحات مجيدة من التاريخ وابتدعتْ عبقريتها ثقافة إنسانية تعتبر المحرك الرئيسي لأفعالها؛ ولكن لسوء حظها الشديد تلقت هجمات من البرابرة الذين هم الأتراك: إذ جاء وصف الإمبراطورية التركية ليُلقي الرعب في القلوب: ففيَ القرن الخامس عشر« هبط الليل لمدة خمسة قرون تقريبا على البلقان حيث عاشت الشعوب المقهورة لعدة قرون [...] متجمعة في أقلية دينية أسيرة تُسير ذاتها تحت قيادة رئيسها [...] وهو ما يسمح لبعض المتخصصين في العالم العثماني بالحديث عن تَسامح ما؛

إلا أن ذلك التسامح كان فيه هشاً للغاية » ؛ وهكذا لم يحظَ العثمانيون بإعترافٍ واحد لهم بأى مشاركة فى الحضارة. أما عن العنف المناهض للسامية التى إتسمت به أوروبا المسيحية وعن محاكم التفتيش وعن تجارة العبيد فلم ترد عن كل ذلك كلمة واحدة. وأتوقف هنا لإستحالة نقل هذا الملف بالكامل وهو الذى ينفث منه الحقد والازدراء للآخر ويشكل مثلا يلقى الضوء على الرفض العنيد للابتعاد عن الأساطير.

الأقوال الرسمية للبلاد الغربية تشارك أيضا وبقوة فى عملية تجميل التاريخ الذى كثيرا ما يحوَّل إلى أسطورة هدفها تعليم المواطنين؛ مثل تلك الأسطورة التى ظلت تتحدث لمدة قرن كامل عن إلغاء الرق[19] والتى قُدِّمَت على جانبى الأطلنطى على أنها « عملية قام بها البيض»؛ قاتل فيها أصحاب الفكر الإنسانى من أصحاب تراث التنوير بكل شراسة ضد المصالح الاقتصادية من أجل حرية الزنوج. لم يكن الاعتراف بالدور الجوهرى الذى أداه المنادون بإبطال الإسترقاق ليمنع أحدًا من ذكر دور ثورات الزنوج التى عجلت فى حالات عديدة بالوصول إلى قرارات إلغاء الرق؛ إلا أن هذه الثورات التى تكررت عبر تاريخ الولايات المتحدة اعتبارا من 1830، وهى التى تشكل هيكل تاريخ جزر الكرايبى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لم تذكرها قط كتب التاريخ الرسمية. من ذلك المنظور لا يدين حظر الرق الذى أصدره لنكولن عام 1863 بشىء لثورتى 1831 و1858 *ولا لخط السكك الحديدية السرى underground railway* الذى نظم هروب مئات العبيد من الولايات الجنوبية إلى الشمال وإلى كندا. وفى فرنسا اتخذ الاحتفال فى عام 1998 بمرور مائة وخمسين عاما على إلغاء الإسترقاق صورة الاحتفال الإجماعى

19. فهى تمتد من مرسوم 16 بلوفيوز عام II (بتقويم الثورة الفرنسية) (1794) الذى نسخه حكم القناصل فى عام 1802، حتى إلغاء البرازيل للرق فى عام 1888.

بالجانب الإنساني الذي يميز الجمهورية الفرنسية والذي قـام ممثلوها بـالإعراب الكامل عن الرضا بالذات، إذ أكدت الأقوال الرسمية على أن إبطال الرق كان عمـلا من أعمال الجمهورية، على حين ينسب الاسترقاق إلى عيوب الملكيـة، كمـا قُـدِّم مرسوم 27 أبريل 1848 على أنه« حلقة مثالية من حلقات النضال من أجل حقـوق الإنسان كما أن المعركة من أجل إبطال الاسترقاق [تتماثل مع] المعركة مـن أجـل إقامة الجمهورية[20] ؛ أما عن الإلغاء الأول في عام 1794 الذي أُلغي وأعيد بذلـك الرق في 1802 فلن تجد سوى صمت مطبق.

بينما كان المؤرخون يضاعفون عبر العقـود الأخـيرة مـن أعمالـهم عـن الانتفاضات مؤكدين على أهميتها[21]، بدا كما لو أن رجال السياسة الغربيين مـهتمون في هذا الصدد بالاحتفاظ بالأسطورة ضد التاريخ، وسمح تصرفهم هـذا وسـكوتهم عن الحق بالإبقاء على وَهْمٍ أن التنوير هو ميراثهم الوحيد وحولوه هو أيضـا إلـى أسطورة لأن التنوير يقف بأكمله في جانب الخير ولا تشوبه شائبة علـى الإطـلاق ولا أي ظلال. إنهم بتركهم الانطباع بأن الشعوب المستعبدة لم تشـارك قـط فـي عملية تحريرها التي جاءت فقط نتيجة لميل الحكومات لعمـل الخـير للآخريـن، يثبتون عدم مقدرتهم على تصـور أن الغـرب لا يمكـن أن يكـون إلا صـاحب المبادرات التاريخية، إنه يظل وحده صانع التاريخ، يدفعه إلى ذلك إنسانيته وتقديسه

20. من أقوال وزير (سكرتير دولة) ما وراء البحار جان-جاك كيران (نقلته ليدي هو-فونج-شوي شركوتو في:
«Du bon usage d'une commémoration», *Dérades*, n° 3, 1e semestre 1999, Petit-Bourg, Guadeloupe).

21. نذكر ضمن أعمال أخرى حديثة ظهرت باللغة الفرنسية:
Claude FOHLEN, *Histoire de l'esclavage aux États-Unis*, Perrin, Paris, 1998; «Routes et traces d'esclaves», numéro spécial de la revue *Diogène*, n° 179, juillet-septembre 1997, Gallimard, Paris; «De l'esclavage», numéro spécial de la revue *L'Homme*, janvier-mars 1998 EHESS, Paris.

المتصوف للتقدم، وهو يتسم على الدوام، بالإيجابية مع التسليم بأن المصالح قد تؤدى أحيانا دورها فى ديناميكية التوسع، وفى ذلك كله أعظم الفوائد لهذا العالم.

ومن هنا يمكننا أن ندرك أن مواطنيه وقد فُطروا على هذه التعاليم يبدون متحفظين إذا ما أراد قادته التخفيف من حدة الخطاب السائد؛ فقد اندهش أحد أعضاء الكونجرس من الديموقراطيين فى عام 1997 عندما تلقى خطابات احتجاج كثيرة للغاية لأنه إقترح على الكونجرس أن يقدم اعتذارا للزنوج الأمريكيين عن فترة الرق، بل إن أحد مراسليه رأى أن الكونجرس يجب أن يقدم له الاعتذار لأنه جرد جده من عبيده، على حين رأى آخرون أنه يتعين على الزنوج الأمريكيين أن يُقروا بالجميل لمستعبديهم لأنهم أخرجوهم من أفريقيا ؛ وطبقا لاستطلاع الرأى الذى أُجرِى حول الموضوع وافق أثنان من كل ثلاثة زنوج على المشروع وناهضه اثنان من كل ثلاثة من البيض[22].

... إلى إعادات كتابة التاريخ

هذه الأحاديث – مهما علت الأصوات التى تنقضها– عادت تسيطر على الساحة. عاد الجانب الانسانى للإستعمار يقدم على أنه من البيّنات حتى لو كذبت الوقائع المعتقدة، ولقياس درجة تشويهات الواقع التى تقوم عليها يمكن أن ندرس أحد المواضيع المفضلة لدى القائمين على رجال البروباجندا لديهم وهو موضوع تعليم « السكان الأصليين» وهو ما لم يأخذ على الإطلاق ولا فى أى مكان سمة الشمول فى الفترة الاستعمارية.

22 . *The Washington Post*, août 1997.

ففيما يخص التعليم يمكن تقسيم البلاد التى استُعمرت إلى ثلاثة مجاميع: الذين كان لديهم تراث تعليمى قبل الاحتلال، وهياكل قائمة على ذلك (مثل الهند وسيلان ومدغشقر) وهؤلاء الذين كانوا قد بدأوا بالفعل عملية التحديث لأجهزة الإدارة (مثل مصر أو تونس) وقد دعمت هذه الهياكل خلال فترة الاستعمار وكانت نسب التعليم فى المرحلة الابتدائية ذات أهمية: وفى بلاد أخرى توطد وجود تبشيرى هام أو أن السلطة الاستعمارية فوضت مهمتها التعليمية إلى الكنائس مما سمح أيضا ببلوغ تعليمية مرتفعة: ذلك هو وضع المستعمرات البلجيكية فى أفريقا -الكونجو ورواندا وبوروندى- حيث بلغت نسبة الدارسين عشية الاستقلال ثلث السكان البالغين سن دخول المدارس الابتدائية.

لكن البلاد التى لم يكن بها تراث تعليمى أو تلك التى كان نقل المعارف يتم فيها تراثيا عن طريق النقل الشفهى فإن الاستعمار لم يدخل عليها تعديلات تذكر: ففى أفريقيا الغربية الفرنسية كلها لم يكن هناك سوى ثلاثمائة يحملون شهادة الابتدائية فى عام 1940 .ولم تكن تتعدى نسبة التعليم الابتدائى بها الـ 5% فى عام 1945 [23]، وبلغت فى عام 1960 فى المتوسط 10% من سكان مجموعة بلاد الساحل تحت الوصاية الفرنسية ؛ وفى المغرب، فى عام 1956، كان أقل من 12% من الأولاد الذين فى سن الدراسة ملحقين بالإطار التعليمى الحديث[24]؛ أما الجزائر ذلك الجزء الذى لا يتجزأ من فرنسا فلم يكن بها سوى 20% من الأطفال بالغى سن الدراسة ملحقين بالمدارس فى عام 1961[25]. أما الكوادر التعليمية فى الثانوى والعالى فقد ظلت هامشية حتى الخمسينيات فى آسيا والستينيات فى الشمال

23 . Jean SURET-CANALE, «La politique coloniale…», *loc. cit.*

24. بعد إستبعاد الكتاتيب القرآنية التقليدية راجع:

(A. JENAISTAR, «École, famille et société au Maroc», *Lamalif*, n° 116, mai 1980, Casablanca, Maroc).

25 . Brahim BENMOUSSA, *Femmes et Éducation en Algérie*, rapport établi pour le Collectif 95 Maghreb-Égalité, Alger 1994, non publié.

الأفريقى والبلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى فيما عدا جنوب أفريقيا التى كان سكانها البيض جميعا فى المدارس؛ والواقع هو أن نسب التعليم لم تبدأ فى الإرتفاع بسرعة إلا بعد الإستقلال؛ يجدر بنا اذن أمام هذه الارقام أن نقلل نسبيا من الحماس الحضارى للعمليات الاستعمارية التى لم تعمل فى أى بلد من البلاد على جعل التعليم ديموقراطيا.

يمكن تسجيل هذه الملحوظات ذاتها فيما يتعلق بالصحة: إذ لم تبدأ السلطات المسئولة القيام بمجهودات حقيقية فى هذا المجال إلا ابتداءا من الخمسينيات؛ فلم يتعد المتوسط العام للأمل فى الحياة سن الأربعين عاما في بلاد إمبراطورية الهند؛ وفى أفريقيا جنوب الصحراء لم يزد هذا السن فيها عند حصول البلاد على إستقلالها -فيما عدا تلك التى تتضمن نسبة هامة من السكان البيض-، أما فيما عدا ذلك فقد كان المتوسط يهبط إلى ما دون الأربعين عاما؛ وفى الجزائر وصل المتوسط إلى ستة وأربعين عاما فى 1960، بما في ذلك السكان الذين من أصول أوروبية على حين كان المتوسط فى فرنسا ذاتها سبعين عاما[26]؛ إلا أن هذا التقدم الطفيف قد قلب الموازين فى المجتمعات الواقعة تحت الاستعمار: فقد شكّل إدخال نظم تعليمية محملة بالحداثة – حتى لو أنها كانت محجوزة للصفوة – جزءا من التغيرات الثورية التى غيرت من كيانها، كما أن تحسين الأحوال الصحية قد أعطى إشارة البدء – فى الخمسينيات – لأسرع نمو سكانى فى تاريخ البشرية، ولكن هذه قصة أخرى؛ أما الآن فلنسجل أن الحضارة كانت لا تعطى سوى بأقل مقدار للذين يفترض أنها غمرتهم بفوائدها.

تم إثراء محاجة الإنسانية الإستعمارية خلال الأعوام الماضية بفصل جديد خاص بالتكاليف التى تكبدها الاستعمار مقابل الفوائد الهزيلة التى جنتها فى واقع الأمر الدول المستعمِرة؛ فقد استوحى الذين يعملون على رد اعتبار الاستعمار من

26. بيانات منظمة الصحة العالمية نقلها عنها البنك الدولى فى: *تقرير عن التنمية فى العالم 1978*، واشنطن، 1978.

بعض الأبحاث التى أجريت لدراسة كشف حسابه الإقتصادى نتيجةً مفادها أنها لم تكن « صفقة رابحة» إذ أن البلاد الاستعمارية قد خسرت أكثر مما ربحت من عمليات استغلال إمبراطوريتها، وبما أنها لم تربح شيئا فالمستعمرات لم تخسر بالتالى أى شىء من هذه المغامرة التى اعتبرت محصلتها النهائية لا شىء وبناء على ذلك لا يمكن إيعاز فقرها إلى الاستغلال الأجنبى الذى لم يكن نهبه بالضراوة التى ادعتها عليه الكتابات المناهضة للإستعمار؛ مثل هذا القياس يتميز بأنه يعفى العملية الاستعمارية من أى مسئولية عما سمي بالتخلف، ولكن تعيّن على من أجروا هذا القياس القيام بسلسلة من الانزلاقات فى معاني الكلمات. تعزو نظرية المؤرخ الفرنسى جاك مارساى[27] تهالك الاستعماريين بين الفرنسى والبريطانى حتي الخمسينيات والصعوبة التى لاقاها « لكى يتواءما -غداة الحرب العالمية الثانية- مع النمو الصناعى [...] إلى أن ميلهما إلى جعل تبادلاتهما تدور حول محور إمبراطورية كل منهما؛ ثم يتساءل مارساي - فيما يتعلق بفرنسا- « إن كانت عملية انسحاب الاستعمار انتصارا للشعوب المستَعمَرَة دعمته القوى المناهضة للرأسمالية فى البلد الأم أم أنها كانت على العكس من ذلك وفى ذات الوقت، عملية التخلص من عبء زائد أراده فرع من رجال الأعمال الفرنسيين (الفرع العصرى) لكى يكتفوا من نشاطاتهم ».

لا يشكك صاحب هذه الأفكار المثيرة للاهتمام فى صحة ما سلب من ثروات المناطق التى أخضعت لصالح البلد الإستعمارى، إلا أنه يؤكد على الجوانب الخبيثة للعقد الاستعمارى على رؤوس الأموال المركزية. إلا أن هذه التساؤلات اعتبرها جزء من المثقفين الفرنسيين إجابات واستخلصوا منها النتيجة التى ترى أن المحصلة النهائية للاحتلال الاستعمارى هى التعادل السلبى؛ ثم شارك جاك

27 . Jacques MARSEILLE, *Empire colonial et capitalisme français, histoire d'un divorce*, Albin Michel, Paris, 1984.

مارسأى فى إحداث ذلك الإنحراف الفكرى بأن كلف البحـــوث التاريخيـــة - فـــى مؤلفات أخرى له- بإعادة دراسة « ما يسمى بعبء التركة» ، وعلاوة علـــى ذلـــك فهو بتأكيده على أن « التركة الإستعمارية لم تكن على هذه الدرجة مـــن "تفكيـــك للهياكل" ولا من "التسبب فى الصدمات" كما يقال[28] » وقام بعد ذلك بنفسه باختصار الطريق الذى سمح بأن نستخلص، من البطء الشديد الـذى إتسـم بـــه رأس المـــال الفرنسى الذي أصبح كسجين الإمبراطورية، أن تدخلاته فى المستعمرات لـــم تكـــن لها نتائج ضارة. وبعد فترة من الزمن زادت كتب دراسة التـــاريخ فـــى المـــدارس الثانوية التى وضعت تحت إشرافه الأمور تبسيطا بأن أكدت أن الأمبراطوريـــة لـــم تعد بأى نفع على فرنسا.

رجل الاقتصاد السويسرى بول بيروخ رأى من جانبـــه أن التـــأكيد علـــى أن الغرب اعتمد على إمبراطورياته الإستعمارية لكى يُصنِّع نفسه يعتبر« من أســـاطير التاريخ الاقتصادى[29]»؛ وهو إن أراد أن يؤكد -على الأهمية- الحاسمة للتحـــولات الاجتماعية والتقدم التكنولوجى الداخلى فى عمليات التصنيع، فهو على حـــق، إلا أن حججه تظل أبعد من أن تكون مقنعة فى مجملها لأنه - بين أمور أخرى- يفصـــل وظيفة التزويد بالمواد الخام التى تقوم بها المستعمرات عن تلك الأكثر أهمية بكثـــير لمستهلك الإنتاج الصناعى الوليد للبلاد الاستعماية؛ أما حجته فى الأسبقية الزمنيـــة للثورة الصناعية البريطانية على التوسع الاستعمارى التى يفسر بها تـــأثير الثانيـــة على الأولى تبدو صعبة الدفاع عنها، بمقدار ما أنه يدخل التاريخ الطويل والمرحلـــة الحاسمة للتراكم الرأسمالى التجارى تحت بند المكسب والخسارة.

---

28 . Jacques MARSEILLE, «L'héritage colonial français: au -delà des légendes», *in* Rony BRAUMAN (dir.), *Le tiers-mondisme en question*, Orban, Paris, 1986.

29 . Paul BAIROCH, *Mythes et paradoxes de l'histoire économique*, La Découverte, Paris, 1999. La première édition de cet ouvrage date de 1993.

ومن جهة أخرى فإن بايروخ ينقض بذاته بعض مزاعمه بأن أثبت إلى أي مدى أسرع التبادل التجارى الحر الذى فرض فى القرن التاسع عشر على البلاد التى كانت فى سبيلها إلى أن تستعمر على تفكيك صناعاتها وكان فى صالح البلاد التى استعمرتها بعد ذلك وكان ذلك بمثابة أول تغيير لمراكز الصناعة فى التاريخ الحديث، إذ أنه يؤكد أن « الاقتصاد ليس "لعبة نتيجتها صفر" ؛ فإذا لم تكن البضائع المصدرة مهمة بالنسبة للصناعات الغربية[30]، فإن ثمنها المتدنى أدى إلى عدم التصنيع شبه الكامل لما سيصبح فيما بعد العالم الثالث ». ولذا نستطيع أن نصل معه إلى الخلاصة نفسها وهي أن المستعمرات لم تؤد دورا حاسما مباشرا فى تصنيع البلاد المستعمرة، مذكرين فى الوقت ذاته بأنها شاركت بأبعاد هامة -وذلك عن طريق آليات عديدة -منها الهجرة- فى تدعيم ازدهارها وبالتالى خلق أسواق داخلية هامة للإسراع فى عملية التصنيع. يمكننا فى جميع الأحوال أن نتساءل لماذا لم يقم المؤلف بقياس دور المستعمرات إلا فى عملية التصنيع -*فى حد ذاتها*- وما الذى دفعه – وهو الأهم – إلى أن يؤكد على السمة الداخلية البحتة لمسيرة الغرب نحو الثورة الصناعية.

لكنه -وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التى إتخذها الباحثون - فإن موضوع الأداء ذى النتيجة " صفر " أصبح هو الذى يحظى باقتناع أغلبية الرأى العام؛ وهذا الموضوع له فى الواقع ميزة، وهى أنه يعطى مساندة المصداقية الاقتصادية لجانبين يترددان كثيرا فى الخطاب الغربى وهما اللذان يؤكد أحدهما على عدم وجود صلة بين النظام الاستعمارى والظواهر الموضوعة جميعا تحت مسمى التخلف، والثانى على الجانب الداخلى البحت لعملية التراكم التى تؤدى إلى الثورة الصناعية.

30. علما بأنه يؤكد فى مجال آخر على ان«فى بداية القرن العشرين كانت 79% من الأقمشة القطنية البريطانية مصدرة وأن أكثر من نصف هذه الصادرات كان معرجها إلى بلاد العالم الثالث» (*Mythes et paradoxes...,op. cit.*)

نهاية عصر ؟

يبدو أن الحساب الختامي للاستعمار إيجابيٌ في مجمله وأن القوى الغربية قد أدت مهمتها الحضارية بأن قادت قارات الجنوب -قصرًا بدون شك ولكنّ لم يكن أمامها خيارٌ آخر- إلى طريق الرخاء والتطور؛ كما أن البطء الذى اتسم به التطور الذى بدأ مع عصر الإستعمار لم يكن السبب فيه راجعا إلى الآثار التى ترتبت عليه بقدر ما هو عائد إلى العمليات الانتكاسية التى سُجلت فيما بعد والتى يفسرها عدم قدرة الشعوب المستقلة حديثا على إدارة شئون ما خلفه لها الإستعمار؛ إذا أخذنا الأمور من هذه الزاوية التفسيرية، تصبح عمليات العنف التى صاحبت السيطرة الاستعمارية هى وجهها الأقل إشراقا، دون أن يؤثر ذلك فى الاقتصاد الشامل المتمحور حول تعميم كلّية التقدم: الطريقة الوحيدة التى تسمح بإيجاد صلة بين هذه النظرية والواقع هى القبول بمنطقها المحاسبى، وإذا أخذنا الأمور بهذا المعيار، فإن ما يعوض الأذى المترتب على الصدمات التى تسبب فيها النظام الاستعمارى هو تحديث هياكل الإنتاج لانفتاح مناطق شاسعة ظلت منكبة على نفسها عن العالم ومواجهة تقاليدها التى غالبا ما تكون جامدة لنظم فكرية قائمة على استقلال الفرد ذاتيا وعلى حريته فى أخذ المبادرات وأخيرا تكوين نخب تستطيع -بفضل التعليم- استيعاب التطور.

لا يستطيع أحد أن ينكر بشيء من الجدية أن الإستعمار كان حاملا للحداثة وأنه أعطى إشارة البدء لبعض التطورات وأنه أسرع ببعضها الآخر داخل المناطق التى دخلت فى نطاق نفوذه؛ أى العالم بأكمله؛ إلا أن الأخذ بهذا المنطق لا يمنع من وضع كشف حساب لعالمية السيطرة الغربية يكون أكثر دقة. محاولة تصور كيف كان يمكن ان تتطور مناطق العالم غير الأوروبية لو لم تسحقها آلة الاستعمار الماحقة، تعتبر عملا غير مُجْدٍ، كما لا يمكن ان نتصور كيف كان يمكن أن تكون

عليه علاقاته بالغرب فى ظروف أخرى. ولكن لا يمكن أيضـــا أن نلمـــس أبعـــاد زلزال ما، لو أننا وضعناها فقط فى إطار حساب المصاريف والربحية. إلا أن أهـــم مرحلتين للتوسع الأوروبى: أى تلك التى إستهدفت الأمريكتين فى بادئ الأمر، ثـــم تلك التى وسعت نطاق شهيتها بعد ذلك بثلاثة قرون لتشمل بقية أنحاء العالم، كـــان معناهما لباقى الحضارات، التى واجهت هذا النهم الغازى الهائل وهذه الأيديولوجيـــة المتناقضة التى تأسس عليها، إما الموت وإما إنقطاع كامل فى التواصل، وهو مـــا لا يعطينا التاريخ القديم مثيلا له قط . وإذا كان الحديث يجرى منذ عقود كثيرة حـــول هذا الموضوع حتى لو وضعت عدة مظاهر له موضع الدراســـة إلا أن أحـــدا لـــم يتعرف على أبعاد هذا الانقطاع فى التواصل ولم يتـــابع أحـــد كافـــة الاهـــتزازات الناجمة عن التوابع التى لا تنتهى لهذه الهزة الرئيسية ومازلنا لا نتعرف تماما علـــى كل ما خلفه داخل أحداث اليوم الغامضة.

لعل الشعراء وحدهم – ضمن كافة مفكرى الجنوب– هم الذن توصلـــوا إلـــى ذلك، أما مهندسو المشاريع التى بُدأ تنفيذها فوق المواقع التى ترتبت على الزلـــزال فقد تصرفوا كما لو أنهم نجحوا فى تخطيطهم له من أجل إقامة تركيبات متلعثمة بيـــن ما كانوا عليه والصورة التى فرض عليهم أن يشكلوا عليها وما شاءت إرادتـــهم أن تكون عليه. آخرون لجأوا –عندما لم يكن الوهم مستحيلا تمامـــا– إلـــى أســـطورة وضع المرحلة الاستعمارة بين قوسين. كما يوجد آخرون ســـبحوا عكـــس مجـــرى التاريخ لكى يقُصوا على أنفسهم أساطير جديدة. جميعهم بحثوا عـــن العـــزاء مـــن فقدان آمالهم فى أن يعرفوا فى يوم من الأيام من هم، وفى انهم مازالوا لا يعرفـــون ما سيصبحون عليه. أراد الغرب أم لا، فإن التاريخ المعاصر لقارات الجنوب وأهـــل الشتات الخارجين منها يظل، فى جزء كبير منـــه، تـــاريخ ردود الفعـــل المتعـــددة والغامضة والمؤجلة على هيمنته.

إن محاولاتهم في الغرب تصفية هذا التاريخ، يصاحبها ما يبدو أنه أيضا رغبة في إغلاق أقواس « هذه الجملة الاعتراضية» دون الإقرار بأن هذه القرون التي استغرقتها مغامراته الخارجية قد شكلته بنفس مقدار تشكيلها لشركاء المغامرة المكرهين، وأن هذه القرون قد جمدت علاقات الغربيين بالآخر في طبقة شوائبية هي التي أصبحت، مع مرور قرون طويلة من الهيمنة، ثقافة حقيقية للتفوق؛ كما أن عودة ظهور هذه التعبيرات عنها بشكل عنيد ومتكرر تبرهن على أنها لب الهوية الغربية وأن عمليات إنهاء الإستعمار وحصول الأقليات القادمة إلى بلاده من الشعوب المقهورة سابقاً على حق المواطنة، لم تعدل من إحساس الغرب بالآخر وهو الإحساس الذي يحدد الغرب هويته به أيضا. كما تشهد رغبتهم الحالية في تناسي التساؤلات التي كانت مطروحة قبل ثلاثين عاما لإعادة تلميع المغامرة الغربية ورفض معظم الأوروبيين والأمريكيين أن يطرحوا على انفسهم أسئلة متعمقة حول الدوافع التي تحكم علاقاتهم بالآخرين، على عدم مقدرتهم أن يتمثلوا عالما لا يدور حول محوريتهم.

إلا أن إصرار *الزلزال التابع المعاصر*، على المجادلة، وتجمع جزء لا يستهان به من المثقفين حول الأساطير القديمة المؤسسة لفكر الغرب، والوسائل المستخدمة في تحويلهم للتفرد الغربي الحقيقي جدا إلى تفوق، لا تعود جميعها في الغالب إلى مقدرة المقاومة وحدها التي تتسم بها ثقافة التفوق هذه والتي هي مدرستهم الأولى، وإنما قد يكون هذا التجديد في خطاب شرعية التاريخ الغربي، في صور كاريكاتورية وفي بعض الأحيان، مستخرجاً وبنفس المقدار من عدم اليقين والشك فيما سيأتي به الغد، ومما أكده الماضي أيضاً.

إذا كان البشر في الغرب كما هو الحال في بقية أنحاء العالم يمتلكهم إحساس بأن العالم يتغير اليوم أسرع مما حدث في الماضي، فيبدو أن لا أحد يستطيع أن

يتوقع كافة النتائج التى ستترتب على التغييرات التى طرأت على الساحة. إن كان الغربيون مازالوا موقنين بأصالة هيمنتهم، إلا أنهم يتساءلون الآن حول مستقبلها: هل سيظلون لفترة طويلة المستفيدين الوحيدين تقريبًا لفوائد العولمة التى أطلقوها وهم مازالوا إلى الآن المتحكمين فى أشكالها المتتابعة ؟ هل ستؤدى رغبة البلاد الأكثر ازدهارا أم رغبة أكثر البلاد تعدادا بالسكان فى الجنوب فى التأكيد على قوتها، إن آجلا أو عاجلا، إلى إنهاء الإحتكار الغربى على مصائر الكوكب الأرضى؟ أليست عمليات نقل التكنولوجيا التى من المفروض أن ينتفع بها الجنوب قادره على التعجيل، بما لايخدم القوى الحالية، بتطور هذه الأمم التي تصبو إلى تغيير وضعها الحالي ؟

وبكلمات أخرى، هل نحن نشاهد الآن فصل الختام المتدرج، ولكنه حتمى، لهذه الحقبة الطويلة التى استطاع الغرب خلالها أن ينتشر فى كل أنحاء المعمورة وذلك على وتيرة وسائله وطبقا لرغبته وحدها ؟ فى هذه الحالة أليس انسحاب بعض المثقفين وأصحاب الرأى إلى الخطوط الخلفية للأفكار اليقينية التى بدت هشة فيما مضى تعبيرا عن رفضهم لمثل هذا الاحتمال ؟ ألا يستعان بالتأكيد المتكرر عن تفوق الغرب لاستبعاد التصور غير المحتمل لانكماش دائرة نفوذه ؟

وقد تشكل الرأى العام الغربى منذ أجيال عديدة على الإقتناع الراسخ بأن على جنسه مهمة قيادة العالم، لم يعد متيقنا تماما اليوم من الشكل الذى سيأخذه مستقبله. فقد أدت الديناميكية السكانية لبلاد الجنوب إلى إنخفاض تعداد الغربيين حتى أنه لم يعد يشكل سوى 20% من سكان العالم. إن خطر حدوث تحول إلى الاتجاه العكسى فى مسارات الهجرة التى ظلت انترات طويلة فى مصلحتهم؛ يقاس يوميا بمقدار نمو عدد السكان الأجانب في قلب عواصمهم وهؤلاء السكان يحصلون تدريجيا على خصائص المواطنة. وبالإضافة إلى الخطر السكاني، إذ « بالخطر

الأصفر» يعود في صورة أجهزة التسجيل الألكترونية وعمليات نقل المصانع؛ إذا كانت الجماعات المتطرفة مثل الذكور البيض المسيحيين الأمريكيين وجماعات اليمين المتطرفة المعادية للأجانب الأوروبية أو الاسترالية مازالت من الأقليات، إلا أن موضوع الهوية المهددة يتخطى كثيرا دائرة أعضائها -التى تتراوح أهميتها من بلد لآخر- وتجد لها صدى فى جزء من الرأى العام يشكل الأغلبية فى أحيان عديدة؛ إن الخوف من الاضطرار إلى التخلى عن مركز الهيمنة الذى شكل علاقتهم بالعالم هو، بالنسبة للوعى الغربى، مرادف لخوفهم من ذوبان هويتهم. يدل ذلك على العلاقة الوطيدة التى تشكلت بين الجانبين عبر القرون الخمسة الماضية، حيث إن وضعيته المهيمنتية تشكل القاعدة التى تقوم عليها هوية لا تستطيع أن تتصور نفسها بدونها.

وليس من المؤكد أن التطورات التى يشهدها العالم تدفعهم لذلك، لأن إعادة تأكيد الغرب على مشروعية تفوقه قد تتناسب أيضا مع العملية الجارية بتجديد أسس تفوقه. فهل أدى إذن خوف الغربيين من أن يتشكل المستقبل جزئيا بدونهم أو ضدهم، أن عملوا على طمأنة أنفسهم بعمل كشف الجرد -المتسم بحنينه للماضى وبانحيازه- لما قدموه للعالم أم أن الأمر هو على العكس من ذلك أن التكنولوجيات التى يخترعونها وينشرونها وشبكات التعلق بهم التى يكبلون بها شركاءهم تضمن لهم التحكم فى هذا المستقبل؟ الإجابة هى بلا شك مزدوجة بين التساؤلين، إذ لا يمكن لأحد أن يدعى أن فى إستطاعته رسم المستقبل بكل دقة.

إن الإشارات التى تصدر من كافة أنحاء العالم والتطورات التى تحدث فيها تعطى مؤشرات متناقضة عند قراءتها، كما أن ما يُسمى بالعولمة يمكن أن يرى على أنه النسخة الأحدث للهيمنة الغربية أو -على العكس من ذلك- كعامل من عوامل إعادة توزيع الكروت الاقتصادية العالمية. إن عصر الحمايات السياسية،

وقد إنتهت أيامه فى السبعينيات، فيما عدا بعض من فتات الإمبراطوريـــات التـــى حكم عليها أن تدوم طويلا، جعل الأقوياء فى العالم يعملـــون اليـــوم علـــى تثبيـــت مواقعهم فى الحقل الاقتصادى وعلى غزو مواقع أخرى وعلى إعادة تعييـــن شـــكل علاقاتهم العالمية.

الجزء الثانى

العالم وهو سائر على دَرْبِه

الغرب غير موجود بالنسبة لرجال الاقتصاد ولا بالنسبة للذين أوقفوا حياتهم على الإهتمام بالتنمية؛ الشمال يحل محله. أى أن هذا الكيان ذا الحدود المتحركة والمجرد من أى وجود رسمى ليست له سوى علاقات بعيدة مع الجغرافيا. توجد مجموعة من الأمم تحمل هذا الاسم فى سجلات المنظات الدولية التى لا تعترف أيضا بتسمية الجنوب فى تعيينها لبقية أنحاء العالم، ومع ذلك فإن أحدى تقسيمات العالم تقوم بالفعل على هاتين الجهتين الأصليتين -(ضمن تقسيمات أخرى)- وهى الأكثر تعبيرا والأكثر إدراكا لهما فى الشعور الداخلى لسكان كلا الجهتين علما بأنهما ليستا جهتين إلا مجازا. المرور من عالم إلى الاخر ليس من المستحيلات ولكنه يبقى من الأمور النادرة وعلى الأخص فى الاتجاه جنوب-شمال، أما المرور فى الإتجاه المعاكس فقد كان أكثر حدوثا عبر السنوات الماضية لأن الحدود، وإن بدت مرنة وهو ما تتغذى عليه آمال البلاد « الصاعدة »، فهى أكثر ثباتاً مما قد يعتقده البعض.

للوهلة الأولى قد لا يبدو الغرب والشمال مترادفين، بما أن اليابان تشكل أحد أقطاب الثانى، كما أن كوريا الجنوبية قد إختارتها منظمة التعاون والتنمية الإقتصادية .O.C.D.E فى عضويتها عام 1996 إعترافا منها بما حققه هذا البلد من نجاحات اقتصادية باهرة. كما أنه لم يكن من الضرورى لفترة ما أن يكون البلد منتميا للعالم الرأسمالى ليكون منه بما أن الإتحاد السوفيتى وتوابعه الأوروبيين قد

اعتمدوا ضمنيا جزءً منه حتى عندما كانت هذه البلاد تتوه على دروب الاشتراكية، تلك البنت الشرعية للعبقرية الغربية، والتى كانت تستحق لهذا السبب أن تقابل بالمناهضة. فإذا كان من الممكن المرور من الجنوب إلى الشمال مثلما فعلت كوريا الجنوبية والمكسيك، التى دخلت عضوا كذلك فى منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية بعد أن وقعت معاهدة للتبادل الحر مع جيرانها فى الشمال الأمريكى، فمن الممكن أيضا المرور من الشمال إلى الجنوب، كما حدث للاتحاد السوفيتى بعد انهياره فقذف بأغلب الجمهوريات المكَوِّنَة له فى غياهب الجنوب ولم ينج من هذا التقهقر المهين[1] سوى عدد صغير من البلاد الأوروبية التى كانت تدخل فى نطاق حمايته.

الواضح إذن أن تسمية الشمال والجنوب تعزى إلى مكانة ما، لا إلى أماكن جغرافية محددة على خريطة العالم؛ ففى مواجهة الأول، التى تعود وحدته النسبية إلى أنه يجمع البلاد الوحيدة التى لا يشكك أحد فى تسميتها بالمتقدمة، يوجد الجنوب، أو الجنوب المتعدد أو العالم الثالث -(الذى كان يكتب اسمه بالحروف الكبيرة فى الآداب المناهضة للإمبريالية)- أو البلاد المتخلفة، أو النامية أو الفقيرة أو الأقل تقدما فهى تتقاسم بقية أنحاء الكوكب[2].

شروط الانتماء لهذين الكيانين ليست جميعها صريحة، فبلاد الشمال هى الأكثر ثراءً والأكثر تصنيعا على الأرض وإن لم تكن وحدها المزدهرة ولا هى

---

1. حتى عام 1991 لم يكن البنك الدولى يهتم بالاتحاد السوفيتى وبقية بلاد الكتلة الإشتراكية فى أوروبا، ومنذ ذلك التاريخ أنشأ لديه منطقة جديدة تُستقبل فيها دول أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى التى يعتبرها فى مجملها بلادا نامية حتى لو لم يعاملها جميعا بأسلوب واحد.

2. يعكس تعدد هذه التسميات فى آن واحد تطور مختلف الطرق التى يدرك بها الجنوب ذاته -(وهى الإدراكات التى كانت سياسية تارة وجغرافية تارة ثانية وإقتصادية تارة ثالثة)- وإدراك الشمال له، كما يعكس الصعوبة التى يواجهها المتخصصون على إضفاء أحد المعانى على كلمة تنمية ؛ أما مجموعة بلاد «الشمال» فلم تعرف قط من ناحيتها أى تضخم تعبيرى من هذا النوع.

وحدها الصناعية، ومع ذلك فلن يخطر على بال أحد أن يضع ضمن بلاد الشمال الملكيات الثرية جدا المطلة على الخليج العربي-الفارسي ولا العديد من دول الجنوب التى يرجع معظم إنتاجها الوطنى الإجمالى مما تنتجه صناعاتها، ويميز البنك الدولى -وهو الذى يصنف بلاد العالم طبقا للانتاج الوطنى الإجمالى بالنسبة للفرد الواحد -حتى يتفادى الوقوع فى أى لبس- بين مجموعتين من البلاد ذات الدخل المرتفع: أى بين بلاد منظمة التجارة والتنمية الإقتصادية O.C.D.E التى تنتمى جميعها -فيما عدا اليابان وكوريا الجنوبية وتركيا والمكسيك- إلى أمريكا الشمالية وأوروبا وبلاد الإقيانوس المتطورة والبلاد « ذات الدخول المرتفعة» وهى تسمية تزج تحت بندها متنوعات مختلطة ببعضها مثل أهم المناطق التى تسمى« جنات ضريبية» والإمارات الأكثر ثراءً وآخر فتات الإمبراطوريات وبعض البلاد غير القابلة للتصنيف مثل هونج كونج وإسرائيل[3]، أما برنامج الأمم المتحدة للتنمية (UNDP/PNUD) الذى يقسم العالم إلى بلاد نامية وبلاد صناعية لكى يتمكن من تحديد مرجعيات المقارنة فيما يتعلق بـ« التنمية البشرية»، يصنف البلاد النامية والتصنيعية داخل المجموعة الأولى[4]. الانتماء إلى الشمال معناه إذن امتلاك الثروة والصناعة القديمتين. حتى وإن كان قد بدأ يفتح أبوابه إلى بعض القادمين الجدد وخاصةً هؤلاء الذين يستحقون الثناء اقتصاديا أى إلى ذلك المجال الذى يُحَدَّدُ به المعيار الرسمى.

ليس هذا فقط، وإلا لما أمكن فهم السبب وراء إدراج بلاد اعتبرت لفترات طويلة من أفقر بلاد أوروبا وأكثرها قربا من الفلاحة - مثل اليونان وأيرلندا

---

3 . BANQUE MONDIALE, *World Development Indicators*, publication annuelle, Washington.
يقسم البنك الدولى العالم إلى ست « مناطق» أربع منها فقط تستحق هذه التسمية من الناحية الجغرافية: شرق آسيا والباسيفيكى، أوروبا ووسط آسيا، أمريكا اللاتينية وجزر الكرايبى، الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، جنوب آسيا، وأفريقيا جنوب الصحراء وبلاد منظمة التجارة والتنمية الإقتصادية ذات الدخول المرتفعة و« دخول مرتفعة أخرى».

4 . PNUD, *Rapport mondial sur le développement humain*, publication annuelle (éd. Française: Economica, Paris).

عضوين كاملي العضوية فى هذه المجموعة[5]، على حين يبدو أن دخول البعض الآخر فى العضوية جاء عنوةً كما لو أنه توجد معايير تحدد للشمال دائرة أولى لا تستطيع بعض البلاد الدخول فيها، فلنتذكر كيف كان ينظر إلى اليابان فى الغرب بازدراء فى الخمسينيات والستينيات وهى الفترة التى كان يعتبر فيها مصنعا تافها لأجهزة الترانزيستور المتدنية المستوى والتى يرجع مظهر المعرفة به إلى أعمال التجسس الصناعى الخبيثة التى كان يلجأ إليها؛ وعلى الرغم من أن هذه الصورة قد إنمحت فى مواجهة الواقع فلا تزال هناك كتابات عديدة فى أمريكا الشمالية وأوروبا تتساءل منذ عشرات السنين عن اللغز اليابانى الذى يتلخص -فى صوره المتعددة جدا[6]- فى سؤال واحد: كيف يمكن أن يقف بلد غير غربى فى مصاف أولى القوى الاقتصادية العالمية، وفى مجال الابتكار ويضاهى أعرق الأمم الصناعية فى كل شيء؟

مجرد طرح هذا السؤال بهذه الصورة يبرهن على أن الغرب لا يعتبر نمو اليابان «طبيعيا» وأنه يشكل حالة من المفضل الكشف عن أسرارها ودرء التهديد الذى تشكله، كما أن الأزمة المالية التى عصفت به فى النصف الثانى من التسعينات أعطت الفرصة للعديد من المحللين الغربيين لكى يعيدوه إلى آسيويته -والتى يتعين أن نعيد إليها تواصل سلوكياته فى جذب زبائنه- أى إلى«غيريته»،

---

5. كان من الممكن أن أذكر ضمن البلاد الخارجة على التصنيف كلاً من إسبانيا والبرتغال، إلا أن حالة كل منهما تعتبر أقل إقناعا لأنهما ما أن دخلا عضوين فى الوحدة الأوروبية فى 1986 إلا وعجا نمو وهيكلة إقتصادهما وتحول الحياة الديموقراطية فيهما لتصبح من الأمور العادية، معظم الفروق التى كانت تبعدهما عن بقية أوروبا ؛ إلا أن هذا لا ينطبق لا على اليونان ولا على إيرلندا، فالأولى تتميز بالإدارة الهلامية لإقتصادها والممارسات السياسية البالية فيها ؛ أما الأخرى فهى تثير فى الذاكرة -فيما يتعلق بالشئون الإقتصادية- صورة بلد/ ورشة أسيوى.

6. حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى المراجع المكتوبة بالفرنسية التالية:
Christian SAUTTER, *Les Dents du géant. Le Japon à la conquête du monde*, Orban, Paris, 1987; Karel VON WOLFEREN, *L'Énigme de la puissance japonaise*, Robert Laffont, Paris, 1990; Dominique NORA, *L'Étreinte du samouraï. Le défi japonais*, Calmann-Lévy, Paris, 1991; Pierre-Antoine DONNET, *Le Japon achète le monde*, Seuil, Paris, 1991.

علماً بأن هؤلاء المحللين لم يجدوا أى خاصية ثقافية للمراحل الانكماشية التى مرت بها الدول الأوروبية والأمريكية الشمالية والتى بدأت فى نهاية السبعينيات.

أما التحفظات التى قوبل بها اعتماد الاتحاد السوفيتي والدول الدائرة فى فلكه داخل الشمال ترجع إلى إفتراضات تكاد تكون عكسية، فقد تمكن موطن الإشتراكية وأتباعه الأوروبيون لفترة من الزمن من تقديم براهين اقتصادية قوية لكى يرجعوا هويتهم إلى الشمال، فمنذ الخمسينيات وعلى الرغم من كل المراحل التى مرت بها الحرب الباردة، اعترفت القوى الغربية بواقع نموها وبالسمة المتعارف عليها منها للأسس التى يقوم عليها هذا النمو: لقد كان الناتج الوطنى الإجمالى لهذه البلاد ينمو على وتيرة متسارعة، وكان هذا التقدم يرتكز على تصنيع سريع، كما أن ارتقاءاتها على طريق الحداثة الاجتماعية غير المشكوك فيها يمكنها أن تعوض جزئياً الاستبداديات السياسية السائدة فيها. كانت تلك هذه هى الفترة التى كان يستطيع فيها نيكيتا خروتشوف أن يؤكد -دون أن يثير الضحك- أن سرعان ما سيتخطى الاقتصاد السوفيتي اقتصاد الولايات المتحدة[7]، لم يكن أحد يصدقه بالطبع ولكن الشك الذى أثارته هذه الأقوال فى الغرب كانت عائدة على المواعيد التى حددتها الـ *Gosplan* الخطة الاقتصادية، لا على طبيعة التحرى ذاته. كان فى إستطاعة أوروبا الاشتراكية أن تعلن بكل قوة وبكل شرعية بالنسبة لبعض بلادها المصنعة منذ فترة طويلة جدا انتماءها للشمال، خاصة وأنها تتقدم وفى جعبتها زيادة نسبية

7. فى عام 1956 بمناسبة المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى للإتحاد السوفييتى إستعاد نيكيتا خروتشوف وباقى القادة السوفييت مقولة لينين، « اللحاق بالبلاد الرأسمالية الأكثر تطورا وتخطيها» ؛ وقد نشرت صحيفة لوموند فى معرض تعليقها على الخطة الخمسية السادسة، فى ذلك الوقت تقول: حقيقة يحق للإتحاد السوفيتى أن يفخر بالأرقام التى أعلن عنها اليوم. [...] ويتعين أن نسلم بأن الوتيرة التى يسير بها النمو الصناعى فى الإتحاد السوفيتى تثير الإعجاب وأنها أسرع من تلك التى تسير عليها الأمم الرأسمالية الغربية» (*لوموند*، 17 يناير 1956) ؛ وفى عدد 27 سبتمبر 1957، كنا نقرأ ما يلى: « كشف حساب الخطط الخمسية من 1928 إلى 1955 [...] مؤشره إيجابيا للغاية وقد غير بصورة جذرية الهيكل الإقتصادى والإجتماعى التالى لروسيا القديمة والتى كانت تهيمن عليها الزراعة». وبذلك نرى أن عبادة التصنيع تتخطى متسامية حدود الغرب الأيديولوجية.

ولكنها متسارعة لثرائها. إلا أن الشمال كان ينقسم إلى شطرين بفعل النظام الإقتصادى والسياسى الذى تتبعه، ولذلك فهى لا تقيم سوى عند هوامش ذلك الشمال، وتظل هكذا حتى تتخلى عن هذين النظامين وعلى الرغم من كونها جزء من ذلك الشمال ذاته.

الواقع أن الانفصال الإيديولوجى قد حجب لفترة طويلة الانقسام الجغرافى لتلك المنطقة الشاسعة التى وقعت تحت الهيمنة الاشتراكية؛ لقد كان لغربها الذى يشكله الجزء الأوروبى من روسيا والجمهوريات الأوروبية للاتحاد السوفيتى وبلاد أوروبا الوسطى الإشتراكية - فى أعين الغربيين- الحق فى أن يكون جزءا من الشمال، وعلى العكس من ذلك كان يتعين على شرق الاتحاد السوفيتى المشكل من آسيا السوفيتية والتى ألحق بها فى مرات متباعدة البلاد التى لا تقبل التصنيف والواقعة فى ضواحى أوروبا البلقانية، أن يعود إلى صفته « الغيرية» (الآخر) والتى حجبها بصورة مؤقتة لواء الاتحاد السوفيتى. الوعى بهذا التقسيم تجسد خلال الحرب الباردة فى رغبة الجنرال ديجول إلغاء هذا التقسيم للقارة العجوز ببناء أوروبا تمتد من الأطلنطى إلى جبال الأورال، كما أن القراءة الغربية للتاريخ الروسى موسومة أيضا بهذا الحد الفاصل: فقد أرادت هذه القراءة بتمييزها بين « الآسيوى» إيفان الرهيب و« الأوروبى» بطرس العظيم وبمواجهتها بين موسكو وسان بترسبرج، وبجعلها من ستالين آخر صور المستبد الشرقى، أن ترى فى جانب روسيا الآسيوى السبب الجوهرى فى عدم مقدرة روسيا على أن تصبح حديثة بحق وفى ميلها الشديد نحو أوروبا السبب الوحيد فى الأمل الموضوع فى هذه الإمبراطورية الشاسعة والغامضة. كل شىء يحدث اليوم كما لو أن إعادة التشكيل التى جرت فى التسعينيات كانت عودة بالأمور إلى مسارها« الطبيعى»، كما لو أن الحد الفاصل بين الشمال والجنوب المرسوم داخل خطوط الإمبراطورية

السوفيتية والذى كان يحجبه وقتيا الفصل بين الشرق والغرب قد عاد إلى الظهور على السطح وأن نهاية الحرب الباردة قد أعادت أبناء العم إلى دارهم وأقصت نحو الجنوب هؤلاء الذين لم يدخلوا فى نطاق القرابة سوى بالصدفة[8].

إذا كان الشمال يعتبر فى الحقل الاقتصادى نوعا من الأدراج التى توضع فيها البلاد الصناعية العظمى، فهو ليس كذلك فقط، لأن هذا المجال الذى سمح لنفسه بتبنى بعض البلاد والذى اقتحمته بعض الدول عنوة بسبب قوتها الإقتصادية يجمع قبل كل شيء ورثة حضارة صناعية واحدة، ولدت على نفس الأرضية الثقافية. والتى يفترض أنها تستمد تفردها من ديناميكية تنبع أصلا من ميلها الدؤوب والمتوتر دائما نحو التقدم الذى يميزها؛ يقابل هذه الحداثة الاقتصادية بالضرورة على الجانب السياسى النظام الديموقراطى. الغرب المشكل من هذه القوى المتأصلة فى ثبات فى أوروبا وشمالى أمريكا، وهو الذى تعود منذ فترة طويلة على أن يكون هو صاحب المعايير، ثم تعود بعد ذلك ولمدة طويلة أيضا على أن يكون هو مرجعية العالم، سواء كان ذلك فى صورة نموذج أو نموذج مضاد، يقع هذا الغرب بالفعل فى مركز هذا الشمال الذى لا يعثر عليه جغرافيا وهو الذى يُحدد وحده شروط الانتماء إليه؛ ويمكن إذا كنت عند عتبة أبوابه وجمعت ما يكفى من الأسباب أن تدلف داخل الشمال، وتوجد اليوم عبر العالم بعض المناطق الملونة باللون الرمادى التى لم تعد تنتمى فى الحقيقة إلى الجنوب ولا تعد بعد جزءً من الشمال وهى تنتظر أن يختارها لتكون من أعضائه، ومع ذلك فإن دخلت فهى لن تكون فى مركزه.

---

8. إعتمد الرأى العام الروسى الإنشطار الذى طالما حجبته العالمية الشيوعية، وقد أعطى العداء نحو السكان القوقازيين والإنحرافات فى الخطاب السياسى ولغة الصحافة بمناسبة القلاقل الدموية التى إجتاحت القوقاز من عام 1996، مؤشرا على درجة هذا العداء ؛ راجع ضمن مراجع أخرى:

«Russie, la "tiers-mondisation' des esprits gagne du terrain», article du Journal moscovite *Novoïé Vremia*, repris par *Courrier international*, n° 470, 4-9 novembre 1999.

هذه الدول التى هى فى مكان القلب الشمالى تقابلها بالتـــأكيد اختلافـــات فـــى وجهات النظر يتعين عدم التقليل من أهميتها إلا أنها لا تشكك فى علاقاتها الأســوية؛ ويبدو أن الشعور المناهض لأمريكا لدى بعض الأوروبيين يعود أكثر إلى الشـــعور بالغيظ بسبب أنها إنتزعت دور القوة الأولى وبالافتتان الممـــزوج بـــالخوف الـذى توحى به غرابة ما شكلته يدا أوربا ذاتها، (ألم يسمى سارتر أمريكا الشمالية« هــذا الوحش الفوق أوروبى[9]») عن كونه سخطًا ذا طبيعة سياسية إزاء عــدم الاكـتراث الأخلاقى المعلن أو الطبيعى الذى تتسم به القوة فوق العظمى التى تعـــرف كيـف تكونها الولايات المتحدة ؛ يمكن لهذه الخلافات دون شك أن تؤثر علـى العلاقـات الأوربية-الأمريكية دون أن يؤدى ذلك إلى إسترخاء فى الشوائج التى تربطهما بكـل حميمية، ويمكن بالمناسبة قياس درجة هذه الاخيرة بالتشابه فى الخوف الذى يثـيره "الجنوب على جانبى الأطلنطى.

وقف الجنوب يواجه الأمور. بل علينا أن نقول بتحديد أدق: الجنوب المتعــدد، لأننا شاهدنا عبر التسعينيات حدوث انقلاب فى المعطيات التى كانت تتحكـــم منــذ الخمسينيات فى تنظيم العالم، فلمدة ثلث قرن حاول العالم الثالث أن يتشكل فى كتلـة شبه متجانسبة فى مواجهة الشمال المنقسم إلى شقين شرق-غرب؛ وبعد أن توحـــد هذا الشمال بعد انهيار الإمبراطورية السوفيتية -ومهما كانت المنافسة شـديدة بيـن مكوناته- أخذ يشكل اليوم مجموعة متلاحمة حول منطقيات اقتصاديـة وسـلوكيات سياسية متناظرة وهى تعمل بنفس الاقتناع الليبرالى على إقامـــة الســوق العـالمى الموحدة. وعلى العكس من ذلك أصبح الجنوب -نتيجة للتناقضات المتغايرة التــى حدثت داخله عبر العقود الأخيرة- مشكلاً من عناصر متباينة، لن يفكـر أحـد الآن فى أن يضعها داخل مجموعة واحدة بذاتها؛ وعلى الرغــم مــن أن التبسيطـــات

9 . Jean-Paul Sartre, Préface à Frantz FANON, *Les Damnés de la terre, op. cit.*

المخلــة مازالت تجــد لها صدى داخل الــرأى العــام الغربى، فــإن« التنينــات» الآسيوية لم تعد تتماثل، فى أى مكان كان، مع بلاد منطقة "الساحل الأفريقى" -التــى اعتبرت فى مهب الريح-، وهى لا تثير الخوف للأسباب ذاتها.

بل لعل الشيء الوحيد الذى قد يوحد بينهما حتى الآن هو أنهما يخيفــان معــا الغرب؛ لأنه إذا كانت خطوط التمزق قد أصبحت عميقة لدرجة أنها تســببت فــى إحداث انجراف داخلى حقيقى بين القارات، فإن ذلك لا يمنع مــن أن الجنــوب لا يزال موجودا بالنسبة للشمال. ومن هنا تأتى -فيما يبدو له- الأخطار وهى قد تكون مختلفة ولكنها جميعا محملة بالتهديدات. إن الفرص التى تتيحها البــلاد الصــاعدة يسيل لها لعاب الفاعلين الغربيين، ولكنهم فى قلق -فى الوقت ذاته - من المنافســة التى دخلوا فيها مع القلاع الصناعية القديمة، كما أنــهم يخشــون مــن أن تحفــز نجاحات الجنوب الاقتصادية طموحاتهم السياسية التى قد تتســبب يومــا مــا فــى تعريض هيمنة الغرب للمخاطر. على الطرف الآخر يخشــى الشــمال اليــوم - (مثلما ارتعب فى سالف الأيام من الهمج)- من الرعاع الذين يشــكلون الجمــاهير الفقيرة للبلاد الأكثر فقرًا، ويريد أن يحمى نفسه منهم. الصور التى يبثــها الغــرب عن ذاته فى إتجاه الجنوب تشكل بالنسبة للجنــوب نوعــا مــن الصــور الســلبية (النيجاتيف) عن وحدته المفقودة.

إذا أخذنا إذن الشمال والجنوب، كلاً على حدة، فسنجد أنه ليس لــهما وجــود محدد. أما الزوج شمال-جنوب فهو يشكل الهيكل المنظم للعلاقات الدولية والموطــن الذهنى لكافة سكان المعمورة تقريبا، ويشكل الانتماء إلى أحدى المجموعتيــن بعــدًا من أبعاد الهوية، ذلك لأن الشمال هو الوجه الاقتصادى والعصرى للغرب، ويجمــع الجنوب المتعدد تلك المناطق التى ظل يباشر الشمال وصايته أو صورة من صــور هيمنته المتعددة عليها لفترات طويلة، ولهذا السبب اعتمد سكان كل منطقة منه بكــل

سهولة هذا التقسيم الجديد لكوكب الأرض، وفـــي ذلــك مـــا يعيــد إلـــى الذاكـــرة هيراركيات سبق التعرف والتعود عليها.

ولكن هل لا يزال التباين الذى يفصل بين قطبى الساحة العالمية ذا موضـــــوع فى الوقت الذى ينازع فيه العديد من الدول، التى تطمح فى العبور عنوة إلى داخـــل حدود الشمال، حق الغرب فى أن يكون له وحده حق الإمتياز الوحيد على امتـــلاك السلطة، فهو يرى أن من حقه كذلك ممارستها معه؟ هل تنبـــىء علاقـــات القـــوى الدولية التى تتشكل الآن عن انفصال بين الغرب وشمال تتجدد جغرافيتـــه، مجـــبرة -فى مفارقة واضحة- الغرب على التنازل عن تفوقـــه أو -علـــى الأقـــل- علـــى المساس به ليتقاسم مع آخرين حصصه من أرباح السلطة ؟ هل يدق ارتقـــاء بـــلاد من داخل هذا الجنوب، الذى تناثر فى واقعيات متعددة تصبو الآن إلى أن يكون لـــها تأثير على العلاقات الدولية يتناسب مع ما تعتقد أنه ثقلها الحقيقى، هل يدق أجـــراس الخطر بالنسبة لمركزية الغرب؟ أم أن هذا الأخير فى سبيله إلى تدعيمـــها ولكـــن بصور مختلفة كما نجح فى عمل ذلك فى ظروف أخرى؟ هل بدأت مرحلة ما بعـــد الاستعمـــار - التى انتهت مع انتهاء القرن- عملية إعادة توزيـــع الأوراق أم أنـــها أتاحت للغرب فرصة تصنيع أوراق جديدة ؟ فى مجمل القول هل تعنى العولمـــة أن «تَغْرِبَة» العالم قد وصلت اليوم إلى نهايتها ؟ هل تعنى أن « الغربى» فـــى سـبيله أخيرا إلى أن يكون مرادفا للكونى الكلى محققا بذلك الحلم الذى ظل يراود الغـــرب منذ فترة طويلة ؟ أم أن العولمة تضع علامات على طريق تطور بدأ منـــذ خمســـة قرون، مدخلا إلى الساحة فاعلين جددا منشئا بذلك تفاعلات جديـــدة بســـبب تعـــدد الفاعلين هذا ؟ إلا إذا خلطت العولمة المرجعيات القديمـــة وجعـــلت التقسيمـــة شمال-جنوب -وهى من ميراث التاريخ والجغرافيا معا- من المخلفـــات الباليـــة، وراحت تبدع هيراركيات تتباعد تدريجيا عن التى نعرفها اليوم؟

— 6 —

الوهم الكبير لما بعد الاستعمار

لقد تغير الزمن كثيرا ويصعبب اليوم أن نتذكر النشوة الممتزجة بالسعادة والخفة التى سادت ما كان يسمى حينذاك العالم الثالث عبر الستينيات والسبعينيات بأكملها[1]؛ بالفعل كان هذا العالم مكونا فى أغلبيته العظمى من شعوب بائسة فقيرة، إلا أن بلاده لم تكن كذلك وكانت التنمية -أياً كان النموذج المتبع- ستسمح فى نهاية الأمر بالانتفاع من مصادر ثرواته، كان تعريفه يتحدد -ضمن أمور أخرى- برفضه الانتماء إلى إحدى الكتلتين المتنازعتين على السلطة فى العالم. ولكن كانت القوى القديمة صاحبة الوصاية -وبشكل أعم وأشمل- كانت الأمم الغنية قد أعلنت عن إستعدادها لمساعدة الدول « الفتية» التى كان عدد كبير منها نابعًا من إمبراطورياتها، ولم يكن عدو الغرب قابعًا فى الجنوب وإنما فى الشرق وكانت البلاد التى وقعت فى شراك الأقوال المعسولة للاتحاد السوفيتى هى وحدها التى كانت تستحق العزل والعقاب. كان الأخ الاشتراكى الكبير يسرع لنجدتها ومساعدتها بشرط أن تثبت له ولاءً غير منقوص، لم يكن المال فى ذلك الوقت شحيحا. حتى لو أن العالم كله كان متفقا على القول بأن إحتياجات التنمية تتطلب أكثر من ذلك.

---

1. كان هذا هو المناخ السائد ؛ الموقف بدأ يتدهور منذ السبعينيات مثلما هو الحال بالنسبة لبلاد الساحل الإفريقى التى إجتاحتها موجة جفاف فى النصف الأول من العقد مما أدى إلى تسارع حالة الإفلاس التى كانت قد بدأتها إختيارات خاطئة للتنمية.

كان الغرب ينقل من خطاه بالطبع فى تلبية متطلبات العالم الثالث وكان يعتبرها مغالية، إلا أن هذا الأخير كان يبدو وكأن الرياح تأتى كما كان يشتهى، وكان قادته يقدرون أن عصر الإستقلال سيجد لحظة مجده فى« نظام اقتصادى عالمى جديد» يكون فى صالحهم أخيرا، بما يسمح بإيجاد وسائل التمويل الضرورية « للانطلاق»[2]؛ أما الأمم المتحدة، حيث تمتلك بلاد هذا العالم الثالث التى لا تهدأ الأغلبية، فقد كانت مكلفة بوضع المخطط العالمى الجديد، على حين كان العديد من المنظمات التى أنشئت خلال هذه السنوات تحت رعاية البلاد التى كانت على رأس النضال - من مجموعة الـ 77 إلى عدم الإنحياز- فقد كانت مسئولة عن إعلاء صوت طلباتهم ومساندتها بقوة.

« عقود من التنمية »

بدا النصر فى لحظة من اللحظات محققا بالنسبة للبعض وفى متناول اليد بالنسبة للآخرين، في عام 1973 تضاعف سعر البترول أربع مرات بعد حظر البترول الذى قررته منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) ضد إسرائيل وحلفائها بعد حرب أكتوبر، وأخذت الدول البترولية -وكان البعض منها مثل الجزائر وفنزويلا على قمة الكفاح من أجل الرفع من قيمة ثروات العالم الثالث - تفرض قوانينها منذ ذلك الحين؛ وكانت الاقتصاديات الغربية تبدو وكأنها متعلقة بأصغر قرارات تصدر عن إجتماعات الأوبك، وبدأت العواصم الأوربية ترتعد أمام هذا الانقلاب الذى طرأ على المظهر العادى للأمور؛ وبعد أسعار المواد البترولية ارتفعت أسعار مجمل المواد الأولية الزراعية والمنجمية.

2. حسبما تقول النظرية التى نادى بها روستو (راجع فيما سبق - الباب 5) وبعض رجال الإقتصاد الأمريكيين مثل روزنستاين - رودان ونورسك، فإن مشاركة ضخمة برؤوس الأموال هى وحدها التى يمكنها أن تشكل دفعة قوية إلى الأمام (*big push*) قادرة على إحداث عملية « الإقلاع» (*take off*).

بدأ إذن أن النظام الإقتصادى الدولى الجديد المطالب به دون هوادة فى جميع المحافل الدولية التى كانت دول العالم الثالث تشكل أغلبيتها - قد بدأ يقوم، وبفضل سحر ارتفاع الأسعار العالمية للمواد الأساسية الشهيرة بدا أن تدهور شروط التبادل -الشهيرة أيضا- قد بدأ يتوقف للحظة وغدا عدد من بلاد الجنوب، ولم تكن تحلم بأن تحصل على كل هذا بهذه السرعة، يرى نفسه وقد أصبح ثريا. مثل هذه الآفاق الرحبة ضاعفت من إمكانياتها فى التنمية لدرجة لم تعد إدعاءاتها فى أن تؤدى أفضل وأسرع مما تؤديه نماذجها الأصلية ضربا من الخيال، واعتقد قادتها فى إستمرارية ثرائها مادام الأوصياء القدماء يعاملونهم كأشخاص مهمين، وإذا لم يكن المال السائل متوفرا لتسديد مشتراواتهم، كان فى إستطاعتهم الإقتراض، وهم لم يمتنعوا عن ذلك فى تلك الأزمنة التى كان المال والإقراض فيها سهلا وافرا. بقية القصة فهى معروفة.

ليس الهدف من حديثى هذا أن أروى قصة مفيدة يبدو فيها الشمال عفريتا أعد لكل شيء عدته من أجل الإحتفاظ فى يده بعصا القيادة، ضاحكا بذلك على عقول الدول الفتية الساذجة غير المعدة جيدا لمجابهة خبرته وحنكته. بل إن الغرب قد اعتقد بالفعل فى الستينات أن من واجبه مساعدة بلاد الجنوب للوصول إلى ازدهار مادى بدا وقتها أنه فى متناول اليد[3]؛ واعتقد قادته بالفعل أن المساعدات من أجل التنمية هى النسخة المنقحة «للوزر الواقع على كاهل الرجل الأبيض» الذى تولاه أباؤهم والذى يتعين عليهم أن يستمروا فى تحمل تبعاته إلى أن تصل البلاد المتخلفة - وقد حل هذا التعبير محل الآخر الذى تخطته الظروف وهو: غير النامية-

3. لقد وصل التفاؤل فى تلك المرحلة لدرجة أن الأمم المتحدة أعطت إسم «عقد التنمية» على الستينات، بمعنى أنه قد إعتقدت أن بلاد الجنوب ستصبح متطورة تقريبا فى العقد التالى، ولم يبدأ ترقيم العقود إلا اعتبارا من السبعينات عندما بدأت الأوهام تضعف؛ وأصبحت السبعينيات «ثان عقود التنمية» والثمانينيات «العقد الثالث للتنمية» ثم توقف العد بعد ذلك عندما خفضت خيبة الأمل من قيمة أسلوب «الفهلوة» الذى أصبح من تخصصات الأمم المتحدة.

بطريقة لا رجعة فيها على مرحلة التقدم. فى كل مرة كانت بلاد الجنوب تقلق فيها من إحتمال إستنفاد طاقتها على المساندة، كانت بلاد الغرب تجدد لها وعود المساندة دون أن تكون جميع هذه الوعود ضرباً من النفاق المشين.

وقد تدعمت من ناحية أخرى العلاقات الإقتصادية بين الشمال والجنوب بالعديد من المبادرات التى استهدفت السماح للبلاد الطالبة للمعونة بالقفز فوق المراحل، وكانت علاقاتهم التجارية قائمة حتى التسعينات على قاعدة عدم تساوى المنافع المتبادلة والتى وافقت عليها الأمم الغنية إذ أبدت استعدادها على منح تسهيلات تعريفية لشركائها من الجنوب دون المطالبة بنفس المعاملة بالنسبة لصادراتها. ومنحت معظم الاتفاقيات التجارية الثنائية، التى كانت لها الأولوية الكبرى على القواعد متعددة الأطراف فى ذلك الوقت، أوضاعا استثنائية خاصة لبلاد الجنوب.

كان هذا هو الحال بالنسبة لاتفاقيات ياؤوندى التى ربطت فى الستينيات اوروبا الستة [كان هذا هو عدد دول " الوحدة الأوروبية " فى ذلك الوقت (المترجم)] بثمانى عشرة من مستعمرات سابقة، ومعظمها من البلاد الأفريقية. تلا ذلك توقيع معاهدة لومى لأول مرة في عام 1975 بين المجموعة الأوروبية والدول المسماة ACP التى جمعت مستعمراتها السابقة فى أفريقيا جنوب الصحراء ومنطقة الكاريبى والمحيط الهادى -والتى ظلت تجدد بالشروط ذاتها حتى نهاية القرن. أما الأتفاقيات الموقعة فى 1976 بين دول المغرب والمجموعة الأوروبية والتى ظلت سارية مع إدخال بعض التعديلات عليها حتى منتصف التسعينيات، فقد ضمنت أيضا حرية المرور إلى السوق الأوروبية لسلسلة من المنتجات المغربية، على حين كانت البضائع الأوروبية تخضع لرسوم جمركية عالية فى بلاد المغرب. فى بداية الثمانينات كانت البلاد النامية تصدر إلى الولايات المتحدة بضائع تزيد قيمتها عن

عشرة مليارات من الدولارات معفية من الرسوم الجمركية فى إطار النظام المعمم للأفضلية الأمريكية[4].

كما أن عددا من نظم التمويل التعويضية التى استهدفت التخفيض من وطأة التغيرات التى طرأت على أسعار المنتجات الأساسية والتى كانت تمثل جوهر صادرات عدد كبير من بلاد الجنوب، قد وضع موضع التنفيذ. رغبت المجموعة الأوروبية أن تثبت حسن نيتها فأنشأت - فى إطار اتفاقيات لومى والستابكس والسيسمين (Stabex, Sysmin)- صندوقين وظيفتهما تعويض دول اتفاقية أفريقيا والكرايبى والباسفيكى ACP عن خسارتها عند التصدير العائدة إلى الهبوط الشديد للأسعار العالمية لمنتجاتها الخام، كما أن صندوق النقد الدولي أعد فى السبعينات سلسلة من آليات التعويض تستهدف تخفيض الآثار المترتبة على الإنخفاضات المفاجئة فى دخول البلاد المعنية من الصادرات.

ولكن إذا كانت دول الشمال قد أعلنت باستمرار عن رغبتها فى وضع البلاد الداخلة فى مغامرة التنمية على طريق الانطلاق، فقد عملت فى ذات الوقت وبعناية خاصة على حماية مصالحها بأن أبقت مطالب الجنوب داخل الحدود التى اعتبرتها مقبولة؛ فلقد كانت الإجراءات الإدارية للعلاقات الإقتصادية الدولية وللمعونة من أجل التنمية التى وضعتها ترتب عليها -دون أن يكون ذلك هو الهدف المعلن- إفراغ التنازلات القليلة التى قدموها من أى مضمون لها، إذ أن أى منتجات لمناطق الجنوب تدخل فى منافسة مع منتجات بلاد الشمال كانت تستبعد بطريقة منظمة من قوائم التعريفات الجمركية الاستثنائية أو ترفع أمامها حواجز غير جمركية فى البلاد المستوردة.

---

4. « سياسة الولايات المتحدة التجارية» *Africa Wireless file*, 1er octobre 1985 هذا الرقم كان يمثل فى عام 1983 ما لا يتعدى 4% من الواردات الأمريكية الكلية من البضائع (259 مليار دولار). غير أن مثل هذه الفرص المتاحة قد أعطت دفعة قوية لصادرات عدد من البلاد التى كانت قد إختارت فى بداية السبعينات أن تقيم إستراتيجيتها التنموية على تصدير البضائع المصنعة.

فى جميع البلاد الصناعية الكبرى واكب رفع الحواجز الجمركية التشديد من الحواجز غير التعريفية مثل « اتفاقيات» الحد من التصدير الذى تتعهد به بعض بلاد الجنوب على نفسها والتى تفرضه عليها هذه الاتفاقيات وهى البلاد التى تثبت ديناميكية ونشاطا بيّنا، أو مثل تحديد الحصص الموسمية المطبقة على الواردات الزراعية. استبعدت المجموعة الأوروبية تماما أو جزئيا من مجال الاتفاقيات التجارية المعقودة مع بلاد الجنوب المنتجات الزراعية التى تدخل فى نطاق سياستها الزراعية المشتركة (PAC) ولم تقبل -معفاة من الجمارك- سوى منتجات الصناعات الوليدة التى لا تمثل بالتالى خطرا كبيرا على منافساتها الأوروبية. فى قطاع المنسوجات اتفاقية المنسوجات متعددة الغزول (AMF) الموقعة فى 1974 بين بلاد منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OCDE والمصدرين الآسيويين من أجل الحد من نصيبهم فى السوق، تمثل هذه الرغبة فى عدم ترك تصنيع بلاد الجنوب يشكل تهديدا لها. فى الثمانينيات كانت أغلب بلاد الـ OCDE قد دعمت من الإجراءات التى تحد من الكميات المستوردة[5] ؟

يتعين ألا نرى فى هذه السلوكيات التى تبدو غير مترابطة من وجهة النظر المنطقية أحد التناقضات التى يبدو أن الغرب يحتفظ بسرها لديه! بل إنها تعكس تسلسلا فى أولويات مشاغلها. صحيح أن تنمية العالم الثالث تعد واجبا عليها ولكنها بالنسبة لقادة الغرب يجب أن تبقى عملية رابحة وكثيرا ما يماثلون -رسميا أو بطريقة ضمنية- بين المعونة الممنوحة واستثمار ينتظرون منه عوائد اقتصادية[6]

5. فى عام 1986 حددت ثلاثون إتفاقية طوعية للحد من التصدير حوالى 10% من التجارة العالمية (*مومنتــد*، 20 أبريل 1999) وطبقا لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية CNUCED فإن 23.5% من الواردات القادمة من البلاد النامية قد أوقفت عن الدخول إلى البلاد الغنية فى 1992

(INTERNATIONAL COALITION FOR DEVELOPMENT ACTION, *An Alternative Report on Trade*, Bruxelles, 1995)

6. نسجل هنا ضمن أمور عدة أن منذ بداية تنظيم المعونة العامة من أجل التنمية (APD) بطريقة مؤسساتية فى الستينيات لأهم الدول المانحة فإن هذه المعونة « مرتبطة» جزئيا ؛ معنى ذلك أن نسبة من هذه المعونة (أكثر من نصف المعونة الثنائية للـ CAD حتى بداية التسعينات والربع من ذلك الحين) يجب أن تستخدمه البلاد المستفيدة فى شراء بضائع وخدمات من البلد المانح.

وسياسية؛ فلكي يحصل الجنوب على مساندة الأوصياء عليه في الشمال، يتعين عليه ألا تكون له بأي صورة من الصور توجهات يمكن أن تشكل تهديدا لمصالحه.

أن تصبو إلى التطور يعتبر من الأمور المشروعة بما أنه يعني اعترافا من العالم بأكمله -أو تقريبا- بالصلاحية الكلية للنموذج الغربي، ولكن يجب ألا يعني ذلك -هذا هو على الأقل إقتناعه العميق بالأمر- طرح مهمة الغرب في تنظيم سير العالم للمناقشة. إذا عدنا بسرعة إلى بعض أوجه علاقات الشمال بالجنوب قد نستطيع أن ندرك لماذا لم تقلب الهزات الاقتصادية التي حدثت في السبعينيات أوضاع علاقات القوى التقليدية بين هاتين المنطقتين، ولماذا لم يتولد عن إعادة التشكيل التي حدثت في عصر ما بعد الإستعمار إلا عند الهوامش، توزيع جديد للثروة العالمية وكيف تمكن الشمال بكل هذه السهولة من استعادة الأمور بين يديه منذ بداية الثمانينيات.

نسختان من نموذج واحد

أغلب الظن أن الأوراق كانت مغشوشة منذ البداية في عملية البحث المحاكاتية المعروضة، -تحت مُسمّى التنمية- على البلاد التي قدم لها النموذج الغربي على الدوام على أنه الأفق الذي يتعين عليها أن ترنو إليه. ودون الرجوع إلى بداية تكوين هذا التصور وانتسابه إلى نطاق الفكر الغربي[7] يتعين علينا أن نذكر ما الذي كان يعنيه عند مولده في نهاية الأربعينيات؛ جعل منه -منذ البداية- الوريث اللفظي لكلمة حضارة، والتي كانت قد طبعت بدلالة استعمارية غالبة عليها

7. يمكن -حول هذا الموضوع- مراجعة:

Gilbert Rist, *Le Développement, histoire d'une croyance occidentale*, Presses de Sciences Po, Paris, 1996; et *Critical Development Theory. Contributions to a New Paradigm*, ouvrage collectif, Zed Books, Londres, 1999.

بأكثر مما ينبغي، كما جعل منه تعبير: " افتح يا سمسم " للدخول إلى الحداثة التي هي المرادف المعاصر للحضارة. فبعد أن أصبحت دولا متطورة، دعت البلاد التي كانت تصف نفسها فيما مضى بأنها متحضرة، تلك البلاد التي لم تكن كذلك بعد، إلى أن تمضي على دربها إن هي أرادت الدخول إلى عالم الحداثة.

ولكن المعنى هنا هو الحداثة المادية وحدها، مادامت التنمية هي موضوع اقتصادى فقط وأن النمو هو مقياسها الحقيقي الوحيد وأن سعادة الشعوب تتعلق قبل كل شيء بالوتيرة التي ينمو بها إنتاجها الوطنى الإجمالى. أما الحداثة السياسية المتمثلة فى الغرب بالنظام الديموقراطى، فقد ظلت من الامتيازات التى يتمتع بها هذا الأخير دون أن يعير أى أهمية -فى ذلك الوقت- لأن يعمم مزاياه على بقية أنحاء العالم. هذا الفصل بين جناحى الحداثة التى أُرجعت فى الجنوب إلى شكل كاريكاتورى هو اقتصادى فقط، لم يساعد قط على توضيح معناه. فطوال فترة الصراع بين الشرق والغرب، كان الانتساب إلى « العالم الحر » يعتبر شهادة حسن سير وسلوك ديموقراطى في نظر الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، كما أن مناهضة الشيوعية كانت تستخدم كمصل واق من الاستبداد[8]؛ وعلى الجانب الآخر من السهل أن نفهم لماذا لم يضع الاتحاد السوفيتى شرط التعددية الحزبية فى مرتبة معيار من معايير التنمية حيث لخص الحداثة بأكملها فى عدد مداخن المصانع التى كان فى إستطاعة بلد ما أن يرصها بعضها إلى بعض؛ ولكن فيما وراء خلافهما كان الغرب والشرق يلتقيان إذن فى أنهما يكتفيان بوضع التنمية داخل المحيط الاقتصادى وأنهما لا يقيسان، سوى بالمعايير الكمية، ما يسميانه التقدم، هذا الحلم الذى يعتبر القالب الأصلى المشترك بينهما.

8. فى الثمانينيات، عندما بدأت الدول الغربية تجد نفسها مضطرة أمام ضغط الرأى العام لها إلى تبرير مساندتها لديكتاتوريات الحروب راحت سفيرة الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة جين كيركباتريك تؤكد على نظرية أن هناك فرقا فى طبيعة كل من النظم المتسلطة والنظم الاستبدادية ودافعت عن المساندة الأمريكية للأولى، التى تتميز عن الأخرى بإمكانياتها على التطور.

التنمية الاقتصادية، التي وضعها الماركسيون وتوابعهم فـــي منزلـــة الشـــرط المسبق للسيادة السياسية وللتغيير فى علاقـــات القـــوى العالميـــة، والتـــى قدمـــها الليبراليون على أنها السبيل الوحيد للوصول إلى الحداثة، هى إذن الوجـــه الوحيـــد المعاصر للتقدم المعروض فى سوق الأفكار؛ إنها تمثـــل الخيـــار الوحيـــد القـــابل للتطبيق للخطر السياسى الذى يعرضه التوسع الشيوعى للغرب؛ فبعد الصدمة التـــى شكلها للولايات المتحدة سقوط الصين فى أحضان الشـــيوعية رأى مبـــدأ ترومـــان (الذى أُعلِنَ فى عام 1949)، أن فقر شعوب الجنوب هو أفضـــل حليـــف للنشـــاط الهدام، فهو بالتالى« تهديد للمناطق الأكثر ازدهارا» وأن التنمية هى أفضل وســـيلة لعلاج ذلك ولتجريدها من التربة التى تنمو فيها. الولايات المتحدة اهتمت إذن منـــذ ذلك الحين بأن تجعل من النمو الإقتصادى، الذى من المفروض أن ينشـــر فوائـــده على نطاق واسع، الوجه المدنى (غيرالعسكرى) لنظريتهم فـــى الاحتـــواء[9]؛ فـــى شرق آسيا، التى كانت أكثر البلاد عرضة للتهديد فـــى العـــالم فـــى الخمســـينيات، استخدمت كوريا الجنوبية وتايوان حقل تجارب لإقامة مخطط *للاحتواء* من بُعْدَيـــن: عسكرى اقتصادى؛ وفى بداية الستينيات حاول جون كيندى نقل التجربة إلى أمريكـــا اللاتينية بأن أطلق « معاهدة من أجل التقدم» ليتحاشى وصـــول العـــدوى الكوبيـــة إليهما، وإن جاءت النتيجة أقل نجاحا.

التنمية هى إذن طريق من اتجاه واحد، كان مـــن المعتقـــد أنـــها تقـــدم عـــدة امكانيات للاختيار بمقدار ما كانت إجراءات العمل فيها تُناقش وتدرس بعمق شـــديد

---

9. النظرية الروستووية كانت أيضا مصدر فكرة الـــ *trickle-down* (effet de percolation) : يتعين ألا تهتـــم التنمية بإعادة توزيع حصص الأرباح الناجمة عن النمو والتى تمتد بصورة طبيعية من الأغنياء إلى الفقراء منذ لحظة بلوغـها أبعادا ذات معنى ؛ إستمرت هذه النظرية سارية حتى منتصف السبعينات عندما إنسحبت أمام رؤية أكثر إهتماما بنوعية التنمية تقوم على إشباع « الإحتياجات الأساسية» ؛ البعد الإقتصادى لنظرية الإحتواء الأمريكية تجد أفضل توضيحًا لهـــذ فى الترويج الأمريكى الذى لا يكل للـــ « ثروة الخضراء» ؛ ثورة تقنية تسمح بزيادة مهمة فى العـــائد وفى الإنتاجيـــة بالتالى، لأهم ثلاثة حبوب فى العالم: القمح والذرة والأرز، وكانت المهمة التى كلفت بها هـــى درء أى خطـــر لثـــورة اجتماعية بواسطة تلبية الطلب على المواد الغذائية فى المناطق الأكثر تعدادا للسكان فى العالم حيث جرى نشرها، والإثراء المتوقع لأهل الريف الذين يشكلون الأغلبية فى هذه البلاد. (راجع ضمن مراجع أخرى:
Sophie BESSIS, *L'Arme alimentaire*, Maspero, Paris, 1979

وبانتظام، فقد تجادل رجالُ الاقتصاد والباحثون والمناضلون من مختلف الفرق الموجودة على الساحة ولعدة عقود حول مسألة أن نعرف ما هى أقصر الطرق وأنجح الوسائل للوصول إليها، ولكن النموذج ذاته لم يوضع للبحث سوى فى وقت متأخر للغاية، ومهما كانت درجة سخونة المجادلات بين أصحاب الموقف المنادى بليبرالية معتدلة للدولة والمدافعين عن تحكمها فى كافة آليات الاقتصاد والمجتمع، وبين مؤيدى تحديد الملكية والمبادرة الخاصة ومؤيدى إقامة رأسماليات محلية ظل الهدف المنشود واحدا: وهو إقامة مجتمع صناعى يعيش على المرتبات ويسكن المدن قائم على نظم تراكمية مناظرة للتى خاضت أوروبا تجربتها فيها فى عهد ثورتها الصناعية والتى قيس النجاح فيها بمعيار واحد هو معدل النمو.

مهما كان عمق الخلاف بينهم، فإن المدافعين عن النسختين المتنافستين للنموذج قد جمعتهما رؤية واحدة أعادت للشعوب التى كان من المفروض أن يعود التقدم عليها بالنفع إلى مصاف مواضيع للتنمية، دون أن يعدونها قط مواضيع لتاريخها الذى كان فى حالة تشكيل.

الدولة نصف الإله

وحدانية النموذج ظلت لفترة طويلة تتبرهن من خلال تطبيق نوع من الهجين من هاتين النسختين على معظم« البلاد النامية»، وكانت هذه النسخة المهجنة قد تم تنظيرها بشكل ما بواسطة الأمم المتحدة ومجموعات التفكير التى قد تدور فى فلكها[10]؛ هذه الصيغة المركبة اعتمدت كافة المصادرات التى تُعَرِّف بها التنمية

10 ومن أهمها: المؤسسة السويدية داج همرشلد ومجلتها *حوار التنمية* الذى عكس مواقف الجنوب فى المناقشات التى ...رت حول النظام العالمى؛ لجنة برانت (لجنة مستقلة تعنى بمشاكل التنمية العالمية) تأسست عام 1978 بمبادرة من البنك الدولى ويرأسها المستشار الألمانى السابق، ونشرت تقريرها الأول فى عام 1980 (*Nord-sud: un programme de survie*, Gallimard, coll.«Idées», Paris, 1980) ثم فى عام 1983 *North-South: Common Crisis. Co-Operation for World Recovery* (Pan Books, Londres-Sydney, 1983)؛ المؤسسة الدولية للتنميات التبادلية (IFDA) ومقرها الرئيسى فى سويسرا وجمعت فى كرساتها ما كتبه المفكرون المهتمون بالعالم الثالث وقادته السياسيون؛ يضاف إلى ذلك العدد اللانهائى من صناديق الأفكار التى تأسست فى كافة المنشآت المتخصصة التابعة لنظام الأمم المتحدة.

وهوية البلد المتقدم فتضمنت بعض المكونات الأساسية التي استعانت بها كافة الدول المعنية تقريبا؛ وبقي التصنيع هو الأساس فيها سواء كان ذلك بواسطة إقامة صناعات تعوض عن الاستيراد أو كان إنشاء مناطق تنمية صناعية في مواقع جغرافية مخططة ــ أو بالأولوية المعطاة (اعتبارا من السبعينيات) إلى الصناعات التي تستهدف التصدير. الدولة بصفتها ممثلة للجماعات الوطنية والمنوط بها مهمة القيادة في اتجاه التنمية، هي المنظِم الأكبر لهذه السياسات الإرادية التي تستهدف التغيير، وبفضل نظم التخطيط المركزية والاقتصاد الموجه فالدولة موجودة سواء في البلاد التي تنادى بالاشتراكية أو في البلاد الأخرى؛ فهي رجل الصناعة الرئيسي في كل مكان من الجنوب (تقريبا) وهي صاحب العمل الرئيسي في قطاع التصنيع، كما أنها جعلت من نفسها مزارعا وتاجرا لكي تضمن سيطرتها على كل ما يمكن أن ينتج عنه ثراء.

وبينما تقوم هي بذلك كانت الدولة في الجنوب في تواصل مع العصر الذي كانت تتأسس فيه. فقد تعرفت الدول الإشتراكية على تأثيرها فيها وكان بإمكانها أن تدعي أبوتها لها ووصف الذين تعتقد أنهم من أنصارها بـ « بلاد توجهات إشتراكية» تاركة بذلك الباب مفتوحا لأيام سعيدة قادمة. ومن جانبها أيضا كانت الديموقراطيات الغربية كينزية بشدة في ذلك الوقت وكانت قد وضعت يدها -لدى خروجها من أزمة الثلاثينيات الاقتصادية- على جزء من اقتصادها ولذلك فهي لم ترفض من جانبها أيضا تدخل الدولة من جانب تلاميذها وقد رأت في ذلك «طريقا مختصا» يسمح لهم بالوصول إلى الهدف بأسرع مما فعلت هي. وبذلك حظت الدولة المخَطِطَة، خاصة إذا كانت تؤدي دور دولة -العناية- الإلهية، بالتأييد من كافة التوجهات وأصبح وضع الخطط الوطنية للتنمية في ذلك الوقت أحد الشروط المطلوبة للحصول على التمويلات الخارجية. البنك الدولي جعل من تنزانيا بقراها *Ujaama* مكانا يجمع فيه الفلاحون بالقوة وبـ« اشتراكيتها ذات الوجه الإنساني»

إحدى قصص نجاح السبعينيات؛ كما حظيت التجربة الاشتراكية التونسية في الستينات ــ المتسلطة والمخططة والتصنيعية بكل تأييدها[11].

لم تكن الزراعة في هذه التركيبة الهندسية سوى قطاع جدير بالاهتمام في إطار مشاريع تنموية ضخمة تتعارض سمتها الحديثة مع الصورة المتهالكة الأزلية للفلاح، وكان من الصعب على الفلاحين بالفعل أن يدركوا أنهم لكي يكونوا عصريين يتعين عليهم أن يقبلوا بأن تقوم الدولة باستقطاعات كبيرة للغاية من إنتاجهم. في حالات الزراعات التصديرية كان السعر المدفوع لصاحب الإنتاج أدنى باستمرار من السعر الدولي للمنتج في حين تضع المؤسسات الحكومية الفروق في جيبها. أما بالنسبة للزراعات الغذائية فقد كانت الأسعار المتدنية المدفوعة للمنتجين تجعل -ابتداءا من الستينيات- شروط التبادل بين المدينة والريف منحازة بطريقة منظمة إلى الأولى في كافة بلاد الجنوب تقريبا، ذلك لأن وظيفة الزراعة الأولى في معظم بلاد الجنوب كانت تمويل إنشاء أجهزة الدولة والبيروقراطيات الوطنية ومشاريع التنمية الكبرى، وكانت الاستقطاعات التي تؤخذ من الدخول الريفية والمعونة الخارجية والدخول من مواد الطاقة والمناجم (بالنسبة للبلاد صاحبة المناجم الثرية) هي التي سمحت بتجسيد الدولة التنموية التي ظهرت في سنوات الوهم تلك.

عَبْر هذه المغامرة التي سرعان ما خربت فيها الأسطورة المحاكاتية مصالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضية وتحديثها الاقتصادي الذي شكل بالنسبة للجهاز الصناعي والتكنولوجي للشمال منجما من الفرص، أُغفل فيه التاريخ تماما. وهل تفسر استبدادية تصور التنمية ومضمونها وحدها فقدان الذاكرة التي أصيبت بها صفوة مفكري الشمال لاقتناعهم بالسمة الكلية للنموذج، وصفوة مفكري الجنوب

---

11 . Voir Sophie BESSIS, «Banque mondiale et FMI en Tunisie, une évolution sur trente ans», *in État et développement dans le monde arabe*, Éditions du CNRS, Paris, 1990.

-وقد تملكت منهم أسطورة التعويض- مما دفعهم جميعا إلى إسقاط العوامل التى سمحت بتصنيع أوروبا وإغفال الإطار الذى جرت فيه، فقد نُسيت بالفعل مرحلة التراكم الطويلة التى زاد من فاعليتها قرنسان من الرأسمالية التجارية وثورة زراعية، والتزايد السكانى البسيط نسبيا، فهو وإن كان متسارعا فى الواقع إذ اقترب من 1% فى العام ولكنه لا يقارن قط بالزيادة التى يشهدها الجنوب المعاصر وهو الذى عرف منذ الخمسينيات ولأكثر من عشرين عاما متوسط نمو سنوى بلغ 3% ؛ نسيت أيضا الوتيرة التى تضاعفت بها الصناعات الكبرى المستهلكة لليد العاملة والتى استطاعت امتصاص الفائض الديموغرافى والسكان الذين أخرجتهم الهجرة من الأرياف والإمكانيات اللانهائية التى أتاحت للأوروبيين الهجرة إلى أركان الكرة الأرضية الأربعة إن لم يجدوا عملا أو غذاءً فى بلادهم، كما سقط من الذاكرة أخيرا -حتى لا نخرج من نطاق البيّنات- عولمة راحت تُوسع شيئا فشيئا من نطاق نفوذ الغرب إلى حدود العالم بالكامل. كل شيء حدث كما لو أنه فُرِض على الجنوب أن يثبت حداثته بأن ينقل بالحرف الواحد تركيبة لا يملك من مكوناتها شيئا.

مستفيدون من أهل الجنوب

ولكى تكون الأسطورة على هذه الدرجة من الفاعلية كان ينبغى أن يكون لها بعض الفوائد فى الجنوب أيضا: فوائد للأهالى، فقد آمنوا بها فى البداية. ولكن سرعان ما تشككوا بحذر فى الخطب المتوالية لإقناعهم بسلامة إختيارات قادتهم؛ كان أغلبهم يأمل فى أن تعدل هذه المعجزة التى كانوا يحدثونهم عنها من حياتهم اليومية ؛ لقد ساد الاعتقاد فى الجنوب كله أن إصلاح الحال ليس من المستحيل وأن حياة أفضل يمكن الوصول إليها وأطلق على هذا الأمل اسم التنمية. مثل تلك

الرغبة -وهو ما لم يستطع أو لم يبغ أهل التنمية وأصحاب النظريات الغربيون رؤيته- استطاعت أن تتعايش فى عدة أماكن مع رجعية مجتمعاتيه تقوم بدور الضامن ضد حدوث تغييرات مفاجئة أكثر مما ينبغى حتى لو كان الجميع يأمل فى حدوث مثل هذا التغيير بكل قواه. هكذا جوبهت الحداثة بالتراث دون البحث عن النماذج الأخرى من العلاقات التى كان من الممكن إقامتها فى عالم التصور وفى التعامل اليومى للشعوب النامية.

من جهة أعطى للأحلام اسمٌ، ومن جهّة أخرى حصل ثالوث " التنمية- هيمنة الدولة - النظام العالمى الجديد " على تأييد النخب المفكرة فى العالم الثالث التى جعلت منه وسيلتها نحو الارتقاء؛ هذه النخب وقد كان معظمها مبهورا[12] بغرب هرم *ابناءها* وغير مسار وجودها، كانت تصبو للوصول إلى حداثة صورت لها على انها فى متناول اليد وبدونها على العموم تصبح الرغبة فى الدخول ضمن مجموعة الأمم المتحضرة غير مجدية. منذ مؤتمر باندونج فى عام 1955 استولت هذه النخب على كلمة تنمية وأعلنت ضرورتها الملحة، واعتبرت أن كل شىء يجب أن يبنى، ومن الأفضل أن يكون ذلك تحت قيادتها فى بلادها التى تركها انسحاب الغربيين منها فى حالة بوار كامل؛ ولكنها رأت فى التنمية أيضا- دون أن يكون ذلك فى برنامجها أصلا استخدامها كوسيلة سهلة لتدعيم استيلائها وحدها على السلطة وكانت تعمل على تأكيدها وبناء أسسها المادية. لقد قدم الاستقلال إلى الطبقات الاجتماعية الجديدة -برجوازية المدن الصغيرة والموظفين المحليين للإدارة الاستعمارية والجماهير التى همشها الاستعمار- (وهم الذين أخذوا من قيادتهم

12. يظل هذا الإبهار غامضا ويتشكل من خليط من المشاعر ؛ فالأجيال الأولى من النخب الحداثية من أهل الحروب كانت تفضل المحاكاة وفى الوقت نفسه تستمر تحلم فى «أن تبقى ذاتها» دون أن تعى تماما ماذا تعنى هذه الرغبة؛ وكان الروائى السنغالى شيخ حميدو قان يقول «قبل أن نرتدى بذلة العمل الزرقاء سنضع ذاتنا فى مكان أمين» محذر اهله من الوقوع فى براثن محاكاة الغرب بأكثر من تحذيره للبيض من مقدرة شعبه على المقاومة الثقافية (Cheikh HAMIDOU KANE, *L'Aventure ambiguë Paris, 1961)*.

لحركات التحرير حقهم الجماعي في الهيمنة) وقدم لهم الاستعمار فرصة الإرتقاء إلى رأس الدولة، والمرحلة التالية -أي مرحلة التنمية- أعطتهم فرصة تملكها.

في معظم البلاد التي خرجت من تحت السيطرة الاستعمارية، أصبحت بسرعة الإدارة التنموية للدولة نوعا من التكنولوجيا لجأت إليها النخب القائدة لبسط سيطرتها على المجتمع في مجموعه ولوضع يدها على مناجم الدخل التي أتاحتها لها اقتصاديات بلادها، وبدا النموذج الذي قدمه لها أساتذتها الغربيون والذي وضعه الممولون موضع التنفيذ جذابا، خاصة وأنه يسكت على ما يمكن أن يكون البعد السياسي للتنمية، مُضفيًا الشرعية على رغبتها في إحتلال كامل المجالات السياسية التالية على الاستعمار أو على ما قام مقامه. عند التطبيق أصبح الحزب الواحد[13] الذي تعمم في العالم الثالث في الستينيات وظل على قيد الحياة حتى الثمانينيات، المقابل السياسي لما هو التنمية في المجال الاقتصادي. وحدانية النموذج تقابلها وحدانية القيادة السياسية المسئولة عن تحقيقه.

بخلاف أنه مسئول عن وضع الأسس التي ستقوم عليها إعادة توزيع الثراء العالمي بين الأغنياء الدائمين ونخب الجنوب الجديدة التي تصبو إلى أن تصبح غنية أيضا -أعطى النظام العالمي الجديد- ثالث الثالوث- للتنمية البعد الضروري لتدعيم شرعيته وحول قادة الجنوب إلى أبطال العدل والدفاع عن المقهورين؛ وكان يصعب على الغربيين أنفسهم في الواقع أن ينكروا فضيحة التفاوت الهائل في المستوى بين الشمال والجنوب وأن يقروا بوجوب إيجاد حل.

13. كافة الدول الأفريقية تقريبًا والدول العربية كذلك ونمت في هذا الشرك ومعظم بلاد آسيا ؛ إلا أن بلاد الجنوب لم تعتمدها كلها ؛ وبعض المناطق الأخرى وجدت بديلا موازيا له في السلطة ولكنه يتكيف بصورة أفضل مع الأجواء المحيطة المحلية التي كانت يتأكد فيها سلطان الطبقات المسيطرة ؛ فأمريكا اللاتينية غاصت في الستينيات والسبعينيات في بحر الدكتاتوريات العسكرية التي قادت سياسة تحديث غير مساواتية على الإطلاق في المجال الإقتصادي بأن أخرست كل معارضة، والهند التي عبرت هذه الفترة وهي على ديموقراطيتها المتعددة الأحزاب من الناحية الصورية على الأقل، تولى حزب مهيمن -حزب المؤتمر- عملية التنمية وقادها لمصلحة برجوازية المدن والريف التي تشكل أرضيته الاجتماعية.

وأخيرا أعطت المطالبة بإيجاد نظام يقوم على نوع من الديموقراطية الدولية ميزة أن تجعلنا ننسى أنه يحرم ظهورها على المستوى الوطنى.

ولكن إذا كانت أيديولوجيا التنمية قد استخدمت كتبرير لتشابك من المصالح الهائلة خدمتها أيضا الآليات الضخمة للمعونة والخبرة التنموية فإن ذلك لا يمنع من أن الشق الفاصل بين الشمال والجنوب والتفاوت فى المستويات التى يقوم عليهما موجود أيضا. ما سمى بالحوار بين الشمال والجنوب يمكن أن يشكل محاولة - أجهضت بالمناسبة- لتوزيع الثراء والقوة العالميتين بين الطبقات الجديدة المهيمنة القادمة من الجنوب وأجهزة السلطة فى الشمال، وإن لم تكن هذه الأخيرة فى عجلة من أمرها لكى تتخلى عن مميزاتها، وإن كانت مستعدة فى أحيان كثيرة للاتفاق محليا حول الاستغلال المشترك للدخول حيث يضمن لكل طرف الحصول على أرباح ضخمة. تاريخ «عقود التنمية» الأولى يعتبر -ولو جزئيا- قصة توافق المصالح والتحالفات الظرفية التى عقدت بين هؤلاء الشركاء المتنافسين الجدد.

وإذا كان التاريخ لا يتلخص فى هذا فقط فلأنه تاريخ التباعد بين القارات، والتباعد بين الشمال والجنوب (بما فيه من أوجه متعددة) وتاريخ اتساع الهوة فى مستويات المعيشة والثراء بين شعوب المنطقتين وهو أخيرا تاريخ التبعية التي يشتد وثاقها حول رقاب الدول المسماة نامية والتى تسبب مضمون التنمية ذاته فى حدوثها.

من السباق الذى إنطلق فيه الجنوب بكل قوة من أجل استخراج نسخة من النموذج ورغبة الشمال فى عدم التنازل عن أى شىء من قوته والإستراتيجيات التى وضعها لتحديث أسس هيمنته، قامت بالفعل بتوثيق خيوط نسيج التبعيات المصنوع من تركات إمبريالية ومن شبكات جديدة فى آن واحد، وهى التى بدأت تظهر فى كامل قوتها إبتداءا من الثمانينيات.

— 7 —

الأسس الجديدة التى تقوم عليها الهيمنة

بانتهاء ما يقرب من نصف قرن تنمية -التى لم يعد أحد يجرؤ على تسـميتها بهذا الاسم منذ التسعينيات بسبب قسوة وعنف الارتدادات التى حدثت- يجـب أن نقر بأنه إذا كانت جغرافيا الثروات العالمية قد عرفت بعض التعديـلات فـهى لـم تعدل قط من خريطتها. مثل تلك الملاحظة لا تعنى أن العالم لـم يتغـير، بـل إن التغيرات بلغت سرعتها أحيانا درجة جعلتها تشبه الثورات جدا، بالنسبة للبعض. إن التغيرات العميقة التى طرأت على الخريطة السكانية فى العالم خلال خمسين عامـا وفى إعادة توزيع السكان على وجه الكرة الأرضية تعتـبر ثـورة، هـذا التوسـع البشرى الذى وصل فى ظرف ثلاثة أجيال من مليارين فقط إلى ستة مليارات مـن البشر قد بدل بصورة جذرية العلاقات التى كان البشر يقيمونها فيمـا بينـهم ومـع المجالات التى يعيشون فيها، وبدأنا الآن فقط نقدر الآثار المترتبة على هذا التكثيـف المتزايد فى إحتلال الكرة الأرضية.

المعروف أن القدر الأهم الذى طرأ على هذا التوسع جرى فى الجنـوب وأن الدول المجمعة تحت هذه التسمية تركز اليوم داخل حدودهـا حوالـى 80% مـن البشرية. هذا المعطى الجديد -الذى يمثل بالمناسبة أحد أهم التحديات التى يجابهـها أهل الجنوب- لم يستطع (مرة أخرى!؟) تعديل طبيعة علاقـات القـوى العالميـة؛ فالجنوب، الذى يزيد عدد سكانه بكثير جدا عما كان حالـه فـى المـاضى، يولـد

نوعيات جديدة من الخوف لدى الشعوب الغربية التى تزداد شيخوخة وهـــى تقـدر ديناميته الديموجرافية بمعيار مقدرته على الإضرار بها بواسطة الهجرات، ولكنــه لا يؤثر بأكثر من ذلك على أقدار الكوكب وهو لا يشارك بأكثر منه فى مراكز إتخـــاذ القرار ولا يحظى بإعادة توازن الموارد العالمية للثروة لكى يشـــبع حاجاتـــه التـــى تزداد على الأقل بنفس سرعة زيادته السكانية.

استمراريات الثراء

خريطة هذا الثراء ليست متطابقة اليوم مع تلك التى كانت معروفة منذ نصـف قرن. رأى الجنوب دولا تولد داخل حدوده بالغة الثراء تستمده من استغلال ثرواتـها من مصادر الطاقة أو من مناجمها ومن اقتصاديات صناعيـــة قائمـــة علـــى نقـل النشاطات التصنيعية عبر الكوكب للمصانع التى تحتاج لكثافـــة كبـيرة مـــن اليـد العاملة؛ وعلى العكس من ذلك ازداد بوتيرة متسارعة فقر أجزاء أخرى من العـــالم الثالث الذى تزايد فيه التباين بين الثروات. ظهور دول كسولة وأخرى مجدة وفـــى الحالتين مزدهرة -من جهة- ودول متدنية مضطرة إلى التسول من جهـــة أخـرى ليس حدثا هامشيا فهو قد تسبب فى تفجير وهم وحدة الجنوب وجعل تعدده رســـميا. إلا أن هذه التنقلات التى طرأت على الثروات قد حدثت جميعا داخلـــه وهـــى وإن كانت قد عدلت من صورته فهى لم تؤثر كثيرا فى الاقتصاد الشامل لعلاقاتـــه مـــع الشمال، ولذا يجب البحث عن مركز هزاته في موقع آخر.

قضية البترول توضح الاستمرارية فى التغيير الذى يبدو أنه يطبـــع ببصمتـــه تطور العلاقات بين الشمال والجنوب خلال نصف القرن الأخير: ففـــى عـــام 1973 وفى 1979 إعتبرت صدمتا البترول كهزتين زلزالتين كبيرتين بالنســـبة للأهـــم أى بالنسبة للاقتصاديات العالمية، واعتقدت الدول البترولية ساعتها أن فى يدها ســـلاحا

أمامه مستقبل طويل، سيدوم طالما اعتمدت القوى الصناعية القديمة على ذهبها الأسود. فيما أن هذه القوى قد أقامت اقتصادها بعد الحرب واستعادت ازدهارها جزئيا بفضل حصولها السهل على طاقة تعتبر بدون مقابل تقريبا، اضطررت هذه الأخيرة فى الحقيقة إلى إعادة مراجعة صعبة لضبط أمورها المالية وتلك الخاصة بالطاقة لكى تستعيد توازنا ظل للحظة مهددا بانفجار أسعار المواد البترولية، إلا أنها لم تكن جميعا على درجة واحدة، فقد استخدمت صراعات الشمال والجنوب أيضا في تصفية بعض الحسابات بين الشمال والشمال.

الولايات المتحدة، التى كانت أول منتج عالمى للبترول إلى أن قررت أن تجعل من آبارها مخزونا إستراتيجيا وان تحد من استغلالها له[1]، استفادت من صدمة 1973 أكثر من كونها عانت منها وهى فى جميع الأحوال لم تفعل الشىء الكثير من أجل منع أهم حلفائها فى المنطقة الأكثر ثراء بالبترول وهو الشرق الأوسط من أن يفعلوا ما فعلوه. الزيادة التى طرأت على الأسعار عام 1973 سمحت للشركات البترولية الأمريكية[2]، التى كانت تتحكم آنذاك فى أكبر جزء من السوق البترولية بأن تضاعف أرباحها أربع مرات وأن تفتح مرحلة جديدة من مراحل البحث عن آبار استخراج البترول منها أكثر تكلفة والتى أصبحت مربحة بفضل الارتفاع فى الأسعار.

---

1. فى عام 1973 عشية الصدمة البترولية الأولى أنتجت الولايات المتحدة 520 مليون طن بترول فى العام وإستوردت 280 مليون طن ؛ وفى عام 1978 عشية الصدمة البترولية الثانية أنتجت 490 مليون طن وإستوردت أكثر من 400 مليون طن (إحصائيات OCDE) ؛ ومنذ ذلك الحين فإن إستهلاكها يكاد يكون منقسما مناصفة بين إنتاج وطنى (472 مليون طن فى عام 1997) وإستيراد (445 مليون طن) ؛ إكتشافاتها البترولية المؤكدة والقابلة لأن تستعيد ترتيبها الحادى عشر فى العالم، وإحتياطها من الغاز ترتيبه السادس على العالم. يرجع بالنسبة لمعطيات 1997 والاحتياطى.
(United States, Energy Information Administration).

2. فى عام 1979 ظهرت عشر شركات بترولية ضمن خمسة عشر شركة حققت أكثر الأرباح فى العالم، منها ستة شركات أمريكية (اكسون وستاندارد أويل أوف كاليفورنيا وتكساكو وستاندرد أويل أوف إنديانا وجلف أويل واستاندرد أويل أوف أوهايو)، وفنزويلا (بتروليوس دى فيزويلا) وواحدة فرنسية (إلف اكيتان) (لوموند، 19 يوليو 1980)؛ العديد من هذه الشركات دافع عام 1973 عن زيادة أسعار البترول (لوموند، 25 أكتوبر 1993: « نهاية البترول الرخيص»)؛ عمليات التركيز التى تمت فى السنين الماضية فى قطاع البترول زادت من حجم الشركات وقللت من عدد الشركات العظمى ؛ أولاها أكسون – موبيل مازالت أمريكية وكذلك الخامسة، شيفرون.

أما أوروبا واليابان اللتان تستوردان كل مصدر الطاقة الذى يكاد يكون الأوحد، فقد تلقيتا، على العكس من الولايات المتحدة، اللطمة -بكل قوتها- وهى التى رفعت الأسعار وهو ما أسرع من جعل اقتصادياتها هشة خلال النصف الثانى من السبعينيات. كان إذن للصدمات البترولية تأثيرها الشديد على جزئى العالم الكبيرين. داخل الجنوب لم تتوقف المسافة التى تفصل بين الدول صاحبة الثراء الوافر الحديث والدول التى ليست قادرة على مواجهة انفجار فواتيرها البترولية، عن الاتساع. أما فى الشمال فقد دَعَّمَت هذه الصدمةُ النفوذَ والقوةَ الأمريكيين على حساب خلفائها-ومنافسيها الأوروبيين واليابانيين.

ولكن إذا نظرنا إلى ما بعد هذه الهزات العارضة سنجد أنه لم تحدث تغيرات ذات أهمية فى علاقات القوى بين الشمال والجنوب، بل على العكس من ذلك، فما أن تخطت دول الشمال الصدمات الأولى، إلا وقامت بوضع إستراتيجيات للهجوم المضاد قلبت من منطق التبعية السائد فى القطاع البترولى فى بداية السبعينيات؛ فقد عدلت أوروبا واليابان، بعد أن تعلمتا من التجربة التى خاضتاها، وأدركتا مدى أهمية تبعيتهما لمصدر الطاقة هذا فقد عدلتا منذ منتصف السبعينيات من سياساتهما الخاصة بالطاقة، فكان لجوؤهما المتعاظم إلى الطاقة النووية وتشجيعهما للاقتصاد فى استخدام الطاقة قد خفضا -بنفس المقدار- تبعيتهما للمنتجات البترولية. أما الولايات المتحدة الأمريكية، التى رفضت التفكير فى أى تعديل فى سياستها الخاصة بالطاقة، فقد ضمنت إشباع نهمها البترولى بأن دعمت من سيطرتها السياسية والعسكرية على المناطق الهامة المنتجة للنفط فى العالم. أخيرا عمل تزايد نشاط الشركات البترولية الغربية على مضاعفة الاكتشافات وعلى ظهور منتجين جدد غير أعضاء فى منظمة أوبك مما أضعف من أهمية دورها. وبذلك كانت عشر سنوات كافية لإعادة الأسعار إلى ما كانت عليه قبل 1973، فمن 2.25 دولارا (محسوبا بسعره الثابت) للبرميل فى 1973 إلى 9 دولارات فى 1974 إلى 13

دولاراً فى 1979 بعد الصدمة البترولية الثانية إلى 15 دولارا فى 1982 عاد السعر فهبط منذ 1974 تحت مستوى 11 دولارا إلى أن هوى إلى 5 دولارات فى 1985.

السقوط في الأسعار الذى بدأ فى 1982 بدد تماما ادعاءات الدول المصدرة التى توهمت للحظة أنها تمسك فى يدها بمقدرات العالم، وإن كانت بطبيعة الحال قد أثرت -فى تلك الفترة- ثراءًا فاحشًا وبما أن البترول لا يزال محتفظا بأهميته فإنها مازالت تكسب من ورائه أرباحا ضخمة، مهما كانت تقلبات السوق، وإن قل تحكمها فيه كثيرا. إلا أننا ندرك اليوم مدى الأضرار التى تسبب فيها منطق أصحاب الدخول المستمرة دون عناء على اقتصاديات معظم البلاد البترولية؛ إن أكثرهم أهمية -أى من كان منهم ذا كثافة سكانية كبيرة وذا وجود سابق على ظهور ما تبطنه أرضهم- من نيجيريا إلى الجزائر ومن إيران إلى فنزويلا، فقد أحرقوا بترولهم فى سباق محموم نحو التصنيع ونحو القوة[3] وفى استهلاك سفيه من طبقاتهم الحاكمة، معيدين بذلك إلى شركائهم فى الشمال -عن طريق مشترياتهم- الدولارات التى أخذوها منهم عن طريق آخر. أما دول الخليج العربى-الفارسى البترولية التى تحكمها العروش الملكية فقد بالغت لدرجة كاريكاتورية فى سلوكها السفهى لأصحاب الدخول السهلة؛ هناك أيضا، لو أردت العثور على العواقب المترتبة على ثرائها السريع، فيتعين أن يدور بحثك فى الجنوب.

ذلك لأن العربية السعودية -على وجه الخصوص- كرست جزء لا يستهان به من ممتلكاتها لتمويل شبكة غير متجانسة عبر العالم الإسلامى كله من الحركات السياسية المتطرفة فى رجعيتها منادية بالإسلام الوهابى وهى التى شكلت فى الثمانينيات أهم مراكز التطرف الإسلامى الراديكالى، وهى إن كانت قد ازدهرت فى

3. حاولت العديد من الدول البترولية تحويل ثرائها إلى قوة عسكرية واستراتيجية على مستوى الكرة الأرضية مخصصة قطاعا هائلة من دولاراتها البترولية (بترودولارات) إلى مشترياتها من الأسلحة ؛ فبخلاف أشهر الحالات المعروفة لملكيات الخليج فإن دولا مثل إيران والعراق والجزائر حاولت عن طريق البترول أن تحصل على مكانة القوة الإقليمية.

كل بلد من بلادها فذلك لأن التربة كانت فيها خصبة، كما سنرى فيما بعد، إلا أن أحدًا من تلك الحركات ما كان فى استطاعته أن يكون له مثل هذا النفوذ لو لم يتمتع بهذا المنّ المالى الذى اتفق الجميع على إعتبارِ أنه كان هائلاً [4]، ولم تكن العربية السعودية الممول الوحيد للإسلام السياسى فى الثمانينيات، فالدور الذى لعبته إيران فى تمويل أممية إسلامية منافسة معروف، كما هو معروف دور ليبيا فى محاولات إنشاء نوع من التأسلم فى البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. فى كافة الأحوال كان الجنوب دائما هو الساحة التى وضحت فيها أهم الموجات السياسية الصادمة العاتية للدخل البترولى المرتفع.

إقتصاد الدين

لم يكن التطور مخططاً له، إلا أن تدفق السيولة البترولية الجديدة على السوق الدولية لرءوس الأموال حدث فى مرحلة إعادة هيكلة[5] وهو ما أعطى أيضا شارة البدء لعملية تحول راديكالية فى العلاقات ' الية .ين الشمال والجنوب، تحولت هذه العملية عبر سنوات قليلة من نظام قائم على المعونة إلى ، طق المداينة. شكل ذلك مقدمة لاقتصاد الدين الذى لم تخرج بلاد الجنوب فى مجملها منه حتى الآن.

---

4. المنظمة الدولية للإخوان المسلمي ,رتبطة منذ فترة طويلة بالمملكة الوهابية، وقادمًا المطاردون فى بلادهم يلجأون إليها ويحصلون منها على مساعدات ضخمة ؛ فقد أعطت الر ياض، عن طريق الجامعة الإسلامية العالمية، -ضمن طرق أخرى- مساعدة مالية ولوجستية لكافة الحركات الإسلامية التى تفاو ن درجة إعلامًا لولائها لها ؛ وتقدر بعض المصادر قيمة المساعدات التى وصلت الإسلاميين الجزائريين فيما بين 1988 و1991 إلى خمسين مليون دولار ؛ كما مولت العربية السعودية بقوة حرب المجاهدين الأفغان ضد « الشرعيين الملحدين» السوفييت ؛ راجع – ضمن مراجع اخرى:

Jeune Afrique, n° 1627 et 1628, mars 1992 ; Antoine SFEIR, *L'Argent des Arabes*, Hermé, Paris, 1992.

5. توالت الصدمات البترولية فى الوقت الذى كان فيه نظام بريتون وودز يتحلل بسبب الزيادة السريعة للغاية للمخزون العالمى من رؤوس الأموال العائمة التى شاركت فيه وبسبب التخلى عن نظام أسعار الصرف الثابتة الذى إعتمدته فى عام 1976 معاهدة جامايكا.

إن بلاد الجنوب تبحث منذ الخمسينيات -كما سبق أن رأينا- عن تمويل لعملية استنباط نسخةٍ مكلفة جدا لنموذج للتنمية أهم مميزاتها هو أنه ليس لها بديل، وقد خصصت لذلك المعونة العامة للتنمية (APD)- دون أن يكون في ذلك أي نوع من الكرم من جانبها لأنها لا تتعدى 0.34% من الناتج الوطني الإجمالي لبلاد منظمة التجارة والتنمية الاقتصادية OCDE في عام 1970. هذا المبلغ يوازي ستة مليارات من الدولارات في المتوسط كل عام خلال الستينات[6]، ولكنه كان كافيا لإنطلاق عملية التبعية المالية، ذلك لأن العلامة المميزة الأخرى للتنمية المحاكاتية هي أن تكون مستوردة بالكامل تقريبًا، والبلاد التي شاركت في ذلك راحت تستخدم بشراهة المصانع والتكنولوجيات والخبراء -أحيانا- لتشغيلها. وفي بداية التسعينيات كانت تكلفة المعونة الفنية مازالت تمثل ربع المبالغ الممنوحة لأفريقيا، أي ما يزيد على ثلاثة مليارات في العام. هيكل المعونة العامة للتنمية[7] يوضح الدور الذي أدته في تصدير النموذج الذي أدى تنفيذه إلى فتح مواقع عمل واسعة أمام جشع المؤسسات الغربية. في السبعينات إستولى تمويل استيرادات دول المعونة على ثلث المبلغ[8] كما استولت إدارتها على 13% من هذا التمويل، في مجال الزراعة، التي لم تحصل سوى على أقل من 10% من المعونة، كانت المشاريع الضخمة هي المفضلة، على حين كانت الصناعة تحصل على تمويل يفوق ذلك الممنوح للصحة.

ومع ذلك فاعتبارا من 1973 دفعت الصعوبات التي واجهتها ميزانيات البلاد المانحة بسبب ارتفاع قيمة فواتيرها الخاصة بالطاقة وتباطؤ معدل نمو معظمها،

---

6. الإحصائيات الخاصة بالتمويلات العامة للتنمية مأخوذة من التقارير السنوية للجنة المعونة من أجل التنمية (CAD) التابعة للـ OCDE: *Coopération pour le développement*, annuel, OCDE, Paris.

7 . PNUD, *Rapport mondial sur le développement humain 1993*, Economica, Paris, 1993.

8. في تلك الفترة كان 12% إلى 13% من كامل مبالغ المعونة العامة مشكل من المعونة الغذائية. التي نعرف الدور التي لعبته في زيادة تبعية العديد من بلاد الجنوب الغذائية (راجع: OCDE, *Coopération pour le développement, op. cit.*).

إلى تخفيض معوناتها -وإذا لم يكن ذلك فى قيمتها المطلقة، فعلى الأقل بالرجوع إلى نسبتها إلى إنتاجها الوطنى الإجمالى الذى لم ينخفض على الرغم من ذلك[9]؛ فلما لم تنمو البلاد النامية بالسرعة المرجوة أخذت النيات الحسنة -تضعف- فى بداية السبعينات، إلا أن رؤوس الأموال الخاصة كانت مستعدة لتأخذ المبادرة. فى عام 1974 بلغ الفائض المالى للبلاد البترولية ستين مليار دولار. وفى عام 1976 كان الرصيد الرسمى الدائن لبلاد الأوبك يمثل ربع الأرصدة العالمية، وكما هو معلوم كانت البنوك فى تنافس شرس لإعادة توظيف السيولة الهائلة الموضوعة لديها وكان العديد من الدول النامية يعد فى ذلك الوقت قادراً على أن يوفى بديونه بما أن إحطياتياتها النقدية كانت تتزايد باستمرار بفضل الزيادة الشاملة فى أسعار المنتجات الأساسية وإن ظلت هذه الزيادة غير منتظمة وفوضوية. إلا أن المعونة العامة التى كانت تمثل نصف مجموع مديونيتها فى عام 1970 أصبحت لا تمثل سوى 39% في عام 1970 [10]؛ أما مجمل ديون الجنوب فقد تضاعف أربع مرات فيما بين الصدمتين البتروليتين، وتخطى نسبة الـ 50% من الناتج الوطنى الإجمالى فى حوالى عشرة من بلاد الجنوب وتراوح ما بين 30% و50% من الناتج فى أكثر من عشرين بلدا[11] ؛ وبسرعة أصبحت الظاهرة تراكمية، وتزايدت الصعوبات أمام المقترضين فى تسديد ديونهم فى مواعيدها فاضطرت لأن تستدين من جديدة لإعادة تمويلها.

---

9. الناتج الوطنى الإجمالى الحقيقى لبلاد مجموعة السبعة G7 زاد بمعدل سنوى قدره 3.3% من 1974 إلى 1980 ؛ بالنسبة لمجموعة بلاد منظمة التجارة والتنمية الإقتصادية OCDE فالمتوسط السنوى للنمو كان 3.2% للفترة من 1974 إلى 1980، مقابل 4.6% من 1966 إلى 1973 (البنك الدولى:

(BANQUE MONDIALE, *Global Economic Prospects and the Developping Countries 1994*, Washington, 1994).

10. المعطيات الخاصة بالديون يراجع فيها:

OCDE, *Financement et dette extérieure des pays en développement*, annuel, OCDE, Paris; BANQUE MONDIALE, *World Debt Tables*, annuel, Washington; FMI,*World Economic Outlook*, biannuel, Washington.

11. BANQUE MONDIALE *Rapport sur le développement dans le monde 1981*.

في نهاية حقبة التسعينيات، لم تجد البلاد المديونة -الغنية منها أو الفقيرة- هامشا تناور فيه دائنيها، وهي التي كانت قد تعودت على الاستدانة، أملاً في أن يأتي اليوم الذي تتمكن فيه من التعويض واللحاق بالركب، فلم يأت، على الرغم من كميات الأموال التي كانت تحقن في اقتصادياتها، فتلقت على حين غرة لكمة مباشرة من آليات التبعية التي ظلت تُعد لها خلال « العقدين الأولين للتنمية».

صعوبات الاستدانة

ليس من مخططي أن أناقش بالتفصيل سياسات إعادة الهيكلة التي فرضت على بلاد الجنوب منذ نهاية السبعينيات؛ لقد فعل غيري ذلك[12]، إلا أنه يتعين التذكير بأن الوحشية التي اتسمت بها هذه السياسات والجشع الفظيع الذي طالب به اصحاب الديون تسديدها، يتناسب في قوته مع تلهفهم عند تقديم القروض فلم يكن لهذه اللهفة حد، طوال حقبة السبعينيات، وإذا كان ممكنا -من جهة أخرى- أن نقر لصالح بلاد الشمال بأنها لم تكن تعمل عن وعي حينذاك على نصب الشراك في

---

12. تتوزع المؤلفات العديدة حول إعادة الجدولة بين دراسات تحليلية ناقدة ومؤلفات أكثر تأييدا لما قامت بإجرائها المؤسسات التي قامت عليها أو رجال إقتصاد تابعين منها: صدر باللغة الفرنسية من الجانب الناقد:

Jacques ADDA, *L'Amérique latine face à la dette, 1982-1989*, La Documentation française, Paris, 1990; Jacques ADDA, Elsa ASSIDIN (dir.), *Dette ou financement du développement*, L'Harmattan, Pais, 1991; Gilles DURUFLÉ, *L'Ajustement structurel en Afrique (Sénégal, Côte d'Ivoire, Madagascar)*, Karthala, Paris, 1988; Louis EMMERIJ, *Nord-Sud, la grenade dégoupillée*, First, Paris, 1992; Susan GEORGE, *Jusqu'au cou. Enqête sur la dette du tiers monde*, La Découverte, Paris, 1988.

ومن الجانب المؤيد لهذه السياسات:

Christian MORRISSON, *Ajustement et équité dans les pays en développement*, OCDE, Paris, 1993; BANQUE MONDIALE, *L'Ajustement en Afrique: réformes, résultats et chemin à parcourir*, Washington, 1994, et *The Social Impact of Adjustment Operations*, Washington, 1996; BANQUE MONDIALE et PNUD, *L'Ajustement et la croissance en Afrique pendant les années quatre-vingt*, Washington, 1989.

طريق شركائها من بلاد الجنوب إلا أنه يتعين على الجانب الآخر أن نقر بأنها إستخدمت المديونية فيما بعد -وبكل وعى هذه المرة- وسيلة مؤثرة فى إعادة تشكيل العالم طبقا للقوانين الجديدة التى كانت تعدها.

لم تكف البلاد الصناعية والمنظمات التمويلية الدولية التى هى بمثابة يدها الطولى المؤثرة، عبر حقبة السبعينيات بأكملها، عن دفع الدول النامية دفعًا نحو الاستدانة؛ فبالإضافة إلى التعاقد على منح المعونة العامة من أجل التنمية (API) التى سمحت بتنمية صادراتها إلى بلاد الجنوب التى كانت بدورها تشجع على زيادة العجز فى ميزانياتها لتستمر فى الاستدانة. وفقاً بين 1970 و1980 كانت 68% من المسحوبات من صندوق النقد الدولى، الذى بنى شهرته التالية على التشدد فى فرض شروطه، كانت مشروطة بشروط متهاودة جدا[13]؛ بل ان الرئيس الفرنسى فاليرى جيسكار ديستان قد ابتدع فى النصف الثانى من السبعينيات فكرة «الحوار الثلاثى» (trilogue) فى محاولة لجعل هذه التدفقات التجارية مستديمة، إذ كان على البلاد ذات الفائض البترولى، فى هذه المشاركة الثلاثية المقترحة، أن تؤدى دور أمين الصندوق والبلاد الصناعية دور المورد -الذى يكافئه الجانب الأول طبقا للقواعد الموضوعة- لمعدات التجهيز والخدمات لصالح البلاد النامية، وكان على هذه الأخيرة أن تؤدى دور المستفيد المقر بالجميل للمعونة التى ستحولها من بلاد نامية إلى بلاد متطورة. الواقع أن نصيب البلاد النامية فى عام 1977 من الصادرات الفرنسية من معدات التجهيز الصناعية بلغت 40% مقابل 20% قبل ذلك بثلاثة أعوام[14].

13. Philippe NOREL, «L'évolution conflictuelle des politiques de développement», *Le Monde diplomatique*, mai 1987.

14. Rapport du Commissariat général au Plan, cité par *Le Monde*, 8 avril 1978.

خلال سنوات الرخاء الناجم عن ارتفاع أسعار الموارد الأساسية، كانت البلاد التى إستثمرت فى مشاريع ضخمة فرعونية هى التى كان الجميع يغازلها ويطلب ودها، وسيكون عملنا بلا طائل لو اننا أردنا تعداد كل هذه المشروعات البالغة التكلفة (وكانت فى أغلب الأحيان غير ذات جدوى أو متضخمة بالنسبة للإحتياجات)، التى أسرعت من خطى العديد منها نحو الإفلاس: فمن سد " إنجا " الزائيرى إلى مصانع السكر فى كوت ديفوار أو مجمع الحديد والصلب الجزائرى فى الحجار[15]، إضافة إلى المصاريف العسكرية التى تبخرت عبر هذه السنوات وقد ساعدت فى إعادة تدوير جزء كبير من البترودولارات. لقد عرفت أسواق سلاح الجنوب من 1970 إلى 1977 توسعا سنويا يبلغ متوسطه 13%، فقد اشترت الدول النامية من 1921 إلى 1985 أسلحة بـ 286 مليار دولار -بالاسعار الثابتة 1985- أى ما يوازى 30% من الدين المتراكم فى عام 1985[16].

التوسع الصناعى الضخم فى بلاد الجنوب عمل على الحد من التباطؤ فى النمو الذى عرفته الدول الأعضاء فى منظمة التعاون والتنمية الأوروبية ابتداءا من 1974. تلك البلاد كانت -طبقا لما أعلنه البنك الدولى- ستسجل نقطة إضافية من الخسارة فى نسب نموها بين عامى 1974 و1975 لو لم تكن البلاد النامية قد

15. من 1967 حتى 1977 خصصت الجزائر ما يوازى 25 مليار دولار لبناء أكثر من 300 مشروعا صناعيا وهذا الرقم وارد فيما كتبه بيير جودى:
Pierre JUDET, «Conséquences sociales de l'industrialisation dans les pays du tiers monde», *Dossiers FIPAD*, n° 20, novembre-décembre 1980, Noyon, Suisse.

16. إمتص الشرق الأوسط ما يقرب من نصف هذه الصادرات، تتبعه أفريقيا (بما فيها المغرب العربى) وتحتل أمريكا اللاتينية المركز الثالث وجنوب آسيا الرابع:
(Michel BRZOSKA, Thomas OHLSON, *Arsms Transfers to the Third World 1971—1985*, SIPRI-Oxford University Press, Oxford, 1987).

حصلت على الائتمانات البنكية[17]، وهو ما أسرع فى النهاية بانحراف أغلب الطبقات الحاكمة فى الجنوب سلبا ونهبا بعد أن وجدت فى ذلك فرصا خرافية للإثراء.

تشجيع دول الشمال للجنوب على الدخول فى عمليات تصنيعية غير ذات موضوع لكي تطيل قائمة المشتروات من مؤسساتها الصناعية سهّل بالفعل من حدوث إفساد واسع النطاق، استفادت منه هى أيضا. يمكن أن نعيد إلى الذاكرة، دون أن نَسْبُرَ أغوار تاريخ «فرنسا وإفريقيا»، أن الدولة فى فرنسا كانت تغطى باستمرار على ممارسات المؤسسات الفرنسية التى أصبحت مُعَلّمةً فى فن رفع قيمة الفواتير وتقسيم المكاسب السرية مع زبائنها[18] وأن الشركة الفرنسية للتأمين الخاصة بالتجارة الخارجية (COFACE) تؤمن باستمرار -بمباركة من السلطات

---

17. طبقا لما جاء فى: BANQUE MONDIQLE, *Global Economic Prospects, op. cit.* فى نهاية السبعينات عندما دقت ساعة الحساب بدأت بعض الأجهزة الرسمية فى إنتقاد الحماس الذى ساعد به المانحون فى تنفيذ«الأفيال البيضاء» التى جعلت ماليات بعض الدول إلى تركع على ركبها؛ ففى بلاد منطقة الساحل (جنوب الصحراء الكبرى) والتى كانت منكوبة بدرجة واسعة من قبل فى تلك الحقبة الزمنية «توجد أمثلة قام فيها المانحون -الذين إستسلموا لضغوط بيروقراطياتهم ذاتها بل لضغوط مارستها عليهم مجموعاتهم وشركاتهم الوطنية- بالتشجيع على إقامة مشروعات لا تتناسب أحجامها قط مع الحالة الواقعية لمعرفة الأسعار والأرباح المقابلة لها... » (راجع:
(COMITÉ INTER-ÉTATS DE LUTTE CONTRE LA SÉCHERESSE AU SAHEL [CILSS] et CLUB DU SAHEL, *Les Dépenses récurrentes des programmes de développement des pays du Sahel,* Club du Sahel-OCDE, Paris, août 1980).
وإعتبارا من الثمانينيات تضاعف عدد الإنتقادات الرسمية الموجهة لسياسات الإقراض التى مورست فى العقد السابق وكانت تنبع من ذات الجهات التى كانت تشجع عبها؛ وتعتقد منظمة OCDE فى عام 1982 أن جزءا من القروض إستخدم فى «تمويل مصاريف إستهلاكية وإستثمارات مشكوك فى جدواها».
(*Coopération pour le développement,* rapport du CAD 1982).

18. Pierre Péan, *Affaires africaines,* Fayard, Paris, 1983, et *L'Argent noir. Corruption et sous-développement,* Fayard, Paris, 1988.
كما يمكن أن تراجع للتفكك ما كشفته التحقيقات القانونية عن الممارسات الإفسادية المرتبطة بملف شركة البترول الفرنسية ELF (ألف) التى تعتبر من أهم الفاعلين الإقتصاديين - السياسيين الفرنسيين فى القارة الأفريقية.

السياسية- على المصاريف المرتبطة بالفساد[19] ؛ وبالنسبة لأمريكا، قدرت الخزينة الفيدرالية الأمريكية (FED) (البنك المركزي) أن ثلث مبلغ الـ 252 مليار دولار الذى ارتفعت به مديونية البرازيل والأرجنتين والمكسيك وشيلى وفنزويلا بين عامي 1974 و1982 استثمر فى مشتريات خاصة لأسهم فى شركات أجنبية أو فى حسابات بنكية خاصة ؛ وفى عام 1988 قدرت الأصول اللاتينية/ أمريكية فى الولايات المتحدة بـ 327 مليار دولار، 315 مليار منها نابعة من رؤوس أموال مهربة.

وهكذا استفادت دول وشركات الشمال، لفترة زمنية طويلة، مرتين من الممارسات التى أدت فيها دور المُفسِد الذى لا غنى عنه: فقد عقدت صفقات لمعدات لم تكن لتجد من يشتريها فى إطار أكثر شفافية ورأت العمولات التى دفعتها كعمولات لأصحاب القرار فى الجنوب تعود إليها فى هيئة استثمارات خاصة أو مصاريف شراء بضائع استهلاكية غالية الثمن.

حصلت إذن اقتصاديات الشمال على نصيب واسع من حصص الربحية الناجمة عن استدانة الجنوب المفرطة التى قسمت بين الأطراف المشتركة فى هذا الانحراف. ولكن هذا لاينطبق على " الفاتورة-الكارثة " التى تلت ذلك: فقد كثر الحديث عن الانكماش الذى أصاب الشمال اعتبارا من الصدمة البترولية الثانية عام 1979 والذى ظل يعانى طويلاً قبل أن ينجح فى الإفلات منه ؛ ولا يمكن أن ننكر واقع أزمةٍ تولد عنها انكماشٌ ضخم فى الطلب، سرعان ما ترددت أصداؤه فى جميع أنحاء الأرض، إلا أنه يتعين التذكير بتعدد أسباب ذلك وقياس أبعاده، لا

19. هذه مصاريف قانونية وتظهر فى ميزانيات المؤسسات تحت بند «مصاريف تجارية خارجية» ؛ فى بلاد غربية عديدة كانت الرشاوى المقدمة للموظفين الأجانب من أجل الحصول على الصفقات تخصم من الضرائب حتى فترة قصيرة جداً.

بمعيار النمو الإستثنائى الذى عرفته المرحلة السابقة، وإنما بمعيار حالات الركـــود التى إجتاحت بقية أنحاء العالم فى الوقت نفسه.

الزيادة -المؤقتة- فى أسعار المواد الأولية للطاقة والزراعة والمناجم، لم يكـن لها سوى نصيب متواضع فى حالة اللُهاث التى انتابت الاقتصاديات العالمية: يجـب أولا البحث عن أسباب هذا اللهاث فى حالة الاستنفاذ التى وصل إليها نظـام النمـو السائد فى حقبة ما بعد الحرب، وفى الهزات الناجمة عن المرور من تداول دولـى منظم فى هياكل دقيقة جدا لرؤوس الأموال إلى سوقٍ للمال مفتوحة تماما؛ الارتفـاع الكبير فى أسعار المواد البترولية كان إذن بمثابةِ كاشفٍ لمرحلةٍ تحولٍ لم يرها أحـد وهي قادمة، على الرغم من المؤشرات عليها والتى كانت تـتراكم أمـام الجميـع؛ فالطلب الغربى على البضائع الإستهلاكية المعمرة انكمش نسبيا -بعد ربع قرن مـن النمو الهائل- لم يعوضه ارتفاعٌ موازٍ له -كان متوقعاً- من طلبات بـلاد الجنـوب التى كان الجميع فى إنتظار انطلاقها، وبدأت النشـاطات التصنيعيـة للجيـل الأول للثورة الصناعية التى ظلت متمركزة فى القلاع الصناعية القديمة لأوروبا الغربيـة والولايات المتحدة تهاجر إلى بلاد هى ورش صناعية جديدة، على حين كانت تـبزغ فى الشمال صناعات من الجيل الثالث، شكّلَ هذا التطور تغييرا راديكاليا طرأ علـى هياكل الانتاج وعلى الأجور والمرتبات؛ أحدثت هـذه الـهزات جـواً مـن عـدم الاستقرار وفى مناخ تضخمى كان لارتفاع الأسعار العالمية للمواد الأساسـية دوره فيه هذه المرة.

أخيراً أعطت الأزمة إشارة البدء لتحول كامل فى السياسة الاقتصادية والنقديـة للدول الصناعية، سرعان ما تحول إلى ما يشبه الثورة، كان يمكن التعـرف علـى مقدماتها النظرية فى السنوات السابقة، ولا تزال آثارها باقية حتى الآن، كانت أزمـةً عميقة إذن، وأدرك الجميع وبسرعة أنها أزمة ستطول؛ فقد قلبت موازين الاقتصـاد العالمي ولكنها لم تمس هيمنة الشمال على بقية أنحاء العالم، ولم تقلل مـن اختـلال

التوازن بين الشمال والجنوب. ظل هنا الخلل في هيكله ومداه متناظرا مع ما كـــان عليه حاله قبل التحولات التي عرفها العقدان الأخيران من القرن العشرين، بل علـــى العكس من ذلك استغلت الدول الغربية -(التي كـــانت قـــد إهـــتزت للحظـــة مـــن المبادرات التي قام بها الجنوب)- النهاية المتوقعة لحلقة المديونية المفرغـــة التـــي تكشفت للجميع بعد حالة الافلاس المكسيكية في عام 1982، واستغلت مجهوداتها في إعادة تنظيم أحوال العالم المالية، لوضع حد لمحاولات إعادة توزيـــع الأدوار التـــي كانت بدأت تلوح في الأفق، ساعدها كثيرا في ذلك هبوط الكتلـــة الإشـــتراكية إلـــى الجحيم ثم تحللها الكامل في عام 1989، ثم انفجار الإتحـــاد الســـوفيتي ذاتـــه مـــن الداخل، فأجهزت تماما على الخطاب الاشتراكي الذي كان قد فقد قيمتـــه بـــالفعل، وأفشلت عمليات الابتزاز عن طريق عقد التحالفات التي كان عدد من قادة الجنـــوب قد أصبح خبيرا فيها.

أزمة وإعادات للانضباط

يوجد لغط كثير -وقيل بالفعل الكثير- عن تأثير إعادة التكيف العـــالمي مـــع الأزياء الجديدة التي يرتديها الاقتصاد العالمي والتي أخذت سكان الجنـــوب علـــى حين غرة في الثمانينيات والتي عرفها الشمال أيضا بدرجة أقل وبأشـــكال وأســـماء مختلفة. إذا كانت الصدمات قوية للجانبين فإن خطورتـــها لا تقبـــل المقارنـــة فـــي الحالتين، وإذا كان الشمال قد أسرف في استخدامه لتعبير حالة الركود الاقتصـــادي لوصف أوضاعه، فقد كانت تلك الحالة نسبية جدا -ومحدودة في إطار أوروبا غـــير البترولية- بمقارنتها بأوضاع بلاد أمريكا اللاتينية وأفريقيا وجزء من آسيا. شـــرق آسيا وحده هو الذي خرج بسرعة متعافيا من أزمة طالته يدها قبيل ذلـــك، مقارنـــة ببقية العالم النامي، فمن 1981 حتى 1990 سجلت البـــلاد الأعضـــاء فـــي منظمـــة التجارة والتنمية الإقتصادية OCDE نموا، متوسطه السنوي 3.2% مقـــابل 2% فـــي

أمريكا اللاتينية والكاريبي و1.9% لأفريقيا جنوب الصحراء و0.4% لشمال أفريقيا والشرق الأوسط[20] ؛ وكانت الدول الغنية في المنطقة هي التي تأثرت مباشرة بالسالب من آثار الصدمة البترولية المضادة ؛ أما آسيا فقد جرتها تنيناتها، وعلى رأسهم تنين الصين، وسجلت من جانبها نسباً للتنمية أعلى بكثير من 5% في العام؛ علماً بأن هذه المتوسطات تحجب واقعة أن العديد من بلاد الجنوب قد عرفت في تلك السنوات نموا بالسالب أو بأقل من 1% في العام، وهذا هو الحال -طبقا لتقارير البنك الدولي- لـ 22 دولة منها، أي أكثر من ربع الـ 82 دولة التي يتشكل منها الجنوب والتي لها في سجلاته معطيات عنها[21]، ومنها بلاد أمريكا الجنوبية الكبرى مثل المكسيك والأرجنتين. في المقابل، فنيما عدا البرتغال التي كانت ماتزال تُعَدُّ في ذلك الوقت -من الاقتصاديات النامية، لم يكن هناك بلد واحد من الشمال يعاني مثل هذه الأوضاع: فكانت بلجيكا هي التي سجل اقتصادها أضعف نمو سنوي وكان مقداره 1.4% عن المدة من 1980-1988، على حين تخطت الولايات المتحدة وكندا وأوروبا ذلك بمسافة كبيرة مسجلةً نموا مقداره 3.3% في العام؛ كما استغلت اليابان الدينامية الآسيوية لتدعم نموها.

إذا وضعنا في الاعتبار السلوك الديموجرافي للمنطقتين فإن الهوة ستزداد عمقا. فعلى حين يسجل الشمال ركودا نسبيا في عدد سكانه -باستثناء بلاد الهجرة التي مازالت على هذا الحال وهي الولايات المتحدة وكندا واستراليا، كان عدد سكان الجنوب ينمو باضطراد بنسبة متوسطها 2% في العام، ولو أن هذه النسبة قد ضعفت مقارنة بالعقد السابق. كان النمو الضعيف للناتج الداخلي الإجمالي في

---

20. BANQUE MONDIALE, *Global Economic Prospects...*, *op. cit.*

طبقا لصندوق النقد الدولي (*تقرير سنوي 1982* صندوق النقد الدولي، واشنطن) بلغ النمو الإجمالي للناتج الداخلي الإجمالي للبلاد الصناعية 1.1% في عام 1981، أي في أسوأ أعوام الأزمة.

21. متوسط نمو سنوي للمدة من 1980 إلى 1988:

(BANQUE MONDIALE, *La Pauvreté, rapport sur le développement dans le monde 1990*, Washington, 1990).

العديد من بلاد الجنوب يقابله إذن إنخفاض إذا ما حسب على الفرد الواحد[22]؛ وقد جاء في تقرير لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية UNDP/PNUD[23] أن 59 دولة من دول الجنوب الـ 107 -التي توجد لديه إحصائيات عنها- هبط ناتجها الوطني الإجمالي للفرد خلال الثمانينيات، أي بلد واحد من كل بلدين تقريبا، وفي المقابل شاهدت كافة البلاد الغربية من عام 1970 حتى عام 1990، -حتى أكثرها تأثرا بالأزمة- ناتجها يزداد بنسبة لا يمكن إغفالها.

ما يكشف بصورة أوضح تعاظم اتساع الهوة بين الشمال ومعظم بلاد الجنوب خلال «عقود التنمية الثلاثة» هو تطور الناتج الداخلي الإجمالي الحقيقي للفرد في هذه الأخيرة مقارنة بناتج الفرد في الشمال: ففي 62 بلدا من التسعين التي لدى برنامج الأمم المتحدة للتنمية معطيات عنها[24] اتسعت الهوة بينها وبين الشمال من 1960 حتى 1990، وعدد كبير من بلاد أمريكا اللاتينية التي كاد مستواها يصل إلى مستوى أوروبا عام 1960 لم يكف هذا المستوى عن التراجع خلال السنوات الثلاثين التالية، وعلى الرغم من التقدم الحقيقي أو المفترض للصين والهند فإن اتساع الهوة التي تفصلهما عن العالم المسمى متقدما استمر، أما فيما يتعلق بالبلاد

22. الناتج الإجمالي الداخلي محسوب على كل فرد لا يساوي متوسط الدخل، إلا أنه يعطي فكرة عن الدخل النقدي عن الفرد الواحد من السكان ويسمح بعمل مقارنات بين الدول، أما الناتج الداخلي الإجمالي الحقيقي عن الفرد من السكان فهو يسمح بعمل تحليلات أكثر دقة بما أنه يدخل في حساباته معطاة نسب التكافؤ للقدرة الشرائية بين العملات، إلا أن إستخدامها لم يعمم سوى في التسعينيات.

23. PNUD, *Rapport mondial sur le développement humain 1993, op. cit.*

زيادة الناتج الوطني الإجمالي/ مواطن للبلاد الصناعية الواردة في هذا التقرير حسب بالدولار الجاري وهو ما يجعل هذا التقدم نسبيا إذا وضعنا في الإعتبار التضخم الذي كان متفشيا حتى بداية الثمانينيات، ومع ذلك فهذه الزيادة تظل هامة في جميع الأنحاء. وقد اكد على إستمراريتها العديد من الحسابات الأخرى: فمن 1985 حتى 1995 إرتفع الناتج الداخلي الإجمالي للفرد محسوبا بالفرنك الفرنسي الجاري 1995 ومكافأة للقدرة الشرائية من 000 90 إلى 7000 10 فرنك بالنسبة لمجمل أوروبا الغربية/ الولايات المتحدة/ اليابان.

(*Alternatives économiques*, hors série n° 30, 4e trimestre 1996).

24. برنامج الأمم المتحدة للتنمية، نفس المصدر: أخذ المؤشر 100 للشمال فانخفض بالنسبة للصين من 15 إلى 14 بين 1960 و1990 وبالنسبة للهند من 11 إلى 7.

المعجزات الآسيوية فهي وإن كانت اختصرت المسافة التي تفصلها عن الشمال، فإن الطريق في 1990 كان لا يزال طويلا أمامها للحاق بالنماذج التي تريد محاكاتها، فيما عدا هونج كونج وسنغفورة غير المصنفتين ؛ في ذلك التاريخ كانت كوريا الجنوبية -أكثر التنينات تقدما- تسجل ناتجا داخليا إجماليا للفرد يصل لنصف متوسط بلاد الشمال.

يتعين إذن أن نقيّم مستويات للأزمة التي لحقت بمختلف مناطق العالم بطريقة متباينة، خاصة وأنها لم تعامل جميعها بنفس الطريقة، فما أن استعادت دول الشمال المبادرة إلا وأخضعت مدينيها في الجنوب لمعاملة أبعد من أن تطبقها على نفسها. وأنا بالمناسبة لا أقلل من عمق التحولات التي طرأت على الاقتصاديات الغربية وعلى قسوة الصدمات الإجتماعية التي بدأتها الثورة الليبرالية في الولايات المتحدة وبريطانيا وطُبقت وبدرجة متباينة الحماس على مجمل بلدان أوروبا، وتأثرت بها الفئات الاجتماعية الأكثر هشاشة من سكانها، ويعتبر تدني مستوى تلك الفئات المادي مخزيا خاصة وأنه حدث في إطار نمو دائم -حتى لو كان نموا معتدلا- لثروة بلادها؛ ثم إني لا أتجاهل تضخم أعداد الفقراء في البلاد الأكثر ثراء في العالم، وهم فقراء معدمون تماما لُفِظوا خارج دائرة العمل، وهو ما يعني في العالم المتقدم، خارج الوجود الإجتماعي ذاته. المرور من إدارة كينزية من الناحية الاقتصادية وإشتراكية/ إجتماعية من الناحية السياسية في الدول الغربية إلى عملية التحرر من القيود والتي طبقت على وتيرات متباينة، ولكنها شملت الأنحاء جميعا، نتج عنه إعادة ظهور درجات من الفقر الشديد كانت قد أرسلت إلى المتاحف خلال الثلاثين سنة المجيدة.

إذا كانت هيئات التوسط الاجتماعي -وأهمها النقابات- قد فقدت كثيرا من قوتها في تلك العملية وركزت في كثير من الأحيان في معاركها على الدفاع عن مكتسبات الارستقراطيات الأجيرة القديمة، إلا أن التخفيف من وقع هذه الصدمات

حدث عن طريق حلها بالمفاوضات وبوضع شبكات إنقاذ إجتماعية -في أوروبا على الأقل- (كانت غير كافية بالقطع لإنقاذ من كان يهوى إليها)، إلا أنها ساهمت فى الحد من الخسائر، وإذا كانت الممارسة الديموقراطية لم تستطع إيجاد بديل للإختيار الليبرالى، فإنها قد خففت على العموم من بعض آثاره ومن درجة تعديل القواعد الإجتماعية القائمة. يظل الفقر المدقع فى البلاد الثرية ظاهرة أقلية أو هامشية طبقا لكل بلد. ففى عام 1995، أى بعد خمسة عشر عاما من التغيير، كان 16.5% من سكان الولايات المتحدة، وهى البلد المتطور الأكثر تباينا فى عدم المساواة بين طبقاته الاجتماعية، يعيش فى حالة فقر، أى بدخل أدنى من نصف المتوسط الوطنى العام؛ أما بطلا التعديلات الآخران فهما إيرلندا ولديها 15.5% من الفقراء وبريطانيا 19% ؛ أما السويد فموقف الفقراء فيها هو الأقل حدة إذ أنهم لا يتعدون نسبة 7.1%.[25]

كانت الصدمة التى تلقتها الطبقات الشعبية التى تقطن مدن أغلبية بلاد الجنوب وكذلك الفئات الدنيا من الطبقات المتوسطة، على درجة من العنف يصعب مقارنتها بدرجة التقشف التى فُرضت على نظرائها فى الشمال، كما أن ما يسمون فيها- المشردين يمثلون قطاعا كبيرا جدا من السكان[26]؛ حدثت عمليات طرد مكثفة من

25. PNUD, *Rapport mondial sur le développement humain 1998*, Economica, Paris, 1998.

26. يظل عمل المقارنات بين الشمال والجنوب صعبا ؛ ففى البلاد النامية كان مستوى الفقر النقدى محددا فى عام 1997 من صندوق الأمم المتحدة للتنمية بدولار واحد أو دولارين فى اليوم طبقا للبلاد، فى مقابل 14.4 دولار فى اليوم فى البلاد الصناعية ؛ وحتى بعد الأخذ فى الإعتبار لهذا التباين الشاسع فإن نسبة الفقراء أكبر بكثير فى بلاد الجنوب ؛ وفى عام 1994 كان عدد الأشخاص الذين يعيشون على أقل من 14.4% دولارا فى اليوم فى الولايات المتحدة يصل إلى 14% من السكان وإلى 13% فى بريطانيا و4% عام 1992 فى اليابان ؛ على حين قدر برنامج الأمم المتحدة للتنمية فى عام 1993 بـ 24% نسبة سكان أمريكا اللاتينية والكاريبى الذين يعيشون بأقل من دولارين فى اليوم وبـ 43% فى جنوب آسيا و39% فى أفريقيا يعيشون بأقل من دولار واحد فى اليوم، (صندوق الأمم المتحدة للتنمية، التقرير العالمى عن التنمية البشرية 1997، إيكونوميكا، باريس، 1997).

الوظائف الحكومية -منهم مئات الآلاف تم الاستغناء عنهم دون أن يحصلوا على مليم واحد وإن حصلوا على تعويض فهو يدعو إلى السخرية، جرت تصفية عدد من الشركات المملوكة للدولة وتم طرد العاملين بها ليقفوا فى طوابير سوق العمل الذى كان قد بلغ بالفعل حالة التشبع، تخفيض المرتبات الحقيقية عن طريق التضخم فى كافة بلاد أمريكا اللاتينية تقريبا أو عن طريق تخفيض قيمة المرتبات الاسمية بمقدار قد يصل إلى 30% كما حدث فى الكاميرون، إلغاء الدعم عن استهلاك المواد الأساسية الذى كان يسمح للطبقات الأكثر فقرا فى العديد من الدول أن تحصل على غذائها بأسعار محتملة، تخفيض ميزانيات التعليم والصحة التى رفعت أسعارها مما نتج عنه تدهور نسب عدد التلاميذ فى العديد من البلاد الأفريقية وتقهقر التأمين الصحى لسكانها: هذا هو ما مثله التطبيق المادى واليومى لبرامج إعادة التنظيم الاقتصادى على ملايين الأفراد.

لا توجد حكومة واحدة فى أى بلد غربى تجرؤ على فرض مثل هذا العلاج على مواطنيها إلا إذا كانت لديها ميول انتحارية، ولقد وقّع على العديد من هذه الحكومات عقاب ناخبيهم الباتر لإتخاذها إجراءات أخف من تلك بكثير، علما بأن حالات العجز فى الميزانية وفى الميزان التجارى أو فى ميزانيات الشركات العامة التى هى بطبيعتها سفيهة فى إسرافها والتى يستجيب وجودها ذاته إلى منطق سياسى أكثر تقديرًا للاستخدام الأمثل لأموال الدولة، ليست فقط من اختصاص الجنوب وحده، إذ أن الأمثلة تتعدد: من العجز الرهيب فى الميزانية الأمريكية فى الثمانينيات إلى عدم الجدوى الهزلية لقطاع من الوظائف الحكومية الإيطالية، عن إدارة « غير صحية» لاقتصاديات الشمال -ونحن نستخدم هنا عن قصد اللغة الطبية التى يستسيغها صندوق النقد الدولى، وإذا كانت العقيدة الدوجماتية لأولوية النقد ولتوسع السوق على حساب آليات التحكم الحكومية قد فرضت إجراءات من ذات النوع على كافة أنحاء العالم، فإن الشمال والجنوب قد عانيا جدا منها على حد

سواء، ولكن على وتيرات مختلفة عند التطبيق، كما أن شعوبها لم تتأثر بنفس القدر من آثارها الوحشية.

كان من نتيجة التأقلم مع المعطيات الليبرالية الجديدة فى الشمال أن اتسعت الفروق بين الطبقات الإجتماعية والتى كانت تحجمها "دولة-العناية " داخل حدود معينة – أكثر من إرتفاع درجة فقر المجتمعات المذكورة ذاتها. ويعد تواكب فقر البعض مع إثراء الآخرين وزيادة الثراء الإجمالى مصدر الاحساس بأن الأمر يعد بالفعل فضيحة بمعنى الكلمة. فى الجنوب أيضا زادت سياسات إعادة التوفيق الهيكلى من خطورة الفروق بين طبقات المجتمع بنِسَبٍ زاد من وطأتها غياب "دولة-العناية " عنها أصلا -وهى إن ظهرت- فقد كان ذلك على هيئة إعادة توزيع للثروة بهدف الإكثار من زبانيتها، غير أن التغير الذى طرأ على أصول اللعبة الإقتصادية، على يد أصحاب القرار فى الشمال، سمح لهم أيضا بأن يُحَمّلوا جزءاً من أعباء فاتورتهم الليبرالية على حساب بقية سكان العالم، ساعد ذلك على التخفيض من آثار التحرر الإقتصادى فى البلاد المتقدمة، وعمل على تعميق عدم المساواة بين مختلف مناطق العالم، وعلى توسيع الكسر المضاعف الذى يفصل بين الشمال والجنوب. هكذا كابدت شعوب الدول المدينة فى الجنوب من آثار تقلبات الأحوال الدولية فى الثمانينيات، وتقهقر وضع بلادها الإقتصادى، فى الوقت الذى فرضت على طبقاتها المسيطرة تَحَمّل الجزء الأساسى من الإجراءات التى فرضها صندوق النقد الدولى على الدول التى كانت تشرف على الإفلاس.

برامج توفيق الأوضاع التى أعدت تحت إشراف الصندوق استهدفت أوّلا تحسين أوضاع الاقتصاديات المعنية لتصبح قادرة من جديد على تسديد ديونها. إلا أن تغير الظروف الدولية حوّل فى كثير من الأحيان إعادة الترتيب تلك إلى كابوس: فقد رأت الدول المديونة، وهى من كبار مصدرى المنتجات الأولية، أن قدرتها على التسديد تتضاءل بصورة خطيرة بسبب الهبوط الشديد والمفاجئ والذى

طال أمده فى مجمل أسعار هذه المواد. وتزامنت مع هذا الانخفاض فى الأسعار الإجراءات التى اتخذتها الولايات المتحدة ومن بعدها بلاد الوحدة الأوروبية للحد من التضخم. ترتب على ذلك تعاظم هائل فى حجم المديونية: إذ أن التحكم المتزايد فى الكتلة النقدية -على يد أصحاب الاقتصاديات المتقدمة- أدى إلى إرتفاع هائل فى نسبة الفوائد ابتداءً من الثمانينيات وإلى التضييق من فُرّص الإقراض والتقليل الشديد من إمكانية الإقتراض لإعادة تمويل المديونية.

ومع ذلك فإن المنظمات المالية الدولية إهتمت فقط بالتخلص مما اعتبرته أسبابا داخلية أدت إلى عدم مقدرة الدول المدينة على السداد، مع أنها أقرت فى الوقت نفسه بالدور الحاسم التى أدته المتغيرات الخارجية. الدعامتان اللتان قامت عليهما المرحلة الأولى من عملية توفيق الأوضاع كانتا: التخفيض من الطلب المحلى وإنفاق الدولة -أى تخفيض العجز فى الميزانية والتقليل من الاستيراد- وإعطاء الأولوية لزيادة الصادرات للحصول على العملات الصعبة الضرورية لتسديد الديون، وعلى الرغم من العمليات المتعددة لإعادة جدولة الديون والإجراءات المتعددة أيضا وغير المجدية لتخفيضها[27]، فإن الدول «التى أعيد تنظيمها» قد سددت المستحق عليها فى مواعيدها بدقة أكثر مما يعتقد البعض. الحقيقة هى أن الشروط التى تقيد بها منحها قروضًا جديدة -حكومية هذه المرة- لم

27. حاولت خطط بيكر (1985) وبرادى (1989) وهما وزيرا خارجية أمريكا اللذان وضعاها-بأن قامت تخفيض القيمة الإسمية لديون الدول الأكثر تطورا فى الجنوب مع ضمالها لكى تسدد المبالغ المتبقية عليها- لكى تعيدها إلى طريق النمو ذلك لأن فترة الإنكماش المطولة كانت لها ردود فعل على الإقتصاد الأمريكى ؛ وبعد ذلك ومنذ 1988 تعددت إجراءات الإسقاط الجزئى للديون الأكثر فقرًا، منذ مبادرة تورنتو حتى آخر المبادرات التى إستهدفت«الدول الفقيرة الأكثر مديونية» من أجل كسر فكرة تحريم التفاوض حول المبالغ المستحقة لدى المنظمات المالية الدولية بطريقة تدريجية وذلك منذ عام 1996. إلا أن هذه الإلغاءات المصحوبة بإجراءات شديدة الصرامة لم تخفف حتى الآن من أعباء ديون الدول المعنية سوى بنسب هامشية ؛ فقد بلغ عام 1996 إجمالى ديون البلاد الأكثر فقرا -فيما عدا الهند والصين- 318.3 مليار دولار مقابل 81.2 مليار فى عام 1980 ؛ وبلغت ديون أفريقيا جنوب الصحراء 227.2 مليار دولار مقابل 84.1 مليار عام 1980 (البنك الدولى، مؤشرات التنمية فى العالم 1998، واشنطن، 1998). علاوة على أن هذه الإلغاءات قد تم حسابها فى بند مساعدات التنمية، مؤديا بذلك "إلى تخفيض السيولة الحقيقية من برنامج مساعدة الدول النامية APD.

تترك لها خيارا، جاعلة منها طوال الثمانينيات بلادا مصدرة خالصة لرؤوس الأموال: فمن 1982 حتى 1989 دفعت البلاد المدينة -أي كامل بلاد الجنوب تقريبا- مبلغ 1180 مليار دولار إلى دائنيها تسديدا للفوائد وأصولها، وحصلت في ذات الوقت تحت بند مشاركات عامة وخاصة من بلاد الشمال مبلغ 774 مليار دولار أي أن ما تم تحويله خالصًا نحو بلاد الشمال بلغ 405 مليار دولار[28]. يقدر البنك الدولي التحويلات الصافية التي تمت فيما بين 1982 و1990 والمرتبطة بموضوع الدين بـ 1345 مليار دولار وأن أمريكا اللاتينية وحدها قد سددت لدائنيها من 1984 حتى 1989، 153 مليار دولار أكثر مما حصلت عليه من مبالغ[29]. ولما كانت الديون المستحقة للصندوق والبنك الدوليين غير قابلة لإعادة الجدولة، فقد أصبحا طوال النصف الثاني من الثمانينيات ما يطلق عليه - بالتعبير البنكي الشائع- مقرضين سلبيين تماما؛ فهما قد حصلا تحت بند إسترداد المبالغ التي أقرضاها على مبالغ أكبر من القروض الجديدة التي وافقا على تقديمها.

من الجائز أن لا يكون الجنوب قد دفع كامل ديونه، إلا أنه سدد ولا يزال يسدد دينا لا نهاية له. ليس ذلك فقط، وإنما هو دين لا يتوقف عن الزيادة بقدرة سحر اسمه نسب الفوائد والتكلفة العالية لإعادة الجدولة. ففي عام 1979، عشية انفجار الأزمة، بلغ إجمالي مديونيته 457 مليار دولار. وفي عام 1991 تضاعف هذا الرقم أكثر من ثلاث مرات ليصل إلى 1478 مليارا. وفي عام 2000 تخطت مديونية[30] الجنوب 2000 مليار دولار ولا يزال المدينون -بما فيهم الأكثر فقرا-

---

28. لم تدخل في الحساب حصص الأرباح على رؤوس الأموال المستثمرة في الجنوب (منظمة التجارة والتنمية الاقتصادية، *التمويل والدين الخارجي للدول النامية* 1991، OCDE، باريس، 1991).

29. البنك الدولي، *جداول الدين العالمي، المرجع المذكور*. قد تختلف الإحصاءات الخاصة بالدين حسب المصدر؛ منظمة التجارة والتنمية الاقتصادية، الصندوق الدولي، بنك التسويات العالمية BRI، طبقا للديون المختلفة المأخوذة في الاعتبار والطرق المحاسبية المستخدمة، إلا أن المبالغ المعلنة تبقى في جميع الأحوال متقاربة. في عام 1999، بدأت هذه المنظمات عملية توفيق بين طرقها المحاسبية.

30. على عكس ما تقوله المؤسسات المالية فإن لا أدخل الإتحاد السوفيتي السابق ولا أوروبا الشرقية ضمن بلاد الجنوب وذلك يسمح بالمقارنة بين كيانات قابلة للمقارنة فيما بين السبعينيات واليوم.

يسددون ما عليهم. لا يخلو إذن من السخرية ذلك التأكيد الذى يجمع الغرب على ترديده على أن دول الجنوب لا تسدد ديونها أبدًا، وأن المبالغ المستحقة رسميا تساوى مبالغ ضائعة بالفعل بالنسبة للدائنين وأن عمليات إلغاء الديون تعتبر إدخال لديون مستحقة -ولن تسدد فى كافة الأحوال- تحت بند الربح والخسارة. ومع ذلك فإن هذا هو ما يدعيه معظم المعلقين، فهم يقدمون لنا هذه العمليات باعتبارها عملاً إنسانيًا يستهدف إخراج الشعوب الأكثر فقرا من الطرق المسدودة التى أدخلوا أنفسهم فيها. من النادر للغاية أن يبرزوا المدى المحدود جدا لمبادرات تخفيض الديون تلك ولا الشروط التعجيزية المصاحبة لها، على حين تصاحب الإعلان عنها ضجة إعلامية عظيمة. بهذه الطريقة يبقى الرأى العام تحت تأثير فكرة أن مهمة الغرب الحضارية مازالت مستمرة فى أشكال جديدة: وذلك بمقولة أن بعد انقضاء المرحلة الاستعمارية -وهى مرحلة كانت صعبة دون شك ولكنها مفيدة فى آخر الأمر- ثم بعد المساعدة على اللحاق بالنموذج الغربى، ها هو قد حان زمن المغفرة عن الآثار المدمرة لسفه الفقراء وحان وقت إعادتهم الى الطريق القويم بالتنازل عن جزء من ديونهم؛ عن جزء فقط من ديونهم.

تكنولوجيات الإكراه

الدول والمنظمات المانحة للقروض استبعدت -برفضها تحمل جانبها من المسئولية عن الأخطاء المالية التى وقعت فى السبعينيات- أىّ أمكانية لإدارة مشتركة لملف الدين واحتفظت لنفسها فقط بحق معالجته. ثم ضمنت إطالة أمد هذه المعالجة بأن جعلت من إجراءات إلغاء الديون عملية خداعية تستهدف تنمية الإحساس براحة الضمير لدى الرأى العام فى بلادها وإزكاء آمال الدول المدينة. الواقع أنه اتضح أن استدانة الجنوب تعد أداة مفيدة جدا لفرض سلسلة من الشروط على المستدينين -بفضل حالة التبعية التى وُضعوا فيها- تستهدف توصيلهم للهدف

الثانى لبرامج توفيق أوضاعهم، ألا وهو تفكيك نظمها وقوانينها فى إطـــار العــودة العالمية إلى الليبرالية وإدخال كافة اقتصاديات العالم فى منافسة مفتوحة.

نقطة توضيحية تفرض نفسها هنا: زياراتى المتكررة لبلاد الجنـــوب تجعلنـــى أتحفظ بعض الشيء على الأحكام غير القابلة للنقض التى نستمع إليها فـــى الغـــرب ضد عمليات توفيق الأوضاع المالية والصادرة من دوائر تحركها أحسن النوايا؛ كـل شيء يتوقف على المضمون الذى يعطي لــهذا التعبـير، إذ أن تحسـين أوضـــاع الاقتصاديات المدينة -الذى يظل نسبيا على كل حال- والتقليل من الاختصاصـــات الهائلة التى منحتها الدولة لنفسها فى معظم هذه البلاد، ســـمحت بتخفيـف بعـض مصادر الدخول، كما أنها وضعت أحيانا حدا لجعل الدولة قطاعا خاصا لمجموعـات أو لأسر حاكمة أو لطبقات انتفاعية تكاد لا تكون أكبر حجما من هذه الأسر. كمـا لا يوجد ما يدعو للندم على وضع حد لسياسات الاستثمارات المغـــالى فيـــها، والتـــى كانت تستهدف من الناحية النظرية التعجيل بالتنمية ولكن كانت آثارها على مسـتوى المعيشة العام للشعوب ضعيفة فى كافة البلاد تقريبا بل إنها كانت معدومــــة الأثـــر تماما، وتعد أمريكا اللاتينية أفضل مثال على ذلك. كما أن تعديل شـــــروط التبـــادل الداخلى بين المدن والريف بصورة أقل ضررا بالنسبة للريف فى أفريقيـــا جنـــوب الصحراء على وجه الخصوص، ووضع حدٍ للتضخـــم المرضـــى للبيروقراطيـــات الطفيلية فى بعض البلاد -ومنها هذا المثال الكاريكاتورى المتمثل فـــــى الكونجـــو- برازافيل ولديه 000 80 موظف وأقل من 2 مليون مواطن فى عام 1980 - لا يمكن اعتبارها ضربات ميتة موجهة لدول اعتبرت أحيانا وفى تســـرع مـــن الضحايـــا. التاريخ يقدم لنا العديد من الأمثلة على مقدرة الدولة على خنق المجتمع بمثـــل مـــا يمكن للسوق أن يفعل ذلك. إن مبدأ إعادة ضبط وظائف الدولة وما تجبيه من أمـــوال وهو ما كان بإمكانه مساعدة العديد من اقتصاديـــات الجنـــوب علـــى وضـــع حـــد

لانحرافها فأصبحت مصدرا للدخل، لتصبح منتجةً بالفعل دون أن تتــأثر الشــعوب سلبا بذلك، لا يستحق هذا المبدأ بالضرورة أن يُنتَقَد.

ولكن يبدو أن بعض الآثار الجانبية الإيجابية التى نتجت عن سياسات إعـــادة الانضباط ترجع للصدفة أكثر من كونها نتيجة لرغبة حدت بمن قاموا بها، فقد كــان هدفها الأول، ولعله الوحيد، تســديد الديــون ورفــع العقبــات التــى تعيــق فتــح الاقتصاديات الوطنية بالكامل، فقد شــكل فتــح الأســواق بواســطة الخصخصــة وانسحاب السلطة إلى وظائفها المسماة سيادية - وذلك عن طريق رفــع الحواجــز الجمركية والموانع التى كانت تحول من قبل دون حرية تنقــل الممتلكــات ورؤوس الأموال، شكل شرطا محوريا يتعين أن تحترمه كل دولة ترغب فى الاستفادة مــن مَنّ السخاء الجديد العالى التكاليف.

التطور الذى طرأ على طبيعة الاشتراطات التى أقرّها باســتمرار الغربيــون بسياساتهم الخاصة بإعانة دول الجنوب، تشهد علــى أن تعديــلاً قــد طــرأ علــى اهتماماتهم. إالشروط الوحيدة المطلوبة، للاستفادة من المعونة، ظلت شروطاً سياســية حتى الثمانينات: فقد كان يتعين اختيار بين أحد طرفى الحرب الباردة التــى كــانت مستعرة فى ذلك الوقت، والتى كانت ساحاتها تتناثر فوق قارات الجنــوب جميعــا؛ وكانت الدولة -يعنى المجموعة الحاكمة- الطرف المحاور الوحيد المعتمد لـــدى جهات الإقراض، لأنه كان الوحيد الذى يمكنه أن يُحَوّل البلد الذى يتولى مســئوليته إلى هذا الجانب أو ذاك من الخط الإستراتيجى الفاصل بين قسمى العالم. ولم يكــن هناك أى حديث عن« المجتمع المدنى». وكانت أغلبية الحركات التى تــؤدى هــذا الدور تعد مصابة حتى النخاع بغرغرينة الماركسية وتعامل علــى أنــها الطــابور الخامس للخطر الأحمر. وكانت المعونة الأمريكية فــى أمريكــا اللاتينيــة وآســيا بالتحديد تستخدم فى الأساس لإخراس هذا الطابور. بــالتوازى مــع ذلــك كــانت الاشتراطات الاقتصادية والمالية تكاد تكون منعدمة، فساد التسيب الكامل كافة هــذه

المجالات. نهاية الصراع بين الشرق والغرب بَدّل من معطيات المسألة وأعلن عن بدء عصر جديد في العلاقات الدولية ؛ ولكن -فيما هو أبعد من ذلك- كان انتقال الإشتراطات المفروضة على دول الجنوب إلى المجال الإقتصادي مؤشرا إضافيا لواقعة أنها تغطي ما هو سياسي ليصبح هو الأفق الإستراتيجي الجديد للغرب. كان إذن من المنطق أن يُعاد بناء القاعدة التي سيقيم الغرب عليها هيمنته داخل هذا المجال، وهي القاعدة التي أضحت أقدم أسُسِها منتهيةَ الصلاحية بعد إعادة التركيبات الجيوبوليتيكية والتساؤلات التي كان يطرحها مثقفو ما بعد الحرب على أنفسهم.

مع مرور الزمن، تراكمت المشارطات فتحولت إلى نوع من صناديق أدوات العامل، وظيفتها هو نشر المواصفات التي يتم تحديدها في الشمال على بقية أنحاء العالم. الشروط التي تخص الاقتصاد بشكل مباشر لا تدع أمام حكومات الجنوب سوى هوامش لا تذكر للمناورة، فتحولهم بذلك إلى مجرد منفذين لسياسات توفيق وضبط الأوضاع على الرغم من كونهم قد وضعوا قبل عشرين عاما مخططات تساعدهم على الالتفاف حول إلتزاماتهم. ولكن المشارطات السياسية[31] عادت إلى الظهور منذ التسعينات في صور أخرى؛ فلما كان تحرير الاقتصاد وعمل آليات السوق بدون معوقات يحتاج إلى إطار مؤسساتي مواتٍ، فإن«الإدارة الجديدة» تشكل محور خطة عمل إرغامية أصبحت متعددة الأهداف: الإدارة العاقلة للحياة

---

31. بل كافة المشارطات في الواقع. مادامت قد عدلت بشكل عميق الهياكل الخاصة بالدولة وطرق الحكم وتشكيل الأجهزة الحاكمة وعلاقات القوى المحلية، كما أنها حددت من مساحات سلطان الأول التي فرضت عليها. لم تتوقف منظمات بريتون وودز من جهة أخرى ومعها أصحاب القروض الثنائية من ممارسة السياسة وذلك بأن أدارت مباشرة الإصلاحات التي تقترحها. ولكن تظل الأغنية القديمة تردد أصداؤها: بما أن الإقتصاد علم وضعي يتهيكل حول قوانين غير قابلة للجدل فهو يتموقع خارج المجال السياسي. هكذا تمكن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي من تقديم برامجهما لإعادة التنظيم في هيئة مجموعة من إجراءات تكنيكية بحتة ومازالا يدافعان عن وهم إسمه حيادهما السياسي.

العامة ومكافحة تجاوزات الفساد، وإقامة إطار تشريعي وقانوني وضرائبي يشجع على النمو الإقتصادي وعلى ازدهار الشركات والترحيب بالمستثمرين الأجانب وإحترام دولة القانون حتى وإن كان في أضعف صوره، تشكل جميعا أهم مكونات الحكومة المثلى التي وضعت خطوطها العامة قبل عشر سنوات[32].

يجب ألا تختلط علينا الأمور في هذه النقطة أيضا، فالأمر ليس عملية إستهزاء بإجراءات يمكنها أن تقلل من التبذير ومن الاستبداد الذي تعاني منه أكثر الجماهير بعدًا عن نطاق السلطة في بلاد الجنوب. ولكن عند هذه النقطة أيضا كان الحث على الإدارة السليمة لأمور الحكم قد احدث بعض الآثار الإيجابية، إلا أن جوهر الأمر يستهدف في الواقع جعل الدولة أداة فاعلة لتنمية وحماية الاقتصاد الليبرالي، وبالتالي أن يكتفي، فيما يتعلق بأفريقيا -طبقا لما يراه البنك الدولي- بأن «يقيم البنية التحتية والخدمات الاجتماعية الأساسية، وأن يدير الجهاز القضائي التشريعي الضروري لاقتصاد السوق وأن يحافظ على البيئة؛ وحتى في هذه المجالات يتعين على السلطات العامة أن تلجأ بقدر المستطاع إلى القطاع الخاص، عن طريق المناقصات على سبيل المثال[33]». كما أن مكافحة الفساد، التي كانت المنظمات الدولية الكبيرة من أشد المناصرين لها، تدخل في إطار المنطق ذاته. وبالنسبة لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية التي توصلت في عام 1997 إلى إقرار « اتفاقية حول مكافحة فساد الموظفين العموميين الأجانب في الصفقات التجارية الدولية»، تتعلق المسألة « بوضع الشركات التي ترغب في الحصول على صفقات من الخارج على قدم المساواة وذلك عن طريق منع دفع الرشاوى للموظفين العموميين الأجانب. ولأن الاتفاقية ستساهم في توظيف أفضل للموارد

---

32. Voir à ce sujet BANQUE MONDIALE, *Governance and Development*, Washington, 1992.

33. BANQUE MONDIALE, *L'Ajustement en Afrique*, *op. cit.* cf. aussi Bonnie CAMPBELL, «débats actuels sur la reconceptualisation de l'État par les organismes de financement multilatéraux et l'USAID», *in* GEMDEV, *Les Avatars de l'État en Afrique*, Karthala, Paris, 1997

الإقتصادية فهى تعتبر مفيدة أيضا لمواطنى البلاد التى تعقد هــذه الصفقــات[34]». لا تعتبر إعادة تشكيل المؤسسات عملا مهما ســوى بمقــدار كونــها شــرطًا لنجــاح الإصلاحات الإقتصادية المرتبطة بتحرير العالم.

بعد أن أصبحت أغلبية بلاد الجنوب أسيرة تكنولوجيات الإرغام الحديثة التــى خرجت إلى الوجود بسبب حالة التبعية التى فرضت عليها، لم يكن أمامــها خيــار آخر سوى احتلال الموقع الذى حُدِّد لها داخــل التقســيم الدولــى الجديــد للعمــل وللثروات. قليل جدًا من بين هذه البلاد الذى استطاع أن يجد لنفسه هامشا للمنــاورة يكفى للمفاوضة على المراكز التى تحتلها، ومع ذلك، فبسبب عدم امتلاكها لوســائل التعامل مع مخاطر العولمة المالية، اضطرت هى أيضا للانصياع -جزئيــا علــى الأقل- لقواعد اعتقدت أن بإمكانها تحويلها فى يوم ما لصالحــها، إلا أنــها قواعــد تستجيب أولا لمصالح من أصدروها. ينطبق ذلك على الأمــم الآســيوية الصــاعدة والتى كان من المفروض أن تضعها ديناميتها فى منأى عن منظمات بريتــون وودز ولكنها اضطرت إلى اللجوء إليها إثر الأزمة المالية التى إجتاحت اقتصادياتها فــى عام 1997.

إن توحيد مظهر الكرة الأرضية، تحت رعاية ثورة الإعلام والعولمة النقديــة يبدو كقانون موحَّد وتزداد وحدانيته بقدر ما يبدو أن أسوء ما يمكن أن يحــدث لأى بلد اليوم هو أن يستبعد من هذه الدينامية الكوكبيــة. وبالنســبة للمهمشــين الذيــن أصبحوا «منعدمى الفائدة» من أصحاب المرتبات من الغربيين وبالنسبة للبلاد التــى لا تمثل سوى أهمية اقتصادية ومالية غير ذات قيمة، وبالنسبة أيضا لشعوبها الأكــثر هشاشة، أصبحت عملية استبعادها -بالإضافة إلى الاستغلال الذى كانت ضحيته فى السابق- إحدى صور عدم المساواة بين الأمم وفيما بين الناس داخل كل بلد أيضــا.

---

34. بيان صحفى من منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية فى 28 يناير 1999. هذه الإتفاقية دخلت حيز التنفيــذ فى فبراير 1999.

ولما كانت أوهام الاكتفاء الذاتى أو عدم الارتباط قد تحولــت -فــى البــلاد التــى تبلورت فيها بالفعل- إلى كوابيس، فإنها يعد الآن أشياء من الماضى. ولما كان مــا يمكن وصفه بالعولمات البديلة -وسأعود للحديث عن ذلك فيما بعــد- لــم يتشــكل الكامل بعد، وحتى لو تعين الإيمان بإمكانية حدوثه، فالذى يطرح هو اختيار -وهــو نظرى بحت فى الواقع- بين حالة من التوحد مخاطرها كبيرة وبين اندراج وســط آخرين، قد يكون أقل خطرا، ولكن تكاليفه باهظة.

— 8 —

إمتيازات السلطة

كان يمكن أن تكون العولمة بالفعل أقل تكلفة لو أن الشركاء فى عملية إقامة السوق العالمى الموحدة وجعلها الأفق الذى يصبو إليه القرن الوليد، الموافقين منهم أو المرغمين عليها، يعاملون بالأسلوب نفسه، إلا أن الواقع هو أن التميز الأزلى للأقوياء يسمح لهم بأن يتمكنوا من التنصل من القواعد التى وضعوها: ففى المحافل الدولية المسئولة عن تنفيذ قواعد الإصلاح يعمل الشمال بكل حزم ونشاط من أجل الوصول إلى تحرير كامل للتجارة الدولية عندما يتوجه بحديثه إلى محاوريه من الجنوب، وإن كان يقبل أحيانا هنا وهناك بعض الإجراءات الوقائية أو بعض التأجيلات فى السداد قبل التنفيذ الدقيق الشامل للإجراءات التى يفرضها، ولكنه على الجانب الآخر يظل يعمل، كلما أمكنه ذلك، على حماية نفسه من المنافسات التى يعتبرها ضارة بمصالحه.

عن حسن استخدام الليبرالية

فى مجال التجارة كلما اجتهدت دول الجنوب فى الالتزام بالتعليمات الخاصة بتحريرها كلما زاد شعورها بأنها تتضرر من عدم التماثل القائم بين الإجراءات التى يفرضها الشمال عليها وتلك التى يفرضها على نفسه، إذ أن العلاقات التجارية الدولية، التى قام منطق الأقوى على هيكلتها -(وهو أفضل منطق يُطبق سواء فى هذا المجال أو فى غيره)- صممت على مستويين رئيسيين، تتداخل

فيهما ثلاث مجموعات من الأطراف، دون أن يمنع ذلك من قيام التحالفات الآنية والهجرات الظرفية من مجموعة لأخرى. أكثر المستويين شهرة وجذبا لوسائل الإعلام، لأنه يخص أهم المؤثرين على التجارة العالمية وهم أيضا وفى آن واحد، أعظم القوى على مستوى الكوكب الأرضى كله، هو المستوى الخاص بالصراع القائم بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

تحاول القوة الأمريكية الأعظم كما هو معروف، بعد أن وجدت أن تنامى صادراتها لا يعد فقط أحد المصادر الأساسية لدخلها وإنما هو أيضا إحدى آليات هيمنتها، الاعتراض على القواعد التى تحد من دخول خدماتها وبضائعها إلى السوق الأوروبى، وتلجأ فى الوقت ذاته -عندما تجد أن مصالحها مهددة- إلى ترسانة من القوانين هى بكل المقاييس مخالفات صارخة لحرية التجارة. إن الخلافات الأوروبية الأمريكية تحتل بصورة منتظمة -منذ بداية مفاوضات دورة أوروجواى فى عام 1986- الصفحات الأولى من الصحف على ضفتى الأطلنطى، وهى تعمل بذلك على التعتيم على المجموعة الثالثة الشريكة فى التجارة الدولية وهى دول الجنوب. تتباين مصالح هذه الأخيرة فيما بينها بالنسبة لطبيعة وسائل إنتاجها ولوضعها داخل التقسيمة الدولية للعمل، إلا أن ذلك لا يمنع بلاد الشمال من أن تتخذ إلاءها مواقف متماثلة، وبهذا المعيار تتساوى السلوكيات الأوروبية كثيرا مع السلوكيات الأمريكية. يشهد على ذلك العجز التجارى الأمريكى مع شركائه الأساسيين من دول الجنوب، فهو يتخطى بكثير (مع عدم احتساب الفاتورة البترولية) عجز الاتحاد الأوروبى الذى يحقق أكبر فائض تجارى فى العالم[1].

1 فى عام 1998 سجل الإتحاد الأوروبى 43.6%. من الواردات العالمية و44.7% من الصادرات. آسيا التى تسجل تجارتها فائضا أيضا، حققت فى نفس العام 1998 20.1% من الواردات العالمية و24.7% من الصادرات. يرجع ضعف الواردات الآسيوية إلى الأزمة التى إجتاحت المنطقة وهى على العموم حالة ظرفية، كما أن أرقام 1996 (25.03% من الواردات العالمية و25.59% من الصادرات، أى بفارق 0.56% لصالحها مقابل 1.1% لصالح أوروبا الغربية) هى التى تعتبر اقرب إلى الواقع. أما أمريكا الشمالية سجلت عجزا إجماليا بأن كانت لها 21.3% من الواردات العالمية وحققت 17% من الصادرات (المصادر: صندوق النقد الدولى، منظمة التجارة العالمية، CEPII، نقلتها عنهم صحيفة لوموند بتاريخ 26 مايو 1998 و23 نوفمبر 1999.

منذ أن تسبب انكماش العالم فى جعل التجارة أهم الأنشطة الإنسانية -فقد تضاعف حجم التبادل السلعى من 1948 حتى 1998، 14 مرة على حين تضاعف الإنتاج العالمى 5.5 مرة[2]- وفى جعل التنمية المؤشر الرسمى على ازدهار كوكبى مفترض، تحاول كافة البلاد تقريبا أن تستغل إمكاناتها التصديرية أفضل استغلال؛ لقد رفع كافة المفكرين الليبراليين نمو الصادرات إلى مستوى الضرورة الإقتصادية وراحوا يعيدون ضبط نظرية ريكاردو لتتواءم مع الحاضر، وهى النظرية الخاصة بالميزات المقارنة، كما وضعتها على نفس المستوى أيضا كافة المنظمات المسئولة عن تطبيق المعيار الليبرالى: من مؤسسات بريتون وودز إلى منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وبالطبع منظمة التجارة العالمية.

إلا أن الفرض الذى إستوجبته السياسة النقدية من احترام للتوازنات الاقتصادية الكبرى (macro-économiques) سواء كان ذلك على هيئة إلزام بالإصلاح أو فى صورة التزام بمعايير ماستريخت الخاصة بالتوافق، قد حول اهتمام الحكام، بأن تحقق تبادلاتهم الدولية فوائض جمة، إلى أفكار ضاغطة. بالتالى إعتبر أى فائض فى الميزان التجارى أمام الرأى العام مؤشراً على الصحة الوطنية الجيدة، كما اعتبرت أى طلبية ذات أهمية للتصدير كما لو أنها بلاغ بالانتصار على باقى أنحاء العالم. فى الخمسينيات والستينيات عملت إعادة تركيز معظم اقتصاديات العالم على المجال الوطنى أو على المنطقة المحيطة بها على إغفال حقيقة أن القوى الرأسمالية كانت فى الأصل تجارية، وها نحن من جديد نقيس قوة الأمة بقدر كبير على إمكاناتها فى أن تبيع منتجاتها فى كافة أنحاء العالم.

أصبح الأمر إذن فى سوق التناحر بغير رحمة هذا الذى هو سوق التجارة العالمية -يتعلق بالتصدير بأى ثمن وبأقل استيراد ممكن، أى اختراق الأسواق الخارجية بأى طريقة- والعمل على إقصاء المنافسين النشيطين منها - وحماية

2 . *Bulletin économique Euler-Sfac,* n° 1037, novembre 1999.

السوق الداخلية بقدر الإمكان. وكما يحدث فى أى سوق تتناحر منها السواعد فإن الأكثر قوة، هم الذين يملكون وسائل فرض إرادتهم. لقد طورت البلاد المتقدمة الكبرى خلال العقود الأخيرة ترسانة من الإجراءات التى تستهدف تسهيل اختراقها الأسواق مع جعل باب الدخول إلى أسواقها هى يكاد يكون مواربا؛ وتبقى الحمائية فى هذا المجال أمضى أسلحتها، فى الوقت الذى تفرض فيه على شركائها من الجنوب فتح حدودهم أمام المنافسة. إذا كانت حرية التجارة تقوم بدور العِجْل المقدس فى خطب المسئولين فى الدول التجارية العظمى فإن سياستها أخذت منذ عدة سنوات صورة الليبرالية النفعية التى تفرض على بقية أنحاء الكرة الأرضية قواعد تَتَشكل أبعادُها حسب الطلب وطبقا لما يرى قادتها أن فيه مصلحتهم الآنية وطبقا لقوة جماعات الضغط المكلَّفة بالدفاع عن هذا أو ذاك من قطاعات النشاط الوطنى.

سبق أن رأينا كيف أن أى إجراء يصبح صالحا طالما انه يقلص الاستيراد داخل حدود مقبولة، وخاصة إن كانت البضائع المستوردة قادمة من بلادٍ ناهضة يحشى من تعاظم ديناميتها. إجراءات مكافحة الإغراق التى بدأها الإتحاد الأوروبى فى 1997 وهى تشير إلى إغراقات أغلبها وهمى وتستخدم فى الأساس من أجل تدعيم الترسانة الحِمائية للاتحاد الأوروبى تخص 26.6% من مصدرى الجنوب الكبار -كوريا، هونج كونج، إندونيسيا، ماليزيا، تايوان، تايلاندا، البرازيل- وتخص بنسبة 20.8% الصين وحدها[3].

فى المقابل رأت دول الجنوب، التى ظلت لفترات طويلة تحمى تجارتها لأسباب بعضها جيد وبعضها سيء[4]، رأت نفسها مضطرة، بواسطة برامج

3. صحيفة *لوموند*، 9 ديسمبر 1997.

4. علاوة على أن الدخل من الجمارك ظل يشكل للعديد من بلاد الجنوب حتى فترة قريبة أهم مواردها، فإن مختلف أشكال السيطرة والحد من الإستيراد قد سمحت بتكوين مناحم دخل للطبقات الحاكمة ولأصحاب الإمتيازات الصناعية على حساب المستهلكين ؛ ومن جهة أخرى فإن بلاد الجنوب الصناعية لم تتمكن من تشييد مؤسساتها الإنتاجية إلا ووضع صناعاتها الوليدة تحت حماية صلبة من إجراءات الحماية وليس عن طريق وضعها منذ البداية فى منافسة مع الخارج.

الإصلاح وبسبب علاقات قوى فى غير صالحها فى مفاوضات دورة أوروجــواى، إلى أن تتخلص من إجراءات حماية منتجاتها؛ ولما كان حق الدخول إلــى أســواقها من الأمور الملزمة طبقا لما اعتبرته كذلك القوى التجارية العظمــى ، فقــد حلــت قاعدة تبادل المنافع المتفق عليها فى التسعينيات محل قاعدة عدم التبادل التعويضــى الذى كان سائدا فى الستينيات والسبعينيات. إن كافة الاتفاقيات التجارية بين الشــمال والجنوب التى وقعت خلال العقد الأخير: من اتفاقية التبــادل الحــر فــي شــمال أمريكا[5] إلى الاتفاقيات التونسية الأوروبية، والمغربية الأوروبيــة، فتحــت حــدود الجنوب أمام منتجات شركائها، وأصبح للدول الأكثر فقرا وحدها إمكانيــة التمتــع باجراءات تعويضية؛ وقد كان اتفاق مراكش أكثر إبداعًا عندما فرض علــى كافــة الدول الموقعة واجب ضمان حرية المرور أمام واردات تســاوى 3% مــن قيمــة الإنتاج الداخلى لكافة المنتجات. وأصبحت كافة الدول ملزمة بفتح أسواقها بما فــى ذلك القطاعات التى يكون الطلب عليها قد لبى احتياجات الإنتاج الداخلى.

لما كان أحد أهداف الدول الغربية هو تدعيم مراكزها التجارية بــأن تضمــن لنفسها أسواقا أسيرة لها، فقد إستغلت مرحلة مفاوضات دورة أوروجــواى لتثبيــت احتكارها على رأس المال التكنولوجى. الجزء الخاص بالملكية الفكرية[6] فى اتفاقيــة مراكش يضمن حماية دقيقة لكافة البراءات والرخص فى جميــع المجــالات التــى تكاثرت فيها المنتجات الحديثة والتطبيقات المادية للاختراعــات. منــذ عــام 1995 ولأول مرة فى تاريخ البشرية أدار المجال التجارى حركــة تــداول الاختراعــات العلمية والتقنية على مستوى الكرة الأرضية. ولم يعد الإقراض التكنولوجى بــدون مقابل جزءً من الإمكانات المتاحة أيضا أمام كافة أنحاء العــالم مــن أجــل الدفــع بتطورها إلى الأمام. فى ذلك الحين لم تقبل دول الجنوب الموافقة علــى الاتفاقيــة الخاصة بحقوق الملكية الفكرية سوى فى مقابل نُص عليه فى الاتفاقية بــأن تــزال

---

5. إتفاقية التبادل الحمراء لأمريكا الشمالية -دخلت حيز التنفيذ فى 1993- بين المكسيك والولايات المتحدة وكندا.
6. الإتفاقية الخاصة بالملكية الفكرية الخاصة بالتجارة (بالإنجليزية TRIPS).

كافة العراقيل أمام التجارة فى منتجاتها من الغزل والنسيج خلال عشر سنوات. فـــى نهاية 1999 رفعت الولايات المتحدة 13 من 750 حصة والاتحاد الأوروبى 14 مـــن القيود التى نظمت بها دخول المنتجات النسجية لدول الجنوب إلى أراضيها[7].

زهر اللعب المغشوش فى التبادل التجارى الحر

أخيرا سمحت الإمكانيات المالية لبلاد الشمال الكبرى بزيـــادة قدرتـــها علـــى السيطرة على الأسواق طبقا للشروط التى تدعم منطق المصالح الخاصة لسياســـاتها التجارية على حساب قانون الإيمان الليبرالى الذى تستخدمه مع شركائها. فـــهى، إذ حولت، على سبيل المثال، السوق العالمية للحبوب واللحوم إلى "ســـويقة " مفتوحـــة ضخمة تتخلص فيها من الفوائض الغزيرة لنشاط مزارعيهم الزائد عن أى حد، قـــد ضمنت لنفسها ما يشبه احتكار الصادرات العالمية من المنتجات الغذائية الزراعيـــة، إذ أن الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبى وكندا تتحكم وحدها فـــى ثلاثـــة أربـــاع الصادرات العالمية من الحبوب. لكنها عمت أسوأ الممارسات فى الدعـــم المباشـــر وغير المباشر للتصدير، من أجل تقديم فوائضها من هذه المنتجات بأسعار تتحـــدى أى منافسة وتضمن فى الوقت نفسه دخـــلا ثابتـــا لمنتجيـــها الوطنييـــن. فبعـــد أن استخدمت بتوسع وسيلة المعونة الغذائية لفتح أسواق خارجية أمام صادراتها أخـــذت تمارس اليوم على نطاق واسع سياسة الإغراق التى ظلت تعمل على قمعها داخـــل حدودها؛ فكان من نتيجة هذه الوسيلة وتلك السياسة أنها شجعت على إنتاج فوائـــض زراعية داخل حدودها ووضعت العراقيل أمام التنمية الزراعية للمواد الغذائية فـــى البلاد المستوردة.

---

7. صحيفة *لوموند*، عدد 23 نوفمبر 1999.

خدمت المعونة الغذائية، لمدة عقدين من الزمن على الأقل، سياسة دعم الأسعار العالمية للحبوب ومنتجات الألبان وذلك بأن سمحت بتصريف جزء من المنتجات الزراعية الغذائية على هامش الدوائر التجارية، كما خفضت من مخزون الغرب وحولت تدريجيا من كانوا يتمتعون بمساعداتها إلى مستوردين منتظمين للمنتجات الغربية. وإذ شهدت نهاية القرن تعدد الكوارث المسماة إنسانية فإننا نميل إلى تناسى أن المعونة الغذائية العاجلة لم تشكل قط سوى جزء بسيط من هذا النوع من المعونة. تشكّل الجزء الجوهرى من هذه المعونة من عقود تمتد صلاحيتها إلى عدة سنوات مع البلاد المستفيدة، وهى عادة ما تكون ضمن المستهلكين الكبار للحبوب مثل مصر ودول المغرب العربى. نادرا ما تصنف هذه الدول ضمن البلاد الأكثر فقرا فى العالم. فى نهاية السبعينيات، كانت المعونة الغذائية تمثل أكثر من 10% من المعونة الغربية العامة من أجل التنمية وأكثر من ثلث المعونة المشتركة لأوروبا التى جعلت منها، فى ذلك الوقت، أداة رئيسية لسياستها الزراعية[8]. عام 1984، الذى شهد الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على تنفيذ القانون الأمريكى لعام 1954 عن المعونة الغذائية المسمى« مؤونات من أجل السلام كان مناسبة استخدمتها إدارة ريجان لهذا التقييم الذى يُغنى عن أى تعليق: « حقق برنامج المؤونات من أجل السلام » أهدافا متعددة: مكافحة الجوع وسوء التغذية فى الخارج، والتوسع فى إيجاد منافذ للتصدير أمام المنتجات الأمريكية، وتنشيط التقدم الاقتصادى فى البلاد النامية وتدعيم السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية. [...] ثمانى من عشر من أسواقنا الزراعية كانت أصلا من المنتفعين من برنامج المؤن من أجل السلام»[9].

---

8. راجع فى هذا الشأن:

Sophie Bessis, *L'Arme alimentaire, op. cit.*

9. خطاب رونالد ريجان بمناسبة «يوم المؤون من أجل السلام» فى 10 يوليو 1984
(*Africa Wireless File*, 7 octobre 1984).

المواد المستوردة تحت بند المعونة الغذائية والتى استهدفت أيضا التخفيف على الميزان التجارى للعديد من الدول الغربية الحليفة وللحيلولة دون وقوع قلاقل إجتماعية فيها وُزِّعت بالمجان أو بأسعار رمزية داخل التجمعات المدنية لبلاد الجنوب وتكون بذلك قد حرمت الزارعين الوطنيين من أسواقهم فى المدن وأدخلت اليأس فى النفوس إزاء تنمية الإنتاج الزراعى الغذائى الوطنى.

حل الدعم المالى من أجل التصدير محل المعونة الغذائية المنظمة التى قلت أهميتها بداية من آخر الثمانينيات بسبب سياسة التحكم فى العرض التى بدأتها البلاد الغربية وبسبب تعدد حالات المساعدات الغذائية العاجلة، فنتج عن ذلك الاستبدال للمعونة بالدعم أثرٌ على بلاد الجنوب المستوردة يناظر تأثر البلاد الغربية. خصصت دول الشمال الأمريكى وأوروبا الغربية فى عام 1990 ما يبلغ متوسطه من دعم للزراعة ما يوازى 41% من قيمة إنتاجها الزراعى أى 150 مليار دولار تقريبا[10]. على الرغم من رغبة الولايات المتحدة المعلنة خلال مفاوضات دورة أوروجواى، تحرير التجارة الزراعية، لكى تواجه بذلك دينامية التصدير لدى الاتحاد الأوروبى التى تقوم بشكل منظم على المعونات، فإن دعم الزراعة لم يخفف منذ التوقيع فى 1 يناير 1995 على اتفاقية مراكش التى قامت عليها رسميا منظمة التجارة العالمية؛ وطبقا لما تقوله منظمة التعاون والتنمية الإقتصادية[11] فإن مستوى الدعم المقدم للمنتجين قد زاد فى عام 1998 فى جميع البلاد المصدرة الكبرى.

10. OCDE, *Les Échanges mondiaux de céréales, quel rôle pour les pays en développement?*, OCDE, Paris, 1993; et *Courrier de la Planète*, n°22, avril-mai 1994.

11. *Perspectives agricoles de l'OCDE 1999-2004*, OCDE, Paris, 1999; et *Politiques agricoles dans les pays de l'OCDE, suivi et évaluation*, OCDE, Paris, 1999.

مؤتمر منظمة التجارة العالمية فى مدينة سياتل الذى فشل والمنعقد فى نوفمبر 1999 كان مناسبة لمعركة بالأرقام بين الأوروبيين والأمريكيين حول المساعدات الزراعية. وهى فى واقع الأمر متماثلة فى حجمها على جانبى الأطلنطى وهى لا تختلف سوى فى اشتراطاتها: إذن الأوروبيين يفضلون دعم التصدير -علما بأنهم تعهدوا بتخفيضه- على حين تفضل الولايات المتحدة دفع معونات مباشرة للمنتجين. وعلى العموم فإن القوتين العظمتيين فى مجال المنتجات الزراعية على مستوى العالم تتصارعان منذ عدة سنوات عن طريق الدعم من جهة والتخفيضات من جهة أخرى من أجل غزو الأسواق الأخرى فى الشرق والجنوب وذلك مع الإحتفاظ بالسعر العالمى للمنتجات الغذائية منخفضا بطريقة مصطنعة. فى نوفمبر من عام 1992، فى خضم معركة جولة أوروجواى حول الملف الزراعى، أعلنت السوق الأوروبية المشتركة عن تعويض عند التصدير مقداره 82 إيكو (557.60 فرنكا فرنسيًا) عن كل طن قمح لتغطية صفقة بيع 000 250 طن للجزائر و 000 600 طن لمصر، وبعد ذلك بأسبوعين باعت الولايات المتحدة للمغرب 000 530 طن قمح مع إعانة مقدارها 47 دولارا (255.00 فرنك فرنسى) عن الطن الواحد[12].

إذا كانت مثل هذه الممارسات تلقى تقدير البلاد المستوردة التى ترى فاتورتها الغذائية تنخفض بهذا القدر، فإن لها أثارا مدمرةً فى كثير من الأحيان على مزارعى هذه البلاد، لأن منتجيها لا يستطيعون مجاراة أسعار منتجاتهم الغذائية بأسعار زراعات أكثر البلاد إنتاجية والأكثر حصولا على الدعم فى العالم. تتعدد أمثلة تدمير نظم إنتاج محلية بأكملها بسبب منافسة المواد المستوردة بأسعار إغراقية والتى تعددت منذ الثمانينات. المجموعة الأوروبية أغرقت -بهذا الأسلوب لفترة طويلة- البلاد الأفريقية بصادراتها الضخمة من اللحوم البقرية منخفضة الجودة بأسعار "مضروبة " جاعلة بذلك اللحوم التى يصدرها مربو ماشيتها أقل

12. صحيفة *لوموند*، 20 ديسمبر 1992.

سعرًا من اللحوم المحلية ومانعة بذلك أى تنمية مربحة للإنتاج البقرى[13]. فى الفليبين تسبب تخفيض الرسوم الجمركية على مجموعة واسعة من المنتجات الزراعية التى ضاعفت من تأثيره المعونات الأمريكية، فى خفض سعر الذرة الأمريكية المستوردة بمقدار 20% من سعر الذرة المحلية وإرتفع هذا الفرق فى السعر إلى 39% فى عام 2004[14] .

فى الوقت نفسه الذى كانت دول الشمال الكبرى تحض فيه على عدم الإستيراد، كانت لا تكف هى عن تحسين إستراتيجياتها من أجل تعظيم نصيبها من السوق العالمى. لاشك أنها تشارك باقى الدول التجارية فى العالم هذا الاهتمام، إلا أنها الوحيدة حتى الآن التى تمتلك الوسائل التى تتيح لها بلوغ هذا الهدف، وأن تفرض على بقية العالم التناقض الذى تنميه بين أقاويلها وأفعالها. ولا يعنى ذلك أن الدول المصدرة الأخرى الأقل أهمية تقبل عن طيب خاطر رؤية القوى التجارية تتلاعب بالقواعد التى تدافع عنها فى المحافل الدولية؛ فقد تجمع عدد من بينها -من الشمال والجنوب على حدٍ سواء- فى« مجموعة كيرنز (Cairns) [15]» لتطالب بإلغاء كل صورة من صور الدعم أو المساعدة من أجل التصدير وبالتحرير الكامل للتجارة الدولية.

ولما لم تكن هذه المجموعة تمتلك الثروة الكافية التى تسمح لها بتمويل سياسات الإغراق، ولا القوة السياسية التى تمكنها من فرض رؤاها على شركائها، فقد جعلت من نفسها داعية لتوحيد قواعد اللعبة، وذلك عن طريق التحرير الكامل

---

13. Voir Sophie BESSIS, *La Faim dans le monde*, La Découverte, Paris, 1991.
قلت هذه المعونات بعد الحملة التى قامت بها فى عام 1993 عدة منظمات غير حكومية أوروبية. تخفيض قمية الفرنك الأفريقى CFA فى يناير 1994 جعل من جهته الواردات أعلى سعرا فى منطقة هذا الفرنك وهى أكثر المناطق الأفريقية إستيرادا للحوم الأوروبية.

14. Kevin WATKINS, *Trade Liberalisation as a Threat to Livelihoods*, Oxfam, Londres, 1996.

15. وهى تجمع من الشمال: أستراليا ونيوزيلندا وكندا والمجر، ومن الجنوب: البرازيل وشيلى وكولومبيا والأوروجواى وماليزيا والفيليبين وتايلاند.

للأسواق، ويعتبر ذلك فى رأيها الشيء الوحيد الذى يكفل إطاراً من التنافس الشريف بين مجموعة المصدرين العالميين. لم تُبدِ الولايات المتحدة ولا الاتحاد الأوروبى أى بادرة للاستجابة لهذه الدول، إذ أنها مازالت مقتنعة بأنها المناط بها أن تظل المورد الوحيد أو الأول للكرة الأرضية، إلا فيما يتعلق بالمواد الخام.

الواقع أنه لا يوجد أى جديد فى هذه السياسة التى تمارسها القوى التجارية العظمى والمتمثلة فى فرض الليبرالية، فهى تسمح لها بإزالة كافة العقبات التى تعيق التوسع فى صادراتها إلى العالم والاحتفاظ لنفسها بإمكانية إجراء المناورات الحمائية عندما لا تكون متأكدة من أن حرية التجارة ستكون مواتية لها تماما. لا يخلو التاريخ من أمثلة تبين أن من هم اكثر قوة يفرضون على شركائهم المحتملين فتح حدودهم لمنافسة مغلوطة فى أغلب الأحيان؛ فقد كانت بريطانيا العظمى، وهى فى أوج سلطانها خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أكبر داعية لمثل هذا الانفتاح. كما أن العواصم الاستعمارية كانت تفرض حرية مرور منتجاتها على مستعمراتها، على حين كانت تغلق أسواقها أمام المنتجات المصنعة فى المستعمرات، وكانت تثبط من همم مصنعيها بواسطة إجراءات تعسفية، كما أنها كانت تجبر دول الجنوب التى ظلت مستقلة من الناحية الشكلية على تخفيض أو إلغاء رسومها الجمركية. فبالنسبة للبلاد الأكثر ضعفا، كانت مراحل التبادل الحر هى التى تتناسب تاريخيا مع مراحل انكماش أو تراجع إنتاجها، على حين كانت الدول الغربية تحمى نفسها فى جميع مراحل توسعها الصناعى. الجديد اليوم فى هذا الموضوع هو أن هذه الدول الغربية تنفذ فى الوقت نفسه -حسب القطاعات والمواعيد- الإستراتيجيتين الحمائية والليبرالية معًا.

نظرة واحدة إلى الترسانة الرهيبة التى صنعتها لنفسها بهدف ضمان استمراريتها، تسمح بإدراك السبب فى أن سرعة نمو التبادلات العالمية، التى تشكل أحد المظاهر الأكثر وضوحا لما يسمى العولمة، لم تَطُل بأى شكل الهيمنة التجارية

لبلاد الشمال الكبرى. مرةً أخرى، ظهرت آثار هذا التصاعد الهائل في التبادلات في الجنوب بوجه خاص، بأن وزعت أوراق اللعبة على مختلف القارات المكونة له. فعلى حين وطد شرقي آسيا وجنوب شرقها مركزهما كقوة تجارية صاعدة، ونمَّت بعض بلاد أمريكا اللاتينية أيضا من أنصبتها في السوق، لم تعد مناطق شاسعة -وعلى رأسها أفريقيا جنوب الصحراء- تحتل سوى مواقع هامشية في التبادلات العالمية.

إذا كانت الدينامية الآسيوية تستطيع خلال السنوات القادمة تغيير التوازن الحالي للقوى الاقتصادية العالمية، فهي لم تتمكن بعد من عمل أي انقلاب داخل التسلسل الهرمي للقوى التجارية: ففي عام 1995 الذي بلغ التوسع الآسيوي فيه آخر مداه وقبل الأزمة التي اجتاحت هذه المنطقة، لم تكن مجموعة الدول النامية[16] تولى سوى 20.7% من قيمة الصادرات العالمية و21.9% من الواردات، تاركةً للدول المسماة صاحبة الدخول المرتفعة 79.3% من الصادرات و78.1% من الواردات على مستوى العالم. من بين هذه الأخيرة، حققت الدول الأربع رائدة النمو الصناعي الآسيوي 10.4% من الصادرات و17.2% من الواردات العالمية وحققت القوى الإقتصادية السبع العظمى الأعضاء في مجموعة العظماء السبعة G7[17] 49.1% من الصادرات و48.1% من الواردات. أخيرا، 61% من التبادلات التجارية العالمية مازالت تتم بين البلاد ذات الدخول المرتفعة. هذه المعطيات لا تؤكد فقط على الهيمنة التجارية الهائلة للبلاد الغربية العظمى، وإنما تجعل وبوضوح التهديد الذي قد يمثله لها عنفوان البلاد الصناعية الجديدة، تهديدا نسبيا

16. وهي لم تعد تضم هونج كونج وسنغافورة وكوريا الجنوبية وتايوان ولا الإمارات البترولية: بروناى وقطر والإمرات العربية المتحدة. هذه المعلومات الواردة في هذه الفقرة مأخوذة من مطبوعة البنك الدولي:
BANQUE MONDIALE, *Global Economic Prospects and the Developping Countries 1997*, Washington, 1997.

17. كندا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان وبريطانيا والولايات المتحدة.

للغاية. إذا ما أخذنا الأمر بصورة إجمالية فإن البلاد المتقدمة القديمة تصــدر فعــلا أكثر مما تستورد وتجارتها تسجل فائضا مع الجنوب.

بشر أكثر مساواة من البشر الآخرين

عدم التماثل فى شروط الدخول إلى الأسواق والذى فرضته السياسة التجاريــة الغربية هدفه هو أن يبقى الأمر على ما هو عليه. إلا أن الشمال، علاوة على كونــه مازال مقتنعا أن واجبه أن يغرق العالم بمنتجاته حتى لو أدى ذلك إلى تقييــد تنميــة منتجات مماثلة – فهو ينهل أيضا دون ما قيود من موارد الكوكـــب الــذى مــازال يعتبره "سوبر ماركت" من ممتلكاته. طالما كان الاعتقاد السائد هو ان هذه المــوارد لا تنضب، فقد أمكنه تموين –دون ما مشكلة– توسعه اللانهائى فى الإستهلاك الــذى ظل مع الوقت مرادفا للتقدم. منذ ربع قرن وبعد أن أصبح الضغط الســكانى أكــثر وطأةً والوعى بنهائية الكوكب أكثر حدةً، لم يعد أسلوب استهلاك البلاد الغنية يؤخــذ تدريجيا على أنه نموذج يحتذى بل أصبح الآن فضيحة. بقية العالم تدركه الآن علــى أنه مبددٌ للهواء والماء والأجواء، منتجٌ للنفايات من كافة الأنواع، فارضٌ على الكــل أثارها المضرة، مستولىٌ دون أى حياء على ممتلكات عامة لا تتجدد، حتى لـــو أن الغير يصبو إلى الحصول منه على الرفاهية التى يجلبها.

ذلك لأنه إذا لم يعد أحد يخشى رؤية البشرية تواجه، فى وقت قريب قد يكــون عاجلا، نقصا فى المواد الأولية أو فى مصادر الطاقة، فإن إحتمال حــدوث تعديــل فى شروط احتلال الجنس البشرى للكرة الأرضية تحت تأثير أعماله ذاتها، لم يعــد ضربًا من الخيال. نعرف الآن أنه لا يوجد عنصر واحد، من العناصر التى تجعــل الحياة ممكنة على هذه الأرض، له إمكانات لا نهائية لتجديد ذاتــــه. أصبحــت إذن

مسألة تقليل الضغوط على النظام الإكولوجي (البيئي) للأرض -بعد أن إعتُبر الآن موروثا مشتركا للبشرية كافة- موضوعا رئيسيا للعلاقات الدولية ومناسبة لمواجهات متكررة بين دول الجنوب التي تود الحفاظ على مستقبلها مطالبةً باستغلال أكثر عدلا المصادر غير المتجددة، والأمم الثرية التي تتمسك بالدفاع عن المميزات التي لا تزال تعمل على توسيعها.

الواقع أنه على عكس ما تقوله الخطب عن الأزمة وعن الانكماش الاستهلاكي فإن الغرب يتمتع اليوم بجانب أكبر من الثروة العالمية مما كان عليه الأمر قبل بضعة عقود وهو أبعد من أن يكون قد ملأ الفجوة التي تفصله عن العالم الآخر بل إنه يزيدها عمقا: 86% من الاستهلاك العالمي الذي تضاعف في عام 1998 عما كان عليه في 1975 وتضاعف ست مرات بالنسبة لعام 1950، قام به خُمس عدد سكان العالم، الذي يقطن في أغلبيته العظمى (أي حوالي 85% منه) في أوروبا وأمريكا الشمالية. في الوقت نفسه تطور الإستهلاك الإجمالي للبلاد النامية بحركة أبطأ من ذلك بكثير ولو أنه عرف في بعضٍ منها تطورا مثيرا للإعجاب، ذلك لأن دخل 20% من الأفراد الأكثر ثراءً في العالم في نهاية التسعينيات أكبر ستين مرة من دخل المليار فرد الأكثر فقرا، على حين لم تكن العلاقة في عام 1960 « سوى» 1 إلى 30، وأن البلاد الأكثر ثراءًا تحصل اليوم على أربعة أخماس دخل الكرة الأرضية.

لكي يضمن الشمال لسكانه مستوى معيشة وأساليب استهلاكية ليسوا على إستعداد للتنازل عنها، وهم يمثلون سدس البشرية، فهو يستهلك في نهاية القرن العشرين 60% من الطاقة و75% من المعادن و85% من الأخشاب و60% من المواد الغذائية التي ينتجها العالم، كما أنه يمتلك ثلاثة أرباع عدد السيارات التي

تستخدم طرقه وينتج ثلاثة أرباع المخلفات الصلبة وينفث في المحيط الجـوى 54% من ثاني أكسيد الكربون الصادر من الأرض[18]: مواطن أمريكي واحد كان يصـدر في عام 1995 حوالي عشرين طنا من هذا الغاز في الجو أي عشر مرات أكثر مـن الصيني وعشرين مرة أكثر من الهندي، متوسط الإستهلاك اليومي من الماء للفـرد الواحد يبلغ 600 لتر في الولايات المتحدة ولا يتعدى *10* لتر فـي تشـاد[19]. الفـرد الهندي كان يستهلك في عام 1995 260 كجم مكافئ بترولي في حين كان إسـتهلاك الفرنسي 4.2 طن وساكن الولايات المتحدة حوالي 8 طن.

كل إحصائية وكل مؤتمر وكل تقرير جديد يشدد على أن عدم التساوي يـزداد سوءً وأن الهوة بين الشمال والجنوب تزداد عمقا خلال ربع القـرن القـادم. يـرى البنك الدولي أن فيما بين 1999 و2008 سيزداد الاستهلاك المتوسط للفـرد بمقـدار 1.3% في العام في أمريكا اللاتينية والكاريبي و1.4% في شمال أفريقيا والشـرق الأوسط و0.9% في أفريقيا جنوب الصحراء. آسيا وحدها يمكنها أن تفعل ما هـو أفضل. إذا وضعنا هذا التفاوت بين بلاد من نفس المنطقة وداخـل كـل بلـد فـي الاعتبار، فإن هذا التقدم المنخفض القدر يخفي في الواقع تراجعا بالنسبة لعدد مـن البلاد. ففي عام 1999، 43 من بلاد الجنوب رأت الناتج الداخلي الإجمالي عن الفرد الواحد ينخفض على حين كانوا 23 بلدا فقط في عام 1996. فـي المقـابل عرفـت

---

18. ثاني أكسيد الكربون يمثل وحده نصف الغازات التي تسبب في تأثير الصوب التي تخرج إلى الغلاف الجوي. كافة هذه الأرقام مأخوذة عن:

PNUD, *Rapports mondiaux sur le développement humain, op. cit.*; BANQUE MONDIALE, *La Pauvreté, rapport sur le développement dans le monde*, Washington, 1990, et *World Development Indicators 1998;* OCDE, *Données sur l'environnement, compendium 1997*, Paris, 1997; Jacques VALIER et Pierre SALAMA, *Pauvretés et inégalités dans le tiers monde*, La Découverte, Paris, 1994; Sophie BESSIS, «De la pauvreté des États à celles des individus», *in* Claire BRISSET (dir.), *Pauvretés*, Hachette, Paris, 1996.

19. تقرير المؤتمر العالمي عن الماء، باريس، مارس، 1998.

إقتصاديات الشمال نسب نمو مدهشة فى النصف الثانى من التسعينات ويبدو أنها استفادت من الأزمة الآسيوية 1997-1998[20].

ليس من الضرورى أن نضاعف من هذا النوع من الأمثلة لكى ندرك أن أهم ما يميز الغرب فى نظر جموع باقى أنحاء الأرض هو الوجه العادى لهذا الثراء الذى هو أسلوب حياة جماعى وليس ميزة يتمتع بها بعض الأفراد. كثافة البنيات التحتية، فى مواجهة ضعف رأس المال المادى المتراكم فى جنوب الأرض والتعود على الرفاهية التى تكشف عنه كل حركة استهلاكية تافهة، والمحورية التى يحتلها استهلاك منتجات يعتبرها ثلاثة أرباع البشرية من غير الضروريات، هذا -ضمن أمور اخرى- هو ما يقسم الكرة الأرضية إلى نصفين متباعدين بشدة. من المرجح ألا يفهم سكان الشمال السحر الذى يؤثر به أسلوب حياتهم على البشر الآخرين. فهم لا يدركون أن المسكن الشعبى الأكثر تعرضا للنقد عندهم والتأمين الصحى الأقل تغطية لنفقات العلاج وسلّة المشتريات المليئة بأدنى المنتجات سعرا، بل وأبسط صنبور يوزع ماء جاريا تعتبر فى مناطق أخرى مرادفات لكنوز لا تقدر بثمن. على الرغم من الأزمات التى يمر بها سكان الشمال وعلى الرغم من ازدياد حالة عدم الاستقرار والكوارث الإجتماعية التى يمكن أن يتسبب فيها تراجع دور الدولة/ العناية الالهية، فهم مستقرون لفترة طويلة وجماعيا فى حالة من الثراء تراها عيونهم من الأمور الطبيعية لدرجة أنهم لم يعودوا يدركون كم هى فريدة.

طوال الفترة التى ساد فيها وهم أن أسلوب الحياة الغربى سيمتد تدريجيا إلى البشرية بأكملها فهو لم يبد غير شرعى فى أعين من لم يستفيدوا منه بعد. إلا أن

20. يرى البنك الدولى أنه يتعين عدم توقع أى إنخفاض مهم فى درجة فقر الجنوب خلال العشرين سنة القادمة، بعد أن سجل أن الأثر الإجتماعى لأزمة 1997 المالية كان ماحقا على معظم دول جنوب شرق آسيا، كما أن بلاد أمريكا اللاتينية شاهدت أيضا مؤشراتها الإجتماعية تتدهور إعتبارا من 1997.

الواقع فرض نفسه: إستحالة تعميم أسلوب الحياة هذا على الثمان المليارات الثمانية من بشر القرن الواحد والعشرين، واستحالة تعميم طرق الإنتاج التى ينتجها وطريقة شغل الأمكنة التى يتطلبها حولت هذا الأسلوب إلى ميزة خاصة، وبالتالى إلى مخصص تختص به أقلية من البشر. ولكن مهما جرى التعبير عن القلق إزاء هذه الأوضاع، بمناسبة انعقاد مؤتمرات دولية يستخدمها البعض كمناسبات احتفائية، فإن الأمم الغنية ليست على استعداد للتغيير من النظام العالمى حول هذه النقطة ولا يوجد أحد سوى فى بعض الأقليات ذات النفوذ المتواضع مستعد لأن يعيد النظر بجدية فى مستويات معيشية وأساليب إستهلاكية تعدها شعوب مكتسبات دائمة طبيعية وشرعية في آن واحد. والحقيقة أن طبقاتها السياسية تدعم اعتقادها بأنها على حق، وهى الطبقات التى لم تتنازل قيد أنملة عن المصادرات المؤسسة للحركة التصنيعية للثلاثين سنة المجيدة ولم تبحث قط عن بديل قابل للاستمرار لأساليب النمو السائدة. بل على العكس من ذلك فهذه الأخيرة مازالت تقدم الزيادة فى الاستهلاك على أنه شرط نمو الانتاج، هذا النمو الذى اعتبر الأفق الذى لا يمكن أن تغفله الاقتصاديات والمجتمعات الغربية.

مازال قادة الشمال يرددون باستمرار فى آذان مواطنيهم أن خلاص الاقتصاديات التى هزتها التحولات الناتجة عن المرور من عصر التصنيع إلى عصر الخدمات، سيأتى من الاستهلاك ومنه فقط. أى وهن يصيب الشراهة الاستهلاكية، المتماثلة فى خطبهم مع الخير الأعلى -يعتبر دربا من ضعف الحس الوطنى- سرعان ما تتخذ الإجراءات الصارمة لإحيائه من جديد؛ يرون أن ديناميمة الزوج المكون من التنمية والاستهلاك هو القادر وحده على إعادة العمالة الكاملة التى لم يعد لها وجود منذ عشرين عاما. ولكن لا أحد يريد أن يبحث عن بديل لها، متناسين بذلك أن المجتمع الغربى ذا العمالة الكاملة -وهى الفترة القصيرة التى

عرفت الانفجار التصنيعي للبضائع الاستهلاكية- يمثل لحظة قصيرة بعض الشيء في تاريخه وهي استثناء جغرافي في عالم يتميز بالعمالة غير الكاملة[21]. للحفاظ على نظام كهذا، لم يتوقف العمل منذ عدة عقود على تخفيض مدة صلاحية الأدوات شائعة الاستخدام ومدح فضائل التبذير، وتعميم استخدام المنتجات التي يستغني عنها بعد استعمالها والتغليفات المتعددة، وعلى العمل -دون هوادة- على إقناع الناس بأن إمتلاك الأكثر يسعد عن امتلاك الأفضل، وعلى زيادة العرض -كما هو الحال بالنسبة للطاقة- لإنعاش الطلب وعلى تحويل الهامشي إلى حاجة جوهرية.

التعبير عن الرضا بحثا عن الذات، الذي يكاد يكون مقززًا عندما يرتسم على وجوه أصحاب القرار السياسي والاقتصادي كلما ظهرت إرهاصات في اتجاه صعود مؤشرات الاستهلاك، وهيكل استثمارات البلاد الصناعية الكبرى التي لا تنفك تعطي الأولوية إلى تبديد الزمن والمكان والموارد والبضائع غير المتجددة من أجل زيادة الإنتاج وتضخيم نسب النمو، والإحجام عن تحميل تكاليف ذلك الاجتماعية والبيئية على الداخل، ينفي في الوقت الحاضر أي مصداقية عن محاولات البعض منهم للإيهام بأنهم يؤمنون بضرورة العمل على استخدام أقل سفهًا لرأس المال الكوكبي.

إضافةً إلى واقع أن إقتصاد الشمال يقوم على التجديد السريع كلما أمكن ذلك للبضائع الإستهلاكية العادية (هل يمكن تصور مدى الكارثة التي تمثلها لاقتصاد الشمال تسيير سيارات ركوب واستخدام أدوات منزلية تبقى صالحة لمدة عشرين

21. قد يجادل البعض بأن الولايات المتحدة كادت أن تصل إلى العمالة الكاملة. دون أن ننكر ديناميـة الاقتصاد الأمريكي، يمكن أن تعتبر هذه الحالة إنها عمالة كاملة صورية لأسباب ثلاثة على الأقل: تعاظم أعداد المسجونين يسحب من سوق العمل نحو 2 مليون شخص بالغ وأن وتيرة إزدياد عدد المسجونين قد وصلت إلى نسبة 8% كل عام خلال التسعينيات راجع:
(Loïc WACQUANT, «L'emprisonnement des classes dangereuses aux États-Unis», *Le Monde diplomatique*, Juillet 1998).
تفتيت جزء من المخزون من الأعمال المؤقتة المعروضة على الأمريكيين يخفض نسب العطالة بصورة مصطنعة وذلك بأن ضاعف من مخزون الأعمال المؤقتة؛ وفي نهاية الأمر يوجد أكثر من 7 ملايين عاطل لم يحتسبوا في الاحصائيات، كما أن 4.5 مليون أمريكي يعملون أعمالا مؤتقة يفضلون العمل في أعمال دائمة (Lester THUROW, «Le capitalisme a-t-il un avenir?», *Politique internationale*, nº 81, automne 1998).

عاما ؟) فإن هيكلة المجتمعات الغربية حول المثل الاستهلاكى الأعلى أصبح واقعاً ثقافيًا وهو وإن كان أكثر معاصرة فهو مواز لقوة اقتناعهم الراسخ بأنهم مؤهلون شرعيا لإدارة العالم. لاشك ان قناعاتهم حول هذا الموضوع بدأت تهتز، ويؤكد ذلك التصاعد النسبى لقوة التنظيمات المهتمة بالبيئة وحركات المستهلكين. ولكن المسافة التى تفصل بين بداية الوعى بأنه من الممكن أن يكون الاستهلاك أفضل إن قل التبذير والقبول الملموس باجراءات تستهدف تعديل المنطق الاستهلاكى للحد من تجاوزاته، هذه المسافة تظل للآن شاسعة. يظل من الأمور الانتحارية من الناحية السياسية فى الديموقراطيات الغربية أن تطالب باتخاذ إجراءات شجاعة أكثر مما ينبغى فى هذا المجال. فقد دفع الخضر الألمان ثمن هذه التجربة فى نهاية عام 1998 إذ رأوا شعبيتهم تنهار بعد ما اقترحوا الحد من إبعاثات الغاز التى تتسبب فى إحداث أثر الصوبة برفع كبير فى أسعار البنزين. وفى الولايات المتحدة أظهرت عدة استطلاعات للرأى أجريت عامى 1997 و1998 أن الأمريكيين مهمومون بالفعل من تدهور حال البيئة فى العالم؛ إلا أنهم يرفضون أيضا أى إمكانية لرفع أسعار الوقود الذى يكاد يكون بدون مقابل عندهم. لقد كانت ردود الفعل إزاء الارتفاع الكبير فى الأسعار البترولية خلال خريف 2000 إشارة واضحة على أن الرأى العام غير مستعد لمناقشة أى من مكتسباته.

لم تحن بعد ساعة إعادة مناقشة عقيدة النمو التى لم تُعد وسيلة للوصول إلى حياة أفضل وأضفيت إليها صفة الضرورة الحتمية. على الرغم مما تلقاه من ردود فعل صرخات الإستغاثة التى أطلقها بعض الذين حاولوا مناقشة ما جاء فى الكتاب الشهير ذى العنوان المستفز «*لتتوقف التنمية*» الذى أصدره نادى روما عام 1972، وجازفوا بمناقشة محتواه والآثار المترتبة على تقديسه، فهم يدفعوا دفعًا إلى

الهوامش السياسية، بل ويعد هذا النقد وهذا التساؤل حول موضوعية السير على هداه وتطبيقه تطبيقا حرفيا إثباتا على أن المرء قادم من غياهب التاريخ القديم.

بل يوجد ما هو أكثر من ذلك: كما أقام الشمال من تطوره مؤسسة نموذجية كلية، فهو قد عمل على إعتماد فكرة أن نمو إقتصادياته يعد عساملا من عوامل الإزدهار العالمى مادام هو القادر وحده على تنشيط الاقتصاد العالمي. يتعين إذن العمل على ملاحقته إن أردنا رفع مستوى الحياة العام للبشرية وأن أى عائق يعترض نمو ثروته يمكن أن يؤثر بالسالب على العالم أجمع. تثبيت الفكر الاقتصادى حول بعض الأفكار البسيطة سمح بالسكوت على أثر النمو الحقيقى الذى يبعد تماما عن كونه مفيدًا لمجموع المنتفعين منه المفترضين. إذ يتم تحديد إطار التحليل الاقتصادى على هذا النحو، فالاختلال فى التوازنات الأرضية لا يحسب سوى بمعيار إمكانات آثاره السيئة والتهديدات التى قد يؤثر بها على الاستقرار الدولى. الاقتصاديات النامية تُركت من جانبها إلى معالجة مؤسسات بريتون وودز لها أو إلى حب بعض فصائل المنظمات غير الحكومية فى الشعور بالاغتراب، والبلاد الصاعدة الأكثر التصاقًا بالاقتصاديات المهيمنة هى وحدها التى تثير بعضا من الإهتمام لدى رجال الاقتصاد الغربيين.

فاتورة مهولة

الأمم الغنية تقر مع ذلك رسميا أن الوقت حان لبدء عصر جديد من الإدارة الأكثر تعقلا للنظام الإيكولوجى للكوكب. ابتدعت بعض مجموعات التفكير عندهم، فى نهاية الثمانينيات، تصور« التنمية المستدامة»[22] المفروض أنه يوفق بين رغبة بلاد الجنوب مواصلة تنمية يعتقدون أنها ضرورية ورغبة بلاد الشمال فى ألا توقف نموها واضعةً فى الوقت نفسه حدًا للفكر المنجمى الذى ظل يسيطر حتى

22. التعبير باللغة الإنجليزية أكثر وضوحا ,*Sustainable development* ؛ ويمكن ترجمته إلى الفرنسية .«développement durable et écologiquement soutenable»

الآن على استغلالها للكرة الأرضية ومقيدة ما يستخرج إلى مستويات لا تؤثر بالسالب على إعادة تكوين الموارد. والأفضل من ذلك هو أن الدول الغربية جعلت من نفسها بطلات الحفاظ على المساحات الطبيعية واستخدام التكنولوجيات النقية وهي لا تتردد في شجب سلوكيات عدد من دول الجنوب التي لا تهتم اهتماما كافيا بالبيئة. وهي إذ أصبحت تشعر بقوتها بعد بلوغها هذا الوعي البيئي تعمل الآن على إقناع بلاد الجنوب بعدم السير على خطاها وأن تعتمد سياسات تنموية تحترم النظم البيئية التي غدت هشة بسبب ما استخرجته من الأرض، وبما أن الكوكب اعتبر الآن تراثا مشتركا للبشرية جمعاء فقد يصبح له حق التدخل في الطريقة التي تستخرج بها دول الجنوب مواردها.

ذلك لأن الشمال لا يقدر اليوم آثار عولمة نموذجه الإنساني ومنطقه الاقتصادي دون أن ينتابه قلق. الزيادة السريعة في استهلاك قوى مثل الصين والهند والبرازيل[23] للطاقة، والنجاح الذي تحقق في مجال النقل على الطرق وفي مجال السيارات الخاصة التي يعد إقتناؤها أكثر العلامات المميزة على الوصول إلى حالة الازدهار بل وأيضا تبديد الموارد الطبيعية لرواء عطش لا ينطفئ للعملات الصعبة في عالم يتعين فيه التصدير إن أراد المرء أن يوجد على خريطة العالم، كل ذلك قد يؤدي إلى تعاظم التهديدات التي بدأت تلوح على التوازنات الكوكبية بأسرع مما كان متوقعًا. خاصة وأن احتياجات الجنوب لا تتوقف عن الزيادة بفعل النمو السكاني والتطلعات الجماعية لتحسين مستوى المعيشة. ولا يعقل أن نتصور -إلا إذا وضعت برنامج للكوارث- أن مليارات الأفراد يمكنهم الوصول إلى مستويات استهلاك سكان أوروبا وأمريكا الشمالية نفسها متبعين الأساليب نفسها: إذا

23. فيما بين 1990 و1995 زادت نفايات البرازيل 20%، الصين والهند 30% وإندونيسيا 40% وقد وافقت الصين منذ بضع سنوات على بذلك جهود كبيرة في هذا الصدد فأغلقت محطاتها لإنتاج الطاقة بالفحم وهي الأكثر تلويثا واعتمدت تكنولوجيات نظيفة لمحطاتها الجديدة.

أردنا الحفاظ على مستقبل كوكب الأرض يفضل إذن اعتماد نماذج للنمـــو مختلفـــة وبأسرع وقت.

وهنا المحك. ذلك لأن الشمال وقد اعتمد بذاته خطاب النمو المستدام، لا يكــف عن إثبات عدم قدرته على عكس توجه منطق نموه حتى الآن وعلـــى وضـــع مـــا يطالب به موضع التنفيذ. ويتضح عجزه هذا منذ التسعينيات، فى معالجتـــه لملــف ارتفاع حرارة الجو بما فى ذلك المفاوضات اللانهائية الخاصة بــــه والتـــى بــدأت باعتماد الإتفاقية الدولية للمناخ فى قمة ريو دى جانيرو فـــى عـــام 1992 ومـــرورا بمؤتمرات كيوتو 1997 ثم بون 1999 وهى الخاصة بوضعها موضع التنفيذ. هــــل هو عدم وعى أم استهتار أم هو إقرار بالعجز أمام استبدادية المدى القريـــب الـــذى تحبس فيه المصالح الاقتصادية والمالية والاعتبارات الانتخابية المجتمعات الغربيـــة؟ هذه المكونات الثلاثة لعدم الحركة تؤثر بنسب متفاوتة على السياسات التى تمـــارس على جانبى الأطلنطى.

الاستهزاء المستخف بالآخرين هو أهم ما يميز الولايات المتحدة عن أوروبـــا برفضها إدخال أى إصلاحات فى مجال الطاقة إن هى أدت إلى تعديل –وإن كـــان حتى هامشي– لأسلوب الحياة الأمريكى (*American way of life*). وعلى الرغم من بعض الاعترافات العلنية بالذنب إزاء السمة غير المسئولة للاســـتهلاك الأمريكـــى والمثال على ذلك هو خطاب الرئيس كلينتون أمام مؤتـــمر الأمم المتحـــدة المســمى « ريو + 5» فى يونيو 1997 فى نيويورك[24]، فإن واشنطن أعـــدت سلســـلة مـــن الحجج التى تسمح لها بتمييع مسئوليتها عن هذا الملف وذلك بأن بـــادرت بتعييـــن المسئوليين عن ارتفاع الحرارة المناخى. يقول خبراؤها إن النمو السكانى دون مـــا سيطرة فى الجنوب وتدمير الغابات الوحشى الذى تقوم به الدول الاستوائية ســـيؤدى

24. أعرب بيل كلينتون فيه عن أسفه لواقعة أن 4% من سكان العالم –الذين هم ســـكان الولايـــات المتحـــدة– مسئولون عن 20% من إنبعاثات الغاز التى تولد تأثير الصوب ووعد باتخاذ إجراءات أكثر حسارة لتثبيت الموقف.

بالعالم إلى حتفه بشكل أكثر تأكيدا من الذى يتسبب فيه إزدحام المرور فـــى مدينـــة نيويورك، كما أن غاز الميثان المنبعث من حقول الأرز الآسيوية يشارك بـــالمقدار نفسه في سخونة الجو العام وبنفس مقدار ما ينبعث من غازات عادم السيارات. فـــلا عجب إذن من أن الولايات المتحدة ترفض تحمل نصيبها فى« الدين الإيكولوجـــى» الذى يتحمله العالم الصناعى القديم أمام الكرة الأرضية وتعلن أنها غـــير مسـتعدة لخفض كمية إنبعاث غازها التى تتسبب فى أثر الصوب إلا إذا قامت بلاد الجنــوب بالشيء نفسه فورا. ثم بعد أن وزعت المسئوليات على هذا النحو، طالبت الولايـــات المتحدة بترتيب بلاد العالم حسب انبعاثاتها الغازية دون أخـــذ عـــدد السـكان فـــى الاعتبار. مثل هذا الترتيب أظهر الصين فى عام 1995 علـــى أنـــها ثـــانى بـــاعث للغازات على الأرض ووضع الهند فى المرتبة السادسة لملوثى الجو.

شجب ممثلو الجنوب على الفور عدم الأمانة الذى تتسم بـــه هـــذه المحاجـــة وذكّروا بأن استهلاكهم للطاقة وإصداراتهم للغازات، إذا قيست على الساكن الواحـــد من سكانها، هى الأضعف على مستوى العالم. كما ذكّروا بأنه يتعين التميـــيز بيـــن انبعاثات الغاز من أجل البقاء على قيد الحياة -مثل تلك التى تصدر عـــن مـــزارع الأرز من غاز الميثان- وغازات الرفاهية مثل تلك الخاصة بالسيارات التى فى كـــل مكان ومثلها مكيفات الهواء التى تعم المدن الكبرى فى العالم الصناعى.

أما الأوروبيون وهم ميالون أكثر لإيجاد حلول وسط مع الدول الناميـــة التـــى تريد الحصول على نصيبها من تراث نعرف اليوم كم هو هش، فقد إعترفوا بـــــــ « المسئوليات المشتركة ولكنها متباينة[25] » لبلاد العالم فـــى تدهـــور حالـــة النظـــام الإيكولوجى، كما أنها وافقت على دراسة إعتماد أهداف مُلْزِمَة بتخفيض ما تصـــدره من غازات، تاركة بعض الوقت لمختلف بلاد الجنوب التى دخلت متـــأخرة عصـــر

---

25. طبقا لما جاء فى مقدمة الإتفاقية الدولية حول المناخ.

الصناعة لكى تتأقلم مع الوضع الجديد. ولكن إذا ترجمت الأمور إلى واقع سنجد أوروبا الغربية[26] واليابان وإن كانتا أقل تلويثا للهواء وأقل استهلاكا للطاقة من أمريكا الشمالية، فلا توجد قوة صناعية تمكنت حتى الآن من تخفيض ما ينبعث منها من غازات عدوة البيئة، إلا إذا لجأت بقوة إلى الطاقة ذات المصدر النووى، أى أنها ستخلق مشاكل أخرى. أثبتت الدراسات الموضوعة بمناسبة انعقاد كل مؤتمر دولى مطلوب منه حل مسألة أصبحت إستراتيجية ان إستهلاك الطاقة ما زال فى ازدياد.

الأرقام التى أذيعت بمناسبة انعقاد مؤتمر كيوتو فى ديسمبر 1997 أثبتت أن كافة البلاد الصناعية قد زادت من نفاياتها فى النصف الأول من التسعينيات على الرغم من الوعود التى قطعتها على نفسها فى ريو. فقد زادت فى خمس سنوات فى اليابان بمقدار 8.8%. وفى سنة واحدة، من 1994 إلى 1995، بلغت الزيادة 3.4% فى الولايات المتحدة، على حين كانت الزيادة فى الاتحاد الأوروبى، الذى يقدم نفسه كنموذج يحتذى، بمقدار 1.7%. وانتهى الأمر بالوعى المفاجئ الذى سجله مؤتمر كيوتو والذى تعهد فيه 38 بلدا من الشمال بتخفيض إصداراتهم الغازية بمقدار 5.2% فيما بين 2008 و2012 بالنسبة لمستوى 1990[27]، إلى لا شىء. منذ ذلك الحين لم يتعهد بلد واحد السير فى هذا الطريق. يتلخص ما يجرى فى كافة الاجتماعات الدورية المخصصة لدراسة هذا الملف فى تسجيل اختلاف وجهات النظر بين المنادين بالتحكم فى التلوث عن طريق السوق والمدافعين عن الإجراءات الملزمة بالتخفيض. ولما كان الباحثون يقطعون اليوم بصحة واقعة ازدياد حرارة

26. من المفروض أن وسط أوروبا وروسيا كانت ذات الأسلوب نحو الأكثر تلويثًا والأكثر تدميرا للموارد الطبيعية وأصحاب أضعف إنتاج للطاقة فى العالم الصناعى بالنسبة لكل وحدة إنتاج. إلا أن الإنكماش الذى سادها فى الثمانينيات أدى إلى تخفيض إصداراتها.

27. يرى المتخصصون أن تخفيضا لانبعاثات الغازات بمقدار 20% يمكنه وحده من إيقاف النزعة نحو زيادة حرارة الجو.

الجو، لم يعد أحد يتشكك فى الواقع فى ضرورة العمل على الحد من أسبابه. ومع ذلك لا يوجد اتفاق حول مسألة من الذى يتعين عليه القيام بالتضحيات الأولى.

لما كانت الولايات المتحدة مهتمة بانخفاض المستوى العالمى للانبعاثات الغازية دون أن تضطر لتغيير أسلوب الإنتاج والاستهلاك فيها، فقد أعدت آلية قائمة على إصدار تراخيص بالتلويث قابلة للتفاوض فى السوق: كل دولة ستمتلك حصة من« تراخيص الانبعاثات» تحدد لها كمية الغازات التى يصرح لها بنفثها، وإذا لم تستخدم حصتها بالكامل يمكنها بيع حقوقها فيها إلى بلد آخر تخطى حدود حصته. فلما كانت أكثر البلاد تلويثا للأرض بحساب ذلك على الفرد الواحد، هى الدول الأكثر ثراء، فهى ستتمكن بهذه الطريقة من التنصل من تقليل ما تنفثه من غازات بأن تشترى حقوق البلاد الأقل حظا فى الثروة. بالتوازى مع هذه الإدارة بواسطة السوق، إقترحت الولايات المتحدة أيضا أن كل تخفيض فى كمية النفايات من بلد من الجنوب أو الشرق يمول بمساعدة من بلد مانح من الشمال، تضاف قيمة هذه المعونة إلى حساب البلد المانح وتزيد بنفس المقدار حقه فى التلويث. ووضع هذه الآليات موضع التنفيذ يسمح للدول الصناعية الكبرى فى الواقع بمواصلة إصدار النفايات فى الهواء على الوتيرة نفسها، مع الاتفاق فى هدف تخفيض مجمل الانبعاثات الغازية التى تسبب ظاهرة أثر الصوب.

لما كان الكفاح ضد تسخين المناخ لن يكون له معنى بدون مشاركة الولايات المتحدة، فقد وافقت الدول الأوروبية ودول الجنوب فى النهاية على مبدأ إنشاء سوق لحقوق التلويث، بشرط أن يحدد فى الوقت نفسه لكل بلد سقف للإصدارات الغازية لا يجوز تخطيه. ولما رفضت واشنطن هذا الشرط الملزم، توقف الملف عن التقدم، وانتهز كل طرف هذا الشلل لتأجيل إتخاذ أى إجراء داخلى بالتخفيض. على الرغم من كونهما أكثر حذراً وهدوءً من القوة الأمريكية الأعظم فقد أثبتت كل

من أوروبا واليابان بأنها تتساويان معها تقريبا فى سوء النية، ولم تبد أى منهما نية تعديل سياساتهما دون انتظار إجماع دولي يصعب الوصول إليه حتى الآن.

لا يمكن إذن لدول الشمال أن تقوم بالخطوة الأولى بسبب ما يفرضه عليها النمو والاستهلاك. وإذ أصبحت تؤكد على إهتمامها بالبيئة فهى ترفض أى قيد ملزم مرتبط بالحفاظ عليها وتبدو غير قادرة على ترجمة هذه التنمية المستديمة، التى تنادي بها قولا، إلى أفعال، ذلك لأن أى عمل ذا معنى ضد أثر الصوبة سيؤثر فى معظم مجموعات أصحاب المصالح فى البلاد الملوثة بطريقة فورية أسرع بكثير من سرعة تغيير الطقس ذاته. الوعى بالخطر القادم ليس بحجم يسمح بالنضال ضد منطق الربح السريع. وعلى المدى القريب. خاصة وأن التهديد ليس ملحا ولكنه علاوة على ذلك لن يمس بالقوة نفسها كافة مناطق العالم.

تبين الدراسات التى قامت بها المجموعة الحكومية لتطور المناخ (GIEC)[28] أن الحزام الاستوائى للكوكب سيتأثر بطريقة أكثر خطورة من المناطق معتدلة المناخ؛ ويزداد داخله كثيرا عدد الجزر والمناطق الساحلية المهددة بالغرق بسبب ارتفاع مستوى البحر، ستنخفض فيه كمية الأمطار بنسب كبيرة على حين ستزداد فى المناطق المعتدلة والباردة، وهذه الأخيرة ستصبح أكثر ملاءمة للزراعة بفضل اعتدال دراجات الحرارة بها. أخيرا بدأت بالفعل -بسبب ارتباطها بارتفاع الحرارة- زيادة تكرار وعنف الاضطرابات المناخية مثل: الأعاصير والفياضانات وحالات الجفاف المتكررة، وراحت تسبب، بشكل أكثر عنفا، آثارها المدمرة فى المناطق الاستوائية والقاحلة، عما تحدثه فى المناطق معتدلة المناخ. هذه التوقعات التى تؤكدها كل دراسة جديدة لا تُحصن الدول الأكثر ثراءً -لأن تأثير التغيير المناخى عليها أضعف- على إعادة النظر فى الممارسات التى أثبتت خطورة ضررها بالفعل.

28. مذكور فى *لوموند* -26-27-28 نوفمبر 1997. الآراء التى تعبر عنها هذه المجموعة تستخدم كأساس للمفاوضات الدولية.

ترددهم، الصريح أو الضمنى، على تعديلها تعد على درجة عالية من الخطورة بمقدار ما يمثل الذريعة التى يلجأ إليها عدد من الطبقات الحاكمة فى الجنوب التى صممت على أن تواصل لأطول فترة ممكنة ما تستخرجه من موارد بلادها، مناشدات الشمال لها والتى يمكن تلخيصها فى عبارة« إفعلوا ما أقوله ولكن لا تفعلوا ما أفعله» تعطيها فرصة الدفاع عن سياسات تقبل النقد بواسطة حجج أقل قبولا له. بفضل بلاغة تستخدم التناقضات الغربية، نجحت -جزئيا- البرازيل وماليزيا وإندونيسيا وزائير وبعض البلاد الأخرى فى الاحتفاظ بمبدأ حريةُ إستغلال الغابات الاستوائية. عندما وضعت فى موقف الإتهام فى ريو عام 1992 بسبب الإستغلال المفرط لهذه الغابات وهددت بأن تفرض عليها حق مراجعة دولية على إدارتها لمواردها من الغابات، قامت هذه الدول بقلب كل حجة من حجج الشمال عليه لرفض وضع أى حد على سيادتها:

تؤدى الغابات الاستوائية دورا حيويا للبشرية جمعاء باحتفاظها بكميات هائلة من غاز الكربون؟ – لن نوافق على جعلها من المقدسات حتى نمنح الشمال وسائل مواصلة سياسته فى تعميم السيارات، أما العمل الجدى لتصحيح الأوضاع فيتعين على الشمال أن يبدأ على أرضه. يتعين اعتبار اقتلاع أشجار الغابات من الأعمال السلبية التى يقوم بها الإنسان على الأرض؟ الفترات العظمى التى جرى فيها إزالة الغابات من أجل الزراعة والتى تعد علامات فى تاريخ أوروبا يراها مع ذلك مؤرخو أوروبا من فترات التقدم الكبرى. ثم إن دول الشمال هذه التى تسارع دائما بتلقين الدروس للآخرين، ألم تدع جزءً كبيرا من غاباتها يموت تحت تأثير أمطارها الحمضية؟ وأخيرا اقترح مناهضو تدويل المسألة[29] أن توضع كافة غابات الأرض -الاستوائية منها وتلك الموجودة فى المناطق ذات المناخ المعتدل أو البارد- تحت

29. أيدها فى ذلك من خلف الستار اليابان الذى يعتبر من أهم مستهلكى الأخشاب الإستوائية وهو يناهض أى تنظيم لاستغلال الغابات الإستوائية.

رقابة فوق–وطنية. أمام مثل هذه الحجة استعجلت دول الشمال وأد هذا الملف – فهى ليست على استعداد لأن ترى نفسها موضوعة تحت رقابة أحد تلك البلاد المتواضعة من الجنوب– وأقرت بأولوية السيادة الوطنية على البحث عن الصالح المشترك. مازالت إذن دول الحزام الاستوائى تقطع من مواردها الغاباتية بكل هدوء تلبيةً للطلب الخارجى، أو، كما هو الحال بالنسبة للبرازيل – تشجيعا للفلاحين على تقطيع الأشجار واستزراع الأرض بدلا منها وذلك لتتجنب تطبيق الإصلاح الزراعى.

النضال ضد التدخل الغربى أصبح أحد الموضوعات المفضلة لدى أكثر قادة الجنوب نهبا للثروات وهم يُلبِسون ما يقومون به من أعمال سلب ونهب لباسا بلاغيًا جديدًا مناهضًا للاستعمار. التعنت الذى تبديه دول الشمال فى إصرارها على فرض وتيرة وأساليب نموها على الجميع –على حين أنها تقدم أكثر عروض التبذير وقاحةً– يجعل للأسف خطابها يحظى بالشعبية، علمًا بأن الرأى العام فيها أصبح تدريجيا أقل سذاجة. ومع ذلك أقر عدد من دول الجنوب بضرورة إعتماد طرق التنمية المستديمة، كما أن أكثرها تنمية يرى فى رغبة الشمال دفعها إلى ذلك فرصة لاتخاذ الإجراءات التى لا غنى عنها لإصلاح أجهزتها الإنتاجية[30]. إلا أن

30. هكذا سجلت كوريا الجنوبية بين 1980 و1995 إنخفاضا مقداره 18% من كثافة الإنبعاثات بعد ضبطها مع الإنتاج الداخلى – تعكس مجهودا مساويا لمجهود البلاد المتقدمة فى منتقطتها، على حين كان الإنخفاض بنسبة 21% فى اليابان و16% فى استراليا: (OCDE, *Données sur l'environnement 1997, op. cit*).

فكرة التنمية المستديمة يمكنها –بشرط إعطائها مضمونا ملموسا– التوفيق بين متطلب تحسين ظرف المعيشة وذلك الخاص بالتنمية الدنيا الضرورية للوصول إلى ذلك. ستكسب دول الجنوب من كل جانب على المدى البعيد إن هى إستبعدت النموذج المسيطر لتستكشف طرقا أخرى أقل تدميرا من الناحيتين الإجتماعية والبيئية. نعرف مدى فداحة الثمن الذى دفعته بلاد جنوب شرق آسيا لبلوغ نسب التنمية التى كان العالم يحسدها عليها طوال عقدين من الزمن: التدمير شبه الكامل للغطاء التايلاندى من الغابات، الإنهاك الكامل للأراضى بسبب زراعة المحصول الواحد المكثفة من أجل التصدير. مثال المنبهرت فى تايلاند أيضاء التلويث الخطير للمدن بسبب الأخذ بنماذج النقل الغربية وبتخطيط المدن الغربية. وقد يتعين أيضا عدم إثناء بلاد الجنوب عن طرق سبل جديدة، لأنه يحدث بالفعل أنها تشجع على ذلك ولكن دون تعديل فى أى من المرجعيات التى ترغمها على مواصلة سباقها المنهك فى محاولة طبع نسخة من النموذج.

قوة النموذج الغربي الذى لم يجد أحد له بديلا، متفاعلة مع مصالحها وسلوكيات أصحاب الموارد الضخمة ضمن أغلبية طبقاتها الحاكمة، يجعل الحركة فيها بطيئة ومترددة مثلما هو الحال فى بلاد الشمال. مواقف هذه الأخيرة حول ملف البيئة الثقيل ليست متماثلة بكل تأكيد، كما أنه يجب عدم التقليل من قيمة الخلافات بين أوروبا، التى تنمو باستمرار طبقا لنظم عامة، والولايات المتحدة التي تحتقر مثل هذه اللوائح؛ إلا أن الرفض الواضح الذى تعبر عنه الولايات المتحدة للتنازل عن مميزات السلطان يواجهه -مثل رجع الصوت- تردد أوروبا فى الاستغناء عن الرفاهية التى تجلبها.

هجرة وذاكرة وفقدان ذاكرة

هكذا تسير القوى العظمي: فهى تفرض على شركائها الأضعف منها -مادامت تمتلك وسائل إرغامهم على ذلك- انفتاحا تجاريا لا تطبقه سوى جزئيا على نفسها. وهى إذ تخشى -عن حق- من أن تُنهك الكرة الأرضية قواها بتأثير ضربات النهب البشرى لها، فهى ترفض فى آن واحد كبح جماح شهواتها وطرح الأسئلة حول غائيات التنمية، وهو ما فتح الطريق أمام الانزلاقات الحالية. وبينما هى تحث بقية أنحاء العالم على تنمية نفسه مثلما فعلت هى، وبنفس السرعة، فهى تجعل الحصول على المعارف والتكنولوجيات التى تسمح بالوصول إلى ذلك باهظ الثمن، بأن تضع أصغر اختراعاتها ومصنوعاتها تحت حماية براءات الاختراع. بلاد الجنوب ترى نفسها -تحت ضغوط الانفتاح على صادرات بلاد الاقتصاد الأكثر إنتاجية والأكثر حصولا على الدعم فى العالم، وخطوط التنمية بالطريقة السليمة -دون تبذير لموارد يفترض أنها ملكية شائعة-، وضغوط الشراء بأسعار عالية للبذور المعدلة لنفس البذور التى تستزرعها- ترى نفسها مضطرة بعد كل

ذلك لأن تحتفظ بسكانها داخل حدودها: لأن تحديد إقامة شعوبها هو بالفعل جزء من التعليمات التى يتعين عليها الانصياع لها.

على حين يتعين على كل شيء فى العالم المعاصر أن يكون قابلا للتبادل وعلى كل حيّ أن يتنقل لإنتاج الثروة وعلى كل بوابة أن تفتح أمام البضائع ورؤوس الأموال والخدمات لتتمكن من التحرك بكل حرية وبأقصى سرعة، فإن واجب الحرية هذا يعد عملة لا تتداول فى مجال حرية حركة الإنسان. فمن المعروف أن البشر تم إقصاؤهم من هذه الحركة الكلية التى هى بمثابة قلب العولمة. إن مديرى العالم المعاصر، وهم يرغبون فى التقليل من اتساع حركة الهجرة العالمية وهم يضفون عليها صفة المشكلة العظمى، يقيمون فى الوقت نفسه -مثلما يفعلون فى مجال الافتراض التكنولوجى- فاصلا فى تاريخ البشرية التى لم تتوقف عن التحرك من مكانها منذ أن وجد البشر على وجه البسيطة..

لكى نتمكن من تحليل كيفية إدارة الأمم الغربية لمسألة الهجرة يتعين أن نبدأ بالتذكير بكيفية تعقدها. إن الانكفاء على الذات، أولا، ليس خصيصة ينفرد بها الغرب. أغلب دول الكرة الأرضية تضاعف من الإجراءات التى تستهدف إثناء الأجانب عن الإقامة على أراضيها. منذ بداية الثمانينيات، تكاثرت عمليات الطرد المكثفة للسكان الأجانب عبر بلاد العالم. فى أفريقيا جعلت كل من نيجيريا والجابون من ذلك تخصصهما لفترة من الزمن، دافعين خارج حدودهما دون أى مراعاة لأى شيء، عشرات بل مئات الآلاف من البشر الذين أقاموا عندهما. ليبيا تستقبل وتطرد المهاجرين إليها من المصريين والتونسيين حسب تغير التحالفات التى تربطها مع البلدين اللذين قدموا منهما. فى عام 1997 أعادت سلطات سان دومنجو إلى حدودها على أسنة الرماح آلاف الهايتيين الذين جاءوا يبحثون عن عمل فى الجمهورية المجاورة لبلدهم المبتلى بالكوارث. وفى العام التالى حاولت كل من تايلاند وكوريا الجنوبية وضع حد للأزمة التى اجتاحتهما بأن صرفت من

بلادها عشرات الآلاف من الأجانب الذين دخلوها بطريقة غير شرعية. في أفضل الحالات لا يقبل دخول الأجانب إلا بالنزر القليل ويتم فرزهم حتى ينتقى من بينهم الأفضل أداءً فى العمل فقط. هذا هو الحال فى البلاد التى تشكل سكانها المعاصرون بواسطة الهجرة مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا التى لم تغلق حدودها قط وإنما أكثرت من عمليات الفرز بحيث تمنع دخول المهاجرين«عديمى النفع».

توجد أسباب عديدة لهذا الاتجاه الذى يعم الأرض كلها نحو الانكفاء على الذات. فمن المعروف أن الأزمات -سواء كانت حقيقية أو كان الشعور بها هو الحقيقى- تذكى البحث عن أكباش فداء وأن كل ما هو غير متماثل يصبح الـ «آخر» الرمزى الذى تحتاجه كافة العمليات الطقوسية لإخراج الشياطين من الأجساد. ومن المعروف أن التزاوج بين كُره الأجنبى -ويجب أن نقر أنه إحساس يعم العالم كله- والديماجوجية السياسية يمكن أن يؤدى إلى أكثر المآسى تطرفا: رفض الآخر. لم يكن الأجنبى لدى العديد من الحضارات سوى« الأعجمى»، المقبول أو المتسامح فى وجوده طالما أنه يؤدى خدمات لا غنى عنها للجماعة، ويطرد عندما تجد هذه الأخيرة أنه يمكن الاستغناء عنه. من جهة لم يكن للبشر أبدا سوى ميل محدود لمشاركة ممتلكاتهم مع الآخرين، وما أن يبدو أن الثروة الوطنية فى طريقها إلى الندرة، إلا واعتُبر الأجانب من الطفيليين، يستهلكون دون وجه حق جزءً من ميراث لا حق لهم فيه. وأخيرا شاركت الزيادة غير المسبوقة فى النمو السكانى على مستوى العالم عبر نصف القرن الأخير على أن أصبح من الأمور المحتملة فى أذهان الرأى العام حدوث غزوات ناجمة عن الانفجار السكانى فى بعض مناطق العالم، وعلى تضخيم الرعب من ازدياد خطر الهجرة لدرجة لا يمكن التحكم فيها.

القادة الغربيون هم أبعد من أن يكونوا الوحيدين الذين يمارسون السياسة التي تستغل هذه الأحاسيس والتي تحرك ما يعتقدون أنه المخاوف الشعبية، عندما يكونون غير قادرين على إيجاد حلول لمشاكل الساعة. بل إن وضع الأجانب في الغرب المعاصر يعد دون شك أقل هشاشة من مناطق العالم الأخرى. إن الاحتياطات من التجاوزات المتمثلة في فلسفة الإنسانية وعراقة دولة القانون تضع الانحرافات المناهضة للأجانب داخل حدود مازالت للآن ضيقة النطاق جدا. ومهما كانت الإجراءات التي تتخذ من أجل التخلص من الأجانب غير المرغوب فيهم متسرعة فإنها تظل أقل قسوة مما نراه يحدث في أماكن أخرى.

الغرب يعد في هذه الحالة أيضا مقرا للتناقضات. فهو يطرد ولكنه مضطر لأن يتحكم في موروثه الانفتاحي الذي مضى. إنه يحمي نفسه، ولكن الأجانب لم يعودوا في مدنه أجانب تماما. شوارع نيويورك ولندن وباريس أصبحت عالما مصغرا براقا للتنوع البشري. نزهة في ليلة عيد الموسيقى في باريس حيث يلقي فصل الصيف إلى الطرقات والشوارع شبابا هم خلاصة العالم كله، أو عصر يوم أحد من أيام الربيع في سنترال بارك في لندن عندما تزدحم الشوارع بهؤلاء الذين كانوا يوما من رعايا الإمبراطورية أو أبنائهم، يحكون عن تأصل هذا التنوع في جذور عميقة وعن سمته التي لا مفر منها ويؤكدون على تحويل العواصم الغربية إلى مدن عظمى يسود فيها معنى كلمة الكوزموبوليتية (أو حالة المدينة التي يتآلف فيها أشخاص من كافة أنحاء العالم) تعود الكلمة إلى معناها من جديد وهي الكلمة التي تمقتها كافة الفلسفات التي يتشدد فيها الإحساس بالوطنية. هذه المدن قد تكون المعامل التي يُبتدع فيها، على الرغم من التشنجات الشعبية وديماجوجية القادة ومع العنف أحيانا ومع تفاعل الثقافات أيضا، الوسائل المؤدية إلى ما بعد الوطنية.

مادامت الدول الغربية ليست وحدها التي تغلق حدودها في وجه الآخرين وأن الشعوب ذات الأصول الأجنبية قد تمكنت من الإقامة عندها بصفة دائمة، لماذا يثير

إغلاق الدول الغربية لحدودها كل هذه المناقشات الحادة ؟ ما السبب وراء حدة الانفعالات ولماذا يجد الرأى العام العالمي أن ما يحدث في أماكن أخرى هو عار عندها ؟ ثلاثة أنواع من الأسباب هي مصدر هذه المعاملة الخاصة: في نظر الشعوب التي كانت محكومة من قبل يعد التعامل مع هذا الملف في أوروبا بالذات -حيث إن التاريخ قد ترك آثارا مختلفة في الولايات المتحدة وكندا- ينم عن عدم تماسك وعن فقدان للذاكرة وهو قائم على معايير تتسم بالتفرقة العنصرية. ثقل ماضٍ يبدو أنهم يودون لو أنكروه بتقديس أراضيهم وهذا الشاسع الأبدى الذى يفصل بين أقوالهم وأفعالهم يفسر السبب في أن موقف الأوروبيين من مسألة الهجرة يبدو كما لو أنه من الامتيازات الإستثنائية التي تمنحها القوة العظمى لنفسها أكثر من كونه نتيجة تافهة للخوف الجماعي المتولد من عدم الاستقرار السائد في عصرنا هذا.

ثراؤهم الفاحش الذى لا يوجد له مثيل في أى مكان آخر في العالم يطبع أيضا رغبتهم في الانطواء على أنفسهم بعدم الشرعية. عندما يترك البشر الأماكن التي ولدوا فيها يذهبون إلى حيث يتسع المكان والرزق والثراء ونحو الحرية أيضا ولا توجد هجرة قط[31] تشذ عن هذه القاعدة. إن كانت فينزويلا أو سانت دومنجو أو ساحل العاج أو جنوب أفريقيا قد جذبت إليها أو أنها لا تزال تسحر سكان البلاد المجاورة لها فذلك لأنها أكثر ثراء منها وأنه يمكن كسب العيش فيها بطريقة مؤكدة أكثر عند الإقامة فيها. ولكن إذا كان التباين في الدخول بين سكان ساحل العاج وسكان بوركينا فاسو غير كاف لحث هؤلاء الآخرين على الهجرة، فلا يوجد بين رغد عيش البعض وفقر الآخرين سوى فرق في الدرجات فقط. الهوة ليست سحيقة بين

31. لا أتحدث هنا بالطبع سوى عن الهجرات التي تتم بإرادة من يقومون بها، أن الهجرات الإضطرارية بسبب الحروب أو إلى كوارث أخرى، فلها دوافع مختلفة.

أثرياء المنطقة والبلاد المحيطة بها الأقل حظًا، خاصة وأن الأوائل قد يرون دخولهم تتصهر حيث إنها تقوم في العادة على أسس هشة. كثيرا ما يطردون المهاجرين عندهم في الفترات التي تهزل فيها العجول. في جنوب العالم تبقى الحدود الجغرافية بين الثراء والفقر متحركة ويمكنها ان تتعدل طبقا لظروف الساعة. إنها لم تبدأ تتحدد سوى داخل كل بلد حسبما تزداد الفروق بين الطبقات الاجتماعية التي هي في حالة تكوين. الهجرات التي تتم داخل القارة الواحدة وهي تخص الأغلبية العظمى من المهاجرين في الأرض -وهو ما يجب أن نتذكره- تؤدى إذن بالفقراء جدا نحو مناطق أقل فقرا، ومنها يُرَحَّلون ما أن تهدد عودة الفقر هذه المناطق الثرية نسبيا وغير المستقرة. اتخذت مثل هذه التنقلات شكل حركة متسعة لبندول الساعة تتناغم بين الوتيرة المحلية لذهاب وعودة الثروة.

هذه القراءة لهجرات القربى لا تريد حجب التلاعبات الوطنية والعرقية التي يلجأ إليها قادة العديد من بلاد استقبال المهاجرين إذ يسعدهم تحويل إحباطات وغضب مواطنيهم ضد المجموعات الأجنبية، وهي تستهدف إثبات أن البلاد الأكثر ثراء تحتل في هذا المجال أيضا، مكانة خاصة، مادام ثراؤها ليس ظرفيا وأن عراقة هذا الثراء تضعها في منأى عن تذبذبات الظروف الآنية. أنانية هؤلاء الأثرياء البعيدين الذين يبدون وقد ملكوا كل شيء تظهر في صورة يصعب تبريرها بمقارنتها باستبدادية الجار المباشر.

خاصة وأن الغربيين يجعلون أنفسهم مرة أخرى حمائيين – عندما يكون ذلك في صالحهم. وأن التشدد في خطابهم حول ملف الهجرة يقع عند القطب المقابل لمديحهم للانفتاح الإقتصادي.. حمائيون هنا، وليبراليون هناك. إنهم لا يخشون التناقض في كلامهم عندما يخدم عدم التناسق هذا مصالحهم وهم يرفضون أن يروا أن هذه المتناقضات تزيد من أسباب الهجرة في البلاد الأكثر فقرا. ذلك لأنهم إذا

كانوا كارهين -من جهة- « لاستقبال كل بؤس العالم[32]» لكيلا يضطـــروا لتقسـيم ثرواتهم مع آخرين، فهم يحدّون من جهة أخرى من الإمكانيات التـــى قـد تسـمح لسكان الجنوب أن يصبحوا أثرياء فى بلادهم، كما أنهم لم يفعلوا الكثـير للتقريـب بين عالميهما. على العكس من ذلك نرى الهوة التى تفصلهما تزداد إتساعا. يعمـــل ازدياد الفوارق العالمية -أكثر من الفقر ذاته- كمحرك قوى للهجرة وذلك بأنه يسـد أى طاقة أمل أمام ملايين من البشر فى مستقبل أفضل داخل بلادهم. تشارك قـــوى الشمال فى هذا الصدد بأنها تحمى نفسها فى الوقت ذاته من منتجات ومن أبناء العـالم المسمى عالما ناميا وبأنها ترفض تعديل المنطق الذى يزيد من المميزات المتراكمـة التى تتمتع بها مما تجنيه من ثروة وسلطان، وبأنها تضيف إلـى العوامـل العديـدة الداخلية التى تزيد من حالة الفقر عوامل خارجية تضاعف لمرات مضاعفة أسـباب هذا الفقر وأثاره. لما كانت الأمور تتم فى مثل هـذا الإطـار، اسـتمرت فضيحـة إغلاق حدود بلاد الشمال ورفضها إدماج مسألة الهجرة فى ملـف الخـلاف بيـن الشمال والجنوب.

يضاف إلى عدم التناسق هذا فقدان مزدوج تاريخى للذاكرة يبدو هنـــا أيضـا غير محتمل بالنسبة للشعوب التى كانت ترزح من قبل تحت نـير الإمبراطوريـة الاستعمارية أو التى طردت من ديارها بسبب التوسع الأوروبى. عندما احتاج عـدد كبير من بلاد أوروبا إلى سواعد أجنبية، بعد عام 1945، استعانوا برعاياها. باســم هذه الروابط التى قامت -برغبتهم أو عنوة- عن طريق تاريخ إمبريالى طويـل أن استمرت إقامة مواطنى المســتعمرات القديمـة علـى أراضيـهم: إنـهم الـهنود والباكستانيون أو مواطنو جزر الهند الغربية الذين يتنزهون فـــى شـوارع المـدن

32. طبقا للتعبير الذى إشتهر للأسف لرئيس وزراء فرنسا الاشتراكى الأسبق ميشيل روكار، الذى أضاف -إحقاقـا للحق- أنه يتعين على فرنسا أن تتحمل جزءا من المسئولية (فى هذا البؤس) وهو الظلم الذى يوقعونه عليـــه عندمـــالا يذكرون ذلك.

الإنجليزية، إنهم المغاربة أو سكان مستعمرات أفريقيا السوداء السابقة الذين يقطنون بأعداد كبيرة ضواحى المدن الفرنسية الكبرى ومثلهم الأندونيسيون وكانوا فيما مضى من رعايا جزر الهند الهولندية أو السوريناميون من جيانا الهولندية الذين لهم أحياء فى أمستردام والزائيريون الذين لهم تقاليدهم فى بروكسل[33].

يوضح التاريخ هنا أنه لا يمكن وضع حد لإحدى حلقاته بقرار، وأن أثاره تتداعى لما بعد الأحداث التى تترك بصماتها عليه. الإقامة المستديمة للمجموعات غير الأوروبية فى قلب العواصم الاستعمارية الكبرى السابقة تدخل فى إطار تواصل حلقات مغامرة بدأها الأوروبيون وواصلوها بإشباع شهواتهم الحربية فى الاستيلاء على الأراضى والتى يرفضون اليوم تحمل مسئولية تبعاتها. تجدهم يسارعون بالحديث عن الروابط التى أقيمت فى الماضى عندما يكون الأمر متعلقًا بدعم نفوذهم على الأراضى المهمات الاقتصادية أو السياسية التى مازالت متمثلة فى قارات الجنوب (ظلت فرنسا لفترات طويلة تجعل من هذا النوع من الكلام أحد تخصصاتها وذلك لإعطاء غطاء شرعى تاريخى غامض لسياستها الأفريقية) إلا أنهم فى المقابل مستعدون للتعتيم على التاريخ عندما لا يدفع بتطوراته فى الاتجاه الذى يكون على هواهم. إذا كان كافة المسئولين الأوروبيين قد تحدثوا كثيرا منذ ربع قرن عن مخاطر الهجرة وإذا كانوا قد حرروا أبحاثا عن صعوبة دمج شعوب غريبة أكثر مما ينبغى عن الثقافة الأوروبية، فإن أحدًا لم يغامر بالتذكير بأن التيارات البشرية المعاصرة النازحة من الجنوب إلى الشمال لها علاقة بالأمواج التى إنحدرت من الشمال إلى الجنوب والتى هى من علامات القرن الماضى. ففقدان الذاكرة هنا كامل.

33. الوجود التركى فى ألمانيا يدخل أيضا فى إطار هذا الميراث التاريخى. إنها لم تستعمر تركيا بالطبع أبدًا، إلا أن علاقاتها الوثيقة مع الباب العالى فى زمن التحالفات بين الإمبراطوريات المركزية وأهمية المصالح الإقتصادية الألمانية فى تركيا بعد حكم العثمانيين تفسر هذا الميل المسيطر على المهاجرين الأتراك.

إنهم لم ينسوا فقط حقيقة أن الأوروبيين أقاموا فى السابق فى جميع أنحاء العالم« دون تأشيرات دخول[34]» وإنما هم يصمتون أيضا على اتساع حركة خروجهم إلى كافة أنحاء المعمورة جاعلين منها امتدادات لأوروبا إشباعا لاحتياجات توسعاتهم. إنهم لا يتحدثون عما عناه للقارة العجوز مغادرة 60 مليون من أبنائها لها قبل ما لا يتعدى كثيرا عن القرن الواحد[35]. إنهم يفضلون عدم إدراك أن هذه الهجرة الضخمة قد سمحت لهذه البلاد الأكثر إزدحاما بالسكان بالتقليل من خطورة الأزمات الاجتماعية المسجلة فى تحولاتهم السكانية وفى ثوراتهم الإقتصادية التى عمت ساحاتهم. لقد جلعت أوروبا من كوكب الأرض صمام الأمان لدخولها إلى القرن العشرين، والقول متسامح إن أوضح أنها تحظر على الآخرين إستلهام تجربتها للحد من آثار صدمات التحولات التى يعيشونها اليوم.

الأوساط السياسية الأوروبية تثير -على العكس من ذلك- موضوع الهجرة فى كل مرة تحتاج فيها إلى إيجاد تفسير بسيط لمشكلة لا تستطيع التحكم فيها. الأسوأ من ذلك -فى اليمين بالذات- وإن كان فى اليسار أيضا، أن جعل الظاهرة من أعمال الشيطان وضعها إلى جوار الأعمال الإجرامية الكبرى التى تنتمى إلى عملية معالجة الإجرام. جاءت أول مشاركة فرنسية فى النقاش حول تجديد إتفاقية لومى[36] مضمنةً الفقرة الأولى من« مكافحة أعمال التهريب الكبرى»« مخدرات، نقود مزورة، هجرات غير شرعية» واضعة هذه الأخيرة على المستوى نفسه لأخطر قطاعات الجريمة المنظمة. مجموع نصوص البلاد الخمسة عشر (الاتحاد)

---

34. نستخدم هنا كلمات وردت فى خطاب مفتوح أرسلته منذ بضعة سنوات قارئة لصحيفة يومية جزائرية (*الوطن*، بتاريخ 9 مايو 1994). عندما أرادت تمضية إجازتها السنوية عند صديقة لها من الفرنسيين الذين كانوا يقيمون فى الجزائر قبل الإستقلال (أصحاب الأقدام السوداء) رفض منحها تأشيرة دخول فرنسا دون إبداء أى أسباب ؛ وهى تذكر بكل كياسة فى خطابها، أنه إذا كان من حق كل أمة أن تختار الذين تود إستقبالهم، فإن مئات الآلاف من الفرنسيين قد« مدّوا إقامتهم لأكثر من مئة وثلاثين عاما دون تأشيرة عند الآخرين».

35. راجع فصل 3 من الكتاب.

36. *لومى 2000*، أول مشاركة فرنسية فى المناقشة بين الاتحاد الأوروبى والـ ACD، مارس 1997، مستند رسمى.

المتعلقة بتناغم لوائحها الخاصة بالهجرة تردد هذا الخطاب السطحى للأمور نفسه وغير الموات والمُسَطّح الشاحب عن الوجود الأجنبى على الأراضى الأوروبية.

حواجز ضد الآخر

لدى سماع تحذيراتهم من التهديدات التى يشكلها هذا الوجود قد يعتقد المرء أنه وجود ضخم. مع ذلك فهو متواضع، ليس فقط بمقارنته بضخامة الهجرات الأوروبية الماضية بالنسبة لعدد سكان ذلك الوقت، ولكن بمقارنته أيضا بعدد سكان أوروبا حاليا، كما أن الخطر الذى ينذر به الخطاب قد لا يعكس حقيقته العددية فيما بين 1960 و1980، أى عندما وصلت موجة الهجرة إلى أوروبا إلى ذروتها. فقد استقبلت نحو مليون أجنبى فى العام الواحد من مصادر مختلفة. فى نهاية التسعينات كان يوجد فى أوروبا 18 مليون مهاجر رسمى، ثلثاهم قادم من بلاد غير أوروبية أى ما يوازى 2.5% من مجموع السكان[37]. فى فرنسا، إذا أخذنا فى الحساب الأفراد الذين أخذوا الجنسية الفرنسية وأولئك الذين ولدوا فيها، أى إذا تم استخدام معايير التقدير الأكثر شمولا فإن[38] عدد السكان « من مصدر الهجرة» فى عام 1990 يصل إلى 6.1 مليون فرد، 40% ولدوا على الأرض الفرنسية. وإذا طرحنا عدد السكان ذوى الأصول الإيطالية والإسبانية والبرتغالية[39]، فإن غير

37. Gildas SIMON, «Les mouvements de populations aujourd'hui», *in* Philippe DEWITTE (dir.), *Immigration et intégration, l'état des savoirs*, La Découverte, Paris, 1999.

38. Micèle TRIBALAT, «Les immigrés et les populations liées à leur installation en France au recensement de 1990», *Population*, n° 6. INED, Paris, 1993.

39. طبقا لإحصائيات المعهد الفرنسى للتعداد والإحصاء INSEE وإعتبارا من إحصاء 1990، 55% من المهاجرين فى فرنسا كانوا من أصول أوروبية فى بداية عقد التسعينيات. يعنى المعهد من كلمة مهاجر « كل شخص وُلِدَ أجنبيا فى بلد أجنبى ويعيش فى فرنسا حتى لو كان فرنسيا». طبقًا لبيانات جاءت فى تقرير لوزارة الداخلية عن« أوراق الإقامة للأجانب فى فرنسا فى عام 1998 » (نقله *لوموند* عدد 17 ديسمبر 1999)، 38% ممن يحملون كارت إقامة هم حاليا من جنسيات الإتحاد الأوروبى، 36% من المغاربة، 7% آسيوين، و6% أفارقة (جنوب الصحراء).

الأوروبيين الذين قدموا عن طريق الهجرة يشكلون أقل من 7% من عدد السكان المقيمين في فرنسا.

نسبة المهاجرين القادمين من قارات أخرى غير أوروبا تقل عن 10% في كافة البلاد الغربية، إذ أن الولايات المتحدة، التي تظل قطب الهجرة الأول في العالم، كان يوجد بها عام 1996 -من كافة المصادر- 24.6 مليون أجنبي، أي 9.3% من إجمالي السكان. أستراليا وحدها هي التي تتعدى هذا الرقم، حيث يمثل المهاجرون ربع إجمالي عدد السكان في عام 1990[40]. وجود مهاجرين غير شرعيين لا يبدل من هذه النسب. إنهم يمثلون في أوروبا، حسب البلاد بين 10% و15% من أجمالي السكان المهاجرين[41]. في الولايات المتحدة قدرت إدارات الهجرة في عام 1997 بحوالي 4.5 مليون المقيمين غير الشرعيين أي 18% من مجموع السكان الأجانب.

هل يجب أن يعزى التواضع النسبي لهذه الأرقام إلى السياسات المقطّرة التي أعدتها أوروبا الغربية وبمقدار أقل الولايات المتحدة، أم أن التهديد بالهجرات الضخمة لا وجود له سوى في أدمغة الأثرياء الذين تهزهم تشنجات بارانويا الغزو؟ حتى لو أن إغلاق الحدود قد أدى دون أدنى شك إلى هبوط حاد في المد[42] الهجراتي فإن خطر الغزو لم يكن على الرغم من ذلك وبقدر كبير سوى وهم،

40. OCDE, *Tendances des migration internationales, rapport annuel 1997*, Paris, 1997; et DIVISION DE LA POPULATION DES NATIONS UNIES, *Trends in Total Migrant Stock*, New York, 1998.

قد تتغير المعطيات قليلا من مصدر لآخر دون أن يكون لذلك أثر على سلم الأرقام. يمثل الأوروبيون والكنديون حوالى 22% من السكان الأجانب المقيمين في الولايات المتحدة.

41. OCDE *Tendances...* تقارير سنوية 1997، 1998، 1999. ومع ذلك فإن المسئولين السياسيين يعتمدون على الوجود المفترض لمئات الآلاف من المهاجرين غير الشرعيين لتغذية الصور الوهمية في خيال مواطنيهم.

42. في فرنسا إنخفض عدد الإقامات القانونية من 000 135 في عام 1992، ومنهم 000 90 غير أوروبي إلى 000 68 في عام 1995 منهم 000 52 غير أوروبي طبقا لما هو وارد في إحصاءات إدارة السكان والهجرة في وزارة الشئون الإجتماعية.

خاصة وأن بلاد الشمال لا تجذب بهذا القدر الجماهير الأكثر فقرا من الجنوب كما يتصور الرأى العام فيها فى العادة -بقدر ما تجذب الصفوة وجزء من الشبان الذى يعرف بلدهم الأصلى كيف يوفر لهم فرصة عمل أو أنه غير قادر على ذلك. فى النصف الثانى من التسعينيات كان العمال المؤهلون للغاية يمثلون ثلاثة أرباع عدد من دخلوا شرعيا من الأجانب إلى الولايات المتحدة وخمسين فى المائة إلى بريطانيا وكندا حيث إنهم مطلوبون جدا فيها، أما النسبة فهى ضعيفة بشكل واضح فى أوروبا القارية وخاصة فى فرنسا[43] حيث يقل عددهم جدا. ومع ذلك فالغرب خائف أقل مما يعمل القادة على الإيحاء به، فهم -مهما كان موقعهم من الساحة السياسية الوطنية- ينهكون أنفسهم في محاولة سحب البساط من تحت أقدام يمينهم المتطرف بأن يقوموا بتنفيذ جزء من برامجه[44]، ولكنه خائف على كل حال.

خائف أولا من الذين ظلوا على الرغم من كل شيء « الآخرين». البلاد « ذات الخطر الهجراتى المرتفع» تنتمى جميعا إلى بلاد الجنوب وهى التى تغلق الحدود أمام مواطنيها. إنهم هم الذين يرغمون، من أجل الحصول على أقصر إقامة مدة على القيام بإجراءات منهكة فى القنصليات الغربية التى تجعل أتفه سفرة إلى

43. حيث لا تتعدى 15% (OCDE, *Tendances…,op.cit.*).

44. يميل القادة الأوروبيون بواسطة تصريحاتهم -التى كثيرا ما تتبعها الإجراءات- إلى إضفاء الشرعية على الخطب المناهضة للأجانب التى يطلقها اليمين المتطرف، وتتغير مرات إطلاق مثل هذه التصريحات طبقا للنسب التى يحصل عليها هؤلاء المتطرفين فى الإنتخابات. وفى هذه النسق يحتل اليسار مكانا مفضلا. فى الدانمارك التى يصل نسبة عدد الأجانب فيها إلى 5% من السكان -أعلبهم أوروبيون- لم يتوقف الحزب الاشتراكى-الديمقراطى من ملاحقة الناخبين الذين يحبذون الأفكار المناهضة للأجانب بأن شددوا عدة مرات التشريعات الخاصة بالهجرة. فى فرنسا: قرار قيادة الحزب الشيوعى لعام 1979 الذى طالب بإيقاف الهجرة، وتأكيد رئيس الوزراء السابق الاشتراكى لوران فابيوس فى منتصف الثمانينات على أن حزب الجبهة الوطنية يطرح «أسئلة جيدة»، وموافقة فرانسوا ميرتان فى 1990 على تقنين فكرة «السقف المسموح به»، وتسيير طائرات النقل « الشارتر» التى تحمل المهاجرين إلى خارج فرنسا من إيديت كريسون عندما كانت رئيسة وزراء، وتصريحات وزير الداخلية الاشتراكى جان بير شوفانمان عام 1998 متهما فيها المدافعين عن من كانوا بدون أوراق إقامة بأنهم « الجبهة الوطنية». كل هؤلاء -بين آخرين- قد جعلوا خطاب الحزب المتطرف عاديا وفسروا رفض الأجنبى فى أعين جزء من الرأى العام.

الشمال تشبه حملة المحارب. المهاجر غير الشرعي يُكتشف بالفراسة في الأحياء الساخنة من المدن الكبرى حتى لو أدى ذلك إلى توسيع دائرة البحث وإلى التفتيش الشخصي لمواطنين جعلهم حظهم العاثر قابلين للتعرف عليهم من الوجهة العرقية أو الجنسية. في كافة الأماكن يعد اللون أو سمار البشرة والاسم والسحنة أو اللهجة مؤشرات أكثر ضمانة للتدليل على " الحالة الأجنبية " من صفة الجنسية الواردة في جواز السفر أو بطاقة الهوية. في كافة الأنحاء الجميع يحمى نفسه من هؤلاء الذين يريدون الاستفادة من ثروات لا يريد أحد اقتسامها معهم ومن الذين يهدد وجودهم كسر تجانس الأمم الغربية حتى لو تباينت درجة الانكفاء على الذات من أمة لأخرى طبقا -كما سبق أن أشرنا- لتاريخ كل منها، وللنفوذ الذى تتمتع به حركات اليمين المتطرف ودرجة استخدام السياسة الخاصة بالهجرة أداة سياسية.

الولايات المتحدة التي تعرف بأنها شعب من المهاجرين وبنت جزءاً هامًا من الأسطورة الأمريكية على هذه الحقبة، لها قوانين أقل تقييدا من قوانين البلاد الأوروبية، كما أن الوجود القديم لأقليات عرقية كبيرة، مثل مجموعة السود، تجعل التمييز بين الأجانب والوطنيين عن طريق الفراسة أكثر صعوبة، كما أن تأصل التعدد الثقافي في المجتمع الأمريكي جعل تواصل تيارات الهجرة من أصول غير أوروبية أسهل فيها من أوروبا. المسائل المرتبطة بالترتيب الهيراركي طبقا للعرق والجنس ـ وهو أكيد ومتأصل ـ تدخل في الواقع في إطار نقاش موضوع وطني داخلي أكثر من كونها مشكلة مرتبطة بالوجود الأجنبي. إلا أن الولايات المتحدة تحاول ـ وبالطريقة نفسها التي حددت بها ولفترة تزيد عن نصف القرن، نظام " الحصص" (quotas) للحد من الهجرة غير الأنجلو-ساكسونية[45] فهي تحاول منذ

45. أول قانون هجرة داخلية (*Immigration Act*) جرى التصويت عليه عام 1882. قيد بشكل جذري الهجرة الكاثوليكية ومنع تماما تقريبا هجرة الصينيين. في عام 1921 "قانون المخصصات" (Quota Act) شجع الهجرة الأنجلو-ساكسونية. إعتبارا من 1948 حدث نوع من التراخي في نظام المخصصات العرقية، إلا أنه يرى اليوم شبابه يتجدد.

عدة سنوات أن تحمي نفسها من الهجرة اللاتينية-الأمريكية التى اعتبرت تدريجيا غير مرغوب فيها. فقد بدأت السلطات منذ 1994 تعمل على إيقاف تدفق نحو 300 000 فرد، أغلبهم من المكسيكيين يدخلون بطريقة غير شرعية كل عام إلى البلاد بأن شيدت حائطا إرتفاعه ثلاثة أمتار بطول الحدود ويتقدم البناء بسرعة عشرة كيلومترات تقريبا كل عام.

لا تقيم أوروبا ذات الحواجز لتحمي نفسها، بما أن البحر المتوسط يقوم بهذا الدور بالنسبة لراغبين في السفر من المغاربة وسكان أفريقيا جنوب الصحراء. إلا أن الأعضاء الخمسة عشر فى الاتحاد الأوروبى أقاموا درعا حقيقيا من القوانين واللوائح ليجعلوا الحدود أكثر حماية. بلاد الهجرة إلى الخارج مثل إيطاليا وإسبانيا والبرتغال، التى كانت فى البداية أقل قمعا من فرنسا والبلاد المتشددة الأخرى أصبحت الآن تسير على نهجها على أن تتولى توحيد القوانين داخل الاتحاد الأوروبى، عملية التوفيق الجارية، لتأخذ سياسات الهجرة لكافة دول الاتحاد اتجاها أكثر تعقيدا .. ولما كان كل أجنبى غير غربى يعد الآن مهاجرا فى حالة كمون فإن تأشيرات الدخول حتى لو كانت لفترات قصيرة أصبحت تمنح الآن بالقطارة. فى فرنسا كان عدد تأشيرات الإقامة القصيرة الممنوحة لسكان جنوب الصحراء 000 106 فى عام 1987 وأصبح 000 79 بعد ذلك بسبع سنوات، الجزائريون الذين حصلوا مثل كل عام على 000 800 تأشيرة فى عام 1989 رأوا هذا الرقم وقد أصبح 000 40 فى 1996 [46]. كما أن عدد الطلبة الأجانب المسجلين فى الجامعات الفرنسية لم يتوقف عن التقلص منذ نهاية الثمانينيات. فى عام 1995 كان أقل بمقدار الثلث عن عام 1991 وكان عدد مواطنى المستعمرات السابقة يزداد تقلصا.

---

46. صحيفة *لوموند*. 5 إبريل 1996 و21 فبراير 1997. إرتفع الرقم إلى نحو 000 150 ف 1999 بعد ما أدركت فرنسا مدى التأثير السلبى لهذه السياسة المالتوزيانية على علاقاتها الاقتصادية بالجزائر.

أما هبوط عدد الطلبة الجزائريين على وجه الخصوص فقد كان رهيبا إذ كان عـــدد الطلبة المقبولين منهن للإقامة 3662 طالبا فى عام 1991 فـــأصبح 545 فـــى 1996 وهو أقل من عدد الطلبة اليابانيين[47].

أكد وصول الأحزاب الاشتراكية إلى الحكم فى معظم البلاد الأوروبية الكـــبرى فى نهاية التسعينيات ضعف تأثير الخلافات الأيديولوجية علـــى مسألة الـــهجرات ووجود إجماع سياسى قوى حولها. لم تعدل حكومات اليسار فى بريطانيا وفرنســـا وألمانيا السياسات التى كان يجرى تنفيذها قبلهم سوى عند الهوامش. فى فرنســـا أدى ضعف عملية توفيق أوضاع المهاجرين غير الشرعيين التـــى بـــدأت عـــام 1997 وعنف تصريحات وزير الداخلية الاشتراكى ضد المطالبين بسياسة أكـــثر ليبراليـــة وإصرار الإدارات التابعة لوزارته على طرد المقيمين بصورة غير شرعية وعلـــى التشجيع الضمنى للإدارة لكى تفسر النصوص فى اتجاه تقييدى، منح لجـــان-بيـــير شوفانمان شعبية كبيرة فى صفوف اليمين. فى ألمانيـــا كـــان المستشـــار جرهـــارد شرويدر يحرك الأحاسيس الشعوبية المناهضة للأجانب حتى قبل وصوله إلى ســـدة الحكم فى أكتوبر 1998 وذلك لأنه كان يَعِد بموقـــفٍ حـــازم إزاء الأجـــانب غـــير المرغوب فيهم[48]. ثم اتخذ الخط السياسى نفسه الأكثر محافظة لـــدى ناخبيـــه بـــأن أصدر فى عام 1999 قانونا للتجنس الذى -وإن كان قد أنهى بالفعل أولوية حق الـــدم من أجل الاعتراف بالجنسية الألمانية- فهو لم يفتـــح ســـوى قليـــلا البـــاب أمـــام المهاجرين المقيمين فى البلاد..

---

47. تقرير لوبون من إدارة السكان والمهجرات بوزارة الشئون الاجتماعية. *الهجرة والوجـــود الأجنـــبى فى فرنســـا 1995-1996*. La Documentation française, Paris, 1996.

48. يجب ألا نكون على هذه الدرجة من التساهل إزاء المجرمين الأجانب الذين نقبض عليهم. لا يوجد غير حـــل واحد للذى يخرق قانون ضيافتنا: إلى الخارج وبسرعة كما جاء فى تصريح له عام 1997 (مذكور فى *لوموند*، 28 يناير 1999).

فيما عدا جماعات هامشية وقليلة العدد التى تتضمن جزءا من الحركة التى تجمع الجمعيات الأهلية وأحزاب الخضر التى تعلن انتسابها لليسار، فإن الصفوة السياسية الأوروبية تقف -بسلوكها هذا- على خط المعتقدات اليقينية نفسه لأسلافه من العهد الاستعمارى، الذين كانوا يقيمون -بضمير مستريح- حواجز لا يمكن عبورها بين « جنسها» والشعوب التى كانوا يعتبرونها« دنيا». اليوم: هؤلاء الذين كانوا يسمون فى الماضى " البيض " يستطيعون السفر والاستقرار إينما أرادوا فى أوروبا وفى أمريكا. الآخرون ليس لهم الحق فى عبور بعض الحدود. وبما أنهم غير مماثلين، فلا يمكنهم ادعاء حق المعاملة بالمثل والتساوى معهم. لا أحد بالطبع ـــ فيما عدا أقصى اليمين ـــ يعلن فى الغرب أنه عنصرى، بل إن رجال السياسة الأوروبية فى معظمهم مقتنعون بصدق أنهم ليسوا كذلك، تماما كما كان أباؤهم يعتقدون أنهم من تيار النزعة الإنسانية، ويعدون كلمة عنصرية من مفردات السباب؛ ومع ذلك فهم يرتبون، دون أى تردد مع ذواتهم، مختلف أنواع الأجانب طبقا للفكرة التى يكوّنونها عن انتساب هؤلاء لأوروبا. فى الغرب المعاصر، يعد « غير القابلين للاندماج» خطيرين بمقدار ما أنهم قد يغيرون من طبيعة الحضارة المرجعية. خاصة وأنهم يعيشون فى قلبها، وهم بذلك قد حلوا محل « الشعوب الدنيا».

مخاطر حق اللجوء

الأجنبى الغريب، ذلك الذى لا نعترف به على أنه من الأقرباء ولا نقبله -إلا إذا كنا مضطرين لذلك- يزداد بعداً إذا كان فقيرا، وهو بهذا يزداد اختلافا وبالتالى يتضاعف خطره. الفقر هو أبو الخطايا جميعا فى المخيلة البوررجوازية الجماعية وهو دائما مثير للريبة؛ الفقر يمكن تحمل وجوده عندما يكون محليا، ولكنه يعمق

من هوة التباعد عندما يكون أجنبيا.. ليس الخوف من الفقير المتشرد فى هذه الحالة أيضا إحدى خصائص الغرب فى عالم يدفع فيه تراخى الروابط الإجتماعية وتنامى عدم المساواة فى المدن إلى تزاوج الفقر مع الجريمة؛ ففى القارات جميعا يشكل الغريب الثرى مشكلة أقل إشكاليةً من مثيله الفقير، علما بأنه قد يكون هو أيضا كبش فداء[49]. فيعمل الجميع على حماية النفس من هذا الأخير أولاً، ولكن -ومن جديد- إن كان الغرب يشارك العالم فى خشيته من أن تلحق به عدوى الفقر، فإنه يتميز عن بقية العالم فى تأهبه الحازم للتضحية بالمبادئ -وهى بالمناسبة الشىء الذى يدعى أنه أفضل حامٍ لها- على مذبح مخاوفه أو مصالحه. المخاطر التى يتعرض لها حق اللجوء يعطى مثلا على مقدرة الغرب على تزويد ما هو كلىّ بحدود يَمْطُّ ويُقَصِّرُ من مجالها طبقا لكيفية إدراكه لأعدائه الحقيقيين أو المفترضين.

اللجوء -هذا التقليد القديم الذى عمل دائما، عبر الأزمان والأمكنة، على انتزاع من لا حماية لهم من أيدى مضطهديهم- حصل على مباركة الشرعية القانونية من الغرب هذا الذى انبثق من عصر التنوير والذى كلف نفسه بمهمة مكافحة الاستبداد. ففيما كانت الولايات المتحدة تُقيم من نفسها منذ نشأتها أرضا مباركة للحرية، كانت الأمم الأوروبية تتحول إلى رحاب تتقبل الآخر، بعد هزيمة الطاغوط واستسلامه فى كافة أنحائها لسلطان القانون. ولما كانت دول الغرب تشعر بأن لديها ما تلوم نفسها عليه من مخالفات فى حق المبادئ، ارتُكِبَت خلال الحرب العالمية الثانية، فقد زودت نفسها -فور انتهاء الحرب- بإجراءات تشريعية محددة، تتسم بالتسامح النسبى، تنظم بها حق اللجوء إليها، وهو الحق الذى وصل إلى أوجه فى فترة الحرب الباردة: كان المناضلون من أجل الحرية الذين يتمكنون

49. أتذكر هنا، فيما أتذكر، العداء الذى يثيره اللبنانيون فى أفريقيا الغربية وإلى التصرفات السيئة التى عانت منها فى السبعينيات الجاليات الهندية فى العديد من بلاد شرق أفريقيا، وخاصة فى أوغندا حيث قَدَّموا كفرائس لـ إنتقام السكان المحليين من القادة السياسيين الذين إستفادوا كثيرا من المتاجرة بكراهية الأجانب.

من الهروب من بلاد الشرق يُستقبلون، كما نتذكر جميعا، بترحـــاب علـــى جـــانبي الأطلنطي. بالاضافة إلى الأوروبيين استقبلت الولايات المتحدة عشرات الآلاف مــن الكوبيين المناهضين لكاسترو الذين أقاموا في فلوريدا: 000 160 من هؤلاء وصلــوا إليها فيما بين 1959 و1962 [50] وتنتمي أغلبيتهم إلى الصفوة من البيض المتعلميـــن والأثرياء؛ كانوا جميعا – سواء الأبطال المشـــهورون منـــهم أو المجـــهولون فـــى الصراع المناهض للديكتاتوريات الشيوعية– يستقبلون بكل ترحاب: فرنســـا لبـــت حينذاك 95% من حوالى 000 20 ألف طلب لجـــوء قدمـــوا لـــها فـــى منتصـــف السبعينات[51].

أعطى سقوط حائط برلين فى عام 1989 وانهيار الكتلـــة الاشـــتراكية إشـــارة التحول في التطبيق الغربى لحق اللجوء؛ فمنذ ذلك التـــاريخ لـــم يعـــد اللاجئـــون القادمون من الشرق تلك الورقة السياسية التى طالما لعب بها الغربيون ضد الاتحـــاد السوفيتى ومن يدورون فى فلكه، فقد أصبحوا غير مرغوب فيهم بمقدار ما ضـــاعف سقوط الحائط من عدد الذين يحلمون بالإقامة في الأراضى الذهبية لأوروبا الغربيـــة مطالبين من أجل الوصول إلى هذا الهدف بحق اللجوء فى الوقت الذى أرادت فيـــه هذه الأخيرة إيقاف كل صورة من صور الهجرة إليها. فقد تحـــــول ســـكان البـــلاد الشرقية من محاربين من أجل الحرية إلى لاجئين اقتصاديين يرفـــض الأوروبيـــون الغربيون استقبالهم بأى ثمن، لأنهم لم يعودوا الأشخاص نفسهم الذين يتهافتون علـــى حدود الإتحاد الأوروبى. فقد حلتْ كتلٌ غـــــير محـــددة الهويـــة حوّلـــها وضعُـــها الاجتماعي إلى غرباء غير مرغوب فيهم، محل أهوال صفوة من أوروبا الوســـطى والشرقية الذين جعلهم الجوار الاجتماعى والفكرى أولاد عمومة حقيقيين. من جهـــة أخرى كانت مخاطر التحول الديموقراطى التى دقت أجراس نهايـــــة ديكتاتوريـــات

50. «أمريكا المهاجرة»، *لوموند*، 23 مايو 1994.

51. إحصاءات المكتب الفرنسي للاجئين والذين بدون جنسية. (OFPRA).

مرحلة الحرب الباردة فى العديد من بلاد الجنـــوب، وكذلـك الـردات التسـلطية وتضاعف الصراعات المدنية التى حاقت بالعديد من مناطق الكرة الأرضيـة زادت من خطر تضاعف أعداد اللاجئين. إلا أن القوى الغربية لم تكـن علـى اسـتعداد لاستقبال هؤلاء المهاجرين الذين هم من نوعية جديدة، ولا يهربون مـن الشـيوعية ويأتون فى غالبيتهم العظمى من الجنوب.

كنت ترى إذن منذ التسعينيات تعايشاً فى الغرب بين خطاب سياسى تحتل فيـه حقوق الإنسان مكانة تتضاعف -بل إن الحروب تعلن اليوم باسـمها- وممارسـة تتزايد درجة تقييدها لمنح حق اللجوء الذى يخشى من -أن يفتـح بابـا- للـهجرة أسبابها اقتصادية. اهتم الاتحاد الأوروبى فى البداية بوضـع حـدٍ لمـدّ اللاجئيـن القادمين من بلاد الشرق القديم الذين وصلت قمة أعدادهم فـى عـام 1992 حيـث تقدموا بـ 000 700 طلب لجوء، ثم أوصد أبوابه أمام اللاجئيـن القـادمين مـن الجنوب الذين ازدادت أعداد من يطرقونها منهم. ففى عام 1994 لم تلـب بريطانيـا سوى أقل من 15% من طلبات اللجوء التى قدمت لها، فـى فرنسـا حصـل 4742 أجنبيا على وضع اللاجئين فى عام 1995 مقابل 000 15 فى عام 1991 أى بنسـبة 16% من عدد طالبى اللجوء[52]. طردت الولايات المتحـدة مـن أراضيـها خـلال التسعينيات بدون اعتبار لأى شيء وبصورة متكررة الآلاف مـن سـكان هـايتى، الذين هربوا من جزيرتهم الغارقة فى حالة مـن اليـأس الإجتمـاعى والفوضـى السياسية، ولكنهم كانوا أقل قبولا - من الناحية الإجتماعية والإثنية- مـن المنفييـن المناهضين لكاسترو.

من المؤكد أن العديد من الغربيين يعى تماما أن إيقاف التدفقات البشـرية مـن الجنوب نحو الشمال إيقافا تاما تعد من الآمال المستحيلة التحقيق، بل وأن مثل هـذا

---

52. *لوموند*، 27 فبراير 1996.

التصور غير مرغوب فيه، على الأقل بالنسبة للبلاد الذى لا يمكن إيقاف المنحنى السكانى المتدنى فيها سوى بالعودة إلى الهجرة إليها. إنهم يعون تماما أيضا أنه يتعيَّن عليهم أن يكيفوا أنفسهم مع وجود السكان المقيمين حاليا على أرضهم طالبين منهم أن يبقوا غير ظاهرين وأن ينصهروا فى أغلبيةٍ تعيدهم كل يوم إلى كيانهم كـ " آخر". ولكنهم يرغبون أيضا أن يتحوطوا من الآثار الممكنة للفارق بين دينامية الجنوب الديموجرافية والنمو الضعيف، بل والمنعدم، للسكان الذين من أصول أوروبية، وذلك دون معالجة للاختلالات فى الموازين العالمية التى تَحُضُّ سكان بلاد الجنوب على الرحيل.

النموذج المُستَجْوَب

بعد أخذ كل شيء فى الاعتبار يمكن القول إن التاريخ المعاصر للعلاقات بين الشمال والجنوب يتلخص فى حالة من الازدواجية الغريبة المتضاربة: فمن جهة لا يوجد -كما رأينا- سوى نموذج واحد للتطور، إذ أن وضع الغرب المُهَيْمِن سمح له بأن يُنَظِّر تجربته رافعًا منها صفة التفرد جاعلاً منها الطريق الأوحد المؤدى إلى التقدم الكلى. إنه الطريق الذى توج الغرب نفسه رائداً له ودليلاً عليه. من المؤكد أن النموذج يتعرض منذ أن وجد للهجوم ، إلا أن أحدًا لا يُشَكِّكُ فى منطقه ذاته، فلا النسخ المختلفة للاشتراكية ولا تلك الخاصة بما سمى بالفلسفة المناصرة للعالم الثالث ناقشت الصلاحية الممنوحة لأولوية النمو الذى إختلط مع فكرة التنمية أو أوجدت بديلا نظريا للتسلسل الذى يكاد يكون خطًا مستقيمًا واحدًا للمراحل التى تُفترض أنها توصل إليه. لاشك أن الصناعة الثقيلة فقدت من بريقها ولكن لايزال التفكير - ضمنيا كان أو صريحا- يتم بمصطلحات اللحاق بالركب ويظل المعيار

العالمي للرفاهية هو أسلوب الإنتاج ونمط الحياة الذي يعزف الغرب نغمته الصحيحة.

الوعي الجديد بنهائية الكوكب والاضطرابات التي حدثت نتيجة لإقحام شئون البيئة في مجالي السياسة والاقتصاد، وهو ما أدى إلى تغييرات هامة في استدلالاتهما وممارساتهما، لعله ينبئ بأن هذا النموذج قد بدأ يستهلك، فإذا حدث وتم تخطيه فسيعاد على الفور إلى وضعه المتفرد. إلا أننا لم نصل إلى ذلك بعد: الدول النامية-الفقيرة منها أو الناهضة، تلك التي تقدمت قليلا أو الأخرى التي ارتقت كثيرا. (تسمية التقدم والارتقاء تعطي برهانا إضافيا على اقتناع الغرب بأنه المثال الأوحد) تظل مدعوة إلى العمل بكل جهد للسير على النهج الذي خطه هو.

ما لا يُفصح عنه علانية هو أن تلك الطرق مسدودة: عند ترجمة الأمور إلى الواقع نجد أنه يستحيل على بلاد الجنوب انتهاج خطوط السير التي أوصلت الشمال إلى ما هو فيه الآن. يتعين مرة أخرى عدم البحث عن *نبلى* ماكيافيللي في موقف هذا الأخير، الذي لا يوجد لدى واضعي إستراتيجياته رؤيا واضحة لما يفرضونه على العالم. لكنهم لا يريدون أن يروا -وهذه هي المشكلة- عدم الاتساق الكامن في أن تقدم نفسك كنموذج لباقي البشرية وفي أن تحرمها -باسم المحافظة على مصالحك الخاصة وحدها- من استخدام الطرق التي أقام الغرب ثراءه بواسطتها. إن وجدت اليوم استحالة غربية واحدة، فهي إلزام الغرب للآخرين بأن يسلكوا طرقا لم تكتشف تاريخيا بعد لكي يصبحوا مماثلين له وهذا هو ما تتلخص فيه حتى الآن كافة المعاني لكلمة التنمية.

المجالات التي كانت فيها أوروبا وأمريكا الشمالية، ولا تزال، حمائية (أي في القطاعات التي تشعر أن مواقفها فيها هشة)، تجبر فيها بلاد الجنوب أن تفتح أبوابها

لمنافسة شاملة أثبت تاريخ الغرب كله أنها لم تكن أبدا عاملاً من عوامل «الانطلاق». المجالات التى أخذ فيها أثرياء اليوم حرية إخضاع الكوكب لهم والنهل من مصادره دون ما حد، يتعين على بلاد الجنوب أن تكتشف لأنفسها طرقا غير معروفة تؤدى لنماء خاص بها ومُقتصد، على حين أنها مجبرة فى الوقت نفسه على تحقيق معدلات أداء توازى على الأقل فى مستواها الرائع تلك التى حققها مرشدوها الذين سبقوها على الطريق. المجالات التى جعلت فيها أوروبا من الهجرة أداة رئيسية للنمو والإشعاع، ترغم فيها بلاد الجنوب على تحديد إقامتها فيها ويتعين عليها أن تجد حيثما هى وسائل رفاهيتها.

يجب ألا يخطئ أحد: النموذج الإنمائى الغربى الذى ظل إلى الآن يؤخذ على أنه الحق الموحى به لا يصلح لبسطه على الكوكب كله، وقد أزفت الساعة التى يتعين فها على البشر أن يبتكروا وسائل جديدة لإشباع احتياجاتهم وإرضاء طموحاتهم. دقت ساعة التساؤل حول غائيات نمو لم يجلب على الإنسانية فى مجموعها المكاسب التى خدعت بها. شعوب بلاد الجنوب -فيما عدا طبقات الصفوة فيها التى يستفيد جزء كبير منها من ديكتاتورية نموذج يعمل لصالحهم فقط- ستربح كل شىء فى أغلب الظن اجتماعيا وإنسانيا، إن هى حاولت ابتكار صيغا جديدة تصلح لإخراجها من طرق مسدودة دفعتها إليها وحبستها فيها المحاكاة المستحيلة، وإن هى فعلت ذلك بمبادرة منها دون انتظار مشاركات جديدة تفرض عليها عمل ذلك. بشرط واحد أن يدخل الأقوياء فى اللعبة.

لأنه لا يمكن -إلا إذا استخدمت القوة بطريقة منظمة- إجبار العالم كله تقريبا على إحترام قاعدة« إفعل ما أقول، لا ما أفعله». لا يمكن تقديم نموذج الرفاهية والحداثة له المتمثل فى السيارة، فى ذات الوقت الذى تمنع فيه عن سكانه إمكانية الحصول على وسائل شرائها وإجبارهم على عدم تنفيث الغازات التى تلوث الجو

فيها. يبدو من الصعب أن يحظر على بلاد الجنوب أن تسير على خطى الغرب في الوقت ذاته الذى يستمر فيه تقديمه على أنه نموذج لمستقبل الإنسانية. الخدعة الكبرى ليست في أن تطلب من الآخرين أن يفعلوا من الآن ما هو مختلف، وإنما في أن تطالبهم بأن يظلوا مجرد ناقلين أمناء لما تخط وأن يقدموا شيئا مختلفا في ذات الوقت.

لوضع حد لهذه الخدعة الكبرى يتعين على الغرب أن يصفى أحد تناقضاته الأخرى إن هو أراد أن يقنع مخاطبيه من نصف العالم الآخر بصحة وصفاته الجديدة. يتعين عليه أن يبدأ من عنده هو وبأن يناقش من الصفر طرق النماء التي كوّن بها ثروته والتي يخشى الآن تطبيقها خارج حدوده. في إمكانه أن يثني الآخرين عن أن يكون أملهم في تحقيق ذلك هو عن طريق نسخ النموذج الذي جعله كليا فيبطله. إنه برنامج واسع جدا، لا توافق عليه الآن لا شعوبه ولا رجال الصفوة منها، مادام لا يوجد في الشمال، كما رأينا، سوى أقليات ضئيلة قررت أن تتخطى مرحلة إنتقاد آثارها السيئة وأن تطرح التساؤلات حول جدواها الشاملة، ذلك لأن الرفض-الذى بدأ يظهر في البلاد الغنية- لرؤية النموذج ينتشر عالميا، لا يعني بالنسبة للأغلبية إعادة النظر في صحته. إنه يعكس الخوف من أن تعميمه يحتوى على مؤشرات غرق السفينة الذى سيكون الشمال أول ضحاياه. يرى الكثير من الغربيين أنه من المناسب منع عولمة النموذج الحاسم للنماء والاستهلاك حتى يضمنوا إستمراره فوق الأراضي المختارة التي شاهدته وهو يزدهر.

— 9 —

بداية النهاية ؟

أكثر ميزات السلطان لفتاً للنظر هى أن تكون حرا فى التلاعب فـــى الأوراق التى تقترح على شركائك اللعب بها. فالشمال، بصفته المعلــم الأعظــم فــى ذلــك النشاط، رأى على الرغم من ذلك أن العالم يتغير دون أن يتحكم فى كافة تطوراتـــه التى ليست بالضرورة فى صالحه جميعا. فالهيمنة لم تعد تصدر فرماناتها بالطريقــة نفسها التى كان يعمل بها فى عصر التقسيم الإمبريالى للعمل. ما يسمى العولمــــة – هذا المنطوق الجراب الذى يزج بكل شىء داخله والذى يتعين تحديد محتواه– قلــب رأسا على عقب كافة الهيراركيات الاقتصادية التقليدية، جاعلا حركة البضائع أكــثر أهميةً من إنتاجها ورأس المال النقدى محركاً للاقتصاد المعاصر. إن آثارها علـــى المجال السياسى ليست أقل أهمية، بما أنها تبدو مصدرَ تميُّعِ سلطةِ الدولـــة وإعـــادة النظر فى فكرة الأمة، لصالح تنظيمات جديدة لما هو آتٍ بعد الدول وما هو عـــابر للأمم وهى المنظمات التى بدأت ترى النور تدريجيا.

ولكن تحت رعاية من تجرى هذه التعديلات التنظيمية ؟ من ذا الـــذى يســتفيد ومن ذا الذى يتضرر من هذه الانقلابات ؟ من يخشـــى، ولمـــاذا، هـــذه الاعـــادات التشكيكية التى ينبىء القرن الجديد بحدوثها ؟ هل يتنازل الشمال عن بعـــض مـــن سلطانه فى هذه التغييرات أم أنه يعيد تجديد أسسها مرة أخرى ؟ إلا إذا كانت هـــذه العولمة، التى لا يعرف أحد من كثرة استخدام هذا التعبير ما يعنيه بالضبط، قـــادرة

على وضع حدٍ للتفرقة بين الشمال والجنوب بأن تمهد لقيام طبقة مسـيطرة علـى مستوى الكوكب كله تكون متحررة من مقتضيات الجغرافيا. هـل سـتبقى مراكـز العالم دون تغيير عما كانت عليه بالأمس؟ مستقبل الهيمنة الغربية القديمـة يتوقـف على هذا السؤال. لاشك ان العالم يتغير ولكن من غير المؤكد أن دوامتـه سـتطيح به.

الهيمنة التى خُدِشَت

توجد فى العالم بلاد منّ عليها الشمال بلقب الناهضة أى تلـك التـى تـنهض رسميا من تخلفها[1]. سيطول الجدل حول مسألة أن نعرف إن كانت هذه البلاد مدينـة بأدائها الحسن إلى الدقة التى طبقت بها الخطوط العامة للنموذج، أم إلـى مقدرتـها على تأميمه، أما المحللون الغربيون، وهم الأمناء على ثقافتهم الخاصة بالهيمنة، فقـد دأبوا على إرجاع نجاحات تلك البلاد المعجزة إلى مواهبها فى النقل وإخفاقاتها إلـى خصيصات ثقافية لم تتمكن مقدراتها المحاكاتية من تحييدها. رأى البنك الدولى فـى ارتقاء الاقتصاديات الآسيوية تجسيدا ماديـا لتفـوق الليبراليـة[2] علـى منافسـاتها الايديولوجية، على حين رأى آخرون، من غير المقتنعيـن بمناقبـها، -فـى هـذا الارتقاء- مادةً للدفاع عن دور الدولة فى بناء اقتصاد وطنى. القلاقل التى صـادفت هذه البلاد فى عام 1997 بدت الوحيدة التى لم تجد لها مرجعية خارجية، على حيـن لم تر أعين المحللين، فى الدور الذى لعبته رؤوس الأموال المضاربة، سـوى أنـه انحصر فى جوهره فى الكشف عن عيوب ذات طبيعة داخلية خاصة بهذه البـلاد. لما كانت البلاد الآسيوية الصناعية الحديثة قد وصلت مبكرة إلى السـوق العـالمى للمنتجات الاستهلاكية الجماهيرية، عاملةً فيها مميزاتها التنافسـية، فـهى اقتطعـت

---

1. البلاد الناهضة تتبوأ مركزًا أرقى من البلاد «النامية» فى الترتيب الذى يفترض أنه سيؤدى إلى وضعـها كبلـد «متقدم». الواقع أن تطور تجارتها -هذا الفن الاقتصادى الراقى- هو الذى أوصلها إلى وجود دول معترف به، قد يكـون بديلا عن تقبلها فعلا.

2. Voir BANQUE MONDIALE, *The Asian Miracle: Economic Growth and Public Policy,* World Bankd Policy Research Report, Oxford University Press, New York, 1993.

لنفسها مكانة لا يمكن تجاهلها، وهى مصممة على كل حال على استثمارها، وذلك على الرغم من المخاطر الظرفية التى قد تؤثر عليها سلبيا. فعلى خطى نمور آسيا الأربعة[3] فرض كل شرقى آسيا نفسه -عبر أجيال متعاقبة- كفاعل من الطراز الأول فى التجارة العالمية.

توطدت قوة شرقى آسيا التجارية فى الثمانينات. فى عام 1986 سجلت مجموعة البلاد النامية لأول مرة دخولا أكبر من صادراتها التصنيعية عن صادراتها من المواد الخام: إلا أن عشر بلاد فقط منها حققت 80% من هذه الصادرات وخمسة (تايوان وكوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغفورة والبرازيل) ما يقرب من 75% منها. عبر ثلث القرن الماضى يواصل الشرق الأقصى تسجيل النجاحات المتواصلة مما أثار حياله غيرة مشوبة بالقلق من الشمال الذى أخذ يقلق من ارتقاء يستطيع إضعاف مواقفه ذاتها. آسيا المتطورة فى مجموعها حققت -كما رأينا- ما يقرب من ربع التجارة العالمية، كما تمثل صادرات الصين وحدها 3.3% من الصادرات العالمية فى عام 1998.

فى مناطق أخرى من الجنوب وطدت قوى أخرى من مكانتها، ليس بسبب إنجازاتها بقدر ما هو بسبب مكانتها الديموجرافية والاقتصادية على الخريطة العالمية حيث لا تريد أن تؤدى عليها أدوارا ثانوية: الهند فى جنوبى آسيا -التى تراوحت نسب نمو ناتجها الوطنى الإجمالى بين 4% و5.5% فيما بين 1974 و1995 [4] -البرازيل فى أمريكا اللاتينية- التى عرفت، مثلما عرفت مجموعة بلاد نصف هذه القارة، نموا فوضويا - لم تعد تكتفى بوضعها كقوة محلية وهو الوضع الذى حجمتها داخله حتى الآن القوى العظمى الحقيقية. التوقعات التى تقدمها المنظمات الاقتصادية والمالية الدولية عنها تعطى لقادة هذه البلاد من الأسباب ما

---

3. سنغفوره وهونج كونج وكوريا الجنوبية وتايوان.

4. أرقام هذه الفقرة مأخوذة عن:

BANQUE MONDIALE, *Global Economic Prospects and the Developping Countries 1997*, Washington 1997.

يدعوهم إلى أن يكونوا واثقين من المستقبل. في 1997 أعلن البنك الدولي إعادة توزيع لبطاقات القوة الاقتصادية على مستوى الكوكب لصالح الخمسة« الكبار» الجدد، منهم ثلاثة آسيويون (الصين والهند وإندونيسيا) وواحد من أمريكا اللاتينية (البرازيل) وأوروبى واحد عائد (روسيا). فيما بين 1992 و2020، يرتفع الناتج الوطنى الإجمالى الصينى -طبقا لإحصاءات البنك- من 1.4% إلى 3.9% من الناتج الوطنى الإجمالى العالمى. وبالنسبة للهند، من 1% إلى 2.1%، ولإندونيسيا من 0.6% إلى 1.5% وبالنسبة للبرازيل من 1.7% إلى 2.5%. أما نمور آسيا القدامى (كوريا الجنوبية وسنغافوره وتايوان) فقد واصلت تقدمها إذ أن ناتجها الوطنى الإجمالى المتراكم سيزداد من 2.3% إلى 3.8% من الناتج الإجمالى العالمى فيما بين 1992 و2020، على حين سيزداد وزن النمور الحديثة (ماليزيا والفيليبين وتايلاند) إذ أن ناتجها الوطنى الإجمالى سيقفز من 0.8% إلى 2.4% من الناتج الإجمالى العالمى. من المتوقع إذن أن يمثل الناتج الوطنى الإجمالى الآسيوى[5] فى عام 2020 نحو 15% من الناتج الإجمالى العالمى مقابل 6.7% عام 1992. على الجهة المقابلة، من المفترض أن تشارك البلاد ذات الدخل المرتفع جدا فى تكوينه بنسبة تصل إلى 70.9% فى عام 2020 مقابل 84.2% فى بداية التسعينات.

يصبح هذا التقدم أكثر لفتاً للنظر إذا ما قدر الوزن الاقتصادى للبلاد باستخدام طريقة حساب مُكافئ القيمة الشرائية: فى عام 1995 كان وزن آسيا يمثل بالفعل، طبقا لهذه الطريقة،24% من الناتج الإجمالى الداخلى العالمى وتمثل أمريكا اللاتينية 9%. وكان صندوق النقد الدولى يتوقع عام 1997 أن تمثل الاقتصاديات الآسيوية وحدها 30% من الإنتاج العالمى فى عام 2000 [6]. نتيجة لهذه التطورات قد لا

5..دون وضع الشرقين الادنى والأوسط فى الحسبان.

6. إعتمد صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية فى التسعينيات هذه الطريقة التى تسمح بمقارنة أداء جميع بلاد الكرة الأرضية بطريقة مختلفة تماما ؛ كانت هذه التوقعات قد وضعت بطبيعة الحال قبل وقوع الأزمة التى حالت، فى السنوات الأخيرة من القرن، بالإقتصاديات الآسيوية وأدخلتها -فيما عدا الصين- فى مرحلة من الركود الإقتصادى. فى مجمل الأمر -إذا إلتزمنا بالمعايير الرئيسية التى تقلل باستمرار من أهمية الأثر الإجتماعى لهذا النوع من الأزمات- فإن المحللين يرون أن هذه الدول ستعود إلى طريق النمو فى السنوات الأولى من القرن الجديد، إذ يرى البنك الدولى (راجع: *Global Economic Prospects 2000, op. cit.*) أن البلاد الخمسة الأكثر تأثرا بالأزمة -إندونيسيا، ماليزيا، الفيليبين، كوريا الجنوبية وتايلاند- سوف تحقق نموا مقداره 5.2% كل عام فيما بين 1999 و2008.

تكون لمجموعة السبعة الكبار (G 7) شكلها الحالي نفسه، إذ أنها قد تضم أيضا أمما أخرى، مثل الصين والهند[7]، تصبو إلى أن تعود فتصبح من جديد القوى التي كانت في يوم من الأيام. الواقع أن أكثر بلدين تعدادا كانتا تعتبران أعظم قوتين إقتصاديتين في العالم في عام 1820. فإذا لم تتواصل الأزمة فإن آسيا ستعود في بداية القرن الواحد والعشرين إلى تبوء المركز التي كانت تحتله فيه قبل قرنين من الزمان عندما كانت تزن 32% من الناتج العالمي[8].

أهم الآثار المترتبة على هذه التطورات يسهل رصدها بالفعل: المفاوضات الدولية التي تواترت عبر التسعينات حول عدد من الموضوعات -من التجارة إلى البيئة- علا فيها صوت هذه الدول، مما أدى إلى إرباك الخطط التي وضعها في الشمال رجال الإستراتيجيات الذين يهمهم فقط الاحتفاظ في أيديهم بكافة الملفات ذات الأهمية الخاصة. ولما كانت بلاد الجنوب الكبرى قد نجحت أيضا في زيادة قدراتها العسكرية الإيذائية فهي تمتلك الآن أكثر من ورقة قادرة على الوقوف في وجه الشروط الاملائية التي كانت الدول المسيطرة في السابق تفرضها عليها.

ولكن هذه التطورات -على الرغم من أنه يمكن اعتبارها أحد أهم العوامل المؤثرة في الربع الأخير من القرن العشرين- لا تؤثر في الوقت الحالي في الهيمنة الغربية سوى عند هوامشها. من المؤكد أن الثقل المتراكم خلال بضع سنوات لهذه الدول الناهضة لا يمكن إهماله قط، كما أنها ستدعم مراكزها في العديد من القطاعات التصنيعية لدرجة أنها ستحتكرها تقريبا، طاردة منها القوى الصناعية القديمة. بل إن بعض هذه الدول الناهضة حقق ما هو أفضل من ذلك، مثل كوريا الجنوبية التي انتزعت نفسها من الفئة الدنيا للبلاد-الورش، واقتفت الآثار حتى

---

7. طبقا لتقديرات صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة والتنمية الأوروبية ستكون قوى الغد العظمى هي الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان والصين والهند وروسيا والبرازيل. علما بأن ترتيب أهم القوى العالمية الموضوع منذ عام 1992 بناءا على الـ PPA يضع الصين في المرتبة الثانية والهند الخامسة قبل فرنسا التي تحتل المرتبة السادسة. (راجع: (Angus MADDISON, *L'Économie mondiale 1820-1992*, OCDE, Paris, 1995).

8. *L'Économie mondiale 1820-1992, op. cit.*

وصلت إلى قمم بعض القطاعات وجعلتها من اختصاصاتها: إن« معدل الابتكار» في هذا البلد يعد من أعلى ما هو موجود في العالم، إذ أنه يحتل المركز الثاني لعدد براءات الإختراع التي سجلت فيه مقارنةً بعدد السكان[9]. في سنغافورة وفي بانجالور وفي كانتون عرفت آسيا كيف تصنع لنفسها أقطاباً من التكنولوجيا المتقدمة سمحت لها بأن توجد -حتى لو كان ذلك في تواضع- في المنافسة الدولية الحالية من أجل السيطرة على المعارف. إن سرعة نمو بعض أجزاء العالم قد تذكرنا بأن« إمكانية اللحاق» التي طالما توقع حدوثها رجال الاقتصاد التنموي، في سبيلها إلى التحقيق. تعد إعادة تغيير مقار بعض قطاعات الصناعات التقليدية الأقل تعقيدا من جديد وإقامتها في المناطق الأقل تقدما، داخل نطاق ما كان يسمى في الماضي العالم الثالث، إحدى العلامات الأكثر وضوحا للتدليل على هذا اللحاق بالمتقدمين.

هل تشكل هذه العلامات، معًا -بالإضافة إلى الهيمنة الديموجرافية لبلاد الجنوب- خريطة جديدة لمراكز القوى في القرن الواحد والعشرين؟ يصعب جدا -كما سبق أن أشرنا- على خريطة مراكز القوى، أن تحتفظ بنفس الخطوط التي كانت عليها في القرن الماضي، قد يحدث أن بعض الذين يعتقدون أن لديهم من الأسباب ما يجعلهم يدلون بدلوهم في نقاش سيشاركون فيه، ولكن لا يوجد إلى الآن ما يشير إلى أن هذه الخريطة ستتغير كثيرا. وإن كانت قد سمحت، في سعيها لأن تعكس الواقع في صورته الحقيقية الدقيقة، سمحت لبعض الدول بأن يكون لها حضور دولي، إلا أنه لم يترتب (بعد؟) على إعادة التوزيع المكاني للنشاط الصناعي والنمو الاقتصادي العالمي منذ ربع قرن، تقسيم جديد للسلطة في العالم. إذ أنه من المناسب بالفعل أن نضع نقل صناعات الجيل الأول إلى الجنوب في

---

9. معادل تسجيل براءات الاختراع لكل 10 000 مواطن يقاس به معامل القدرة الإبتكارية؛ تأتي كوريا الجنوبية فورا بعد اليابان: 13.2 براءة إختراع مسجلة عن كل 10 000 مواطن في عام 1995 (المنظمة العالمية للملكية الفكرية)، (مذكورة في مجلة *L'Expansion*، عدد رقم 548 بتاريخ 30 أبريل - 14 مايو 1997).

إطارها الصحيح، حيث أن النشاط الصناعي العالمي ينقسم إلى فئتين يزداد اضطراد عدم التماثل بينهما. ففي جنوب الكوكب تتركز اليوم مجموعة الصناعات المنتجة لسلع ذات قيمة مضافة متواضعة ولكنها مستلهكة ضخمة لليد العاملة ذات الكفاءة المتباينة الدرجات والتي يتخلى عنها الشمال بالتدريج مركزا طاقاته وأمواله في التصور الفكري وفي عمل صناعات جديدة في مجالات الاتصال والمعرفة وهي المجالات التي يعمل على ضمان احتكارها. بل إن كل شيء يشير إلى أن هجرة الصناعات التقليدية قد سهل مرور قوى الشمال إلى الثورة التصنيعية الثالثة.

في التقسيم الدولي الجديد للعمل الذي نفذ عبر الثلاثين سنة الماضية، يبدو أن عددا من بلاد الجنوب التي أصبحت صناعية اليوم قد تركت في واقع الأمر زراعة المحصول الواحد التي كانت مجبرة عليها في الماضي، من أجل نوع من «المحصول الصناعي الواحد» الذي يجعلها تتخصص في تصنيع وتجميع السلع الاستهلاكية المعمرة. واقع أن 60% من صادرات بلاد العالم النامي تتكون حاليا من سلع مصنعة لا يشير في حد ذاته إلى حدوث إعادة توزيع على خريطة السلطة الاقتصادية العالمية. النتيجة الرئيسية لهذا التوزيع الجديد لتقسيم العمل تتمثل في أنها أسرعت من التباين -داخل الجنوب ذاته- بين بعض المناطق -مثل أفريقيا جنوب الصحراء وجزء من أمريكا اللاتينية والكرايبي- التي تظل متخصصة في المنتجات البدائية الخاصة بالطاقة والزراعة أو المناجم على حين أصبحت بلاد أخرى ضمن أهم البلاد الصناعية في العالم. عملية تصنيع هذه الدول -التي دفعت (وهو ما يجب عدم إغفاله قط في التكلفة الاجتماعية والبيئية ثمناً عالياً- غيرت دون أدنى شك كثيرا من الأمور؛ فهي بإعطائها حلولاً جزئية لمشاكل محورية مثل العمالة وبإيثارها تنمية الطبقات الوسطى في المدن وتكوينها لأسواق داخلية هامة، قد عدلت من هيئة الجنوب الصاعد الذي يريد أن يكون له وجود مختلف ووسعت المسافة التي تبعده من جنوب الجنوب الذي تَكَلّس في وظائف ورثها من التقسيم الإمبريالي القديم للعمل.

لكن *الماكيلادوراس*[10] المكسيكية والمصانع الصينية الضخمة للعب الأطفال التى أصبحت الصين منتجها الأول فى العالم ومصانع تجميع التليفزيونات والكومبيوترات الصغيرة فى تايبيه وسيول والمنشآت الماليزية أو الهندية لشركة تصنيع الأحذية نايكى لا تكفى لإحداث تعديل عميق فى علاقات القوى القديمة. فى خلال عشرين عاما سيكون ثقل أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان قد زاد عن نصف[11] الناتج الوطنى الإجمالى العالمى وسيكون هيكله قد تغير كثيرا وستكون قد دعمت -فى أغلب الظن- من مراكزها داخل النشاطات ذات القيمة العالمية. وحتى القطاعات التى كانت قد تركتها لبلاد الجنوب المختلفة تعود فتحتفظ أو تسترد الفروع الأكثر إضافة للقيمة مثل النسيج الراقى أو المنتجات الغذائية الزراعية ذات الجودة العالية. كما أن تفوقها يظل ساحقا فى قطاع الخدمات بما أنها تضطلع بـ80% من صادرات هذا القطاع عالميا بما فى ذلك السياحة[12] ؛ وهى لا تزال تحتل موقعاً مركزيا من كل ما يجلب الثروة ويضع بذلك فى ذات الوقت الأسس التى سيقوم عليها سلطانها القادم.

السلطان الاقتصادى يتركز فى الشمال، وهو يتركز حاليا فى الشمال فقط. ملكية الشركات عابرة القارات لا تغير من الأمر شيئا: تناثرت نشاطاتها فى عدة أماكن من العالم وتشكل منشآتها قطاعا متزايد الأهمية من نسيج بلاد الجنوب الصناعى إلا أن مديريها ومالكيها ومقارها الرئيسية ومعاملها خرجت عن نطاق أى تبديل فى أماكن منشئها؛ 94% من أكبر 500 شركة عالمية التى تمثل دورة رأسمالها التراكمى فى عام 1995 47% من الناتج العالمى[13] تمتلكها البلاد المسماة

---

10. تسمية لمصانع إعادة التجميع التى أقامتها على طول خط الحدود مع الولايات المتحدة الشركات الأمريكية، مستغلة التكلفة الضعيفة لليد العاملة المكسيكية وقوانين أقل تشددا فى المجالين الاجتماعى والبيئى.

11. سيبلغ الثلثين، طبقا للحساب الكلاسيكى لنسب استبدال العملة.

12. BANQUE MONDIALE, *World Development Indicators 1999, op. cit.*

13. BANQUE MONDIALE, *Rapport sur le développement dans le monde 1995, Workers in an Integration World,* Washington, 1995.

« بلاد الثالوث» وتحقق بها ثلاثة أرباع القيمة المضافة[14]: من بوينج إلى الايربلص أو ميكروسوفت، لا توجد مؤسسة واحدة ذات نشاطات تعتبر إستراتيجية ليست قادمة من الشمال ولا تحتفظ بجوهر نشاطها فيه. شركة نوفارتيس -أولى أهم عشرين مجموعة دوائية في العالم- سويسرية الجنسية؛ ميرك وشركاه، هي الثانية وهي أمريكية، جلاكسو ولكام الثالثة، بريطانية. عشر من هذه الشركات العملاقة أمريكية الجنسية، إثنتان منهما سويسرية، ثلاث بريطانية، ثلاث ألمانية، سويدية واحدة وإحداها مزدوجة الجنسية فرنسية-أمريكية[15]. أما قطاع الاتصال ذو الأهمية المعروفة، فمن الأمريكية AOL إلى الألمانية الأمريكية بيرتلسمان أو الفرنسية هاشيت فهو واقع بأكمله تحت سيطرة شركات من الشمال.

الشركات العالمية الكبرى لها إذن جنسية. قد يضطرها واجب الربحية الذى يسيطر على إستراتيجياتها إلى تغيير مقار إقامة أجزاء كاملة من نشاطاتها حسب الفرص المتاحة أمامها، ومع ذلك فإن أهم المستفيدين من إزدهارها يبقى باستمرار بلد منشئها حيث يتم فيه الجزء الأكبر من عوائد إستثماراته[16] وحيث تتراكم آثار الإثراء والسلطان والسلطة. دول الشمال تعى ذلك تماماً وهي التى تعمل كل ما فى وسعها لزيادة تأثير مؤسساتها وتفتح الأسواق أمامها، عاملة فى ذات الوقت على حمايتها -داخل حدودها الوطنية- من المنافسة الأجنبية.

---

14. *Fortune Global 500* (cité par Michel BEAUD, *Le Basculement du monde*, La Découverte, Paris, 1997).

15. *لوموند*، 21 أكتوبر 1999. لما كانت عمليات الدمج تغير تماما من شكل هذا القطاع فقد إنحصر للغاية عدد المؤسسات الضخمة العاملة فى مجال التكنولوجيا الحيوية.

16. بالنسبة للولايات المتحدة إرتفعت نسبة عائد الإستثمارات الموجودة فى بلاد الجنوب إلى 14% فى عام 1997، مقابل 12.3% بالنسبة للإستثمارات الأمريكية فى الخارج ؛ كانت هذه النسبة 25.3% فى أفريقيا (فيما عدا جنوب أفريقيا) و16.2% لآسيا والباسيفيكى و12.5% بالنسبة لأمريكا الجنوبية والكاراييى راجع:
(CNUCED, *Foreign Direct Investment in Africa: Performance and Potential*, CNUCED, New York/Genève, 1999).

من الناحية الموضوعية، كان تحويل الشركات إلى مؤسسات متعددة الجنسيات يؤخذ حتى الآن على أنه جهاز عملاق يعمل على تراكم الثروات لصالح هؤلاء الذين كانوا يتحكمون بالفعل فى الاقتصاد العالمى. على الرغم من أن الوضع الأفقى للشبكات العالمية يكاد يحل محل التركيبات الهيراركية العمودية القديمة، فإن ثورة وسائل الاتصال قد تعمل من أجل الديموقراطية فى مجال الحصول على المعلومات، إلا أن مراكز أجهزة الكومبيرتر الرئيسية التى هى فى سبيلها إلى تغيير وجه الأرض، لا تزال موجودة فى الشمال ولا يبدو فى الوقت الحالى إذن أن المخطط الجديد للقوة العالمية سيؤدى إلى تمييع القوى المهيمنة التقليدية. كل ما يمكن أن يحدث هو أن بعض بلاد الجنوب الكبرى ستبدل مراكزها القديمة كمستعمرات إلى دول ذات مكانة أقل تدنيا وأكثر ربحاً وكشريكة فى بعض المجالات والتى يتعين على الشمال أن يعمل لها حسابا من الآن فصاعدا.

جحافل الأعداء

قد يكون التطور الذى حدث هاما إلا أنه لا يرقى إلى أن يكون مدهشا، ومع ذلك فقد كان كافيا لأن يسمح للمستفيدين القدامى من الوضع الثابت على ما هو عليه بأن يتوقعوا مستقبلا أقل تمييزا لهم: وهل يتعين اعتبار ذلك قلقا سينقشع قريبا أم أنه حدس ينبئ بثورات قادمة على الطريق ؟ إن ردود فعل« الآخرين» لهيمنته تشكل منذ زمن طويل جزءاً لا يتجزء من تاريخ الغرب. الذاكرة الجماعية لم تنس أن الغزوات قابلتها مقاومات وأن من تم السيطرة عليهم تمردوا عددا من المرات أكبر بكثير مما تذكره الكتب المدرسية. كما نعلم أن العالم الثالث -رحمه الله- أعاد فتح باب النقاش، عندما كان فى أوج مجده، حول علاقات الهيمنة التى كانت تربطه بسادته السابقين، واعتُبِر هذا الجدل فى حينه تهديدا للوضع القائم ... فتم إجهاضه.

الأخطار أضحت ذات طبيعة مختلفة. فعلى حين كانت المطالبة الصاخبة بنظام عالمي جديد قد نجحت في أن تصبح جزءا من اللعبة، عادت دول الجنوب التي تعد اليوم الأكثر تهديدا هي التي تعمل على الإندماج في النظام العالمي بأن تعتمد قواعده، وهي التي تستغل انفتاحاته لكي تهدم تسلسله الهيراركي وتهدد توازناته .. الذين فضلوا الاقتداء بنموذج لم يتوقف التغني لهم بمزاياه لحظة واحدة -أي النجباء من التلاميذ- أصبحوا الآن مصدرا للخوف أكبر من الخوف الذي يثيره هؤلاء الذين رفضوا الاقتداء بالنموذج المذكور. فمهما كان ارتقاء أكثر بلاد الجنوب تصنيعا على سلم القوة عاليا، فسيظل نسبيا مثلما هو نسبي أيضا وجودهما المتزايد بريقًا في الأسواق العالمية وكذلك منافساتها لمنتجات الشمال، ومع ذلك فإن المجتمعات الغربية تعيش كل ذلك كصدمات لها مؤلمة للغاية. كما أنها عايشت هجرات بعض النشاطات نحو بلاد الجنوب عبر العقود الثلاثة الماضية على أنها تجاوزات غير مقبولة لنوع من قوانين الطبيعة التي تعطيها الحق في إحتكار الإنتاج الصناعي العالمي وعلى أنها تحويل للثروات لا يقل إثارة للخزي عن هذه التجاوزات.

اتهم الإنفتاح الاقتصادي العالمي بأنه المسئول عن تشجيع المنافسة «غير الشريفة[17]» من جانب القادمين الجدد لأنه هدم الحواجز التي كانت تحمي البلاد الصناعية القديمة من منتجاتهم. اعتبرت إعادة توطين المصانع -التي هي من بواكير المظاهر وأكثر خبثا في تعبيرها عن العولمة- مسئولةً عن كافة الأمراض الإجتماعية التي بدأت تهز استقرار المجتمعات الصناعية ابتداءً من منتصف السبعينيات في الوقت الذي بدأ فيه أول تنين آسيوي ينفث لهيب ناره: فبالإضافة إلى خطب رجال النقابات الذين كانوا أول من شجب هذه المنافسات، واظب

17. منافسة إقتصاديات الحرب يعتبرها الخطاب الأوروبي والأمريكي الحالي دائما «غير شريفة». وفي المقابل يقال دائما عن منافسة بلاد الشمال لهذه الاقتصاديات أنها رد على «قلة الشرف» هذه أو أنها دفاع «شرعي» عن المصالح الوطنية أيا كانت.

المسئولون الرسميون على اعتبار الدول الصناعية الجديدة مسئولة عن القلاقل التي تهدد أمان مواطنيهم على مرتباتهم. وضع كل المسئولين السياسيين والاجتماعيين في أوروبا والولايات المتحدة مسألة إعادة التوطين في قلب الجدل الدائر حول زيادة البطالة التي لم تتوقف في البلاد الصناعية الكبرى -فيما عدا اليابان- عبر الثمانينيات بأكملها وبداية التسعينيات. نشرت المفوضية الأوروبية، وكانت برئاسة الفرنسي الإشتراكي جاك ديلور في عام 1993، «كتابًا أبيض» عنوانه مثير:«نمو ومنافسة وعمالة»، قدم فيه بزوغ إقتصاديات تصنيعية في جنوب الكوكب على أنه أحد الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى انفجار البطالة في أوروبا. في نفس العام أشار تقرير برلماني فرنسي[18] إلى إعادة تركيب المصانع في مواطن أخرى ليحول ثورة غضب أصحاب الأجور المهددين في معيشتهم ضد تلك العملية. في عام 1994 أكد تقرير السنوي للندوة العالمية الاقتصادية في ديفوس من جانبه على التهديد الواقع على الاقتصاديات الغربية من منافسة البلاد الصناعية الجديدة لها.

أصحاب تلك الأقوال يتناقضون فيما بينهم حول أكثر من نقطة في هذا الموضوع. فالنقابات الغربية تعلن أنها تتضامن مع تطلع شعوب الجنوب إلى حياة أفضل وفي نفس الوقت تحتج، في توافق كامل فيما بينها، على أي نقل لنشاطات قد تؤدي إلى رفع مستوى العمل لدى تلك الشعوب. هكذا بررت النقابة المركزية في الولايات المتحدة AFL-CIO، خلال النقاش الذي سبق في عام 1993 إعتماد إتفاق التبادل الحر الأمريكي الشمالي (ALENA)، مناهضتها للإتفاقية، لأنها تخشى من رؤية الصناعات الأمريكية تهاجر إلى المكسيك. فالتشكيلات النقابية -وهي على حق في خوفها من ازدياد البطالة- تبرر رفضها لإعادة تشكيل سوق العمل العالمي

18. Jean ARTHUIS, *Les Délocalisations et l'Emploi*, Éditions d'Organisation, Paris, 1993.
في عام 1994 جاء تقرير برلماني آخر حرره النائب ويلي ديميلير أقل نقدا لإعادة تركيب المصانع في مواقع أخرى وطالب بالإسراع بادخال المغرب والـ PECO في الإقتصاد الأوروبي. إلا أن هذه الدراسة لم تلق الشهرة التي عرفها تقرير أرتويس.

الشروط التى تضعها الشركات الغربية للعاملين بها عندما تبحث تلك الشركات عن أجور قليلة التكلفة. إلا أن تلك النقابات تظل لا تنبس ببنت شفة عندما يتعلق الأمر بأنسب الطرق المؤدية إلى تقسيم الإنتاج والعمل والدخل المترتب عليهما بالطبع فى تلك المناطق من العالم؛ وهى مناطق أدى الانفجار السكانى فيها إلى أن العاملين يخشون من إقصائهم بعيدا عن سوق العمل أكثر من خشيتهم من الاستغلال.

يردد ممثلو العالم الزراعى فى أوروبا وأمريكا خطابا مماثلا ويثيرون موضوع ضرورة حماية المزارعين الوطنيين إذا ما ظهرت على بلاد الجنوب بعض الإرهاصات التصديرية التى من شأنها منافسة زراعة الشمال، ولكن لا تفوتهم فرصة واحدة للتأكيد على نزعتهم التصديرية كلما أرادت السلطات السياسية تخفيض كمية الفائض المخزون لديها. ولا يتردد القادة الغربيون-وهم فى أغلبيتهم من مؤيدى نمو التبادلات السلعية العالمية وهم القائمون بدور المُروِّج لبضائع شركات بلادهم- فى تحميل صادرات الجنوب مسئولية البطالة المنظمة التى تئن بلادهم تحت وطأتها.

شقاء الشمال

أدت هذه الأحاديث والخطب معًا إلى تدعيم فكرة أن هجرات المصانع نحو قطاع من الجنوب قد يرجع إليها السبب فى التقليل من تصنيع الشمال مما أدى إلى الكوارث الاجتماعية التى طال الحديث عنها وإن أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، عندما توقفتا عن إنتاج العديد من البضائع الاستهلاكية لكى تستطيعا أن تتسوقا بثمن أقل خارج حدودهما، قد حكمتا على نسيجهما الصناعى بالموت المحتوم. تفقد هذه النظرية من مصدقيتها إذا ما علمنا أنه فى عام 1997، أى بعد ربع قرن من إعادة توطين المصانع كان الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة واليابان تستورد معا

ما قيمته 514 مليار دولار من المنتجات المختلفة المصنعة في بلاد الجنوب وفي بلاد أوروبا الشرقية أيضا[19]، أي ما قيمته تـوازي 10% من القيمة الإجمالية لتبادلات البضائع والخدمات العالمية. من 1972 حتى 1992 أدت هذه الواردات إلى تخفيض الطلب على اليد العاملة غير المؤهلة فيها من 3 إلى 9 ملايين أي إلى نسبة 4% [20] من إجمالي يدها العاملة. في الولايات المتحدة أشارت أكثر التوقعات تشاؤما في عام 1993 إلى اختفاء 000 500 فرصة عمل خلال السنوات العشرة التالية لدخول اتفاقية أمريكا الشمالية ALENA حيز التنفيذ أي ما يمثل 0.5% من إجمالي المعروض من الوظائف على الأمريكيين[21].

من المؤكد أن الصناعات المنتجة للسلع ظلت منذ ذلك الحين تفقد فرص عمل: في عام 1998 خسر قطاع النسيج والملابس في الاتحاد الأوروبي 2% من 2.2 مليون عامل فيه، يمثلون نحو 10% من اليد العاملة التصنيعية في الاتحاد[22]. غير أن لا هذا الانفتاح التجاري النسبي للقوى الصناعية ولا الآثار التراكمية لكل عمليات إعادة توطين المصانع تستطيع وحدها تفسير وجود 35 مليون عاطل في بلاد منظمة التجارة والتنمية الأوروبية في عام 1998. فقد رأت فرنسا، على سبيل المثال، عدد عاطليها يتضاعف ثلاث مرات فيما بين عامي 1975 و1995 على حين كانت نسبة انفتاح إقتصادها تزداد بنسبة 3% وترتفع وارداتها عبر هذين العقدين من 18% إلى 21% من ناتجها الداخلي الإجمالي[23]. يبدو أيضا التقليل من درجة تعرية البلاد الصناعية القديمة من مصانعها نسبيه جدا إذا ما علمنا أنها لا تزال

19. Banque Mondiale, *World Development Indicators 1999, op. cit.*

20. Banque Mondiale, *Rapport sur le développement 1995, op. cit.*

21. Paul Krugman, *La Mondialisation n'est pas coupable. Vertus et limites du libre-échange*, La Découverte, Paris, 1998.

ويمكن مقارنة هذه الأرقام بالستة ملايين عملا أوجدتها الولايات المتحدة في قطاع الخدمات فيما بين 1970 و1990 (Banque Mondiale, *Rapport sur le développement dans le monde 1995*).

22. المراقب الأوروبي للنسيج والملابس الجاهزة، مذكور في عدد 31 أغسطس 1999 من صحيفة *لوموند*.

23. OCDE, *Perspectives économiques 1997*. Paris, 1997.

أحد أهم منتجي العالم من البضائع المصنعة. وإذا كانت الصين قد ارتقت خلال عشرين عاما إلى مكانة الريادة في تصدير الملابس ووصلت تركيا إلى الصف الخامس في هذا المجال فإن الموقعين الثالث والرابع يحتفظ بهما الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة، على حين احتل الاتحاد الأوروبي في عام 1998 المركز الثاني لمصدري النسيج في العالم[24].

الحقيقة هي أن شركات البلاد الصناعية قد وجهت 80% من استثماراتها الخارجية نحو دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE خلال الثمانينيات والتسعينيات، مخصصة جانبا متواضعًا من هذه الاستثمارات للبلاد النامية، على الرغم من عمليات الإغراء التي قامت بها هذه الأخيرة بأن أصدرت قوانين مغرية للغاية للاستثمار قللت بواسطتها من القيود الاجتماعية والضريبية المفروضة على المستثمرين الأجانب. ما أن دخلت اتفاقية التبادل الحر في أمريكا الشمالية ALENA حيز التنفيذ حتى حصلت المكسيك على 18.1 مليار دولار من استثمارات أمريكية مباشرة فيما بين 1994 و1998، على حين حصلت كندا على 39.6 مليار أي أكثر من الضعف[25]. في عام 1997 كانت بلاد منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وحدها هي التي تحصل على استثمارات أجنبية مباشرة تزيد عن 5% من الناتج الوطني إذا ما استثنينا سنغفورة[26]. يتضح إذن أن البلاد الصناعية لم تتعرض لا لهبوط في استثماراتها ولا في تصنيعها الإجمالي خلال العقود التي دخلت فيها أجزاء من الجنوب بدورها عصر التصنيع.

---

24. إحصاءات منظمة التجارة العالمية. الإتحاد الأوروبي هو أول مصدر للنسيج والثالث للملابس. تحتل الولايات المتحدة في الصف السادس عالميا بالنسبة للنسيج والرابع للملابس. وتحتل هونج كونج في الحالتين المركز الثاني.

25. المصدر: بنك مورجان وستانلي (مذكور في مجلة جون أفريك، عدد 2021، 5 أكتوبر 1999).

26. النسب المعطاة متكافئة مع المقدرة الشرائية (البنك الدولي، *مؤشرات التنمية العالمية 1997-1999*، سبق ذكره).

إلا أن البطالة الهيكلية تعد بالفعل إحدى العلامات المميزة للبلاد الصناعية في تطورها الإقتصادى في الربع الأخير من القرن العشرين[27]، كما تميزها أيضا خروج الصناعات من بعض المناطق الرائدة للثورة الصناعية الأولى. أما الأرقام فهى ليست ذات أهمية بالنسبة لعشرات الملايين من العاطلين الذين وجدوا في صورة الأوانى المستطرقة التى استخدمتها بعض النظريات غير الدقيقة، تفسيرات للبؤس الذى وقعوا فيه. وكما أن أحد المهاجرين قد يأخذ -دون وجه حق- مكان عامل وطنى، فإن العامل الآسيوى أو الأمريكى-اللاتينى أو المغربى -وهى في أغلب الأحيان عاملة أنثى- قد يحرم الأوروبى أو الأمريكى من عمله عندما يجلس أمام آلة للخياطة أو يقف وسط قاعة للتجميع الصناعي؛ مثل هذه الاستدلالات الفكرية لا تفتح قط بطبيعة الحال أى آفاق أمام طالبى العمل القادميين من الجنوب: فهم ممنوعون من الإقامة في الشمال وهم ممنوعون أيضا من تصنيع بلادهم من أجل الحفاظ على الوظائف في البلاد الصناعية القديمة. ومع ذلك فإن إعادة توزيع المصانع على وجه الأرض لا يفسر -إلا بشكل جزئى- طرد عدة ملايين من أجَراء الشمال من سوق العمل - فالتقدم التقنى يتحمل جانبا لا يمكن إغفاله من مسئولية إقصائهم عن العمل. المكاسب التى سجلتها إنتاجية المصانع بسبب -(ضمن أسباب أخرى)- التقدم فى المجال المعلوماتى والذكاء الاصطناعى[28]، والتمويل الجزئى للمؤسسات الصناعية في الشمال إلى إنتاج سلع غير مادية، وتصاعد سلطان صناعات الاتصال والمعرفة، والانفجار الضخم فى نشاطات الخدمات، كل

27. مع الأخذ في الإعتبار الفروق المعروفة بين أوروبا الغربية التى تشهد منذ عشرين عاما أعلى نسب بطالة في العالم، واليابان الذى دخل متأخرا في دائرة إنكماشية تسببت في البطالة، والولايات المتحدة التى عرفت منذ بداية التسعينيات أعلى نسبة تشغيل بالنسبة للسكان النشطين داخل منظمة التعاون والتنمية الإقتصادية.

28. من 1971 حتى 1994 بلغ نمو الإنتاج الصناعى السنوى 2.5% داخل الإقتصاديات الأكثر تقدما على حين بلغت وتيرة هذا النمو بالنسبة للأجور 3.1% عن الفرد الواحد. (ملف: « هل العولمة يمكن تفاديها ؟» *لوموند ديبلوماتيك*، يونيو 1997.

ذلك أدى إلى تخفيض الطلب الاجمالى على اليد العاملة وزيادة الطلب على عاملين أكثر تأهيلا وأحدث تهاويا شاملا على طلب الوظائف غير المتخصصة.

ساهم رأس المال المضارب فى البورصات أيضا فى تضييق سوق العمل بأن فرض نموا مستديما على ربحية أسهم الشركات، وبأن جعل من تقليص الكتلة الأجيرة المتغير الرئيسى فى إستراتيجيات خفض تكاليف الإنتاج. القطاعات التشغيلية لم تنجح فى الهروب من إعادة الهيكلة الشاملة هذه، وهى التى أدت إلى ذوبان جزء كبير من أعداد العاملين بها. إعادة توزيع المصانع فى أماكن أخرى شاركت بذلك فى تهميش اليد العاملة غير المتخصصة فى الشمال بأن وضعت مكانها اليد العاملة فى الجنوب، كما شاركت فى زيادة الضغط الذى استهدف تخفيض أجور هذه اليد العاملة غير المتخصصة فى الشمال جاعلا منها الخاسر الحقيقى الوحيد لهذه الإعادة فى توزيع الخريطة الصناعية فى العالم، إلا أن تعدد أسباب هذا التهميش أضعف كثيرا الصلة التى تربطه بالعمالة الوطنية التى هى الموضوع المفضل لبلاغة أسلوب خطب المدافعين عن الحفاظ على الوضع الصناعى القائم حاليا فى العالم.

إستُخدِم إذن سكان الجنوب بطريقة ذكية، سواء كانوا من المشاركين فى الهجرة إلى جنات الشمال أو من الذين رضوا بالعمل فى بلادهم بأى أجر، فى التنفيس عن إحباطات هؤلاء الذين اعتبروا سقط متاع الثورة الصناعية الأخيرة، مما سمح لمتخذى القرار الغربيين بتأجيل موعد القيام بتحليل حقيقى لعدم مقدرتهم على التقليل من آثار صدمة النتائج الاجتماعية لهذه الثورة الصناعية. التحولات التى حدثت خلال العقود الأخيرة لم تُفقِد الشمال مميزاته، وتبقى قوته المسيطرة على مقدرات كوكب الأرض كاملةً تقريبًا، كما يتأكد سلطانه باحتكاره

للتكنولوجيات الحديثة: كل ما خسره -وكان ذلك بموافقة أهل الصفوة فيه[29]- هو احتكاره الذى طال أمده لفترة تزيد قليلاً عن القرن الواحد، للانتاج المصنع العالمى كله.

هذه الخسارة، التى عوضتها نشاطات متزايدة فى جميع أفرع المستقبل الاقتصادى، والذى دفع ثمنها عمال الشمال وخاصة أقلهم تأهيلا، فسرها قطاع من سكانه، وشعر بها، على أنها مساس لا يحتمل بهذه الهيمنة التى أضحت مع مرور الزمن جزءا لا يتجزأ من الهوية الغربية. فمنذ بداية عصر التصنيع كان الغرب -الذى لحقت به اليابان بعد ذلك- قد كلف نفسه بمهمة الإنتاج من أجل العالم كله، مانعًا بقية أنحاء العالم -إذا لزم الأمر- من أن ينتج؛ ولكن كثيرا ما ينسى العالم فى الواقع أن أولى تهجيرات المصانع فى التاريخ الحديث قد تمت -بالقوة فى كثير من الأحيان- فى إتجاه الجنوب إلى الشمال. تفكيك صناعة الصينى فى الصين، ثم صناعة النسيج في الهند، من أجل الورش التصنيعية الأوروبية تعد أكثر النماذج شهرة لهذه الهجرات الصناعية، لم يستطع التصنيع المعاصر للجنوب، فى أى مكان منه، الاعتماد على القوى الصناعية الأصلية التى عرفتها مناطقه حتى القرن التاسع عشر. وهو ما جعل الهند والصين -من بين بلاد أخرى- أمما مصدرة كبرى، جرى تدميرها بصورة منظمة حتى تضمن أوروبا احتكار إنتاج وتجارة البضائع المصنعة.

تجسيد الشر

تنتهى هذه الفترة دون أن يكون الشمال فى مجمل الأمر من الخاسرين. غير أن نهاية الاحتكار الذى كان قد منحه لنفسه جرّت معها فى سقوطها الأوضاع

29. طبقا لإستطلاع للرأى أجرى عام 1999 ف الولايات المتحدة، 16% فقط من متخذى القرار يعتبرون أن المنافسة الإقتصادية للبلاد ذات الأجور المنخفضة تشكل تهديدا لبلادهم، ف مقابل 40% من الرأى العام الفارق بين الرقمين يعطينا مؤشرا لقياس مدى تشكيل الرأى العام حول هذه المسألة، إلا أنه يبين أيضا مدى الهوة التى تفصل بين صفوة تستفيد من المتغيرات والقطاع الاخر من السكان الذين يشعرون بأنهم من ضحاياها (المرجع: *مجلس شيكاغو للعلاقات الخارجية*، مذكور ف *جون أفريك*، عدد رقم 2008، 12-6 يوليو 1999).

الاجتماعية وما يحيط بها من أيديولوجيات قامت مع الثورة الصناعية كما انها أجهزت على الأسطورة المتهالكة للقوة العمالية. المخاوف التى تولدت من هذه التغييرات الضخمة استوجبت إيجاد أسباب يمكن التعرف عليها منها. العولمة -التى واكبت هذه التغييرات الإنقلابية- لخصتها جميعا وأصبحت المصدر السحرى لكافة التغييرات والتى اعتبرها ضحاياها السبب فى كل الكوارث التى عرفتها الأرض منذ عشرين عاما، وأصبح الأمر مفروغاً منه بالنسبة لجحافل أعدائها المتباينين: أصبحت مصدر كافة شرور العالم.

تظل دراسة الظاهرة مستمرة، وهى تعتبر -حسب وجهة النظر الموجهة لها- إما فى بداية انطلاقها وإما أنها -على العكس من ذلك- فى مرحلتها النهائية. ليس من المعروف بدقة محتواها وما تحتضنه وما تهدمه وما تبتدعه؛ ومع ذلك فهى تظهر فى كل مكان. أقل تعديل يحدث فى الساحة الإقتصادية ينسب إليها، كل ما هو جديد يعود إليها بذاتها وهى وحدها التى ترسم المستقبل. ولكن لأول مرة فى تاريخ الغرب الحديث أصبح المستقبل مشكوكًا فيه لأنه قد لا يكون محملا بهذا التقدم المستمر الذى هو متوقع منه. هل هذا الخوف هو مصدر رفض العولمة ؟ ولكن من هو الذى يرفضها فى الواقع ولماذا يرفضها ؟ حقيقة لا جدال فيها لأنها كبش فداء سهل، هذا الشيء الذى يصعب تعيينه بدقة، ليس له المعنى نفسه فى كل مكان ولا للجميع. ذلك لأن الكلمة تستخدم فى تسمية سلسلة من الأحداث المتباينة، عمل توافق توقيت وقوعه على اعتباره ظاهرة واحدة. إنه تعبير كجراب الحاوى يشير فى ذات الوقت إلى تواصل فى الميول يمكن رصدها عبر التاريخ الطويل، وإلى انفصال عن أقرب مراحل الرأسمالية -وبالتالى الأكثر أُلْفَةً بالنسبة لنا- وعن أحدث العلاقات الجيوبوليتيكية الدولية، وإلى الآثار المترتبة على المستحدثات التكنولوجية التى غيرت بعمق، ليس فقط وسائل الإنتاج، ولكن عدلت أيضا وبعمق من نظم المجتمعات والعلاقات التى تربطها ببعضها. تعدد معانى العولمة جعل

منها-أمام الآراء العامة- ظاهرة شاملة لا يمكن لأى شىء أن يجد لنفسه فكاكا منها.

علينا أن نحاول -متخطين اللبس الذى يؤدى إليه هذا التعدد فى الأدوار- أن نحاصر، لا حقائقها الواقعة المتعددة -إذ أن ذلك يتعدى طموحات الممكن-، وإنما محاصرة الوظائف التى يعزيها لها الخيال الجماعي واستخدامات استبداديتها التى تفترض الخُطب السياسية أنها تقوم بها. يشيع الحديث العام عن العولمة على أنها نوع من الزلازل حدث في مفترق الثمانينيات، فأوقف تماما التقدم غير المنظم - ولكن المؤكد- للبشرية نحو الأفضل. أعطى هذا الزلزال إشارة البدء لعملية ارتداد تتعدد مظاهرها فى كافة الأنحاء. لا يرى فيها انتهاء عملية تحتضر أمام أعيننا ختاما لمسيرة امتدت لعديد من القرون، أكثر من رؤيتنا لها على أنها ظاهرة جديدة بصورة جذرية، تفصلنا تماما عن النظام المعهود فى العالم. ومع ذلك فهى تتواصل بقوة مع كلا العالمين القديم والحديث: تشارك العالم القديم الصلة، فى أن الغزاة -منذ القرن الخامس عشر- والإمبراطوريات والشبكات التجارية الأوروبية قد ظلت تدفع إلى الأمام احتلالها للمسكونة وأن« القوة الأوروبية بلغت (منذ القرن السادس عشر) من القوة ما يكفيها لكى تمنع تدريجيا مناطق العالم الأخرى من إمكانية أن يكون لها تاريخ مستقل عن تاريخها هى »[30].

كلنا يعرف مختلف المراحل التى مرت بها هذه العولمة الأولى التى لم تكف أوروبا، ومن بعدها صنيعتها الولايات المتحدة - عن تدعيم هيمنتها على العالم بواسطتها. إنهم المستفيدون الوحيدون لهذه العملية المُوَحِدة للكرة الأرضية تحت وصايتهم، وهم الذين تحكموا فى كافة مراحلها، أو على الأقل حتى مرحلة انتهاء الاستعمار. لم يناقض أحد -لا أهل الصفوة الذين قادوا تلك العولمة الأولى ولا

30. Jean-Louis MARGOLIN, «Mondialisation et histoire: une esquisse», *in* GEMDEV, *Mondialisation, les mots et les choses*, Karthala, Paris, 1999.

الشعوب التى استفادت جماعيا منـــها– مبدأهـــا ذاتـــه. وفـــى مواجهـــة صيغتـــها الإمبريالية، قدمت البدائلُ الاشتراكية –التى نشأت فى أعقاب الثورة الصناعيـــــة– بديلا هو الأُمَمِيّة البروليتاريـــة، –تلك الفكرة المسكونية المغطائة ولكنها متمركـــزة فقط حول الفكرة الأوروبية، وغير القادرة على إدراك معنى التعددية– وكـــان مـــن المفروض أنها ستحرر الجنس البشرى من الظلم الرأسمالى. الرأسماليات الوطنيـــة، التى أنجبتها أزمة الثلاثينات، والتى أعادت تمركز الاقتصاديات الصناعيـــة لفـــترة نصف قرن فوق أراضيها، وأسواقها المحلية التى عرفت أكبر إنتشار لـــــها عقـــب الحرب العالمية الثانية، لم تتمكن هى أيضا من وضع حد للمزايـــا التـــى أولدتـــها الانعكاسات الإمبريالية، أو ما بعد الإمبريالية، لأوروبا وللولايات المتحدة. لقـــد أدى حصول كافة مناطق الأرض على السيادة القانونية الدولية وعلى الإمكانية النظريـــة فى اختيار مستقبلها، إلى الإسراع، لا إلى وضع حد، لتوحيد الكرة الأرضية تحـــت إمْرة الغرب.

يبدو أن هذا المشروع، الذى طالما رغبت الصفوة مـــن أبنـــاء الغـــرب فـــى تحقيقه، قد وصل اليوم إلى منتهاه، وسنعاود الحديث فيما بعد عن الآثار المترتبـــة، بالنسبة لإدراكه للعالم – على هذا الختام الذى يبشر ببدايات أُخَر. ما يتعين التذكـــير به فى البداية هو أن الظاهرة التى توصف اليوم بالعولمة تقع فـــى إطـــار تـــاريخى جعل منها ظاهرة كان من الممكن جدا توقع حدوثها.

إلا أن الإطار الذى يحتويها يعطيها أيضا محتوى جديدا بالنظر إلى المـــاضى القريب جدا. فقد يَسَّرت ثورة الاتصالات من عملية تحقيقها. انكماش العـــالم مَكَّـــن من التعجيل بها، كما أن التحول الليبرالى الذى فتح لها كافة الحدود قد جعلها تُـــدْرَك –منذ أن اتخذت لنفسها اسمًا– أنها أكثر تعبيرات الليبرالية المتطرفـــة مشاهـــدة – وبالتالى اكثرها تعرضا للنقد– وهى ليبرالية دمرت توازنـــات اجتماعيـــة أقيمـــت بمنتهى الصعوبة عبر القرن الماضى بأكمله. إنها تهدم القواعد، فى الوقـــت الـــذى

يحتاج العالم فيه إلى قواعد، وتبدو كما لو أنها أكثر الأسلحة فتكا في يد مؤيدى حرية العمل أى تلك الحرية التى تخدم فقط أصحاب السلطان. انتصار رأس المال النقدى -وهو أكثرها عدم إستقرار وخروجا عن السيطرة- على رأس المال الصناعى، وبالتالى انتصار الريع على العمل قد يكون إحدى وسائلها، كما قد يكون كذلك إضعاف الحمايات الوطنية، والتمييع المفترض للدولة: فهى، فى رأى البعض، التى ستورى الدولة التراب.

لا يمكن بطبيعة الحال التقليل من قوة الروابط الوثيقة التى تجمع بين الأوجه الثلاثة لهذه الثلاثية التى هى: قيام صناعات ما هو غير مادى، والليبرالية، والعولمة. لا يوجد أدنى شك فى أن العولمة قد قفزت قفزة هائلة إلى الأمام منذ أن أصبحت حرية حركة رؤوس الأموال هى القاعدة وأن المال يمكنه أن يستثمر فى أى مكان وأنه ينتقل بسرعة المعلومة. إلا أنه لا يمكن حصرها فى بعدها الاقتصادى والمالى وحده، كما لا يمكن إذابتها داخل الثورة الليبرالية التى أطاحت بالصروح التى شيدت فى فترة ما بعد الحرب دون أن تمنع نفسها من التفكير فى المستقبل.

مع ذلك فإن ذلك هذا هو ما يجرى حدوثه فى أغلب الأوقات عندما نُحَمِّل العولمة مسئولية كافة التطورات السلبية التى حدثت فى العقود الأخيرة. فهى مصدر سياسات تخفيض كتلة الأجور والمرتبات حيثما وصل رأس المال الريعى إلى القيادة، بما فى ذلك القطاعات التى لا توجد فيها منافسة. يُعْزِى لها أحد كبار الموظفين الأوروبيين، الإيطالى ريكاردو بيترللا« التخفيض الضخم والشامل لأعمال المنتجات والخدمات»[31]، متناسيا، من أجل إثبات رأيه، أن حضارة الإسراف والتبديد ولدت خلال الثلاثين سنة المجيدة والتى تُمَجِّد اليوم على أنها

31. *الموند ديلوماتيك*، يونيو 1997.

كانت عصر التشغيل الكامل. يتهمها كاتب الافتتاحيات الفرنسي برنار كاسان بأنها أجبرت الدول التي طولبت بتسوية أحوالها الاقتصادية، على التخفيض اقوى والشامل في إنفاقها العام[32]. يؤكد "مراقب العولمة " وهي منظمة غير حكومية فرنسية أنشئت عام 1996، في كتاب تأسيسها[33] أنها مصدر « الأخطار السياسية المتزايدة» المتمثلة في« تمزق التماسك الاجتماعي، تهديد دولة القانون والمواطنة، وإضعاف السياسة، وتعاظم جميع أنواع التطور» دون أن يحاول أن يتذكر أن المساس بدولة القانون وبمبدأ المواطنة كانت أحداثه قد تعددت كثيرا قبل أن توسع العولمة من أعمالها التدميرية. صورت في أمريكا اللاتينية -بعد أن أضيف إليها وصف الليبرالية الجديدة- على هيئة مصاص للدماء مسئول عن كافة الكوارث الإجتماعية والسياسية التي عرفتها المنطقة[34]. وبالمناسبة فكثيرا ما تُصور العولمة في تجسيدات إنسانية مركبة على أجساد غير بشرية. تتحدث عنها العديد من المقالات والمنشورات كما لو أنها شخصية واقعية عديمة الأخلاق وقاسية، تنشر البؤس والشقاء حيثما حلت، مضفية عليها بهذه الطريقة صفات كبش الفداء الكلاسيكية. تجسد الشر فيها، في زمنٍ ترنحت فيه المرجعيات.

لا يتردد قادة هذا العالم أيضا في تحميلها مسئولية الأزمات التي تمر بها بلادهم. في جزء كبير من أوروبا يستخدم رجال السياسة، سواء في اليمين أو اليسار، هذا التعبير السهل في كل اتجاه. في ديسمبر 1999 حيث بلغ تضخم التعليقات عن العولمة ذروته بعد انعقاد، ثم فشل، الاجتماع الذي دعت إليه منظمة التجارة العالمية في سياتل، شدد رئيس الوزراء الفرنسي ليونيل جوسبان على المخاطر التي تتسبب فيها بالنسبة للبيئة والأمن الصحي[35] دون أن يذكر ضمن هذه

---

32. نفس المرجع.

33. كتيب وزع بمناسبة الاحتفالات التي نظمها الـ "مراقب".

34. *La otra bolsa de valores*, n° 37, septembre 1996 (bimestriel associatif, Mexico).

35. *لوموند*، 17 ديسمبر 1999.

المخاطر سياسة زيادة الانتاجية التى تتبعها مؤسسات بلاده -والتى شجعتها عليها كافة الحكومات، بما فيها حكومته- والمستوى الذى بلغه استهلاك مواطنيه[36].

لم يتخلف قادة الجنوب عن الركب. إتهم رئيس البرازيل فرناندو كاردوزو فى نهاية عام 1999 من جانبه العولمة بأنها تزيد من خطورة تركيز العائدات[37]، متناسيا أن الفوارق الاجتماعية التى تعتبر بلاده أعظم أبطالها قد سبقت العولمة بكثير. وفى أمريكا الجنوبية أيضا، اتهم الرئيس الفينيزولى هوجو شافيز العولمة بأنها المسئولة عن فقر مواطنيه، متناسيا ان فينزويلا تعد بفضل بترولها أحد أكثر البلاد ثراء فى منطقتها منذ عدة عقود، إذ يبلغ ناتجها الوطنى الإجمالى فى عام 1997 3500 [38] دولارا للفرد الواحد.

أما بالنسبة لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى اللذين تعدهما الآراء العامة فى العالم سلطته القضائية، فهما متهمان بكل مساوئ الكون. فقد كتب أحد المناضلين فى هيئة حقوق الإنسان أمنستى إنترناشونال يقول:«كانت توجد فى الصومال ورواندا شبه كفاية ذاتية غذائية فى السبعينيات -بالنسبة للبلد الأول- وحتى نهاية الثمانينات بالنسبة للآخر ... إلى أن تدخل صندوق النقد الدولى .. إن برامج إعادة التنظيم الهيكلى ألقت بالسكان جميعا فى أحضان البؤس ورفعت درجة التوترات الداخلية إلى قمتها» [39]. أما الدكتاتورية ثم حرب القبائل اللتان هدما الصومال منذ ثلاث عقود وأخذتا شعبها رهينة، وعملية إبادة الجنس الرواندى فى عام 1994، فقد احتسبت ضمنيا تحت بند سلبيات سياسات تنظيم الهيكلة، دون أى

36. إنه مثل زملائه من البلاد الغنية الأخرى لا تعوزه التبريرات. فمن المعروف أن السلطات العامة فى فرنسا لا تزال تشجع بكل قوة تنمية أكثر القطاعات تلويثا للبيئة فى مجال الزراعة، مثل تربية الخنازير بالوسائل الصناعية وتتحمل ماليا تكاليف الآثار الضارة الناجمة عنها. كما رفضت فى يناير 2000 فرض تحديد سرعة السيارات فى إطار خطة مكافحة تأثير الصوبة. من الصعب أن نجد فى هاتين الحالتين إحدى الواجبات التى تفرضها العولمة والتى يتكرر ذكرها.

37. *لوموند*، 21 نوفمبر 1999.

38. البنك الدولى، *مؤشرات التنمية فى العالم، المرجع سبق ذكره.*

39. *يوميات أمنستى*، نشرة شهرية يصدرها القسم الفرنسى لأمنستى إنترناشيونال، يوليو أغسطس 1999.

ذكر للأسباب السياسية الداخلية لتلك المآسي. كما لم نُذكر أيضا آثار الجفاف الـذى اجتاح الصومال -الذى لم يُطَبّق قط بالمناسبة برنامج إعادة الهيكلة- لفترة دامت ما يقرب من عقدين، ولا التطورات ذات الطابع الديموجرافى التى شحنت الأعصاب فى الصراعات الرواندية، كاسرة بذلك التوازنات الاقتصادية التـى بلغـت درجـة مأساوية من الهشاشة. أما الكاتب البرازيلى فرناندو موريس[40] فقد أكد مـن جانبـه أن «فى البرازيل نختار أعداءنا، وعدونا هو صندوق النقد الدولى». كما أنه يـردد كلمات رئيس بلده. شجب المؤسسات المالية الدولية التى يراها الآخرون فى صـورة أذرع التنين ذى التسعة رؤوس، تتخطى بكثير مسـئولياتها الحقيقيـة فـى عمليـة التحرر الإقتصادى وفى تصاعد الفروق فى المساواة فى العالم.

إذا كان منتقدو العولمة كثيرين، فهم يعلنون عن عدائهم لها لأسباب جد متباينـة ولا يمكنهم التحالف فيما بينهم إلا فى شرط عدم توضيـح معناهـا. فعلـى حيـن يشجب البعض مبدأها ذاته، يرى البعض الآخر أنها تختار وتميز أكثر من الـلازم. البعض يأمل فى تغيير قواعدها على حين يريد آخرون الحد من آثارها. الغمـوض الذى يكتنف التحالفات المعقودة بين بعض دول الشمال والجنوب، وبعـض هـؤلاء الآخرين وجزء من المنظمات غير الحكومية فى الشمال، بين الوطنيين وورثة آخـر الأمميات الاشتراكية الدولية، وبين مؤيدى هيمنة الدولة على كل شـىء ومؤيـدى ازدهار المجتمعات المدنية، مما يزيد من الفوضى والتشوش. خلـط الأوراق هـذا الذي يختزل عمل تحليل « لارتباك العالم» [41] الذى نحـن بصـدده اليـوم يجعـل المصالح المراهن عليها غير مقروءة. لأنه يوجد -كما هو واضح- نفـس أعـداد رفض العولمة وأعداد المضامين التى تُعطى للكلمة. لندع جانبـا الآن الرفـض ذا الطابع الثقافى الذى يرى فى عملية العولمة، تغريبا للعـالم عنـد أهـل الجنـوب،

40. نفس المصدر.

41. ننقل هنا عنوان كتاب ميشيل بيو. سبق ذكره.
(cité par Michel BEAUD, *Le Basculement du monde*, La Découverte, Paris, 1997).

وأمركته عند الأوروبيين، وبالتالي التذويب القاتل للتباين البشرى بوضعـــه داخـــل قالب موحّد مهيمن. خارج هذا المجال، يمكن تجميع أنواع رفض العولمة فى بعـض المجموعات الكبرى.

الحنين إلى الدولة

تتميز العولمة بصفتين يجعلانها خطيرةً فى أعين قطاعات واسعة من ســـكان الشمال. فإعادة توزيع أوراق السلطة، التى نجمت عن العولمـــة، تســببت فـــى أن الدولة لم تعد تجسد وحدها هذه السلطة، ولم تعد الدولة الغربية تحتكرهـــا بالكـــامل. أصبحت السلطة العالمية مقسمة اليوم بين دول الكوكب العظمى التى تظل قـــوى لا ينازعها أحد وبعض الدول الممثلة لقوى الجنوب الناهضة وكبرى الشركات متعـــددة الجنسيات وأهم المؤسسات المالية الدولية. مثل هذا العامل الجديد تـــزداد خطورتـــه إذا ما علمنا أنه يعد بمثابة شرخ فى المرحلة الكينزية للرأسماليـــة التى أضحـــت - بعد إفلاس الاشتراكيات- البديل الوحيد المقبول تاريخيا لليبرالية. شاركت العولمـــة -بتفجيرها للأُطُر التى كانت تنتظم داخلها، عبر نصف قرن، حركة الليبرالية - فـــى إنهاء المرحلة الوحيدة التى بدا فيها النظام السائد مبشرا بالإنصاف. ولكن لم تتقبـــل الذاكرة العمالية التى طال حنينها الشرعى للتوظيف الكامل للأيدى العاملة الوطنيـــة، كما لم يتقبل ورثة الجيل السياسى، الذى لم تتخط آفاقه الفكرية حدود دعم توظيـــف رأسمالية الدولة من أجل إعادة توزيع الثروة، فكرة أن المرحلة كانت حالة استثنائية فى تاريخ التوسع الرأسمالى الطويل، وتدخـــل عـــودة الليبراليـــة خـــلال العقديـــن الماضيين، كما يدخل الانفتاح الذى واكب ذلك، فى خطإٍ من الاســـتمرارية، كمـــا أن العمل على إقامة عولمات بديلة للعولمة التى يفـــرض أصحـــاب رءوس الأمـــوال إقامتها، يفتح آفاقا مستقبلية أوسع مما يفتحه البحث عن بدائل وطنية للعولمة.

نترحم إذن اليوم على الدولة صاحبة الوصاية، مرجعين الوهن الذى أصيبـــت به وظائفها الحمائية إلى حملات خارجية استهدفتها. قد يدخل حلُّ شفرة خلط القـــادة السياسيين بين العولمة والمآسى التى واكبت إعادة التنظيم الاقتصادى الحالى، فـــى

هذا الإطار: إنهم يتنصلون بهذا الخلط من مسئولياتهم تجاه الذين أهملتهم حسابات التحول الليبرالي، لازمين الصمت إزاء التحديات التي كانوا قد وعدوا بمجابهتها، مقللين من أهمية الدور الذي تؤديه الحكومات في تنفيذ عمليات تحرير أداء القطاع المالي. إنهم -فيما يدعون- عاجزون عن الوقوف أمام ما تصدره الأسواق والمؤسسات المالية لبريتون وودز من أوامر واجبة التنفيذ، وأمام تفكيك دور الدولة تطبيقا لبرامج وضعها غيرهم منتزعين منهم سبل الحركة إزاء ذلك، وأمام منافسة شرسة نتجت عن الانفتاح الاقتصادي العالمي.

إذا كان التوزيع العالمي الجديد قد نوّع مصادر السلطة، فهو أبعد من أن يكون قد أفقد الدول سلطانها كله. الحنين إلى الدولة الواصية بالعناية الإلهية يجعلنا ننسى في كثير من الأحيان أن المؤسسات المالية والتجارية الدولية ليست سوى هيئات منبثقة عن الدول وهي بناء على ذلك لا تتمتع سوى بتسيير ذاتي محدود. دول الشمال هي -وحدها- التي أملت على تلك المؤسسات السياسات التي يتعين عليها اتباعها في بلاد الجنوب والشروط التي يجب عليها أن تعمل في إطارها هناك؛ هذه الدول أيضا هي التي رفضت خلال العقدين الماضيين أي تخفيف لأعباء الديون من على كاهل بلاد الجنوب، وهي أخيرا التي وجدت في الانفتاح الشامل للاقتصاد العالمي أفضل وسيلة لتوسيع مجال عمل مؤسساتها وضاعفت من أعداد الإجراءات التي اتخذت داخل حدودها لتعديل علاقات القوى بين العمل ورأس المال. جميع هذه الدول تحولت -مع بعض الفروق البسيطة المعروفة بين أوربا والولايات المتحدة- إلى الليبرالية المفصلة بالمقاس عليها وهي الأيديولوجيا السائدة في عصرنا هذا. والليبرالية لا تستبعد (إذا استثنينا أكثر أطرافها النظرية تطرفًا) دور الدول استبعادا كاملا وإنما تطالبها بأن تخدم أولا مصالح أصحاب رؤوس الأموال، وأن تعمل على تسهيل حركتها وأن تستمر في ضمان توزيع الخسائر على المجتمع وفي تخصيص الأرباح لها هي.

لم يصاحب حدوث ما يسمى بالعولمة إذن استبعاد منظم لدور الدولة. الاستقطاعات الإجبارية لا تزال تفوق في كافة البلاد الغنية تقريبا ثلث الناتج

الإجمالى الداخلى، إلا أن الإنفاق العام أصبح يُستثمر بصورة أكبر اليوم فى دعم المؤسسات أو مراكز الضغط الأكثر إحداثًا للضوضاء، عن الدعم الاجتماعى الذى تقلص إلى أضعف نصيب ممكن. قادة الجنوب أيضا -حتى لو أن هوامش مناوراتهم أصبح أقل أهمية بكثير من تلك التى يتمتع بها زملاؤهم فى الشمال، كما أن الأوامر واجبة التنفيذ التى يتلقونها من أصحاب الأمر الخارجيين قد حدد كثيرا من مقدرتهم على اتخاذ القرار، قادة قوى الجنوب يستخدمون هم أيضا العولمة أسوأ استخدام ككبش فداء[42].

لا نستطيع فى واقع الأمر أن نسلم باختفاء شبه كامل لدور الدولة إلا حيث لم يكن وجودها قد إكتمل. جزء كبير من أفريقيا جنوب الصحراء -ضمن جهات أخرى- استُخدِم حقل تجارب لأشخاص غير مؤهلين يطبقون ليبرالية تدفع إلى تحلل الدولة إلى أبعد حدّ ممكن. يبدو أن تجاربهم أوصلتهم إلى نتيجة أن الدولة لا تزال لها فوائد وأنه من الخطر الإجهاز عليها. بعد عقد الثمانينيات الذى سيطرت عليه دوجماتية ليبرالية ذات ميول استبدادية، عرف العقد التالى تطورا فى الفكر السائد حول الأدوار التى يتعين على كلٍ من السوق والدولة النهوض بها. بعض مجاميع *التأمل والتفكير* (*Think tanks*) المنادية بالليبرالية كادت تصل إلى نتيجة مؤداها أن السوق غير قادر على تنظيم نفسها ويتعين الاحتفاظ للدولة بسلطات واسعة، مختلفة تماما فى الوقت نفسه عن التى كانت لها فى المرحلة الكينزية[43].

على الرغم من أن الدولة مازالت الفاعل المحورى فى الحياة الدولية، وأنها تحتفظ، على المستوى الوطنى، بجوهر القدرة على التنظيم، إلا أنها وجدت نفسها

---

42. تمتلك البرازيل على سبيل المثال أدوات قانونية فاعلة تسمح لها بالحد من نهب الشركات متعددة الجنسيات للغابات الأمازونية. ولكن الدولة لم توقع أى عقاب على نحو 2500 ورش نشر الأخشاب الموجودة فى أمازونيا على الرغم من أن السلطات قد ضاعفت من خطبها المؤيدة للحفاظ على البيئة وعلما بأن هذه الورش جميعا لا تحترم أيًا من المعايير القانونية لإقتلاع الأشجار (راجع:
FAO, *Situation des forêts du monde 1997*, FAO, Rome, 1997 ; Association Agir Ici, *Du bois et des forêts*, Paris, 1998).

43. حامل لواء هذا التطور هو البنك الدولى الذى نشر فى عام 1997، *تقريرا عن التنمية فى العالم* مخصصا بالكامل للدور الذى يجب أن تؤديه الدولة من أجل مواجهة تحديات العولمة.

تواجه تحديات من عدة فاعلين دوليين وعالميين ومحليين، نتيجة لتعاظم سلطان القوى الاقتصادية متعددة الجنسيات ولبزوغ مجتمع مدنى[44] ينازعها احتكارها للتعبير السياسى الذى كانت قد إحتفظت به لنفسها. كان لإعادة التوزيع هذه العديد من الخاسرين. يطالب المستبعدون من « الإقتصاد الجديد» بالعودة إلى الدولة صاحبة الوصاية ويضعون فى ذلك آمالهم كلها. على المستوى السياسى أصبح الذين يحنون إلى الصورة المثالية للدولة/الأمة -التى أصبغوا عليها شكلا بشرياً فى هيئة فرد رمزى مثلما فعلوا مع العولمة التى يواجهونها بهذه الصورة المثالية- أصبحوا المتحدثين باسم الضحايا ويدافعون عن الأموال التى تأسست عليها الاحتكارات التى باتت مهددة.

لذلك أصبحنا نرى -عبر السنوات الأخيرة- تقاربا مثيرًا للدهشة بين أحزاب يمينية وطنية أوروبية وأحزاب يسارية متطرفة تحولت من الأممية الثورية إلى الدفاع فقط عن المكاسب التى حصل عليها العاملون الوطنيون. يستطيع اليمينيون -بهجومهم على العولمة- التمويه على مساندتهم الدائمة للتحرر الاقتصادى الليبرالى، وللعمل على إيجاد حلول وسط اجتماعية جديدة لصالح رأس المال. أما اليساريون فهم، بجعلهم كلمة العولمة مرادفة للهيمنة الأمريكية،[45] يجددون شباب قاموسهم المناهض للإمبريالية -دون أن يمسوا بشخصياتهم المؤلهة- مؤكدين بذلك على انحرافهم فى اتجاه سياسة محافظة شعبية فقدت الصلة بالحقائق الدولية الجديدة. يلتقى التياران فى رفض أى عمل تنظيمى عالمى قد يمس سيادة الدولة ويهدد

---

44. أسئ إستخدام هذا التعبير فى السنوات الماضية. المجتمعات المدنية متباينة هى أيضا وتمثل منظماتها طبقات اجتماعية ومصالح متباينة والمنظمات التى يطلق عليها هذا الإسم ظلت تحمل فى طياتها كلامًا صودر منها لفترات طويلة.

45. فى يونيو 1999، عند إنعقاد مؤتمر " الأيام العالمية " الذى نظمته فى باريس "جمعية فرض ضريبة على التعاملات المالية من أجل المواطن" (ATTAC) والذى شارك فيه مندوبو جمعيات تمثل ثمانين بلدا، هتف الحضور لأحد المندوبين الكوبيين لأن التنديد بالولايات المتحدة الأمريكية بدا لهم أكثر شرعية من نظام كاسترو. بالنسبة لقطاع مما يطلق عليه حتى الآن اليسار المتطرف لا تمنع المطالبة بديموقراطية دولية مساواتية التعاطف مع نظم إستبدادية بشرط أن يكون من الممكن وضعها بالها مناهضة للإمبريالية .. هذا هو ما يقربهم من عديد من قادة الجنوب الذين يناضلون أيضا من أجل إقامة نوع من ديموقراطيات الأمم، مع محاولة إنقاذ تركيباتهم الإستبدادية.

الهوية الوطنية التى رفعت إلى مرتبة التقديس فى أعين التيارات الوطنية بما فيها أيضا جزء من الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية الغربية وقد يساعد، فيما تراه التيارات اليسارية التى تحن لمواجهات الماضى على تحديث أسلحة العدو الإمبريالى القديم[46].

البعض يخسر والبعض يربح

ما جدَّ إذن فى المرحلة الحالية للعولمة هو: إن كان الشمال هو بالفعل المستفيد الواضح من إعادة الترتيب التى يجريها تحت رعايته، فهو لم يعد المستفيد الوحيد منه، إذ وجَدَت قطاعات كبيرة من سكانه نفسها تخسر لأول مرة فى هذه العملية، على حين استفاد آخرون فى أماكن أخرى من هذه الهجرات الصناعّية المسماة إعادة توطين المصانع، وعلى الرغم من هشاشة أوضاعها -(إذ أن انهيارات البورصات التى حدثت عبر السنوات الماضية بسبب كثرة ترحال رؤوس الأموال الغربية التى تضارب فى البورصة قد ذكرتها بضيق هامش مناوراتها)- فإن البلاد المسماة ناهضة قد عدلت من وضعها ومكانتها ومن مستوى ثرائها نتيجة للديناميات التى نتجت عن هذه التطورات. إذا كان من الخطأ عند الحديث عن العولمة أن نتكلم عن نقل شامل للثروة فإن هذا الجانب منها يراه قطاع من العاملين فى بلاد الشمال والمتحدثون باسمهم تغييرا غير مقبول فى أحوال العالم الثابتة. لقد كانت الصدمة قوية بالنسبة لأرستقراطية أصحاب الأجور فى العالم، التى كانت قد

46. يتفق التياران فى رفضهم لوجود منظمة التجارة العالمية ذاته دون أن يتوقفا لحظة لإنتقاد المعايير التى تقوم عليها إجراءاتها التحكيمية. لا يهم فى رأيهم أن تدافع هذه المؤسسة عن سياسة تعدد الأطراف أقل ضغطا على البلاد الأكثر ضعفا ولا تدافع عن أحادية الجانب الأكثر قوة وعلى وجه الخصوص الأكثر وضوحا أى الولايات المتحدة. كما لا يهم أن تكون هذه الأخيرة قد صدرت ضدها أحكام عديدة من جهاز حل النزاعات التابع لمنظمة التجارة العالمية وخاصة حول مساعداتها الضريبية للصادرات. خلاف هام يفصل اليوم بين مناهضى منظمة التجارة العالمية والذين يطالبون -لا بإلغائها- وإنما بتغيير راديكالى فى منطقها التنظيمى.

تعودت منذ عدة عقود على أن تشارك فى حصص أرباح التوسع الغربى وباتت مقتنعة، بفضل أحاديث وخطب أهل النخبة منها، بأن مهمتهم أبدية.

أدى هذا الوضع الجديد إلى أن الحدود اختلطت -بعد أن كانت معينة بكل دقة- بين الشمال والجنوب. كل شيء أصبح يجرى الآن كما لو أن الأول قد توقف فجأة عن أن يكون كالجدار المصمت لا يستيطع بؤس العالم المرور منه ويبدأ يأخذ نصيبه من هذا البؤس كما لو أن القطاعات بدأت تختلط ببعضها وما كان لها أن تتقابل. الفقر المدقع عاد بشكل مثير للدهشة عند خطوط عرض اعتقد الجميع أنه خرج منها إلى الأبد، وذلك من خلال دخول الجنوب إلى قلب الشمال ذاته وإلى مركز مدنه الكبرى وإلى ضواحيه المتهالكة. عاد الإملاق يطل برأسه داخل بلاد كانت تتفاخر بأنها مَحَته تماما من حياتها[47] بسبب الاستغناء عن العمال غير المتخصصين فى الأمم الأكثر ثراء فى العالم لعدم الحاجة لهم ولوضعهم فى منافسة -داخل قطاعات لا تزال محتاجة لهم- مع يد عاملة أكثر عددا وأقل أجرا قادمة من القارات الأكثر تعدادا فى الجنوب، وبسبب الضغط المستمر لتخفيض المرتبات بمجرد التلويح بالبطالة أو عن طريق تخفيض التعويضات فى القطاعات التى لا توجد فيها منافسة من يدٍ عاملة أجنبية، وبسبب الجرى وراء أعلى مكسب فى أقصر وقت من قِبَل شركات تستغل القوانين الاجتماعية الجديدة التى هى فى صالحها. يأخذ هذا البؤس أحيانا أشكال الجنوب الحقيقية بأن يتمركز فى الأقليات القادمة منه. العواصم الثرية الكبرى فى بلاد الشمال المتخمة كانت قد نست أن البشر يمكنهم أن يمدوا يد العوز أو أن تُمنع عنهم الرعاية الصحية لضيق ذات اليد. أصبح هناك قوم لا يملكون شيئًا. أصبح من يطلق عليهم الـ « بدون دخل» أو

47. بعد أن تولدت عن « الإقتصاد الجديد» دورة نمو بدون وظائف (*jobless growth*) فى بداية التسعينيات فى الولايات المتحدة، خلق هذا الاقتصاد الجديد اليوم فى أوروبا وفى أمريكا الشمالية أيضا كتائب من العاملين الفقراء *Working poors* لا يسمح لهم عدم إستقرارهم فى العمل والإنخفاض الشديد لمرتباتهم الإرتقاء إلى مستوى معيشى يعتبر مقبولا فى تلك البلاد. لم تعد البطالة -أو أنها لم تعد وحدها- هى التى تمد مساحة أراضى البؤس، وإنما أيضا ضعف مستوى أجور مئات من العاملين تزداد رقعتها إتساعا.

بدون « عنوان معروف» يشكلون مجموعات يسهل التعرف عليها أقرب جغرافيا مما كانت عليه قبل قرن كامل من الزمان. العمل الخيرى -وكان الإعتقاد السائد منذ عدة عقود هو أنه مخصص للشعوب الفقيرة على حين كان الآخرون يمتلكون كافة الحقوق - عاد ليصبح عاجلا للبؤس الإجتماعي في تلك الأزمنة التي انشغلت فيها الدولة باهتمامات تبعدها عن المعالجة السياسية لهذا البؤس.

العولمة هى إذن خطأ وقع لنظام العالم وهى خلط للأمكنة وهى عودة لذلك الوجه القبيح الذى نتعرف على البربرية منه: وهو البؤس. فليس من المهم أن البؤس والشقاء لم يختفيا قط من الأماكن الواقعة وراء العالم المسمى بالمتطور، إنما ما هو غير طبيعى فهو أن يعودا ليظهرا على السطح فى موقع المركز منه. ترديد ذلك لا يعنى رفض رؤية واقع هذا البؤس الذى تزداد هتيكته جرسةً وإنما لأن خطورته تشتد فى الأماكن التى تتوفر فيها وسائل وضع حد له. فى ذلك تذكرة بأن أهل الشمال كانوا قد تعودوا على أبرتايد جغرافى قَسَّمَ الكرة الأرضية إلى قارات مزدهرة وأماكن أخرى معدمة؛ إلا أنه أتضح ان الأولى لم تعد فى مأمن من الفقر، ومن هنا كانت الفضيحة.

لا تثير العولمة فى الجنوب أسباب الرفض نفسها ولا التوقعات نفسها، والاهتمام مركز على تغيير قواعدها أكثر من الاهتمام بإيقاف سريانها؛ وهى إن كانت سيئة السمعة فذلك لأنه يُرى فيها قبل أى شىء آخر تحديًا للهيمنات القديمة وأنها تعبر عن ذاتها على وجه الخصوص بميل القوى العظمى إلى تعميم إصدار أوامرها الواجبة التنفيذ. يطلب أهل الصفوة من الجنوب إذن قبل كل شىء أن يطبق القيود والحريات نفسها على كافة الشركاء فى الاقتصاد العالمى، وأن تفتح دول الشمال أبوابها أمام منتجات الجنوب بدلا من مضاعفة العراقيل التى تضعها فى وجه صادراتها، وأن توافق على أن ترى الجنوب يحمى القطاعات الأكثر هشاشة من نسيجه الاقتصادى كما تفعل دول الشمال ذاتها. ولما كانت هذه الصفوة ترى فى عدم التماثل فى العلاقات الاقتصادية الدولية، وفى القواعد التى تنظمها، البرهان

على رفض القوى العظمى التنازل -حتى بما يساوى قيد أنملة- عن مواقعها "الهيمنتية"، فهى تناضل من أجل قيام عولمة « عادلة» لا تخدم عملية تجديد القاعدة التى يجلس عليها سلطان الشمال ولكن عولمة تقدم لبلادها فرصًا جديدة للتنمية.

مثل هذا القول يجد عادةً صدًى شعبيًا طيبًا لدى الجماهير في المدن التى ترى -أول ما ترى- فى نقل مقار المصانع، توسيعا لأسواق العمل الوطنية، حتى لو أنها قامت بعد ذلك بانتقاد شروط عمل الشرائح الدنيا من البروليتاريا العمالية فى العالم النامى، وهو على العموم ما يزداد لجوؤها إليه كلما ضَعُفت إمكانية قمعها. أما السكان من المزارعين فهم يعبرون عن عداءٍ أكبر لها، بمقدار ما أن فتح الحدود أمام منتجات الشمال الزراعية وإقامة الشركات متعددة القوميات فى مجال الصناعات الزراعية الغذائية -وخاصة فى أمريكا اللاتينية- يضعها فى مواقف تنافسية مغلوطة تحرمها من أسواقها الداخلية ذاتها، مضاعفةً بذلك من تهميشها وبالتالى، من شقائها. إلا أن الجنوب لا تظهر عليه -فى الحقل الاقتصادى على الأقل، وإن إختلفت الأمور فى المجال الثقافى- إرهاصات انعزالية موازية للتى يجرى التعبير عنها فى أمريكا الشمالية أو فى أوروبا. لأسباب وطنية، أخرست أصوات الغواية للمنادين بالاكتفاء الذاتى، كما فتح الطريق أمام التكامل داخل المناطق المختلفة. أما حركات العمل الاجتماعى، فيحاول العديد منها غزل نسيج علاقات يجمعها بنظرائها فى الشمال للحصول على دعم فى المجال الرئيسى من نضالها الذى هو إلغاء الإشتراطات التى فرضتها مؤسسات بريتون وودز وإقامة علاقات بين الشمال والجنوب أكثر تكافؤًا وأقل انحيازا.

التحالفات التى عقدت مع جزء من عالم الجمعيات الأهلية الغربى قامت على هذه الأسس، إذ أنه يؤمن من جانبه أنه يتعين على العولمة أن تتخلى عن زيها الليبرالى للتوقف عن كونها آلة لطحن أغلبية الجنس البشرى. إلا أن تقاربات العمل الأهلى التكتيكية مع بعض حكومات الجنوب تقوم على سلسلة من سوء الفهم.

فعلى حين ينادى ممثلو هذه الأممية الحديثة بإيجاد نظم عالمية تضع حدا لعمليات الإقصاء والإفقار الحالية، فإن قادة الجنوب يطالبون من ناحيتهم بأن يُمكّنو بدون أى قيد من استخراج النموذج الذى استطاع الشمال بفضله عمل ثروته. أوروبا العجوز والولايات المتحدة جعلت أولادها يكدحون فى أعماق المناجم السحيقة وأمام آلات النسيج ؟ يجب أن يتمكن الجنوب من عمل الشيء نفسه دون أن يرى نفسه معرضا لعقوبات قائمة على أسس من المبادئ الأخلاقية ولإنذارات عن الحالة الخطيرة التى صار عليها كوكب الأرض الآن، فهم يرون أن مثل تلك الإنذارات لا تعدو كونها نفاقًا تتجمل به حمائية لم يتخل الشمال عنها، على الرغم من كافة تصريحاته عن تمسكه بالليبرالية، من أجل الحفاظ على مصالحه[48].

هذه الرغبة التى تعددت مرات التعبير عنها على لسان قادة أكثر دول الجنوب قوة أو الأكثر ديناميكية -من الهند إلى ماليزيا أو البرازيل- من اللجوء، متى وكيفما أرادوا إلى وسائل ما كان يطلق عليه فى الماضى الرأسمالية الشرسة، وهى الوسائل التى يرونها اليوم من الفوائد التنافسية، هذه الرغبة تتناقض مع أملهم فى أن يقوم نوع من العدل فى العلاقات الاقتصادية العالمية. هذا التناقض ليس بالشيء الجديد، ولا يقف أىٌ من أطراف اللعبة التى تُؤَدىً اليوم على الساحة عند تناقضه الأول أو الأخير. ذلك لأن أصحاب القرار من أهل الشمال من جانبهم ليسوا أبرياء تماما من بعض الدوافع السرية الحمائية التى يتهمون بها، وهم فى نفس الوقت نفسه صادقين فى تقديرهم أنه يتعين احترام الأخلاق وتفادى تخريب كوكب

48. هذا التحالف الظرفى أثبت جدواه فى ديسمبر 1999 فى سياتل حيث شارك الضغط المشترك بين حكومات الجنوب والهيئات غير الحكومية من الشمال والجنوب فى إفشال مؤتمر منظمة التجارة العالمية. لكن على حين كان ممثلو الجنوب الرسميون يقومون بهجوم عنيف لإقصاء أى فكرة لإدخال فقرات إجتماعية او بيئية على تنظيم التجارة العالمية، كانت المنظمات غير الحكومية تناضل من جانبها من أجل عالم أكثر ملائمة للحياة فيه ومن أجل وضع قواعد تقلل من إمكانية الاستغلال اللاإنسانى للطبقات الشعبية فى الجنوب والشمال أيضا. فى جو النشوى للإنتصار لم يرد أحد التأكيد على غموض هذا التضامن الهش فى واقع الأمر. يأتى التنديد بهذا الأكيد على غموض هذا التضامن الهش فى واقع الأمر. يأتى التنديد بهذا الموض تدريجيا من قطاع من عالم العمل الإجتماعى فى الجنوب، لأن هذا الأخير مضطر فى الواقع أن يناضل فى نفس الوقت ضد الظلم العالمى الذى يزيد من خطورة عدم المساواة المحلى وضد عدم المساواة هذا، والذى تعود أسبابه إلا أسباب ليست خارجية على طول الخط.

الأرض ويرون أنه يتعين كذلك إثناء الجنوب من السير على الخطى نفسها التي سار هو عليها. وهذا ما يرفضه الجنوب في كثير من الأحيان، ولا يقرر القبول به سوى مضطرا أو مرغما.

يجد الشمال نفسه في فخ الجاذبية التي يتميز بها نموذجه: العناد الذي يبديه محاوروه في إصرارهم على السير على نهجه، وعلى تصنيع صورة منه حتى لو أن أصحابه أنفسهم يتشككون فيه، تضيف مخاوف جديدة إلى أهل الشمال. في هذا المجال أيضا يبدو أن إعادة طبع نسخة من تجربته التاريخية في أماكن أخرى، وهي التجربة التي لم يتوقف قط عن إصباغها بصبغة كلية شاملة وهي التي تعد إحدى السمات الأساسية للعولمة، يبدو أنها تنقلب جزئيا ضده. وهو إذ يعبر عن رغبته في الحفاظ على منطقة الأمازونيا أو بمخاوفه إزاء تطور النشاطات الملوثة للبيئة في بلاد الجنوب، يعبر الرأي العام فيه عن مخاوفه من أنه سيضطر يوما إلى تحمل تبعات تطبيق أسلوب تنمية فتاك لا يعرف في الحقيقة كيف يتحكم في قدراته المؤذية، على جميع أنحاء العالم. يُخشى من أن تبدأ هذه العولمة في التسبب في بعض الآثار الارتدادية[49] التي قد تؤدي إلى زعزعة أسس الرخاء الغربي. لا تعد هذه المخاوف عميقة بما يكفي لكي تطرح للبحث مسألة تطور حقيقي قد يطرأ على أساليب الحياة في الشمال، وهو التطور الذي يستطيع وحده إضفاء الشرعية على التحذيرات التي يعطيها الشمال للجنوب. وهي تعد مع ذلك تعبيرا إضافيا عن تصاعد القلق في هذه المنطقة من العالم التي تعودت منذ العديد من القرون على ألا تسدد أبدًا فواتير أفعالها.

يبقى هؤلاء الذين يحاولون في الشمال والجنوب تحديد شروط تنظيم جديد للأرض يضع في اعتباره انكماش العالم، متذكرًا أن العولمة لها تاريخ دون أن يلجأ بالضرورة إلى حنين للماضي لا جدوى منه. لأن الموضوع ليس هو العودة إلى

49. التعبير مأخوذ عن سوزان جورج التي جعلت منه عنوانا لأحد مؤلفاتها:
L'Effet boomerang, La Découverte, Paris, 1992.

تنظيمات الماضى -وهى أقل عدلا وإنصافا مما يتردد- وإنما هو إيجاد تنظيمات جديدة تعرف كيف توقف الانحرافات التى تحدث اليوم وتتحمل مسئولية التعامل مع المشاكل المطروحة على مستوى الكوكب كله والتى لا يمكن حلها داخل الأطر الوطنية وحدها[50]. المعروف أن مثل تلك التنظيمات ستضطر مرة أخرى -ولكن بشكل مختلف- من فرض قيود على السوق لكى تمنع دَهْس مَنْ هم الأكثر ضعفا -فى داخل كل بلد أو على المستوى العالمى- ومن العمل على إيقاف التضحية بالصالح العام من أجل التسابق للحصول على مكاسب أصحاب الدخول من غير عمل ومن أجل المصالح الخاصة للأقوياء جدا. يبقى بطبيعة الحال أن تحدد باتفاق مشترك بين الأطراف الخطوط العامة لهذا الصالح العام.

إننا هنا بصدد برنامج ضخم، مازال يحبو. فإذا كان الغرب قد بدأ منذ فترة طويلة حرث أرض ما هو دولى، فإن العالمية تبدو فكرة جديدة فى جميع الأنحاء الأخرى. من الصعب أن يتخيل الجنوب إمكانية حدوث تضامن -ماعدا بعض التضامنات التى تفرضها الظروف- مع الشمال الذى سيظل بالنسبة للعديد من الناس العدو الأزلى. يندر فى الغرب وجود تيارات تحاول تشكيل خطاب سياسى قائم على الاجتماعيات الكلية والشاملة ولا تتوقف فقط عند المسائل المجردة السهلة وتبحث عن وسائل معالجة مشتركة لحالات البؤس فى الجنوب والفقر فى الشمال. يتعين فى الحقيقة أن نتفق من أجل الانطلاق فى هذه العملية على أن العمل ضد عدم المساواة العالمى لا يمكن أن يختزل فى حساباته عملية إعادة التفكير الشاملة

---

50. لن تتعارض العولمة «البديلة» مع رفع قيمة الأراضى ومع إعادة محورة الإقتصاد حول فكرة المجال الجغرافى. مثل هذه الإعادة لتحديد المحور الإقتصادى يمكنها أن تغير الإتجاه نحو تهميش مناطق كاملة من الكرة الأرضية والتى قذف بها النظام الإقتصادى الحالى خارج العالم «المفيد». إقتصاد الجوار والتبادلات الجهوية أصبحت مهددة اليوم، إن لم تكن قد انهارت بالفعل بفعل الإنخفاض السريع الذى طرأ خلال العشرين سنة الماضية على مصاريف الشحن. فمن عام 1984 حتى 1992 إنخفض ثمن الشحن الجوى بنسبة 20% والنقل البحرى 30% على حين إنخفض سعر تذكرة الطائرة 50%. يسدل أكثر أعداء العولمة تطرفا الصمت على بعدها الجوهرى هذا. إنهم يهاجمون شركة بوينج بالطبع ذلك الرمز الهام من رموز رأس المال متعدد الجنسيات، ولكن هذا لا يمنعهم من التمتع بإمكانية السفر الرخيص إلى كافة أنحاء الكرة الأرضية. إن رفع قيمة النقل بتحميلها مصاريف الآثار الخارجية مثل تلويث البيئة والأضرار الجانبية الأخرى قد يسمح بتنشيط التبادلات بين المناطق المجاورة كاشفا فى الوقت ذاته السمة التى شُكلت بطريقة إصطناعية للتنافس مع العديد من المنتجات القادمة من بعيد.

للإمتيازات التى يتمتع بها العالم الثرى، إلا أن أهل هــذا العــالم غــير مســتعدين للخوض فى هذا الموضوع. تجرى هنا وهناك داخل كل من نصفى الكرة الأرضيــة مد الجسور مع الآخر، يمكنها أن تشكل أساس بناء مشــترك. إلا أنــها محــاولات نادرة جدا.

فى انتظار حدوث ذلك بدأ الشمال -المهيمن دائما- إعادة بناء شاملة للقــاعدة التى يقوم عليها تفوقه ويعطى نفسه كافة الوسائل التى تضمــن لــه التقفيــل علــى المستقبل لحسابه وحده. إلا أننا عهدناه فى السابق أكثر ثقة بنفسه، وإذا كان بعــض مواطنيه مقتنعين بشرعية المزايا التى يتمتعون بها -وهم لا يشعرون بالمناسبة أنها بالفعل مزايا- فإن إدراكهم للآخر أخذ يبتعد تدريجيا عــن الغمــوض الــذى كــان يكتنفه. إنهم يخشون أكثر من أى وقت مضى إختلالا يحدث لنظام قائم منــذ زمــن بعيد حتى أنهم خلطوا بينه وبين نظام العالم الطبيعى. يدركون كافة التطورات التــى تبدو خارج نطاق سيطرة الأقوياء على أنها تهديدات لــهم. كمــا تثــير ديناميكيــة الجنوب السكانية -ولو أنها تخلق محليا مشاكل يصعب حلها- المخاوف الحادة لــدى سكان الشمال خاصة وهم يعرفون أن موقفهم فى هذا الموضــوع يــزداد هشاشــة بسبب سرعة الشيخوخة التى تطرأ على شــعوبهم. خطــورة الكســر المضــاعف الاجتماعى الذى يضاعف من إنفصال نصفى الكرة الأرضية عن بعضهما هو أنــه أصبح مركز إحباطات هائلة لا يعرف إلى أى انفجارات شعبية يمكــن أن تــؤدى، وذلك على الرغم من وجود مناطق ازدهار متناثرة فى الجنوب تشكل المقابل لجــزر البؤس التى أصبحت متمركزة داخل العالم الغنى ذاته.

هل تتعرض هيمنة الغرب لخطر أن تطيح بها قوة هذه الأمواج المتلاطمــة ؟ إلى أى مدى ستصل آثار هذه الهزات التى تزلزل العالم ؟ يوجد الآن قطــاع فــى الغرب يطرح على نفسه تساؤلات حول القدر الذى ستعرفه محوريته وذلك بطريقــة ماتزال غير واضحة ودون أن يعبر بوضوح عما لا يزال يدخل فى تصــوره فــى

إطار ما لا يمكن التفكير فيه. إذا كانت التطورات الحالية لا تنبئ بقرب نهايته، فإن قيام العولمة التى تتغذى على تمييع المساحات قد يؤدى بتفاعلها إلى إذابة المركز داخل نظام يتجاهل تدريجيا الجغرافيا بالكامل. فى هذه الحالة سيتولد الجديد من القديم بالفعل. هل يعلن انتهاء المشروع الغربى باحتواء العالم داخل حدوده عن قيام عالم جديد يختفى هو فيه ؟ أى هل يصبح انتصار الغرب فى الواقع نصرًا على طريقة بيروس (من يكسب يخسر) يحتوى على آخر تناقضاته، أى تناقض العولمة التى تولدت من تعطشه للقوة، ولكنها تهرب من بين يديه ؟

لم نصل بعد إلى هذا. إلا أن فى داخل هذا العالم الذى اختلط عليه الأمر من سرعة التحولات التى تغذى مخاوف البعض والإحباطات والطموحات التى تهز الآخرين والشكوك التى تنتاب الجميع، يحاول كل فرد أن يجد أو يعيد البحث عن مرجعياته وذلك بأن يعيد تصور أساطير أو أن يشيد لنفسه قلاعا جديدة. انكماش العالم الذى أجبر الجميع على الاعتراف بوجود بالآخر، عقّد أيضا من أشكال رفضه وتصويره فى هيئة شيطانية. لم يحدث قط من قبل أن عرفت تشكيلات الهوية المتنافرة مثل هذا النجاح وهى تتغذى بأكل بعضها. العوالم التى تقسم بينها بشكل غير متساوٍ الكرة الأرضية التى تزداد بدورها انفتاحا، يتواجهون ويتقابلون فى آن واحد، يحددون أنفسهم بما هو نقيض الآخر ويتداخلون فيما بينهم أكثر فأكثر فى الوقت ذاته هل سيتولد شىء من هذه التهيئات المتداخلة ومن أحاسيس البغضاء التى ترتفع حرارتها. ومن المقت الجديد ومن هذه اللقاءات التى تتكرر إلى ما لانهاية والتى تحدد الجغرافيا الحديثة للعلاقات الإنسانية ؟

الجزء الثالث

على جانبي المرآه

هل هى إذن الحدود بين بلاد الشمال المتعدد الأشكال والجنوب المتعدد أيضــا، العبور منها يستحيل فى أغلب الأحيان وهى غير واضحة المعالم أحيانــا أخــرى، تتغير إمكانية رؤيتها حسب المكان والزمان، متأصلة هى جذورها فى الوعى كمــا هى متعمقة جغرافيا، ولكن تظهر فيها من آن لآخر بعض التصدعات التــى ينتــج عنها اختلاط الأجناس، حدود يبدو أن من الصعب الآن إيجاد ما يستطيع محوهــا. ليست هى بالطبع العامل الوحيد الذى يفرق بين الشعوب والأراضى. إذ توجد داخل كلا الكيانين المتواجهين مناطق صراع أخرى أعمق أحيانا وتنتــج عنــها أعمــال عنف أقوى من تلك التى ترتبت على *الحوائط الوقائية*" التى أغلــق الغــرب علــى نفسه داخلها. يعطينا التاريخ الحديث مائة مثال عن هذا العنــف. وإذا أخذنــا منــها مثالا واحدا فسنجد أن الخريطة العالمية للخطوط الفاصلة بين الهويات المختلفة هــى أبعد جدا من أن تتوافق مع الخطوط التى تتعين بها الحدود الفاصلــة بيــن نصفــى الكرة الأرضية.

على العكس من ذلك فإن التيارات المتناظرة تخــترق كافــة أنحــاء الشــمال والجنوب. إن ما يقرب بين التيارات المتطرفة المعــاصرة التــى أفرزتــها كافــة الأديان صاحبة الأبعاد الكلية هو أهم بكثير مما يفصل بينها. على الرغم من إدعــاء الجميع بأنه الوحيد الذى يمتلك حق احتكار الخلاص الأبــدى، فــإن خــدام هــذه التيارات قد عقدوا خلال السنوات الماضية تحالفات تستهدف الوقوف فى وجه أهــم

خطرين يهددان البشرية -أى حرية المرأة وعلمانية العالم- أكثر مما تستهدف التصارع فيما بينها لنصرة الرب[1]. يعطى الرأى العام على جانبى "السور" الفاصل بينهما أهمية أكبر للفارق المعهود بين الشرق المسلم والغرب المسيحى أكثر من الأهمية التى يوليها للتوافق الناجم عن الأساليب الجديدة لإقحام ما هو دينى فى الحقل السياسى. وعلى العموم فإن الفارق الدينى هو الذى يخيف أكثر مواطنى الشمال ونادرا ما يؤرقهم التدخل الدينى فى السياسى.

الذى يعنينا هنا -كما هو الحال بالنسبة لأمورٍ شتّى أخرى - هو المواجهة بين الشمال والجنوب، إذ تشيد مدارك هؤلاء وأولئك باستمرار-بل تشيد الآن أكثر من وقت مضى؟- داخل المجال الذى تحدد مداه ظلاله الممتدة، وهو مجال شاسع الاتساع. إنه يشمل تاريخا مازلت حساباته (إلا فى حالات نادرة جدا) لم تُسَوَّ بعد، وحقائق معاصرة عمقت من الهوات الفاصلة بين الجانبين وجمدت الفوارق. انكماش العالم يمنع، على كلا الجانبين الطرفين من أن يتجاهلا بعضهما البعض، كما تستحيل المواجهات بينهما نظرا للتفاوت الضخم بين القوى الموجودة على الساحة. إلا أن الجانبين يترصدان لبعضهما وأى شىء يستغل لقياس إمكانية الآخر فى الإساءة. ينظر أهل الجنوب بترقب يشوبه الخوف إلى الأسلحة الجديدة التى يعدها الأقوياء من أجل بث روح جديدة فى هيمنتهم. فى الشمال تقشعر الأبدان

---

1. عقد حلف مقدس حقيقى فى مؤتمر السكان الذى نظمته الأمم المتحدة فى القاهرة عام 1994 ومؤتمر المرأة فى بكين عام 1995 بين الفاتيكان والدول الإسلامية (العربية السعودية وإيران وباكستان والسودان ؛ علما بأن الريلض لم تر أنه من الضرورى الذهاب إلى بكين) لمحاولة إيقاف أى تقدم ذى معنى فى مجال الوضع الاجتماعى والقانونى للمرأة والنص فى الآليات الدولية على شرعية الوجود الدينى فى مجال العمل الاجتماعى. وفى خط مواز لذلك شهدت المؤتمرات التى عقدتها الجمعيات غير الحكومية على هامش هذين المؤتمرين تشكل نوع من أممية الجمعيات الإسلامية والأصولية البروتستانتية والكاثوليكية مزودة بامكانيات لا يمكن تجاهلها. هذه التقاربات كانت أبعد من أن تكون مجرد توافق فى الإتجاه بل إنما قامت على أسس إستراتيجية. راجع:
Sophie BESSIS, «Les nouveaux enjeux et les nouveaux acteurs des débats internationaux dans les années quatre-vingt-dix», *Revue Tiers Monde*, t.XXXVIII, n°151, Juillet-septembre 1997, PUF, Paris).

لفكرة أن حشود المتشردين قد تتوصل إلى الإمساك بالسلطة أو أن تطالب بجانب منها لمجرد أنها غفيرة. تتصاعد هذه الشكوك المتقابلة كما لو أنها الأسوار المشيدة. ولحماية أنفسهم يود كل جانب أن يؤكد هويته، حتى يطرد من نفسه الخوف من أن يفقدها فى الآخر أو أن يصبح فريسته. مثل تلك المحاولات تأخذ -فى أحيان قد تقل عددا عما هو معتقد- أشكالا تعبوية للهوية. ويلجأ الغرب من جديد، ولكن فى أشكال حديثة، إلى نغمة الكلية الشاملة لكى يعيد تحديد هويته وإضفاء شرعية جديدة على الهيمنته.

يحاول الجانب المواجه أن يتميز عن الآخر بأن يعلن أنه مختلف والأهم من ذلك بأن يجتهد فى معارضته لعملية نشر سلطانه وفى التشكيك فى نفوذه. يمكن أيضا قراءة التاريخ المعاصر لبلاد الجنوب المختلفة كما لو أنها سلسلة طويلة من تشنجات ردود الفعل لأوامر الغرب وللمعايير التى يمليها لكى يضمن تنفيذها، كما يمكن قراءة أحاديث متقفيها على أنها صورة معكوسة لفكر مهيمن لا يستطيعون الفكاك منه. فعلى حين لا يعرف الغرب -من جهة- أن يرى الآخر إلا عندما يعكس له هذا الأخير صورة من ذاته هو، فإن الآخر لا يرى نفسه فى كثير من الأحيان سوى فى المرآة التى يقدمها له سيده القديم. فعلى أحد الجانبين، يبقى الكلىّ أسير الحدود التى رسمت له منذ اختراعه أما على الجانب الآخر فالوجود يتحدد أولا بالاعتراض، قبل البدء فى استكشاف تعريفات أخرى للذات.

هل توجد طريقة ممكنة للخروج من ألعاب انعكاس المرائى المميتة هذه ؟ لا يشعر الغرب باحتياجه لذلك فى حقيقة الأمر، فهو يهتم على وجه الخصوص بالدفاع عن محوريته بأن يظل مصدر المعايير الأوحد. وفى الجنوب يصطدم فى كثير من الأحيان هؤلاء الذين يودون الهروب من شرك رد الفعل واقتلاع الهوية الثقافية من الكلىّ حتى يصبح قابلا للامتلاك من الجميع فى العالم - بتحفظات

الغربيين الذين يودون الإحتفاظ باحتكارهم إنتاج المعانى، وبعدم مبالاة (إن لم تكن مناهضة) مواطنيهم لهم، بعد أن أغوتهم أحاديث وخطب أخرى أو بسقوطهم أسرى قيود مكبلة ثقيلة. إلا أن بعض الهوامش موجودة وهى تقول لنا أن العالم يتغير وقد يكون من المناسب أن نرنو إليه بنظرة مختلفة.

— 10 —

ثياب الكلىّ القشيبة

يبدو أن الكلىّ الكونى لم يكن على حال أفضل مما هـو عليـه الآن. أصبح النيف وستة مليارات نسمة أعضاء المسكونة أبناء بشرية واحدة، ولا يوجد أحد – فيما عدا أقليات تافهة– يمكنه فى الغرب أن يعلن صراحة عن إيمانه بدناءة بعض الشعوب، حتى أن معظم دوله أصبحت تعتبر هذه التصريحات، إن هى أطلقت، من الجرائم وقوانينها تعاقب مقترفى التفرقة العنصرية. لم تعد هناك « مشاريع »لكيانات بشرية، كما كان يعتقد جوبينو، والمساواة تسود على وجه البسيطة، فيما يتعلق بهذا الأمر على الأقل. بل إن حقوق الإنسان – التى تسمى الآن –فيما عدا فرنسا– الحقوق الإنسانية –منذ أن تقرر أن تشارك النساء فى هذه الحقوق أيضا– أضحت من المقدسات مثلما لم يحدث من قبل قط. منذ أن انتهت الحرب الباردة والقوى الديموقراطية جعلت رسميا من احترام تلك الحقوق شرطا من شروط المعونة التى تمنحها وأصبح البعض يتحدث عن « حقيقة الإنسان» كما لو أنها الأيديولوجا المنتصرة فى قرن بزغ. كما أن الذى ينتهك هذه الحقوق يواجه –ليس العقوبات بالضرورة– وإنما، وعلى الأقل، تأنيبا رسميا ويعرض نفسه على كل حال إلى الإهانة.

معظم دول الكرة الأرضية تحترم –بالكلمات على الأقل– هذه المجموعة من القوانين المحددة للأوضاع الإنسانية، وهى قد وقعت، وفى كثير من الأحيان،

والعديد منها صدق على المعاهدات الكثيرة التى أعدتها الأمم المتحدة من أجـــل أن ينص فى القوانين على مبادئ الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، الذى وافـــق عليـــها كل عضو من أعضاء الأمم المتحدة نظريا بانتمائه إلى المنظمة. لـــم يعــد الذَّكــر الأبيض -فى هذا الإطار- صاحب الحق الطبيعى الوحيد فى الكمال والحرية كمـــا قننها عصر التنوير ويبدو أن الكلية أزالت العوائق التى كانت تجعـــل منـــها أرض الميعاد لعدد قليل من أهل الصفوة.

هل يعنى ذلك أن الغرب قد توقف عن ادعاء امتلاكه حق احْتكار تعيين حـــدود الكلية الكونية، وأنه غدا يقبل -بعد مشوار طويل قطعه نحو ذلك- بأن يقيمها علـــى مبدأ التساوى المطلق لكافة ممثلى الجنس البشرى الذين توحدوا أخيرا تحت رايتـــها؟ الإجابة هى نعم من الناحية النظرية، والاعتراف الشكلى بكلية الحقـــوق قـــد حقـــق بالفعل بعض التقدم الذى يتعين عدم اعتباره كمًّا مهملاً. إلا أن الذين يرجعون أبـــوة هذا الاختراع إلى عبقريتهم الجماعية، لم يعدلوا عن الاحتفاظ بنـــوع مـــن حقـــوق الممارسة أو من حقوق الأسبقية، يعينون- بناءً عليها- ما الذى يدخل فى نطاق هـــذه الكلية الكونية وما الذى يبقى مقصيًا عنها، ويجعلون من أنفسهم قضـــاة إجـــراءات تطبيق المبادئ المترتبة عليها. إنهم متفقون على توسيع نطاقها دون إلغاء لحدودهـــا. إنهم بذلك يحتفظون لأنفسهم بميزة مزدوجة هى إدامة السياج المحيطـــه بـــها مـــع تحديثه، واستمرار تعيين أنفسهم مديريها الوحيدين، حتى لو أدى ذلك إلـــى خطـــر الإبقاء على الخلط (الذى يستخدمه البعض أداةً لأغراضـــه) بيـــن عولمـــة الكليـــة وتغريب العالم.

بعد أن تخلّى الرب أو العلم عن توريد الحقائق المؤكدة -فى شـــمالى العـــالم على الأقل بالنسبة للأول- أصبحت التعبيرات المعـــاصرة للثقافـــة الغربيـــة، عـــن الهيمنة بلا شك أكثر تعقيدا، وفى بعض الأحيان أكثر غموضا، عن تلك التى كـــانت تصدر فى عهد اليقين المطلق، ومع ذلك فهى لا تبعد عنه كثيرا أبدًا وهى تتمفصـــل

حول منطق مناظر للذى كان سائدًا فى الماضى. لا يمنع تمجيد الكلّى باستمرار من طرد« الآخر» منه، حتى لو أن التبريرات التى تُقدَّمُ لهذا الإقصاء قد تطورت مع الزمن. لا يفكر الغرب قط فى التنازل عن حق الامتياز فى توزيع حقوق الدلالة على الانتماء للبشرية الحقة، تلك التى تشبهه، وذلك بناء على هواه وعلى المرجعيات والمعايير التى يحددها هو. كما أنه يعين -طبقا لمصالحه وحدها- من الذى يجب أن يتمتع بالحقوق التى تلتصق بهذه الكلية ومن يستثنى منها. لا يزال العالم يعمل فى هذا المجال كما لو أنه نادٍ يمكن الدخول فى عضويته بواسطة إختيار الأعضاء فيما بينهم للقادم الجديد وبتصريح منهم.

جغرافيا جديدة للحق

بعد أن حاولت الديموقراطيات نشر فوائد الحضارة فوق كوكب الأرض كله وبعد أن اجتهدت لإسعاد المتقاعسين عنوةً، كلفت نفسها بمهمة تشجيع إقامة حكم القانون. فما أن وضعت الحروب الاستعمارية أوزارها وهى الحروب التى وضعت خلالها الديموقراطيات الغربية غلالة فوق المبادى تحجبها بها، حتى أعلنت أنها تخوض معاركها الأساسية من أجل الدفاع عن الحرية وتوسيع حدودها. وباسمها حاربت الاتحاد السوفيتى إلى أن تغلبت على الغريم الذى يتجسد فيه الشر الاستبدادى، وباسمها أيضا قامت عبر العشر سنوات الأخيرة ببعض المغامرات المثيرة. تقود الدول الغربية الآن عملياتها الخارجية رافعةً لواء نشر فوائد الحقوق الفردية والسياسية الأساسية على البشرية جمعاء.

القول بأن الطاقةالتى يبذلونها للدفاع عن هذه الحقوق مرتبطة إرتباطًا مباشرًا بالتزاماتها الجيوبوليتيكية هو نوع من البديهيات. أخذ استخدامها لهذه الحقوق كأداة سياسية طوال فترة الحرب الباردة، الأبعاد الكاريكاتورية المعروفة. تعايش التأييد الأعمى للديكتاتوريات فى أمريكا الجنوبية وفى شرقى آسيا بعد إجلاسها على سدة

السلطة، وتعايشت المساندة المستمرة لنظام التفرقة العنصرية (الأبرتايد) في الجنوب الأفريقي كما تعايشت أيضا المعونة الممنوحة للنظم الأفريقية الأكثر قسوة، دون أن تهتز لها شعرة مع استقبال أى تحرك للنضال الديموقراطي في بلاد أوروبا الاشتراكية بكل حماس. لقد قيل فيما بعد إن ذلك كان من مقتضيات الحرب، مع الاعتراف الصريح بإعمال منظم -طوال هذه الفترة- لسياسة « المعيار المزدوج» . وبات الضمير مستريحا على الرغم من الذين وقعوا ضحايا للتعذيب على الجانب « الطيب» من الستار الحديدى، بعد أن اعتبر في نهاية المطاف أن تلك الحرب قد انتهت بانتصار الخير على الشر.

ساد الاعتقاد لفترة قصيرة -بُعَيْدَ انهيار الإمبراطورية السوفيتية، بأن النموذج المثالي للحقوق، سيكون له ثقل أكبر في الميزان، إلى جوار المصالح، حتى لو لم يشكل بالنسبة للغربيين المرجعية الرئيسية لحلفائهم- وهو ما اتضح انه عمل انتحارى لمن كانوا ينادون بسياسة الأمر الواقع *realpolitik*. لقد عاد الحديث حول هذا الموضوع بصورة أكثر كثافة، دون أن تعطيها الطقوس الخاصة التي نُظمت منذ الثمانينات الثقل الذى كان متوقعا لها، كما توجد طرقا عديدة لاستخدماتها كما كان يحدث في فترة الحرب الباردة.

يمكن تجاهل هذه الحقوق أو التظاهر بالاهتمام بها على استحياء إذا ما كان المتحدث متفوق في قوته وتصعب إخافته، في ذات الوقت الذى تشجب فيه أى خرق لها عند الشركاء الأقل قوة أو عند الدول غير الهامة. تتمتع الصين -في مجال الحقوق الإنسانية- بتساهل تحسدها عليه دول عديدة ذات أبعاد أقل أهمية ترى نفسها باستمرار هدفا للفت النظر. تتناغم دول أمريكا الشمالية والاتحاد الأوروبي في زمرة الاستهجان الهادئة عند إطلاقها لها عندما يزداد التوتر في التبيت أو إذا أجرى قمع المنشقين بصورة تتعدى المعقولية. إلا أن هذه التهورات قصيرة الأمد تزاح بعيدا ما أن ترفع بكين من نبرة صوتها. بل إن القادة الغربيين

عندما تتطرح عليهم الأسئلة تسعدهم الإشارة إلى التقدم الديموقراطى الحادث فى الدولة الصينية[1] فى محاولة لتبرير توثيق الصلات التى تربطهم بالسوق الأولى فى العالم بالنسبة لإمكانياتها. على حين لم تحظ النيجر -التى قطعت عنها المؤونة فى إبريل 1999 لسبب وجيه هو أن المتمردين قتلوا الرئيس الرسمى للبلاد- بهذه المعاملة المتَفهِّمة نفسها واضطر العسكريون إلى الإسراع بتنظيم انتخابات لكى يستعيدوا الآذان المنصتة لمقدمى القروض[2].

من المتاح أيضا أن تظل أصم وأعمى عندما تنتهك الحقوق على يد أحد الحلفاء وأن تحتج بكل قوة على انتهاكات مماثلة إذا ما كان الذى قام بها من الخصوم، وتعتبر المعاملة التى يخص بها الغربيون مختلف الدول الإسلامية مثالية فى هذا الصدد. إذ نعرف كيف أن العربية السعودية تحظى بكل التقدير فى كافة العواصم الغربية ولا يجرؤ مسئول واحد، سواء فى واشنطن أو باريس أن ينبس بكلمة نقد ضد نظام دفع إلى حد البربرية تنفيذ أكثر القراءات ظلامية للإسلام. لا استبدادية الملكية التى لا مثيل لأساليبها التى عفا عليها الزمن فى العالم كله، ولا الدم الذى تهدره، يستطيعان أن يحركا خلجة واحدة فى المراكز الحاكمة التى تسرع، فى المقابل بتوزيع درجات سيئة هنا أو تشجيعات لحسن السير والسلوك هناك. لم تحظ الجمهورية الإسلامية الإيرانية -قبل دخولها فى مرحلة انتهاء

1. عندما زار رئيس الوزراء الصينى زو زونجحى فرنسا فى إبريل 1998 «حيا» نظيره الفرنسى ليونيل جوسبان «الموقف الإنفتاحى» الذى تتخذه الحكومة الصينية، ورغبتها الحقيقية فى تشجيع قيام دولة القانون فى الصين (راجع صحيفة *لوموند*، 8 إبريل 1998). أما الولايات المتحدة فهى لا تتردد طويلا أبدًا فى منح الصين البند التجارى الخاص بالدولة الأولى بالرعاية كلما وصلت المسألة للحظة البت فيها.

2. حدث أن أتيحت لى فرصة حضور تمثل هذا التعبير عن سياسة إزدواج المعايير فى عام 1993. كان الأمين العام للأمم المتحدة قد دعا الحائزين على جائزة نوبل للسلام لحضور المؤتمر العالمى للحقوق الإنسانية فى فيينا ؛ وكان من ضمن الحضور الدلاى لاما ومن جواتيمالا ريجوبرتو منشو، المدافع عن حقوق هنود أمريكا الوسطى. إحتجت الصين وجواتيمالا بنفس القوة على صفاقة منظمة الأمم المتحدة التى سمحت لنفسها تكريم الأعداء المعلنين لدولتيهما. وهنا حدث أن رأينا مسئولى المنظمة الدولية يمنعون وهم فى غاية الأسف الدلاى لاما من دخول المؤتمر، على حين إستطاع ريجوبرتا مينشو، أن يقرأ -كما كان مقررا- وبكل فصاحة الخطاب الذى كان قد أعده أمام المندوبين.

الإرهاب الثورى– بمثل هذا التسامح. النظام الإستبدادى المناهض للمرأة، يقوم هو أيضا على النسخة الأكثر رجعية *للشريعة*، التى تحكم بها إيران اعتبارا من عام 1980، أدانته معظم الدول الديموقراطية لإنتهاكاته الحقوق الإنسانية ولاتساع نطاق عمليات القمع التى قمع بها مناهضيه، والذين استمروا فى تبادل تجارى معه كانوا يفعلون ذلك فى السر تقريبا، خشية التعرض لغضب زملائهم. كان يقال، فى ذلك الوقت، إنه لا يمكن لدكتاتورية ظلامية، أن تجد لها مكانًا وسط الأمم: لاشك أنه موقف يستحق التقدير، ولكنه كان سيحصل على مصداقية أكبر لو أن الشجب الرسمى قد تم التعبير عنه بشكل مماثل لدى إعدام أحد المعارضين أو عند اغتيال زانية فى طهران وفى الرياض.

سرعان ما اتضحت الأمور: درجة تسامح الدبلوماسية الغربية إزاء التيار الإسلامى ترتبط مباشرة بالمجال الذى ينتمى إليه القادة الذين يتبعون هذا المذهب. لا يرجع عنف المناهضة للقادة الإيرانيين خلال الحقبة الخومينية إلى موقعهم الدينى بقدر ما هو راجع إلى سياسة هؤلاء القادة المناهضة للغرب. ومع ذلك أديرت المعركة –ولو بشكل جزئى– باسم الدفاع عن قيم سرعان ما تنسى– ما أن يتوجهوا إلى الملكيات البترولية أو إلى بغداد، التى كان يوصف قائدها فى ذلك الوقت بأنه مستبد مستنير. إيران الإسلامية التى طالت فترة اعتبارها –عن حق– دولة لا يمكن التعامل معها، قد صُنِّفت ضمن الأشرار، على حين تمتع النظام السعودى برؤية نفسه محاطا بكل العناية التى لا يحظى بها سوى أقرب الحلفاء، خاصة عندما يكونون فى نفس الوقت من الزبائن المهمين. تعتبر الولايات المتحدة من المتميزين فى اللجوء إلى الأخلاق بصورة اختيارية، عندما تؤيد *الطالبان* الأفغان، تحمى فيما بين 1997 و1998 الرئيس لوران–ديزيريه كابيلا الذى اتهمته الأمم المتحدة والمنظمات المعنية بالشئون الإنسانية المقيمة فى الكونجو بأنه قام بالتغطية على مذابح اللاجئين الهوتو، ثم هى تدين بكل عنف النظام الكوبى. ولا

يتخلف الأوروبيون عن هذا الركب: هم الذين عرفوا كيف يقفون بكل هدوء صامتين عندما أمرهم الدب الروسى فى خريف 1999 والشهور التى تلته، بألا يتدخلوا فى إعادة احتلال شيشنيا. إدارة شئون الحقوق الإنسانية، التى هى أبعد ما تكون قد تحررت من حقوق المصالح، لم تخرج عن مجالهم وتاخذ بالنسبة لما هو جوهرى أبعاد الاستراتيجيات نفسها التى وضعت للدفاع عنها[3].

سنحاول هنا، دون أن نعطل أنفسنا فى وضع كشف بطرق استخدامها كأدوات سياسية، أن نحدد الحقوق الإنسانية. البعض يرى أنه لا يمكن تفاديها، على أساس أن استخدام كافة الترسانات المتاحة -ترسانة الأقوال والأحاديث وغيرها- قد يكون جزء لا يتجزأ من ممارسة القوة. إلا أن هذه الأخيرة لا تكبل نفسها فى جميع الأحوال بالمبادئ ولا تستأذن إلا ذاتها لتتأكد أو لتتدعم. يظل الغرب اليوم، كما كان بالأمس، وحده الذى يضع أعماله تحت لواء حق إنسانى كلىّ، يغطى على انتهاكاته بنفس عدد المرات التى يقيم من نفسه ضامنا له، مكررا بذلك هذا التفسخ بين القول والفعل الذى تعود عليه منذ دهر. طرق الدفاع ذات الأبعاد المتغيرة عن المبادئ تحدد -مثل انتهاكاتها المنظمة بالأمس- الحد الفاصل بين المماثل والآخر ونستطيع، إذا ما تابعنا خط سيرها، أن نضع نوعا من الصور الرمزية للشعوب والأفراد الذين يستحقون الدخول ضمن هذا الكلى المحدد الذى يبدو كما لو أنه إحدى العلامات المسجلة للحداثة الغربية.

مهما أعربنا عن أسفنا فذلك لن يكفى- للتنديد بالآثار المترتبة على ازدواج اللغة هذا وعلى اللجوء المتزامن لعلميات الإدانة فى ضجيج والصمت فى صمم -طبقا للمكان وطبقا لمصالح اللحظة. أصبح الكلىّ -بعد أن غدا غير ذى معنى

3. أرجو المعذرة لتبسيطى -للحد الأقصى- تقابل هذه المصالح. وعلى سبيل التوضيح نذكر بأن الدول الغربية لا تظهر دائما كجبهة موحدة، إذ قد يؤدى بهم التنافس إلى إتخاذ مواقف مختلفة. مثل كوبا التى تدينها واشنطن وتراعيها بلاد مثل إسبانيا أو فرنسا. يمكن إذن أن نسمع أقوالا متناقضة- طبقا للزمان والمكان، على شاطئ الأطلنطى بل وداخل الإتحاد الأوروبى. ولكن لا يوجد تناقض حول ما هو جوهرى، أى تنظيم سياسة المعيار المزدوج.

بسبب هذه المزاولة- غير مفهوم بالنسبة للذين يعانون من آثاره ويبدو كأنه أحدث خدعة يلجأ إليها الغرب الذى يهتم دائما بجعل أعماله شرعية. الذين يدافعون -من أهل الجنوب- عن سيادة القانون المترتبة على هذه المبادئ حول الحفاظ على مواصفات مميزة لها -هى فى أغلب الأحيان ارتدادية رجعية- يعرضون أنفسهم لتنديد مواطنيهم كلما جردت إحدى القوى الاقتصادية بأعمالها من قيمة المبادئ التى تتشدق بها. يجد أعداء الكلية الديموقراطية -التى قد تعلن عن وضع حد لسلطانهم وسيادتهم، ونهاية النظم التى يتكئون عليها، يجدون من جانبهم -فى ازدواجية اللعبة الغربية- الحجج التى تسمح لهم بإثارة غضب وتنديد جماهير شعوبهم ضد مجموعة القيم التى يقدرون خطورتها عليهم. إذا لم يكن الغرب المسئول الوحيد عن التشنجات التى يتسبب فيها بحث العديد من مناطق الجنوب عن هويتها، فلا نستطيع فى الوقت ذاته تبرئته تماما من مغبة ذلك، إذا وضعنا فى الاعتبار أن العديد من شركاته تنتزع من شعوب الجنوب المعنية بهذا أى إمكانية فى الإيمان بمناقب القانون الكلى الشامل الذى يجعل الغرب من نفسه رسولا له. بل إنه أصبح من الآن يشن باسمه الحروب أحيانا، التى يرجع اختيار العدو فيها لاعتبارات أقل ما يمكن القول عنها إنها أكثر تعقيدا من الاعتبارات المطلوب الدفاع عنها.

أخلاقيات انتقائية

تعطينا حرب الخليج مثالا جيدا عن الكوارث التى يمكن أن تترتب على التلاعب بالقانون لسنا هنا بصدد إعادة كتابة تاريخ أول الصراعات الدولية التالية على عصر الحرب الباردة. وإنما محاولة قراءة له فى ضوء الكلمات التى اعتقد الغرب أنه تمكن بواسطتها من جعلها شرعية. مقدمات هذه الحرب تعود إلى الثمانينيات، حينما أسرعت القوى الغربية بالانحياز إلى العراق فى النزاع الدموى الذى واجه فيه إيران بعد أن أصبحت بلدا إسلاميا، محاولا إستغلال ظروف

الضعف الذى انتاب عدوه الأزلى. لم يجعل العنف المناهض للغرب الذى اتسم بـــه نظام الخومينى، القوى الغربية تتردد طويلا في اتخاذ الجانب الـــذى ستقف إلـــى جانبه كما ساعدها فى ذلك خطر العدوى الثورية التى قد تصيـــب نظـــم الخليـــج الملكية ذات الأهمية الإستراتيجية ومن بعدها العالم العربى بأكمله وهو لا يمكـــن أن يبقى بمنأى عن التأثر بالإسلام الراديكالى الذى تتفاخر إيـــران بانـــها تحـــول بـــه اليوتوبيا إلى مشروع سياسى. ولما كانت المصالح المعروفة تمام المعرفة لا تكفـــى لتبرير المساندة المالية والعسكرية[4] الممنوحة للعراق فقد أســـرعت حجـــج أخـــرى لنصرتها. أرادت مجموعة القادة الغربيين أن تعتبر النظام العراقى تجسيدا للوطنيـــة التقدمية - لاشك أنها غير مهتمة كثيرا بالحريـــات ولكنـــها أقـــرب لقيمـــهم مـــن التيوقراطية الإيرانية التى ترسل أبناءها إلى الموت فى سبيل مجد الله.

كان صدام حسين -الذى يقوم عرشه على تلال من الجثث- فى ذلـــك الوقـــت الشريك الذى يعتبر الوقوف إلى جانبه علنا من الأمـــور المناســـبة وكـــان الجميـــع يتهافت فى كافة الأنحاء على إطراء سياسته. وكانت القراءة السائدة فى ذلك الوقـــت لهذا الأمر تعتقد أن هذا المستبد العصرى -هذا هو على الأقـــل مـــا كـــان يقـــال حينذاك- أضيفت إلى مناقبه أيضا أنه علمانى راسخ[5]. وكـــان المعلقـــون يقدمـــون

---

4. تعدت المبيعات الشاملة للأسلحة إلى العراق فى الفترة من 1980 إلى 1989 ما قيمته 25 مليـــار دولار (قيمـــة الدولار فى 1985) كان ثلث المشتريات العراقية يأتى من البلاد الغربية، وكانت فرنسا -بعد الإتحاد الســـوفيتى- ثـــانى مورديه من الأسلحة (راجع SIPRI، سولنا، السويد 1990). ومن جهتها زودت الولايات المتحـــدة بغـــداد بمســـاعدة تكنولوجية هامة وبمعلومات مخابراتية عسكرية هامة وباعوها من 1985 حتى 1989 معدات إلكترونية تزيد عـــن 1.5 مليار دولار (Alain GRESH et Dominique VIDAL, *Golfe: clefs pour une guerre annoncée*, Le Monde Éditions, Paris, 1991).

5. فى فرنسا كان جان بير شوفانان -الذى لا يدع فرصة واحدة تمر دون أن يؤكد على السمة العلمانية للوطنيـــة العربية- كان من أكثر المروجين لهذا الوهم نشاطا. ولم يكن الوحيد فى المضمار. إذ أن الجامعة الفرنسية للتعليم التى تعتبر الملاذ المقدس للعلمانية - قد إختارت فى عضويتها «جمهوريات غير ديموقراطية» ولكنها فى نفس الوقـــت علمانيـــة (العراق وسوريا) مواجهة إياها بـــ «الديموقراطيات الحقة» لكنها لم تختر العلمانية (ألمانيا). راجع:
(*Les Idées en mouvement*, mensuel de la Ligue, supplément au n° 58, avril 1998).

للتدليل على صحة هذه الأسطورة: بناء المصانع والمستشفيات والمدارس واعتبروها تعبيرات عن إحترام العراق للحداثة. وكانت الإنتلجينسيا الغربية تقنع نفسها بسهولة بأن وطنيي الجنوب، عندما يعتمدون لأنفسهم الوجه الأوروبي للدولة/الأمة، فهم يختارون الحداثة التي يخلطونها في كثير من الأحيان ذهنيا بعلامات الحداثة المادية. فأعضاء هذه الصفوة ينسون -على سبيل المثال بعدم رؤيتهم أن التيارات الوطنية في المنطقة العربية تستقي قوانيها أيضا من السجل الديني جاعلين منه أداة تشريعية- أن وضع النساء في عراق صدام حسين لا يزال يحكمه قانون أحوال شخصية مستلهم بتوسع من القانون الإسلامي وأن تعدد الزوجات مشروع فيه كما أنه من المسموح به أيضا إحتفاظ الرجل بحق التطليق[6]؛ كما يتجاهلون أن الدكتاتور العراقي يتفنن في إثارة التفتيت القبلي والديني لبلاده وأنه يلجأ إلى الأساليب الأكثر رجعية للعشائرية لتدعيم انفراد أهله بالسلطة. ومهما كررت منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان[7] سلسلة أفعاله المسيئة، فلا شيء يتحرك. ظل صدام حسين حتى 2 أغسطس 1990 شخصية يمكن التعامل معها.

تغيرت اللهجة كما نتذكر ما ان قام بالإستيلاء على الكويت. ومنذ أن بدأت الأزمة بالغزو تخطت " أبلسة " الحليف القديم احتياجات الدفاع عن القانون الدولي وإعادة السيادة للبلد المعتدى عليه ؛ وبسرعة كبيرة أصبح صدام -في تعبير يدعي الاكتشاف المتأخر لجرائمه- تجسيدا للشر. لجأ القادة ووسائل الإعلام الغربية، فيما عدا استثناءات بسيطة، إلى المناظرات -بعد المعادلة صدام = هتلر - التي تمنع كل تحليل واقعي للموقف في المنطقة وتجعل مواقف التفاوض غير محتملة. لأن

6. لكي يرفع من درجة شعبيته في أكثر القطاعات المحافظة في المجتمع العراقي -عندما كانت إيران توالي إنتصاراتها- أصدر ذلك الذي يعتبره الغرب البطل العربي للحداثة العلمانية في عام 1989 قانونا يمنح الحصانة للذين يرتكبون «جرائم تتعلق بالشرف» أي إغتيال إمرأة من ذوي القربى متهمة بالزنا، بل وبأن سلوكها لم يكن لائقًا فقط.

7. راجع ضمن مراجع اخرى:

AMNESTY INTERNATIONAL, *Torture and Executions in Iraq: Summary of Amnesty International's Concerns,* Londres, Juin 1986.

ميونيخ أثبتت أنه لايمكن التفاوض مع هتلر[8] ؛ ولم يعد الأمر متعلقا بإعادته إلى التعقل، حتى باللجوء إلى القوة عند الضرورة، ذلك لأن الدكتاتور قد تخطى الحدود، وإنما هو متعلق بالقيام بالمعركة من أجل نصرة الخير. ضرورة الحماية المعلنة للنظام القانوني الدولي والذى داسه طاغية طموح للغاية بالأقدام - والضرورة غير المعلنة لاستعادة آبار البترول- تحولت إلى حرب صليبية أخلاقية يتعين أن تعود الكلمة الأخيرة فيها إلى القانون.

ولكن بما أن هذا الأخير لا يتم الدفاع عنه بنفس الحماس فى كافة الأماكن فإن عدم التناسب بين اللعنة التى رمى بها الدكتاتور العراقى تمنحه فرصة التنديد بنفاق أعدائه، وهو إذ يتخذ وضع الضحية، يكسب فى صفه جزءً هامًا من الرأى العام العربى. لا يصعب على هذا الأخير قط مناصرة أفكار صدام بعد عقود من المزايدات الوطنية ثم الإسلامية أكدت فى داخله عداءه للغرب، وبعد أن شجعه جزء كبير من مثقفيه ومن قادته على الإيمان بوهم الوحدة العربية. المحاجة التى اختارها الغرب تساعده بقوة على هذا التأكيد. فإذا كان غزو الكويت فيه خرق للقانون؟ يتساءل الرأى العامل مثلما يفعل بطلها لماذا لم تناد الأمم المتحدة باللجوء إلى استخدام القوة عندما ضمت إسرائيل القدس الشرقية فى عام 1968 وهضبة الجولان فى عام 1981، أو عندما غزت سوريا لبنان فى عام 1976 وغزته الدولة

---

8. لإضفاء قوة أكبر على هذا التناظر أعطت مراكز السلطة الغربية مصداقية للإشاعة -التى سرعان ما ضخمتها وسائل الإعلام- بأن الجيش العراقى هو «رابع جيوش العالم». وقد بين تسلسل الأحداث فيما بعد عدم صدق ذلك. وفى عام 1998 أيضا، لدى قيام كوفى أنان السكرتير العام للأمم المتحدة بالوساطة لكى يمنع حدوث تدخل عسكرى آخر ضد العراق الذى أنهكته سبع سنوات من المقاطعة والحصار، أثار السيناتور الأمريكى - جيمس هيلمز «إستسلام نيفيل شامبرلين أمام هتلر فى عام 1938 فى ميونخ» (راجع صحيفة *لوموند*، 6 مارس 1998). ليس صدام حسين أول القادة العرب الذى يناظر *بالفوهرر* النازى. فقد وصف المسئولون البريطانيون والفرنسيون فى عام 1956 عبد الناصر بأنه «هتلر جديد». يمكن الرجوع فى مجال التراث الأمريكى فى " أبلسة " أعدائها إلى مجموعة الدراسات التى قام بها مايكل روجين:

Michael ROGIN, *Les Démons de l'Amérique. Essais d'histoire politique des États-Unis*, Seuil, coll. «Des travaux», Paris, 1997.

العبرية فى عام 1978 [9] . وإذا كان التحالف الدولى المجتمع ضد العراق يكافح - بدفاعه عن الحريات- دكتاتورا فرض على شعبه نيره غير المحتمل ؟ فإن الرأى العام يتساءل أيضا كيف يمكن باسم هذه المبادئ المسارعة بنجدة الكويت أو العربية السعودية. لما كان الذين يشكلون الرأى العام الغربى غير عارفين بما يفكر فيه العالم العربى فهم لم يستطيعوا أبدا تقدير درجة المقت الذى يثيره فى النفوس أمراء الخليج من الرباط إلى القاهرة. فهم أثرياء أكثر مما ينبغى ومتغطرسون أكثر مما ينبغى يتصرفون فى كافة العواصم العربية حيث يقيمون كما لو كانوا من الغزاة، متفاخرين متعالين دون حياء على حين يفرضون على بلادهم نظاماً أخلاقياً لا رحمة فيه، وهم بذلك يجعلون الشعب البسيط يشعر بالسرور عندما يرى صدام حسين يلقن هؤلاء الأثرياء المتخمين الذين لا يستحقون بترولهم، درسا[10].

خاصة وأن الإحباطات الاجتماعية لسكان البلاد العربية ذوى الكثافة السكانية العالية جعلتهم يؤيدون الاستيلاء على البترول الكويتى، معتبرين ذلك بداية لإعادة توزيع الثروة البترولية فى المنطقة، كان هذا الرأى العام يرى إن كان التحالف الدولى بقيادة الولايات المتحدة تحت غطاء من الأمم المتحدة يريد معاقبة العراق باسم مبادئ أثبتت له التجربة أنها مبادئ كلية كونية بالاسم فقط، فيتعين تغيير هذه

9. قائمة خروقات القانون الدولى التى ظلت بلا عقاب لا تتوقف عند الشرق الأوسط، فالولايات المتحدة تستهين به منذ فترة طويلة فى مجالها الأمريكى والكاريبى على وجه الخصوص وتشهد على ذلك تدخلاتها العسكرية فى جرانادا عام 1983 وفى بناما عام 1989. وذلك دون أن تفويض من الأمم المتحدة. إلا أن حالات ضم الأراضى المعلنة تعتبر نادرة ومنها غزو إسرائيل للأراضى ومنها أيضا غزو الكويت. وقد ظل صدام حسين يذكر ذلك خلال أزمة الخليج إذ يعرف رئيس الدولة العراقية تماما أن كل تنديد بالتسامح الدولى الذى تتمتع به الدولة العبرية يجد صدى واسع القبول لدى الرأى العام العربى.

10. معظم الحركات الإسلامية فى البلاد العربية ذات الأغلبية السنية لم تخطئ التقدير. فبعد أن كانوا يتمتعون بتمويل سخى من العربية السعودية إلى أعلنوا لها الولاء وبعد أن رأوا فى تنمية التيار الإسلامى السنى أفضل ترياق ضد التطرف الشيعى الإيرانى، بدلوا من مواقفهم منذ بداية أزمة الخليج ووقفوا إلى جانب العراق. ولما كانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS) الجزائرية أو الحزب الإسلامى التونسى *النهضة* حريصين على عدم الإنفصال عن قواعدهم الشعبية فقد أصبحوا منذ شهر أغسطس من عام 1990 - مع حركات أخرى مشابهة - من أشد المبشرين بالمبادئ العراقية.

المبادئ لأنها سيئة. الجزء الأكبر من سكان العالم العربى كان مقتنعا فى بداية عام 1991. أن الحجج الأخلاقية التى تستند إليها الولايات المتحدة وحلفاؤها لها وظيفة واحدة هى حجب رغبتها فى وضع يدها على بترول الخليج وتدعيم سلطة الأسر الحاكمة سيئة السمعة ولكنها تخدم المصالح الأمريكية وتأتمر بها.

هل هى حرب من أجل البترول أم من أجل الحق ؟ ولو أن الإهتمام بالحق لم يكن غائبا تماما عن هذه الحرب من أجل البترول[11]، فقد ترتب على استخدامه كأداة فيها آثار ردود أفعالها مستمرة ويمكن حتى الآن رصد آثار ردود الفعل المدمرة على المثقفين العرب لهذا الصراع الرمز. حتى الأقلية منهم التى كانت تدافع عن قيام قانون مؤسس على مبادئ كلية شاملة، صعب عليها الاستمرار فى إعلان انتمائها لهذه المبادئ وفى التذكير علنا بأن الدكتاتور العراقى مازال الدفاع عنه صعب، على الرغم من بلوغ النفاق الغربى ذروته[12]. وقد شارك إملاء الشروط فى هذه المناسبة كما فى غيرها على لسان الدبلوماسيين الغربيين كما شارك صمتهم وحيلهم التى أقاموا عليها إستراتيجيتهم، فى تدعيم مواقف المنادين بأسوأ الارتدادات الباحثة عن الهوية فى بلاد الجنوب وفى إضعاف مواقف الباحثين المحليين عن حداثات داخلية قائمة على الإيمان بالكلية الكونية للحرية.

---

11. من المؤكد أن الدوافع الغربية لأمريكية منها على وجه الخصوص- فى حرب الخليج كان بكل تأكيد أكثر تعقيدا من هذه المواجهة الثنائية. يمكن أن نضيف إليها رغبة الولايات المتحدة فى إيجاد شيطان جديد يحل محل إنهيار الإتحاد السوفيتى ورغبتها فى إفتتاح إمبراطوريتها التى تنوى نشرها فى العالم بعد الحرب الباردة بطريقة لافتة للنظر. ومع ذلك فإن القانون والبترول يظلان العاملين الأساسيين لهذه الحرب. وهو ما كان يؤكده القادة الأمريكيون مرات عديدة (راجع: Lawrence FREEDMAN et Efraim KARSH, *The Gulf Conflict, 1990-1991*, Princeton University Press, Princeton, 1993).

12. وهو ما لحظه الشاعر المغربى عبد اللطيف العربى فى ذلك الوقت بأن رفض الإختيار بين طاعون مصالح القوى الغربية ونزعتهم الحربية التى تدعى الصلاح الأخلاقى وكوليرا مصالح القادة العراقيين المتدثرين فى ثياب أبطال الحق والتحرير والعدل (مجلة *جون أفريك*، عدد 1561، 28 نوفمبر 1990).

منطق التدخل فى شئون الآخرين

كان انتهاء الحرب الباردة بمثابة نقطة فاصلة. فقد رأت الديموقراطيات الغربية بعد أن حققت نصرا نهائيا على آخر صورة استبدادية للحداثة باسم الحرية فى كافة صورها -أنه من الضرورى إعادة تشييد صرح شرعية الهيمنة، وذلك بعد أن حرمت من وجود خصم يعتد به- على أساس أنها هى حامية الأرض بأكملها« للقيم[13]» التى شنت المعارك ضد العدو الشيوعى للدفاع عنها. ولكى تضمن سيادة القانون -كما كانت تعلن عن ذلك فى حرب الخليج- كان عليها ضمان حماية الحقوق: الحقوق الفردية والسياسية أولا، وهى التى تظل -كما سبق أن رأينا- خاضعة للشروط الجيوبوليتيكية العليا. ولكن لم يكن ذلك كل شيء: فقد كانت الشيوعية، وهى وريثة المسكونية الاشتراكية المناضلة القديمة والتى كانت مطالبها تلقى لدى الجماهير قبولا أكثر من المطالبة -باحترام مثل ديموقراطية عليا- قد جعلت من العدل القيمة الأعلى والتى يتعين على الحرية أن تنحنى له. ولما دخلت الأمور فى المنحنى الليبرالى فى الثمانينيات وألغيت تماما فكرة العدالة والإنصاف، أقرت القوى العظمى بأن الفقر الشديد يعتبر إنكارا للحقوق التى تعمل على تدعيمها وأعربت عن رغبتها فى تخفيف صوره الصارخة أى تلك التى تثير لدى رأيها العام الإحساس بالفضيحة. وأخيرا أضفت ظواهر تفتيت كيانات الدول المرتبط باختفاء الأيديولوجيات المدنية الموحّدة كما أضفت الآثار المؤثرة فى التوازنات الداخلية المترتبة على الانفتاح الاقتصادى والمقاومات المترتبة عليه، جانبا من الحدة لم تكن موجودة من قبل على مسألة الأقليات، التى تعتبر فى كثير من الأحيان أولى ضحايا الوهن الذى يصيب الدول متعددة الأجناس والمتعددة الأعراق والمتعددة الأديان. أرادت الدول الغربية -بعد أن نشرت هيمنتها دون

13. المرور التدريجى من الدفاع عن « المبادئ» إلى الدفاع عن « القيم» ليس محايدا. فالمبادئ -برجوعها إلى قوانين ذات أبعاد عامة- قد يكون لها معنى أكثر كلية من القيم وأكثر إرتباطا ببعض السياقات الخاصة. يبدو الغربيون، وهم يعملون على إظهار أنفسهم كأبطال فى الدفاع عن القيم، حتى بعد وصفها بالكلية/الكونية، كما لو أنهم يشيرون ضمنيا إلى رغبتهم ن أن يناصروا قيمهم هم.

منازع في كل مكان– أن تنشر وتدعم فكرة أن هيمنتها تحمل في طياتها التقدم لهؤلاء الذين ينصاعون لها واكتشفت هذه الدول أن عليها بذلك واجبات تؤديها.

واجهت إعادة صياغة العقيدة الرسمية المتعلقة بالحقوق الإنسانية التي وضعت في إعتبارها تكرار الإشارة إلى هذه الحقوق وإضافة البعد الإجتماعي لها ووضع شروط ديموقراطية للمعونة المقدمة للبلاد الأكثر فقرا في الجنوب، واجهت منذ الثمانينيات المطالب التي عبرت عنها منذ الستينيات أجيال جديدة من المناضلين. فقد أرادت هذه الأخيرة، بعد أن ملت انتظار حدوث أي تغيير يصلح من النظام غير العادل السائد في العالم، أن تتحرك فورا للتخفيف من حدة تلك الآلام البيّنة. وبينما كان يشهد هؤلاء المناضلون الجدد على أشد حالات انتهاك للحقوق الإنسانية وضوحا أخذوا يناضلون من أجل أن تضع حكوماتهم حدا لها، وهم بذلك كانوا يُحيون التصور القديم للتدخل وذلك مرة أخرى لأسباب إنسانية، وقد تواكب هذا النضال الإنساني مع رغبة الدول الغربية في إيجاد تعريف جديد لطرق التدخل في كافة أنحاء الكوكب بعد أن تخلصت من أكثر خصومها قوة.

من هذا الالتقاء بين الطموحات والمصالح عادت إلى الظهور فكرة أنه يجوز وضع بعض أجزاء من العالم تحت المراقبة لخدمة الحق، كما أن الأخلاق تتطلب التدخل عندما يتعرض بشر للخطر. الكلام مكرر وقد استخدمه الأوروبيون أكثر من مرة عبر تاريخهم الإمبريالي، وعلى وجه الخصوص في وجه الإمبراطورية العثمانية عندما تدخلت لمناصرة الأقليات المسيحية في الولايات العثمانية في الشرق الأوسط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. الاستخدام المثير للجدل من القوى الغربية للحقوق الإنسانية متأصل في لب تاريخهم الحديث.

وهكذا شاهدت نهاية القرن العشرين سلسلة من الحملات العسكرية–الإنسانية. كان هدفها الرسمي هو حماية الشعوب ضحايا المجاعات أو العنف، أو الاثنين معا، لأنهما مرتبطان في كثير من الاحيان: تم افتتاح هذه السلسلة بالعملية الكارثة

المسماة *إعادة الأمل Restore Hope* فى الصومال فى نهاية 1992 بمبادرة من الولايات المتحدة التى كانت تريد أن تنشر، فى بلاد الجنوب، صورةً لها تظهرها فاعلةً للخير، بعد أن أساءت استخدام العصا فى منطقة الخليج. تلت ذلك فى يونيو 1994 العملية *توركواز Turquoise* التى قررت فرنسا القيام بها بعد أن كانت الجثث قد انتشرت بالفعل في رواندا إذ كان من الواجب فى ذلك الوقت تلبية رغبات الرأى العام ومساعدة الحلفاء الذين كانوا فى حالة انهيار كامل؛ ثم عملية حماية الأكراد العراقيين -(إذ من المفروض أن أكراد تركيا لا يواجهون أى مشكلة!)- وكذلك عمليات معالجة المآسى الناجمة عن تفكيك يوغوسلافيا السابقة، كل تلك العمليات كانت لها أهدافٌ تسعى إليها، هى أبعد ما تكون -فى كثير من الأحيان- عن الأسباب المعلنة التى انطلقت رسميا من أجلها. كم من مرة إذن قَدَّمَت المتطلبات الإنسانية الأعذار لقوى العالمية كانت تحلم بمثلها فى سعيها لتبرير ما تخطط له من عمليات تدخل[14]. هكذا طرح مناصرو التدخل -بصورة علنية- مسائل جوهرية، وهم يضعون واجب مساعدة الأفراد والشعوب التى تتعرض للخطر فى مستوى الواجب الأخلاقى المفروض فرضا، وهم يسعون أيضا لوضع قانون دولي يَجُبُّ القوانين الوطنية، وله الأولوية عليها. السلطات الوطنية المستبدة ترى فى هؤلاء الخصوم المتشددين لعقيدة سيادة الدولة أعداء ألداء لأنهم يعتبرونها ستارا مريحا أخفى ورائه العمليات الاستبدادية التى توالت عبر العقود الماضية، موجهين إليها ضربات موجعة باسم الدفاع عن مبادئ تتمتع بالصلاحية بنفس القدر وفى كل مكان.

---

14. أخطار إستخدام الجوانب الإنسانية كأدوات تخدم الأغراض تناولتها العديد من الدراسات وخاصة فى فرنسا حيث حظى فكر «لا حدود جغرافية» برواج كبير. يمكن فى هذا الشأن مراجعة:
Jean-Christophe RUFIN, *Le Piège humanitaire*, Hachette Pluriel, Paris, 1993; et Rony BRAUMAN, *Humanitaire, le dilemme*, Textuel, Paris, 1996.

ولكن ليس المراد هنا إجراء تحليل للعلاقات الغامضة التى تربط -منذ أن التقوا على الساحة- بين مؤيدى التدخل لأسباب إنسانية وهؤلاء الذين يستخدمونه لتلبية متطلبات *سياسة واقعية* *realpolitik* قائمة على عدم أخلاقية مبررات سلطة الدولة. إنما من المناسب هنا التذكير بإثبات حالة أخرى. فمن أجل تجسيد مذهب للتدخل الخارجي يقوم على الإعتراف -الصادق أو المخادع- بالقيمة الأولى للإنسان، كان يتعين تأسيس نوع من نظرية التدخل. الأحاديث النابعة من مصادر مختلفة والمتعارضة أحيانامن قوى سياسية إلى متحدثين باسم جماعات العمل الإنسانى المشترك التى تتعدد فى العالم الغربى- وهى الأحاديث التى تدافع عن واجب الإنقاذ أو عن حق معاقبة المساس بالحريات الأساسية، تتفق جميعا فى يقين واحد، وهو أن للغرب وحده صلاحية ممارسة هذا الحق أو هذا الواجب.

تساءل أحد محررى الأعمدة الصحفية الأمريكيين فى صحيفة *الإنترناشونال هيرالد تريبيون* فى عام 1998 لدى مناقشة فكرة إقامة محكمة جنايات دولية تغطى صلاحياتها الكوكب الأرضى كله: هل يمكن أن يتصور الأمريكيون قضية تحاكم فيها الولايات المتحدة يكون النائب العام فيها من أمريكا الجنوبية أو من أفريقيا ؟ [15]. لاشك أن تدويل الوظيفة العامة بواسطة الأمم المتحدة قد أظهر وجوها غريبة قادمة من بعيد ضمن متخذى القرار فى الدبلوماسية الدولية، إلا أنهم مطالبون بتطبيق المعايير لا أن يحددوها. فى عالمنا هذا الذى نعرفه، يسير حق التدخل فى اتجاه واحد. فبالنظر إلى حالة علاقات القوى التى تهيمن على العلاقات الدولية، يصعب حقيقة أن نتصور أن دول الجنوب تستطيع أن تقتص من دول

---

15. «A good idea, but not for Americans», *International Herald Tribunbe* du 20 juillet 1998.

واختتم كاتب هذا المقال الإفتتاحى كلامه بالقول إن إعتراض الولايات المتحدة على الاتفاقية« يقوم على فرض أن القوات الأمريكية تقوم دائما بعمل ما هو حق».

الشمال إذا ما أدينت لخروجها عن القانون. إلا أن مجـرد احتمـال حدوث هـذا الضرب من الصورة يدخل في نطاق ما لا يمكن للأغلبية العظمى من المواطنيـن في الغرب تصوره. وكما كانوا يحملون في الماضي مشعل الحقيقة مكلفين أنفسـهم بواجب نشرها، فقد أقاموا أنفسهم وحدهم أيضا ديدبانات على مبادئ يكـون الدفـاع عنها من اختصاصهم وحدهم.

المعروف أن فرنسا هي الموطن الأصلي لحقوق الإنسان وأن معظـم شـعبها يؤمن بهذا الإعلان أحادي الجانب ويردده الجميع وليس فقط رجالها السياسيون بـل ومثقفوها ووسائل إعلامهـا[16]. أما الـولايات المتحـدة فهـي الوطن الذي اختـاره " الخير" لنفسه، وهي لذلك الوحيدة التي يحق لها الدفاع عن الخير، كما أن رجـال السياسة بها يعملون على تدعيم هذا الاعتقاد لدى شعبهم الذي تدفعه ثقافته كلها علـى تدعيم هذا المعتقد. الأكثر من ذلك هو أن القيم التي تشكل القاعدة التي أقيمت فوقـها تلك الحقوق تشكل جزء لا ينجزء من الكيان الغربي وأن هذا اليقين الـهادئ يعـبر كافة المجالات متساميا على كافة الفوارق التي قد تكون موجودة؛ وعن ذلك كتـب المفكر الأممي جدا دانيال كوهن-بنديت. خلال الحملة الانتخابية الأوروبيـة عـام 1999 أن « التقسيم بين جيتو خاص بمجاميع سكانية، أو بمعنى آخر الفالق الفـاصل

16. لقد تكرر إستخدام هذا التأكيد حتى أصبح من التلقائيات التعبيرية. في عام 1998 الذي يجب فيه الجمهورية (الفرنسية) في أن تحتفل بمرور قرن ونصف على الإلغاء الثاني للرق، دون أية إشارة إلى أن فرنسا ظلت تمارس الاستعباد الرسمي لمدة قرنين كاملين، إزدهرت تلك الأقوال الشائعة عن هذا الموضوع. كما أن الذاكرة الإستعمارية لا تبتعد كثيرا قط عن الدوافع الجديدة التي تحرك هؤلاء المبشرين بالخير الجدد، حتى لو أرادوا أن ينأوا بأنفسهم عن الماضي. وهكـذا كان برنار كوشنار يحث الشباب الأوروبي في الثمانينيات أن يؤدوا خدمات تطوعية في العالم الثالث بدافع من التضـامن مع شعوبه بطبيعة الحال، وأيضا بسبب ان قارتـهم يعوزها الحلم والمغامرة»، وأضاف قائلا: «إننا نفضل أن نعمـل وأن نعيش لفترة من الزمن إلى جوار من هم الأكثر فقرا في العالم وأن نكتشف معهم، بعيدا عن أي عمل معوناتي، مكانـا لا يوجد فيه بعد تأمين إجتماعي يتحمل ثقل المخاطرة ومذاق الأحلام». حدث إذن شيء من التقدم، من عصر جنـدي الفرقة الإجنبية إلى عصر الشاب المتطوع......

(Bernard KOUCHNER, *Charité Business*, Le Pré-aux-Clercs, Paris, 1986).

بين جيتو للأغنياء وجيتو للفقراء يعتبر مناقضًا للحضارة الأوروبية[17]». من الواضح أن هذا الكلام يعتبر قراءة غريبة لتاريخ تلك القارة.

على جانبي شمال الأطلنطي يقوم الخطاب المسيطر على بلاغة تجميلية لا تاريخية تستخدم في التأكيد على نوع من مشاركة جوهرية لا زمنية لا تنفصم بين الفكر الإنساني والغرب، ولذا لا يمكن اتهامه بأنه يستطيع أن يتنازل عن قيمه التي هي من حميميته ذاتها، حتى لو افترضنا أن أحدا من أبنائه شذ عن الطريق فإن من يعود إليهم حق محاكمته هم أقرانه فقط؛ ذلك لأنه لو حدث أن« آخرين» اعتنقوا حضارته فهم لن يكونوا سوى مؤمنين محدثين، بناء على ذلك، أن يدخلوا في زمرة حماة المعبد. وعلى الجانب الآخر فبما أن الغرب هو حامل للخير في ذاته بنفسها، فهو مكلف بصورة طبيعية بالسهر على تطبيق القواعد المترتبة على ذلك في كل مكانه.

لاشك أن فوضى الحروب والأحياء الفقيرة البائسة في العالم والدول - السجون أكثر إنتشارا في جنوب الأرض عن شمالها[18]. لاشك أن الحقوق الإنسانية تنتهك أكثر وبشكل جماعي في تلك المناطق الرمادية في مختلف أنحاء الجنوب حيث تنتشر المجاعات أو تلك التي لا يسود فيها القانون، وأن الوضع الحزين

17. Daniel COHN-BENDIT, «L'Europe imite l'Amérique ? Inventons le contraire! », *Le Monde*, 6-7 juin 1999.

18. إلا أن تفكيك الإتحاد السوفيتي ونطاقه الأوروبي المتجمد برودةً، قد قرب هذه الفوضى من الغرب، وهو ما أثبتته منذ بداية التسعينات حروب يوغوسلافيا. وسبب عدم ذكرى لما يعود إلى أن حالة دول البلقان الغامضة تحمل العديد من ضروب الصورة متداخلة فى هذه المنطقة من العالم. فهى تقع داخل أوروبا دون أن تكون جزءا منها بالكامل، وهو ما توضحه -ضمن أمور أخرى- المعاملة التى تخص بها دول الإتحاد الأوروبى ت المهاجرين القادمين منها. جوارها الجغرافى لأوروبا «الحقيقية» وموقعها عند مفترق الطرق الجيوبوليتيكى يمنع الدول الغربية من رفع يدها وإهتمامها عنها تماما، كما أن تجاورهما تجعل الرأى العام الأوروبى أكثر حساسية للفظائع التى ترتكب فيها. فهى فى آن واحد كاثوليكية وأرثوذوكسية ومسلمة، ديموقراطية شكلا وديكتاتورية، متطرفة فى الوطنية وتمثل المناظر الشرقى لاسطورة الأندلس، وهى واقعة فى آن واحد أيضا فى الجنوب والشمال والشرق. هذه السمة غير القابلة للتصنيف تشرح، ولو جزئيا، عدم التناسق فى السياسة البلقانية لأوروبا منذ نهاية الحرب الباردة.

للعالم يفرض التدخل حيث تشتد الحاجة لذلك. إلا أن مجرد قلب فكرة التدخل هذه على جانبها الآخر -فى حالة لو أن الفرصة أتيحت لذلك- تبدو للغربيين مستحيلة، ويصعب تصور قيام بعثة تقصى حقائق سنغالية أو هندية تزور السجون الفرنسية أو الأمريكية. كل ما يمكن أن يحدث هو ترك مثل هؤلاء يقومون بإصلاح الأمور عند جيرانهم بشرط أن لا تمس تدخلاتهم هذه فى مناطقهم، المصالح الغربية[19]. وليس لكل من هب ودب حق إدارة أمور القانون. هذا القول غير المكتوب للسمة أحادية الجانب للتدخل، تؤكد مرة أخرى وتقوى من الحواجز التى لا يكف الغرب عن إقامتها بينه والآخرين ومن الحدود التى يحيط بها الكلىّ.

19. لقد ترك الغربيون تزانيا تغزو أوغاندا فى عام 1979 لوضع حد لعهد عيدى أمين الأموى. وفى المقابل لم تقبل الولايات المتحدة قط أن تطرد فيتنام الخمير الحمر من الحكم فى كامبوديا عام 1978 وظلت حتى إنتهاء الحرب الباردة على تأييدها لهم. ومنذ بداية التسعينات يعمل الأوروبيون والأمريكيون على تحديد المناطق التى يتدخلون فيها سياساحيث لا تكون لهم مصالح مباشرة. وهم يحثون لذلك منظمة الوحدة الأفريقية على تشكيل قوة للتدخل فى القارة يتسنى لها إدارة الصراعات التى تقوم فى المنطقة.

— 11 —

هم بعينهم، والآخرون

توجد فى الغرب اليوم عدة طرق للتعامل مع وجود الآخرين، تمر من إنكار وجودهم أصلا، إلى الإقرار بوجود غيريات متحلية بتكافؤات ليست أصيلة، مرورا بشجب هذه الغيريات أو باستباحة ما يوجد شبيها لها فيها، وتبدو هذه الطرق جميعًا كإستراتيجيات تستطيع أن تعيد بناء الهيراركيات على أساس التفوق الغربى، مستعينة بصور ذهنية لم تعرف من قبل وطبقا لإجراءات أدخلت عليها بعض التجديدات. فى مثل هذا التصور لا يمكن للكلىّ أن يتجسد سوى فى هيئة واحدة، تلك التى شكلته فيها أوروبا وامتداداتها. ومن جديد تظل الضمانة الحقيقية الوحيدة المطلوبة من الصبية المتدربين هى أن يكونوا مقاربين للنموذج المرجع، على الرغم من أن معايير الجنس أو الحضارة قد استبدلت بأخرى جديرة إلى أقصى درجة بكل تقدير وهى الخلاصة التلاقى على احترام كافة الحقوق الأساسية. أما الذى لا يحاول أن يتشبه بالنموذج من كافة الأوجه فيُحرم من حق الانتساب للمبادئ النابعة منه، على يد الذين يحتفظون بحق احتكار النطق بتلك المبادئ.

تسبب هذا المطلب –عبر العقود الأخيرة– فى أن أُخذت الصورة فى كثير من الأحيان على أنها هى احترام المبدأ، واعتبرت بعض الانتخابات على أنها الديموقراطية، والثناء الشفوى الموجه للنموذج على أنه علامة من علامات انتصاره. إذ عندما طولب ديكتاتوريو الجنوب بأن يلتزموا بالنموذج، أسرعوا بتعلم

فن التزييف، الذى بدا على مراقبيهم فى الشمال أنهم مكتفون بما ينتج عن هذا التزييف. وإذا نحن تخطينا ذلك السراب سنجد أن الأوامر بالمحاكاة الصادرة من حماة المعبد قد وضعت من هو غير غربى فى موقف مستحيل لا يُحسد عليه: فإن رفض الاستجابة أو إن لم يتمكن من الميل فى اتجاه ما هو مماثل، أثبت عدم قدرته على أن يكون عضوا فى المجال الكلىّ، فيجد نفسه مستبعدا فى إطار غيرية، يفترض أنها -فى أسوأ الظروف- مكانٌ للارتداد والتراجع، وفى أحسنها مكان آخرا مدهش ولكنه جامد لا يمكن لجديد، أيا كان، أن ينبع منه. ولكن إن هو حاول جدِيًّا أن يستكمل الشبه لكى يلج داخل المجال الغربى حيث يجد الكلىّ موطنه، فسرعان ما يجد من يعلن له -ماعدا بعض الحالات الاستثنائية- عدم جدوى مثل هذه المحاولات. لأن الآخر لا يمكن أن يكون الذات نفسها.

يقدم لنا التاريخ الإستعمارى والفترة المعاصرة أمثلة عديدة لهذا الرفض الذى حول الإطراءات المتتابعة لعملية الإدماج إلى ما يساويها عددا من عمليات الخداع. لقد اصطلح على التمييز بين التباعد الذى كان البريطانيون والبلجيكيون يقيمونه بينهم وبين رعايا مستعمراتهم ورغبة الفرنسيين فى إدماجهم معهم. كما تسهل مجابهة سياسة الجاليات الأنجلوساكسونية بالمساواتية الكلية الفرنسية. فإن كان البعض يفضل أن يستمد أراءه من مراجع فكر ثقافى يقدس الفوارق على حين يقول الآخرون إنهم يريدون محوها، وإن كان من الممكن أن يؤدى الموقفان إلى طرق متباينة فى إدارة شئون سكان قادمين من بلاد أخرى، فالآثار المترتبة عليهما تعتبر أقل تباعدا مما يقوله البعض. إن أثر مرحلة التنوير الغربية قد أثرت على مثقفى الإمبراطورية البريطانية مثلما أثرت على مثقفى الاستعمار الفرنسى. وشكسبير معروف، أو غير معروف، فى الهند بنفس مقدار شهرة موليير فى بلاد المغرب العربى، كما أن بريطانيا وهولاندا وبلجيكا تأوى بالنسبة والتناسب العدد نفسه من المواطنين القادمين من مستعمراتها القديمة من فرنسا. كما أنه من غير المؤكد أن

الحواجز التى أقامتها هذه الأخيرة بين مواطنيها وهؤلاء الـــذى لـم يسـتطيعوا أن يكونوا منهم قط أو أن يكونوا كذلك بشكل تام، أكثر صعوبة للاخـتراق مـن التـى تفصل بين الجاليات المختلفة فى البلاد الأنجلوساكسـونية. ومـهما صـرح وقـال المتشدون بعظمة وعبقرية فرنسا وهم يرفعـــون إلـى عنـان السـماء بسياسـتها الإدماجية، فقد أثبتت أنها مُقَتِّرة فى ستيعاب الآخرين بنفس ما هو حال أقرانها فـى الغرب. وهى التى تنتقد أساليبهم.

لقد مر أهالى المستعمرات بتلك التجارب فى حينها. ففى الجزائر -وكلنا يعلـم أنها كانت فرنسا بذاتها- كانت جنسية الوطن الأم لا تمنح سوى بتقتـير متواصـل لسكان ظلوا يضعون أعمالهم -لفترة طويلة من الزمن- فى تعميم الحصـول علـى حق المواطنة الفرنسية؛ وفى عام 1936 عندما قررت الجبهة الوطنية (الحاكمة فـى ذلك الوقت) منحه بصفة استثنائية لا تورث إلى 000 21 فردا يستحقون التكريم عـن جدارة، هنأ رئيس جمعية العلماء -عبد الحميد بن باديس- نفسه بهذا التقدم، انتظـارا لأن يحصل الجميع على حق التصويت الكلى وهو ما سيسـمح« بـالدمج الشـامل الكامل للمجاميع المسلمة فى الأسرة الفرنسية الكبرى»[1]. بل إن فرحـات عبـاس ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عندما كان يرفض -لفترة ما- وجود أمة جزائريـة، مطالبا بالمساواة فى الحقوق بين المواطنين الأصليين والفرنسيين. وظلت أغلبية مـن الصفوة تؤمن لعدة عقود من الزمن بأن فرنسا تمثل مستقبل الجزائر، ولكن -فيمـا عدا الكلمات- قامت السلطة الواصية بعمل كل ما فى وسعها لعدم حدوث ذلك. فـى عام 1947 كان تعداد المواطنين الفرنسين المسلمين 000 58 مواطـن مـن مجمـل تعداد السكان الذى كان يبلغ حينذاك 7.8 مليون فرد[2]. وقد ساعد كثيرا نمو الوعـى

1. Cité par Benjamin STORA, *Histoire de l'Algérie coloniale 1830-1954*, La Découverte, Paris, 1991.

2. *Ibid.*

باستحالة الاندماج الصفوة« المتفرنسة» على أن تحول ميولها وتنضم إلى جانب المطالبة بالاستقلال.

بعد إنقضاء ثلاثة عقود، عندما واجهت فرنسا تحدى إدماج السكان الذين قدموا إليها ضمن أمواج الهجرة التى حدثت فى الستينيات، ابتدعت ما يسمى مهاجر « الجيل الثانى» الذى هو ليس أجنبيا بالكامل، ولكنه ليس فرنسيا كذلك، جاعلة بهذه الطريقة السمات المتعلقة بالمهاجر سمات وراثية؛ لا يهم اليوم أن تكون حاملا للجنسية الفرنسية، فلو كنت من المنتمين لهذا الجيل الثانى وتحمل اسما أجنبيا أكثر مما ينبغي. فإن ذلك لن يضمن لك الاندماج الكامل، كما أن الإنتماء إلى هذا الجيل الثانى لا يضمن فتح باب للعمل ولا دخول عالم سياسى أحكم إغلاقه المتمتعون « بالفرنسية الأصيلة» وهم الذين لا يقبلون احتضان أبناء الأجانب إلا إذا كانوا منحدرين من أصول أوروبية[3]. غير-الغربى -سواء بقى فى موطنه الأصلى أو هاجر- لا يستطيع إذن أن يرتقى تماما إلى درجة الإنسانية الحديثة إلا إذا تطابق مع النموذج فى ختام عملية تحول راديكالية، يقولون له مع ذلك مقدما أنها قد تكون مستحيلة. ما يسميه كورنيليوس كاستورياديس « الاستحالة الجوهرية لتحول الآخر[4]» يضع هذا الآخر في وضع يستحيل عليه فيه تلبية الشرط المطلوب منه لكى يصبح من المعبرين عن الكلّية. يحاول أحياناً غير-الغربيين بعد أن

---

3. جاء فى نسخة عام 1998 من تقرير المجلس الأعلى للإندماج ما يلى: «يقع الفرنسيون الملونون وخاصة القادمون من وراء البحار أو من أصول أجنبية غير أوروبية ضحايا التفرقة تشابه تلك التى يتعرض لها الأجانب». ولا يسع المرء إلا أن يعرب عن دهشته. فى هذا المجال -عن العمى السياسى المصابة به الأحزاب اليسارية فى فرنسا، إذ لم يتقدم أى منها بترشيح أحد أعضاءه من أبناء الهجرة فى وضع يتيح له إمكانية النجاح فى إحدى الإنتخابات العامة، مثل الإنتخابات التشريعة، إلا إذا إستثنينا الإشتراكى التوجولى الفرنسى كوفى يامنيان. أثبتت هذه الأحزاب- وهى التى تتصدر ملقنى دروس التربية الوطنية للسكان المهمشين أصحاب الأصول الأفريقية-الغربية- أنها غير قادرة على وضع ما تدعيه عن فضائل الإندماج موضع التنفيذ، وهي بذلك تبعد نحو 5% من السكان الفرنسيين خارج نطاق أى تمثيل سياسى.

4. Cornélius CASTORIADIS, «Les racines psychiques et sociales de la haine», *Figures du pensable*, Seuil, Paris, 1999.

يجعل كاستورياديس من إستحالة التحول هذه « السمة الرئيسية والحاكمة للتفرقة العنصرية».

أصبحوا مختلفين عن ذويهم بدخولهم بإرادتهم أو بدونها فى الحداثة، الخروج من هذا المأزق بأن يكونوا لأنفسهم هويات يعتقدون أنها تستطيع -بكونها ردود فعل- أن تحل محل ما كانوا عليه وما لا يستطيعون أن يكونوه. ويعد من هؤلاء أعضاء التيار الإسلامى، بإعادة تأويله لتراث لم يعد له أن يكون من جديد، وفى مواجهته المباشرة بغرب ناء لدرجة يصعب جدا عليه أن يكون فى متناوله. وسأعود إلى ذلك بعد حين.

إعادة ظهور الآخرين ...

الصور الذى يأخذها الكلىّ لا تخضع إذن للتفاوض. ولكن من هو هذا الآخر الذى يتعين الصب فى قالبه من أجل الدخول فى الأوساط التى لا يناقشه أحد فيها عن صفته ؟ هل تغير هذا الآخر كثيرا منذ تلك " العصور الحديثة " التى كانت تحول أوروبا فيها اكتشافاتها إلى فتوحات وتشكل فى سبيل ذلك لنفسها الوسائل التى تسمح بجعل ذلك شرعيًا ؟ هل تتغذى الهوية الغربية على المواجهات ذاتها -التى قد تكون بعض التعديلات قد طرأت عليها عبر القرون- أم أن هذه الهوية أصبحت اليوم قابلة للتجديد بأن تنهل من ينابيع أخرى ؟ أين يمرر الغربيون حدودهم التى تميزهم عن الآخرين بعد أن ضعفت مناعتهم العَقَبِيَّة أكثر من أى وقت مضى بعد فقدانهم لميزة تفوقهم العددي[5] ؟

تراهم أحيانا مترددين أمام مسار خط هذه الحدود. فإذا كانت الولايات المتحدة ترفض باستمرار دخول الأجانب غير المرغوب فيهم إلى جنة الفرص الذهبية

---

5. فعلى حين كان عدد السكان التراكمى لأوروبا وشمال أمريكا وإيقيانيا المتطورة فى عام 1950 هو 732 مليون نسمة يمثلون نحو 30% من سكان العالم، فهم لا يمثلون اليوم سوى 18% فى عام 1998 بتعداد يصل إلى 1064 مليون نسمة، ومن المتوقع ألا يمثلوا فى عام 2050 سوى 11.9% من سكان كوكب الأرض، بتعداد 1066 مليون نسمة أى بتعداد ثابت خلال نصف القرن القادم (أرقام مأخوذة من:
World Population Estimates and Projections, 1998 Revision, Division de la population des Nations unies, New York, 1998).

الأمريكية، فهى ترى أن قوة أى إمبراطورية تقاس أيضا بقوتها على الاستمالة وهى تشجع فى هذا السبيل تعدد جنسيات مدنها الكبرى وأهل الصفوة فيها، معتبرة ذلك مرحلة من مراحل أمركة العالم. وعند الضواحى الإقيانوسية للعالم الغربى، إكتشفت استراليا الضغوط التى يفرضها عليها مجالها الجغرافى والفرص التى يقدمها لها ذلك، وأخذت تتساءل إلى أى مدى يمكنها أن تصبح آسيوية، كما أخذت تعلن رسميا أنها متعددة الثقافات –مثلها فى ذلك– مثل أرض الهجرة الأخرى التى هى كندا[6] الواقعة فى أقصى الشمال منها – وتعلن أستراليا عن رغبتها فى إدماج من تبقى على وجه الحياة من السكان الأبوريجين الأصليين داخل أمة تريد أن تحدد لنفسها هوية وهى تتقدم إلى الأمام. أما أوروبا فهى تتساءل من ناحيتها أين يتعين عليها أن تتوقف حتى تبقى على هويتها. هل يجب أن تضم تركيا التى تصبو إلى أن تكون أوروبية[7] ؟ هل يعتبر مسلمو البلقان آخر فضلات الإمبراطورية العثمانية التى ألقى بها خارج تاريخها وبالتالى خارج جغرافيتها ؟ هل الأتراك أجانب فى أوروبا التى تماسكت هويتها بواسطة تراثها المسيحى، أم تُراهم أوروبيين يتعين الدفاع عنهم عندما يتشكك البعض فى ذلك الانتماء ؟ هل تستطيع أوروبا –فى مجال آخر– أن تؤمن لنفسها مستقبلا ديموجرافيا دون أن تعيد التفكير فى الحدود التى تقيمها بين الآخرين وذاتها ؟

لأسباب متعددة –تبدأ من تطور علاقاتهم بالعالم إلى الحفاظ على مصالحهم بالطبع– بدأ الأوروبيون في تحويل ما كانوا يعتبرونه فى الماضى " آخرًا " إلى

---

6. Christine INGLIS, *Multiculturalism: New Policy Responses to Diversity,* Most/Unesco policy paper 4, Unesco, Paris, 1996.

7. المسألة كما هو معروف تثير جدلا واسعا فى الإتحاد الأوروبى، إذ يرفض البعض قبول تركيا داخل هذا الاتحاد. متذرعين بالسبب الجوهرى الصحيح بأنه يتعين عليها أولا أن تثبت أنها أقدمت على التحولات الديموقراطية بأن تكف عن خرق حقوق الأفراد والأقليات. على حين يضع آخرون أسباب رفضهم فى الإختلافات الثقافية الدينية، بحجة إستحالة زرع مسلم فى داخل نطاق يتسم بانتمائه للثقافة المسيحية. ويعتبر الديموقراطيون المسيحيون الألمان –على وجه الخصوص– أهم المعبرين عن هذا الاتجاه.

جزء من ذاتهم؛ إلا أنه لا يوجد ما يؤكد حتى الآن أن هذه المؤشرات تنبئ بحدوث تغييرات أوسع وأشمل. من ثقافة التفوق القديمة التى أعاد إليها تزايدُ المخاوف والتقدمُ الحالى فى المجالات الاقتصادية والتكنولوجية، نضارتَها وفتوتها مازالت هذه الثقافة التفوقية تعيد هيكلة الأفكار وهى مازالت تتحكم فى المواقف، وهى تتكيف مع التشكيلات الكوكبية الحديثة، وتعيد تشكيل النماذج التى تقوم عليها وتعيد تعيين تحديد ما هى التفسخات التى ترتب عليها تدعيم الحدود القديمة. سياسيةً وفكريةً وشعبيةً هى هذه الثقافة، وهى تتحكم فى العلاقات التى يقيمها الغربيون مع بقية أنحاء كوكب الأرض وفى رؤيتهم لبقية أنحاء العالم تلك. فمازالت هذه الثقافة هى التى تحدد من هو الآخر وكيف يتعين النظر إليه[8].

فلنحدد بدقة ما نحن هنا بصدده، إذ ليس الموضوع هو شجب إدراك الغربيين لما يميزهم عن الآخرين، إذ أن هذا الاحساس بالانتماء إلى حضارة فريدة من نوعها، وهو إحساس يتقاسمونه على العموم مع بقية البشرية، ليس فيه ما يشكل مشكلة فى حد ذاته: لكن ما يأخذه البعض -عن حق- على العولمة التى يتحكم فيها منطق موحَّد للسوق، هو أنها تصب التنوع البشرى فى قالب واحد وأنها تنبئ بحلول العهد المميت للبشرية الموحدة المنضوية تحت لواء ثقافة هابطة مهيمنة. ثقافة متدنية، هى نفيٌ للثقافة ذاتها؛ علما بأن كافة التيارات الفكرية التى تدرس ما

8. تشهد على ذلك -مع أشياء أخرى- هاتان الصورتان المتعارضتان لبعض الغزاة نستقيها من طبعة حديثة لأطلس جغرافى: بانتصارات الأوروبيين تزينها هالة إيجابية للغاية على حين يُقدم الآخرون على أن ما يحركهم هى أدنأ الغرائز. ويبدأ فصل «الإمبراطورية العربية» بهذه السطور. «بوفاة النبى محمد فى 632، بدأت الفتوحات. وراء ذلك عدة أسباب: تقاليد حربية، تعاليم الرسوم والجشع أيضا» أما الفصل الخاص بـ «الإكتشافات الكبرى والإمبراطوريات الإستعمارية فى القرن السادس عشر» فهو يبدأ هكذا: «كان التقدم الفكرى والإختراعات التقنية، التى يرجع بعضها أحيانا إلى الشرق [...] هو ما يفسر ولو جزئيا الدافع الذى حرك المستكشفين. ولكن يتعين أيضا الأخذ فى الإعتبار الروح التى حركت فيما مضى الحروب الصليبية، والفضول الجغرافى والطموح التجارى والصدفة» (*Grand Atlas Bordas*, Bordas, Paris, 1991). يمكن من خلال قراءة هاتين الجملتين أن ندرك كيف وإلى أى درجة تعتبر نظرة الغربيين -والفرنسيين فى هذه الحالة- إلى الآخرين متحازة.

هو "بَشَرِيَ" قد علمتنا وزادت أن وجود الآخر هو الطريق المؤدى إلى اكتشاف الذات. غير أن الثقافة الغربية للهيمنة التى حملتها لنا قرون من الهيمنة لا تدخل فى هذا المجال. فبعد أن جعلتها عراقةُ تقتها بنفسها وحيدةً بصورة مأساوية- فهى لا تزال تعمل على أن تحدد وحدها شروط الارتقاء إلى ما هو الحديث.

غير أن الموضوع يختلف تماما اليوم. فالمطلوب هو جعل هذا الكلّى قابلا للفهم وبالتالي يمكن أن يمتلكه الجميع دون تنازل عن المبادئ، تزويد تعريف مفكرى الغرب لحقوق الإنسان الفرد التى لا تسقط بالتقادم بسمك معرفى. كيف يمكن للوصول إلى هذا الهدف إعداد عقد سياسي واجتماعى وأخلاقى تجد فيه كافة مكونات المجتمع الإنسانى ذاتها ؟ مشروع ضخم بالطبع يقع فى أبعد نقطة مقابلة لكافة «الاستثناءات الثقافية» التى تقف اليوم فى طريقه ومنها هذا الغرب الواثق أكثر مما يجب بذاته، فلا يدع مكانا للآخر فيما يشيده، إلا إذا أعاد تشكيل الآخر على شاكلته أو إذا أبقاه داخل غيريته وأن يميز، بين هذا الطرف والآخر، ما هو جيد مما هو فاسد.

... وعودة التهديدات

ما أن تم دفن الشيوعية، هذا الكليّ المنافس، هذا الأخ العدو الذى خرج من ذات الرحم، هذا الذى نجح فى استمالة الآخرين بعيدا جدا عن نطاق مسقط رأسه والذى نشر عبر القارات جميعا كتاب قراءة كُلِّيَتِه الرشيدة الذى طُوى ودُفِن معه، ما أن ووريت الشيوعية التراب إذن إلا وأعطى الغرب بُعْدًا جديدا لتناقضات قديمة طُمست جزئيا بواسطة التحالفات التى عُقدت أيام الحرب الباردة، وأعاد من جديد قراءة لخريطة العالم قائمة على الثقافة، وترددت فى أوساط أهل الصفوة منه

أصداء الأفكار التي عبر عنها الأمريكي صاموئيل ب. هانتنجتون في بداية التسعينيات[9] وتأثيرها على واضعي إستراتيجياته، وهو الذي بدأ يرسم جغرافيا« حضارية» جديدة للصراعات على الأرض. من الآثار الخطيرة لمثل تلك القراءة هي إحالة مصادر التوتر الأخرى لمستوى أدنى، ومن هذه المصادر عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية العالمية، ومنها أيضا إعفاء الغرب من مسئولياته في تعميق ذلك بأن أعطى تفسيرًا جوهريًا للصراعات الحقيقية أو المفترضة التي تمزق الأرض.

من المؤكد أن التبسيط المشين لنظرة هانتنجتون -التي ظهرت بعد نرجسية نهاية التاريخ الذي قدمها قبل ذلك بعدة أعوام الأمريكي الآخر فرانسيس فوكوياما[10]- كان محل نقد شديد إلا أنه وفر لمحاولات إقصاء الآخر قاعدة نظرية -وهو الإقصاء الذي تعتبره النظرية بالمناسبة- عملا خطيرا.

المشكلة بالنسبة لهانتنجتون تتمثل على وجه الخصوص في الإسلام، وأعظم الأخطار التي تواجه الغرب هي المتمثلة في تكوين « صلة إسلامية-كونفوشية» تقرب بين كيانين عدائهما لما يمثله أصيل[11]. والواقع أن الإسلام على جانبي الأطلنطي يقف أكثر من أي وقت مضى كالحائل، أكثر مما يُمثله أقصى شرقي آسيا، التي هي قوية سياسيًا وتشكل تهديدًا اقتصاديًا، غير أنها في "غيريتها " واثقة

---

9. نشر المقال المشهور لصمويل هانتنجتون عن «تصادم الحضارات» في مجلة *فورين أفيرز* في عدد صيف 1993 وتبع ذلك كتاب:
The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, Simon & Schuster, New York, 1995 (trad. Française: *Le Choc des civilisations*, Odile Jacob. Paris, 1997).

10. نُشرت ترجمة فرنسية لنص فوكوياما عن «نهاية التاريخ» في مجلة "كومونتار" عدد رقم 47، خريف 1989، وهو تصوير كاريكاتوري لثقافة الهيمنة الغربية، بما ان مغامرات الغرب وحدها هي التي تعطي إفتراضيا معنى للتاريخ الكليّ. فما أن تنتهي المغامرات الأولى -بالانتصار على التنين الشيوعي الا ويحدث- كما في روايات الجنيات الطفولية في أن تصل المغامرة الثانية إلى نهايتها، كما يطوى كتاب، تماما بعد نهاية القصة. لا يوجد للعالم مكان في هذا النص.

11. كما أن الإسلام والكونفوشية لهما، في نظر هانتنجتون، نفس السمة المشتركة، وهي أنهما ديانتان-فلسفتان لاتتقبلان الديموقراطية بنفس درجة قبول الكاثوليكية وخاصة البروتستانية لها حيث وجدت الديموقراطية فيها أرض ميعادها. (*صدام الحضارات*، المرجع المذكور سابقا).

من ذاتها مما يجعلها لا تستهدف سوى التأكيد على مـــا يجعلـــها مختلفــة وعلـــى استقلاليتها. وأكثر مما هو الحال فى أفريقيا التى انطوت على نفسها فـــى حــروب يراها الآخرون على أنها من أعراض ارتدادها إلى الهمجية التى كانت سائدة فيـــها قبل مرحلة الاستعمار. قد يخشاهما الشمال بالفعل، فهو يعلم أن القـــوى السياســية تريد أن تحظى بمكانة سياسية تتناسب مع المكانة التى لها فى المجال الاقتصـــادى، على حين تستطيع أفريقيا دائما أن تصدر مساوئها وعلى رأسها فقراءهـــا ومـــرض الإيدز.

إلا أن هذه الأخطار تبدو قابلة أكثر للسيطرة عن تلك المتمثلــة فـــى الإســـلام الذى عاد إلى ارتداء رياش الفاتحين. ذلك لأن الوحى الذى أتى به قريـــب للغايـــة ولدرجة يصعب اعتباره غريبا حقا، ولأن هذه القربى -ولو يتم إنكارها فى جـــزء كبير منها من الجانبين- تبدو أكثر خطورة من غيرية نائية. وتتعدد الأسباب التـــى أدت إلى جعل صفة الإسلامى خلاصة مركزة لكل ما يمكن أن يشكله الآخـــر مـــن مضايقات. سنرى أن الدول الإسلامية وأهل الصفوة منها والرأى العام فيـــها هـــم أبعد ما يكونون الجانب البرئ فى هذه المواجهة القائمة على تبادل " أبلسة " الآخـــر وعلى اقتباس التعبيرات التاريخية من هذا التراشق. إلا أن الانحرافات التى يطلـــق عليها ماكسيم رودانسون -على الجانب الإسلامى- « ثقافة الاستياء» أدت إلى نشوء حالات مغلوطة فى الغرب، خرجت منها صورة « آخر» يمثـــل تـــهديدا ولا يمكـــن دمجه فى الذات.

حدث منذ عدة سنوات أن جاء فى نشرة الأخبار الرئيسية التى تذاع فى الثامنة مساءً على إحدى كبرى قنوات التليفزيون الأمريكى ريبورتاج عن حـــادث اعتـــداء اقترفته فى إحدى مناطق العالم مجموعة من الكوماندوز الملتحين تحت عنوان كتـــب بحروف كبيرة «*إسلام*» (*«islam»*)، ولكن لا يمكن أن نتصور أن يلصـــق عنـــوان « مسيحية» فى إطار مثل ذلك على استخدام شـــلة مـــن الأصولييـــن المنـــاهضين للإجهاض القوة فى الهجوم على إحدى العيادات الأوروبية أو الأمريكية.

على الرغم من أن الكاتب الجزائرى عاشور عمارة كان على حق عندما أكـد -مبتعدا بذلك عن أغلبية المثقفين العرب- أنه يتعين« الاقتراب من الإسلام لا بحرفية نصوص الآيات ولكن بالممارسات السياسية التى تعلن انتسابها إليه»[12]، فمن المفيد أن نحقق فى الخلط القائم بين جموع المؤمنين به والحركات المتطرفة التى تدّعى إنتماءها إليه وعلى الإشارة إلى هؤلاء على أنهم أهم الأعداء الحاليين للغرب. الواقع هو أن هذا الأخير قد أعد -عبر العشرين السنة الماضية- قياسًا منطقيًا غير واقعى: الإسلاميون خطيرون، كل مسلم[13] إسلاميٌ فى حالة كمُون، بما أن ديانته تحمل التطرف مثلما تحمل السحب العاصفة[14]، إذن كل مسلم إرهابى، وهو ما يجعله بالفعل وبالقطع منفرًا.

العدو الرئيسي الجديد

لا أحد -فيما عدا مناصريها- ينكر إمكانات الإساءة التى تضطلع بها الحركات التى تنتسب للإسلام المتطرف[15] ولن تتردد فى استخدام القوة لفرض

12. Achour OUAMARA, *Oublier la France, confession d'un Algérien*, L'Aube, La Tour-d'Aigues, 1997.

13. إذا إستخدم التعبير كصفة ؛ إلا أن هذه الكلمة قد توقف إستخدامها لصالح كلمة إسلامى، وهو قريب من الناحية السمعية من هذا التأسلم الذى يقال أنه جزء لا يتجزء من الإسلام.

14. فى مقال إفتتاحى للمجلة الاسبوعية الفرنسية *لوبوان* (العدد رقم 1324، 31 يناير 1998) تحت العنوان الفج «الجزائر: الشر المطلق» يقول مدير المجلة كلود امبار إن «مرض الأصولية هو جزء من الإسلام ذاته، إنه ألبوم صور الأسرة الإسلامية إلا أن الكاتب لا يذكر أن كانت المجازر التى ارتكبت فيما مضى باسم الكنيسة أو باسم الحضارة لا تنقضم هي أيضا عن الذات الحممية للكنيسة أو الغرب.

15. العديد من نماذج الإسلامية -ذلك لأن الإسلام السياسى يُعرب بصيغة الجمع- كان موضوع دراسات عديدة قام بها باحثون عديدون حول هذا التيار. وأنا أشير إلى تلك التى قام بها جان لوكا، وهو يميز بين الإسلاميين المحافظين والراديكاليين ويقسم الآخرين فى شقين: «الديموقراطيون المسلمون» المؤيدون للديموقراطية من ناحية المبدأ، و«الإسلاميون الثوريون». الذين يرفضونها.

(Jean LECA, «La démocratisation dans le monde arabe: incertitude, vulnérabilité et légitimité», *in* Ghassan SALAMÉ (dir), *Démocraties sans démocrates, Politiques d'ouverture dans le monde arabe et islamique*, Fayard, Paris, 1994).

نظامها والوصول إلى السلطة. المشكلة لا تكمن فى الواقع فى أنها تمثل تهديدا للنظم القائمة -وهو ما لا يعتبر فى واقع معظم البلاد العربية الإسلامية شيئا يؤسف بالضرورة له- وإنما تكمن فيما يريدونه وفيما يبشرون به. إنهم من أشد أعداء الحريات وهم مناهضون لما هو أجنبى ولا يعرفون للتسامح معنى، ويكرهون النساء وهم متعجلون فى فرض نظام استبدادى على شعوبهم يشرع استخدام العنف للوصول إلى ذلك كما أن أقوالهم وممارستهم تجعلهم ينتمون-ولو أنه لا يمكن حصرهم فيها- إلى الأسرة الفاشستية التى رفرت أفكارها من قارة لأخرى عبر القرن العشرين. وهم علاوة على ذلك أكثر خطرا فى نظر الغربيين بمقدار ما أن طموحاتهم تغطى كافة أبعاد *دار الإسلام* التى يدمجون فيها " شتات " المسلمين المقيمين فى بلادهم.

هذه الأممية الدولية المشمولة بالأمر الواقع التى يقيمونها نظريا على القيمة الكلية المتمثلة فى الوحى القرآنى، قد وضعتها فى إتصال مباشر مع الغرب، وإذ أنها تستطيع تهديد مصالحه واستقراراه[16]. ذلك لم يمنع هذا الأخير من استثارة كافة أنواع الغموض حيالها ومن أن يساعدها فى القيام بدورها إذا كان فى ذلك ما يجعل منها حليفة تستخدم فى المواجهات الجيوبوليتيكة الآنية -مثلما كان الحال بالنسبة لباكستان وأفغانستان طوال فترة الغزو السوفيتى[17]- أو أن يتخذ حيالها موقفا حياديا متساهلا إذا لم تعبر إزاءه عن عداء سافر وإذا أعلنت صراحة عن ليبراليتها الاقتصادية وعن استعدادها -فى هذا الأمر على الأقل- إلى الانتماء

16. لا ينطبق ذلك على حركات أصولية أخرى مثل الراديكالية الهندوسية، التى تتغذى من ذات التربة ولكنها تنتمى فقط إلى مجال ثقافى واحد محدد تجعل أثاره السيئة تنحصر فى شبه القارة الهندية.

17. وهو مازال كذلك حتى الان. ففى اللعبة الكبرى التى تؤدى فى آسيا الوسطى والتى تدور جزئيا حول البترول، ملازال نظام *الطالبان* صالحا للإستخدام حتى الآن وهو لايزال لذلك غير مهدد من الولايات المتحدة حتى لو أنه لايزال يأوى عدوهم رقم واحد الآن الإسلامى السعودى أسامة بن لادن. إن هذا الأخير الذى تم تدريبه على يد الأجهزة السرية السعودية التى تعرف علاقاتها الوثيقة بزميلاتها الأمريكية قد خدم أهداف واشنطن لفترة طويلة قبل أن يتحول إلى قائد أوركسترا *الجهاد* المناهض للغرب.

الكامل للنظام السائد. ترددت العواصم الغربية كثيرا بين البحث عن عقد تحالفات أو الوقوف على الحياد أو الاحتواء أو المواجهة الصريحة حول الخط الذى يتعين عليها اتباعه إزاء فاعلين على الساحة الدولية يصعب الالتفاف حولهم؛ وفضلوا فى كثير من الأحيان الإبقاء على نظامهم عن الفوضى التى قد تسود مناطق حساسة عديدة من الكرة الأرضية.

لكن مهما اشتد الغموض الذى يحيق بمواقف وصفت بالواقعية، فإن الرسالة المذاعة على الرأى العام تبقى واحدة: كل ما يتعلق بالتيار الإسلامى-مسلح كان أو غير مسلح، أراد أن يصل إلى السلطة بالقوة أو بالانتخاب[18]- يتأثر فيه بمؤشر عن خطورته يفوق بكثير التهديدات السياسية الأخرى التى يتعين على الدول الديموقراطية أن تحتاط لها. أصحاب النظرية النسبية والتى يتعين انتقادها أيضا، ولكن لأسباب مختلفة ينشرون وحدهم خطابا أقل غموضا.

إننا نتذكر أيضا الضجة التى أثارها انتصار الحزب الإسلامى للرخاء فى الانتخابات التشريعية التركية فى عام 1995. فقد عبرت العواصم الغربية فى حينه عن قلقها البالغ إزاء المنحى الذى اتخذته الأحداث داخل بلد حليف له ثقله كما ألقت بكل ثقلها لكى تنهى التحالف الذى قام بين الإسلاميين وقطاع من اليمين، متناسية أن حزب نعم الدين أربكان لم يحصل سوى على ربع عدد الأصوات ولم يتمكن من تشكيل حكومته سوى باستغلاله للانقسامات التى حدثت بين القوى السياسية

18. مسألة الروابط الموجودة حاليا بين الحركات الإرهابية والتشكيلات التى إجتازت الطريق القانونى للوصول إلى السلطة مسألة معقدة. إنها تحرك العواطف المتوترة منذ ظهور الراديكالية الإسلامية المعاصرة فى نهاية السبعينيات ومع حدوث الإنحراف الجزائرى فى التسعينيات. لقد خرجتا من ذات الرحم الإيديولوجى وتناضلان بنفس القناعة من أجل إقامة الدولة الإسلامية وهما فى كثير من الأحيان وجهان لعملة واحدة، وكثيرا ما شكل الأوائل الذراع المسلح للآخرين إلا أن إختلافات وجهات النظر الإستراتيجية والسياسية لم تتوقف عن التعمق بين هذين الوجهين للأسلمة التى تقسم أطوارها وتطوراتها فى إطار الزمن الطويل لدرجة جعل كل منهما رافضا للآخر. إن التحريم الشامل للأسلمة أخر من تعميق الكسر الذى حدث بينهما وهو ما سيحدد ولو جزئيا المستقبل السياسى لعدد من الدول العربية والإسلامية. ذلك لأن المفارقة هى أن قبول التشكيلات المنادية بالأسلمة فى المجال السياسى القانونى هو من الشروط الديموقراطية ومن تطور الحالة الدينية فى تلك البلاد.

الأخرى. بعد أربع سنوات من ذلك وبعد إنتخابات أخرى إختار هذا اليمين، شريكا فى الإئتلاف، حزبَ الحركة الوطنية، وهو الواجهة المقبولة لحركة الذئاب الرمادية الفاشستية والتى أدت أعمال العنف التى قامت بها إلى عودة الجيش إلى السلطة فى عام 1980. ولكن لا أحد فى أمريكا، ولا فى أوروبا، عبَّر علانية عن تخوفه من وصول تشكيل يمينى متطرف إلى الحكم، وهو على أقل تقدير على درجة الفاشستية نفسها التى يتسم بها الإسلاميون الذين طردوا من الحكم، وفرضت عليهم عدم الشرعية. ونتذكر أيضا كيف أسرعت السلطات الأمريكية باتهام الإسلاميين بأنهم المسئولون عن الانفجار الدموى الذى وقع فى أوكلاهوماسيتى فى عام 1995، قبل أن تكتشف المسئولين عنه الحقيقيين وهم أعضاء فى مجموعة أصولية بروتستانتية من السكان الأمريكيين الأصليين. وللتذكرة قد يكون لديهم بعض من العذر فى ذلك، لأن حادث أوكلاهوما حدث بعد الاعتداء على مبنى مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى عام 1993 على يد مجموعة إسلامية حقيقية.

سبق أن ذكرنا أن هؤلاء لا يتورعون فى الواقع عن نقل الحديد والنار إلى من يعتبرونهم أعداء لهم. إلا أنهم لا يقودونَ وحدهم مسيرة العالم الدموية، على عكس ما جاء فى عام 1993 فى صحيفة *الإنترناشونال هيرالد تريبيون* إذ قالت «الأصولية الإسلامية أصبحت بسرعة التهديد الرئيسى للسلام الشامل والأمن[19]» أو مثلما جاء فى إفتتاحية عام 1997 لصحيفة *لوموند* التى رأت فى تلك التيارات الخطر الرئيسى الذى يهدد « كوكب الأرض الذى أصبح يعيش على وتيرة ما يحققه إتجاه إسلامى متشدد من تقدم[20] ». استطلاع للرأى أجراه مجلس شيكاغو

19. مقالة س. هولينجورث، *إنترناشونال هيرالد تريبيون*، 1993/9/9، يقارن هذا المقال الخطر الإسلامى بالفاشية والنازية فيما بين الحربين العالميتين والشيوعية فى الخمسينيات.

20. جان مارى كولومباني «عام العولمة»، *لوموند*، 1997/1/11. هذا المقال الذى شغل أربعة أعمدة من صفحة الصحيفة ظهرت به كلمة إسلامى أو إسلاميات ثمان مرات، على حين لم يرد ذكر -ولو للتذكرة- ولا لمرة واحدة للمسائل الرئيسية مثل تصاعد الحركات الأصولية على مستوى العالم أو زيادة الخطورة التى يمثلها عدم المساواة فى العالم. الظاهرة الفكرية الضاغطة الذى يمثله هذا الترديد توضح الأهمية المعطاة لظاهرة هامة للغاية وبكل تأكيد، ولكنها أبعد من أن تستحوذ وحدها على الساحة الجيوبوليتيكية العالمية.

للعلاقات الخارجية فى عام 1998 [21] بين الجمهور الأمريكى وقادته يلقى الضوء على الأثر الذى تتركه مثل هذه الكتابات ؛ 84% من الذين أدلوا برأيهم من بين الجمهور « العادى» يرى بالفعل أن الإرهاب الدولي يمثل « تهديدا خطيرا» لبلادهم مقابل 61% فقط من آراء القادة، 38% من الأوائل يخشون بالتحديد التيار الإسلامى مقابل 31% من الآخرين. في فرنسا 64% من أفراد استطلع رأيهم فى عام 1999 وطلب منهم تعيين أهم التهديدات التى يواجهها كوكب الأرض ذكروا« تصاعد التطرف الدينى فى البلاد الإسلامية[22] ».

لا تقاس خطورتهم -كما لاحظنا- بالكوارث التى تسببت فيها تلك التفسيرات الرجعية الراديكالية للإسلام داخل مجتمعاتهم ، وإنما بقوتهم الضاربة خارج حدودهم. ما قد يتسبب فى الإطاحة بنظام *الطالبان* لن يكون معاملتهم للأفغانيات وإنما حق اللجوء الذى يمنحونه للإرهابى أسامة بن لادن. الإسلام الراديكالى يعتبر خطيرا في واقع الأمر فى رأى الغرب لسببين: أولاً لأنه ينشر فكرة وجود كليّ آخر معارض للكلى الغربى ويمكنه منافسته فى جذب انتباه الجماهير الفقيرة في بلاد الجنوب المختلفة؛ فهو يقابل سيادة عهد الحرية، بسيادة عهد العدالة ويعد من حرموا من المشاركة فى الولائم العالمية الزاخرة بالطيبات بانتصارات مدوية، وهو قد أصبح لغة عالمية يفهمها المعدمون، من مقوماته الرئيسية الأعداد الضخمة المنضوية تحت لوائه -وهى ما يجعله يشكل تهديدا- وهو قادر على تدبير العديد من حالات التمرد الصاخبة على مستوى العالم كله. إذا كانت مثل هذه القراءة أبعد من أن تكون خاطئة تماما، إلا أنها تُسقط من حساباتها العديد من الحقائق. مما

21. *المرجع المذكور سابقًا.*

22. إستطلاع للرأى قامت به هيئة SOFRES فى ديسمبر 1999 بناءً على طلب تقدمت به لجنة الدفاع فى الجمعية الوطنية الفرنسية. نشرت صحيفة الفيجارو نتيجته فى 12 فبراير 2000. وفى عام 1994 أشار إستطلاع مماثل أجرته هيئة IFOP إلى نفس الإتجاه. بالنسبة لـ 37% من الأشخاص الذين إستطلع رأيهم كانت كلمة«تعصب» هى أفضل كلمة تتناسب للتعبير عما يتصوورنه عن الإسلام، كما أن 67% يرون أن الكلمة هي الأفضل من ثلاث كلمات لوصف الإسلام مع كلمتى «الإنصياع» و«رفض القيم الغربية» (*لوموند*، 13 أكتوبر 1994).

يؤثر في مصداقيتها ومنها السمة الجغرافية التي تحد من المجال الإسلامي والتنوع الشديد الذي يفتته. إلا أن ما يساند هذه القراءة هو أن تشكيلة المجرة الإسلامية على إتساعها وتفريعاتها الدولية يجعلها مألوفة لواضعي الإستراتيجيات الغربية، ويمكن لهذه القراءة أن تذكرهم بتنظيم الحركة الشيوعية رحمها الله.

ولكن لا البعد العابر للأمم الذي يتسم به الإسلام يجعل منه كليًا تسهل عولمته، ولا وجود أممية إسلامية تمنحه بعدًا عالميا. إن كانت خطورة الإسلام هي خطورة حقيقية للمجتمعات التي يمارس عليها نفوذه وللبلاد التي يحاول نشر هذا النفوذ عليها، فإن هذه الخطورة ليست في تناسب مباشر مع المساحة التي يحتلها الإسلام على خريطة العالم.

مع ذلك، فإن هذا ما توحي به القراءة العادية له؛ ذلك لأننا نتناسى أن إنتصاراته السياسية تظل نادرة جدا حتى الآن. وأهم أثر لمثل هذه القراءة هو سحب الخوف الذي يثيره التيار الإسلامي على المسلمين جميعا وتجعلهم كلهم خطرا كامنا. ويسهل التحول من شجب الحركات المنتمية للحقل الاجتماعي- السياسي إلى شجب الثقافات التي يتم إلقاء صورة كاريكاتورية لها إلى الرأي العام ليفتك بها مع ما يترتب على ذلك من آثار معروفة. فلا يرى الكاتب الفرنسي الآن فرينكيلكروت فيها سوى« ثقافة تنفذ قصاصًا بدنيا على المجرمين، وتُطلِّق المرأة العقيمة وتَرجم حتى الموت المرأة الزانية، وفيها تساوي شهادة الرجل شهادة امرأتين، ولا تأخذ الأخت سوى نصف ما يستحقه أخوها من الميراث، وفيها تختن الإناث، وتمنع الزيجات المختلطة ويسمح بتعدد الزوجات ... [23]». على هذا الوصف المرعب لا يبيّن أن كافة البلاد الإسلامية تقريبا لم تعد ومنذ وقت طويل تلجأ إلى القصاص البدني وأن ختان البنات يمارسه المسيحيون أيضا في كافة

---

23. Alain FINKIELKRAUT, *La Défaite de la pensée*, Gallimard, coll. «Folio», Paris, 1987.

الأنحاء التى تمارسه وأن المساواة بين الجنسين فى الميراث تعتبر من المكتسبات الحديثة فى أوروبا وأن اعتبار المرأة قاصرا يتعدى بكثير النطاق الإسلامى[24].

لقد أصبح الآن من عادات الغرب أن يحمل الإسلام مسئولية كافة الأشكال الرجعية القديمة التى تعرفها المجتمعات التى يسود فيها، مما يساعد على تشويه صورته بدرجة أكبر. لقد استخدم الغرب كثيرا ما قالته البنجالية سالِيمة نسرين التى حملت الإسلام -فى مواجهتها لثورة الأصوليين فى بلدها ضدها- كافة الآلام التى تعانى منها النساء البنجاليات تقريبا، دون أن تميز بين ما يرجع إلى الدين وما يعود إلى العادات، ودون أن ترى أيضا أن الظروف الرهيبة التى تعيشها النساء فى شبه القارة الهندية كلها تتعدى بكثير دياناتهن. وقد حصلت من إدانتها للإسلام وحده على تقدير المعلقين الذين أسعدهم أن يروا اقتناعاتهم معتمدة من إحدى نساء بلد مسلم[25]. الواقع أن ما يجعل هذا الخلط سهلا هو الجانب المحافظ العميق الذى تغوص فيه معظم المجتمعات العربية الإسلامية والذى يأخذ شرعيته من الخطاب الدينى وأن العالم الإسلامى بما هو عليه لم يحمل فى طياته منذ فترة زمنية طويلة للغاية أى مشروع تَحَرُّرِى. يسمح هذا التحجر بحدوث كافة الانحرافات بما فى ذلك

---

24. فى فرنسا على وجه الخصوص، إذ يعتبر قانون نابوليون المدنى أحد الصروح الحديثة لعداء المرأة ولتقنين النظام الأبوى فى كامل سلطانه، ولم تختفى آخر أثاره من القانون الفرنسى سوى فى السبعينيات. كما نعرف أيضا أن بلدا متوسطيا مثل إيطاليا الكاثوليكية قد إحتفظ فى تشريعه حتى الستينيات بمنح الظروف التخفيفية لمرتكبى «جرائم الشرف» من الرجال ضد إمرأة من عائلاتهم.

25. ليست عملية تحميل كل شىء على كاهل الإسلام من مميزات الغربيين وحدهم. ففى البحث الذى أجراه على إنتشار الإسلام لعنوان:
(*Jusqu'au bout de la foi. Excursions islamiques chez les peuples convertis*, Plon, Paris, 1998)
يعزى الكاتب الهندى -الترينيدادى- البريطانى ف. س. نايبول إلى الإسلام وحده عنف العادات الإقطاعية فى باكستان وعدم صلاحية بنياته الإجتماعية، أو المصير الرهيب الذى تختص به النساء ؛ وعلى الرغم من أن بحثه مهتم بإعادة إكتشاف الآثار التى تركها التاريخ الطويل فى كافة المجالات. إلا أن نايبول لا يناقش فى هذه الحالة، التقاليد الإجتماعية والإقتصادية السابقة على قيام هذا البلد، ولا يقيم أى مقارنة موازية مع الموقف السائد فى الهند. يحمل الإسلام وحده بكافة الأمراض الحقيقية التى تعانى منها باكستان.

هذا الذى يرى فى التيار الإسلامى بداية التحرك التحررى الذى يبدو أن هذا الجـزء من العالم ظل ينتظره طويلا.

المسلمون إذن قوم مخيفون، يتمركزون أساسا فى جنوب العـالم فـى آسـيا الوسطى وفى أفريقيا حيث تسجل الزيادة السـكانية أعلـى معدلاتـها فـى الكـرة الأرضية، وهم قريبون أيضا من أوروبا وهم يحيطون بها من الجنـوب والشـرق، وهم الغزاة فى قديم الزمان وهم المحكومون المسيطر عليهم بعد ذلك، وهـم اليـوم طالبو ثأر، إنهم إذن بالنسبة للغربيين أكثر الأجانب ألفة وفى الوقت ذاته من تتعيـن الخشية منهم. المسلم بالنسبة لألمانيا هو التركى، ولفرنسـا المغربـى ولبريطانيـا الباكستانى أو المصرى، ذلك الذى تجاوره ولكن تتعين خشيته لأنه قريـب ولأنـه آخر. وجوده فى الصورة يثير كما هو معروف أحاسيس عنيفـة حركـت الأقـلام وخاصة فى فرنسا، حيث أخذت القضايا المرتبطة بـ « الحجاب الإسلامى» منـذ عام 1989 أبعادا كشفت عن ردود فعل للرأى العام حيال الوجود الإسـلامى علـى أرضها. التصور الفرنسى للعلمانية يفرض، كما هو معروف، أن تكـون الحـدود صماء بين المجال الخاص حيث يحق لما هو دينى أن يعبر عن نفسه فيه والمجـال العام الذى يظل فيه محظورا نظريا؛ ومع ذلك فقد كشفت قضايـا الحجـاب، التـى تظهر على فترات شبه منتظمة من منطقة لأخرى فى فرنسا، عن شيء آخر غـير رغبة احترام مبدأ ما وهو قد سمح بالمناسبة ببعض الاستثناءات مثل ارتداء " الكبـة " فى المؤسسات التعليمية للأولاد فى الأوساط الدينية اليهودية. لقـد كشـف عنـف رفض بعض المعلمين قبول أى تنازل وطرد مرتديات الحجاب عن خوف غـامض (ولكنه منتشر داخل المجتمع الفرنسى) من الإسلام إذ ترى فى أى تعبير خـارجى له كشفا لما يكنُه من رغبة فاتحة.

لا يعنى ذلك أن ارتداء الحجاب يعتبر بصمة هوية بريئة ولا هو كذلك حبـس المرأة فى نقاب، إنما ما يستوجب الرفض هو الحجة التى تساق دفاعا عن المبـادئ

بمنع دخول المدارس بكل بساطة للبنات التي ترتدى الحجاب وهن في أغلب الحالات مجبرات على ذلك وقلة منهن فقط ترتدينه بإرادتهن؛ ففي ذلك عقاب مزدوج للنساء: أولا بمنعهن الذهاب إلى المكان الوحيد القادر على تحريرهن بعد فترة من الحجاب، وثانيا باعادتهن بهذا المنع إلى الانغلاق الأسرى الجماعى. علاوة على أن فى ذلك معاقبة للجنس النسائي وحده بواسطة هذا التطور الأصولي، ذلك لأن مجتمعهن يكلفهن بمسئولية حمل علامة الهوية. أما الأولاد القادمون من أوساط أصولية، فلأنهم لا يحملون علامات مميزة، فإن متابعتهم للدراسة غير مهددة بسبب انتمائهم لتلك الأوساط.

توجد وراء هذا المثل الأمثل (هو فرنسي صرف ويصعب على بلاد أوروبا الغربية الأخرى فهمه بالمناسبة، حيث إن مزاولتهم للعلمانية وللتعايش مع السكان أصحاب الأصول الأخرى مختلفة) توجد فى كل مكان علامات عدائية بالنسبة لمظاهر التأصيل عند السكان المسلمين، وهم المطالبون بأن يذوبوا فى المنظر العام أو أن يلتزموا بحدود الأحياء التي تركت لهم. ومرة أخرى يتعين العمل على أن يظل المرء هو ذاته حتى لا يصبح الآخر المطلق، وهو الذى يعين فى كثير من الأحيان على أنه العدو.

الآخر، فى ثيابه القديمة

إذا كانت صورة الإسلام المنعكسة فى أعين الغرب تبدو كما لو أنها خلاصة لضلاله فى علاقاته مع الآخر، فليطمئن المسلمون مع ذلك: فهم ليسوا وحدهم الواقعين فى فخ هذا الصراع، مثلما يعتقد بسهولة هؤلاء الذين لديهم ميول ذُهانية هذيانية (شيزوفرينيا)، وهى المميزة فى الواقع للمرض الخاص بمن كانوا مستعمَرين. فإذا إفترضنا أن «الأجانب» الآخرين يثيرون خوفا أقل، فهم ليسوا مع ذلك أكثر قربى.

يمكن التعرف على غيريتهم من أنهم لا يدخلون فى إطـــار فئـــات التصنيـــف التحليلية التى وضعها الغرب للحديث عن نفسه؛ فهو يطردهم من المجال السياســـى معتبرا فى العادة أن دقائقه تفلت من إمكانياتهم الإدراكية. فيما عدا أقليات صغـــيرة من الباحثين الذين يعملون جاهدين على نقض الرموز العتيقة، فمـــن المفـــترض أن كل منطقة من مناطق العالم متصلة بدرجة أو بأخرى بنطاق ثقـــافى معيـــن، لـــها نموذج سلوكى معين، يفترض أنه يعكس كيانها الداخلى العميـــق. فـــلا التطـــورات الاجتماعية ولا التحولات السوسيولوجية ولا التحولات المختلفة العديدة التى عرفتـــها مناطق الجنوب الكبرى عبر العقود الأخيرة تؤخذ فى الحُسبان عندما تستلزم أحـــداث الساعة وصف ضلالاتهم أو أزماتهم. لا يحاول أحد عمل مقارنات بين هذه الأخـــيرة وتلك التى قد تعيشها بلاد الشمال، إذ أنها تعتبر *قَبْلِيًا* مختلفة فى جوهرهـــــا. كلمـــة واحدة قد تكفى لتلخيص موقف ما، ماحيةً هكذا كافة تركيباته. فلما كـــــانت دوافـــع الحياة العامة فى العالم العربى الإسلامى دينية فيما يخص الوجود، فإن دوافعها فـــى أفريقيا عرقية. ويبقى الشرق، هذا الاختراع الذى تتعدل جغرافيته طبقـــا للأســـاطير التى يثيرها، «شرقا»، إذ يكفى تحصيل الحاصل هذا فى كثير من الأحيان لوصـــف الممارسات الجارية.

اعتقد البعض أن انفجار يوغوسلافيا والصراعات التى صاحبته ســـيقود إلـــى إدخال بعض النسبية فى التوصيف العرقى للحروب الأفريقية، إلا أن هذا لم يحـــدث؛ وإذا دار الحديث بالنسبة للأولى عن تطهير عرقى، فإن ظهور هذا التعبـــير يكـــون فى نهاية الأمر نادرا للغاية فى الكتابات الغزيرة التـــى ظـــهرت خـــلال الأعـــوام الأخيرة عن بلاد البلقان، على حين يظل فارضا وجوده كله عندمـــا يتعلـــق الأمـــر بوصف الأحداث الفوضوية الأفريقية؛ علما بأنه إذا كان العديد مـــن قـــادة أفريقيـــا يسيئون استخدام وسيلة علمنا مدى مأساويتها، فإن أفريقيا هى أبعد مـــن أن تكـــون الوحيدة التى تلجأ إلى استخدام العرقية والقبائلية فى المجال السياسى والتى صـــاحب

تقدمها فى كل مكان فقدان صـورة الدولـة لشـرعيتها. التناقضـات السياسـية أو الصراعات من أجل امتلاك الأموال التى تحدد وتيرة الحياة العامة فى أفريقيـا، لا يمكنها من جهة أخرى أن تتلخص فى القراءة العرقية التى يقوم بها معظم المعلقيـن الغربيين عند الحديث عنها.

الواقع أنه منذ نهاية المواجهة ببين الشرق والغرب وتطور الحروب المسـماة أهلية ومهما أصبح استخدام تعبير « التطهر» العرقى شائعا، فإن أفريقيا تبقى -فـى أعين الغرب- القارة التى تستولى العرقية وحدها على المجال السياسى فيها. ويقـال إن المأساة الرواندية والعماء الزائيرى يرجعان لرساخة وجودها هناك. كما تتعيـن قراءة حروب النهب التى تجتاح الكونجو أو الممارسات المالية للحكم فى كينيا عـبر هذا المنظور. فلما كان التقسيم العرقى لا يمكن تخطيه فهو يعتبر بطريقة ما جـزء لا يتجزأ من الشخصية الأفريقية. هذه الأخيرة تمتلك بدايةً بنفـس الطريقـة التـى يعكس بها تركيب وإتقان السياسى جوهر العبقرية الغربية، الأدوات التـى تتطلـب معرفة إستخدامها من الآخرين عقودا بل قرونا من الزمان. وهنـا أيضـا ينسـحب التاريخ أمام القراءات التى يسعى بواسطتها الغربيون، أكثر من أى وقـت مضـى، لإقناع أنفسهم لا باختلافهم، وإنما بتفوقهم.

ها هو إذن الآخر يرتدى من جديد ثيابه القديمة، بعد أن أدخلت عليها بعـض " الرتوش " لتبدو حديثة، ومع ذلك فهو يقترب حينا أو يبتعد حينا آخر حسبما كـانت هيئته مشابهة أم لا. إنهم يحتاجون لآخرين أقرباء، مادام أن فـى شـبههم المقـدرة على قياس قوة استمالة الغرب وسلطانه؛ ولكن من المناسب أيضا أن يبقى البعـض متمركزين فى أبعادهم النائية حتى يتمكن الغرب من دراسة آثارهم القديمة فـهو لا يزال عند إعتقاده بأنه يرى فى هؤلاء الآخرين عجائن من ذاته لم تسـتو بعـد. ومن هنا يمكن فهم السبب فى أن الأمر بالمحاكاة -والتى تمثل حدود الكليّ السـبيل التاريخى للخروج منها- وتيار التعيين الثقافى الخالق لـهويات متجمـدة يعتـبران

وجهى رجانوس *بيفرونس*، هذا الحارس الغيور للمعبد الغربى المشغول كله بقياس إنسانية الآخر. وفيما بين نقطتى الأطراف هذه، يمكن لهذا الآخر أن يجد نفسه فى أوضاع وسيطة تعكس طرق استخدامه كأداة أكثر مما تعكس النظرة المعقدة المفترض أن يراه بها الغرب.

الواقع أن الاخرين لا يمكن الالتقاء بهم إلا إذا اختفت صفات وجودهم ذاتها. ولا يعترف بهم كآخرين إلا فى أبدية الآخرة من « مجتمع يخدع نفسه بخلع عليهم صفة النُبل، فى اللحظة ذاتها التى يُجْهِز فيها عليهم، على حين كان لا يشعر تجاههم سوى بالخوف والاشمئزاز عندما كانوا غرماءه الحقيقيين»[26] حسبما يقول ليفى-ستراوس فى تعبيره القاسى. تستطيع المجتمعات الغربية أن تسمح لنفسها اليوم بأن تحن للماضى وبأن تعود إلى هذا المجال للحديث عن حضارات اختفت من الوجود على يدها، بل إنها تستطيع أن تندم -وهو ما يحدث أحيانا- لأن إختفاء تلك الحضارات قد قلل من تراث الإنسانية بأن أفقدها جزءً من نفسها.

يجب -لكى نقيس أبعاد هذا الخداع الغريب- أن نجوب طرقات المتحف الوطنى للهنود الأمريكيين فى نيويورك فى مبنى -بحى وول ستريت- ذى أعمدة نيوكلاسيكية ثقيلة، مخصص لعالم المال، قبل أن يضم اليوم رِيَشَ وأقنعةَ شعوب أمريكا الشمالية القديمة. لا يُستَدْعَى التاريخ فى أى ركن من هذا المكان قط لتفسير ما هو معروض؛ كل ما يمكن أن نتعلمه منه هو أن « تغييرات حدثت بالفعل، وكانت ستحدث حتى لو لم ينزل غير الهنود على تلك الشواطئ[27]». لن يعرف الزائر شيئا عن طبيعة الاتصالات التى قامت بين الغزاة القادمين من أوروبا ومن وجدوهم فوق الأراضى التى يريدون الاستيلاء عليها، ولا عن الحروب، ولا عن

26. Claude LÉVI-STRAUSS, *Tristes Tropiques*, Plon, Paris, 1973 (première édition: 1955).

27. هذا النص منقول عن هيلين بيترسون، قدمت على أنها إحدى عضوات قبيلة أوجلالا لاكوتا فى أحد كتيبات المتحف.

أسباب اختفاء تلك القبائل التى يعرضون هنا ثرواتها الفنية؛ بل على العكس من ذلك إنهم يعملون كل ما هو ممكن للإيهام بأن الحضارات الهندية مازالت حية وأنها تتساوى في القيمة مع الحضارات جميعا. إحدى اللوحات الإعلانية تعلن كمن يصرخ: « كافة السبل جيدة» وتدعو إلى الإستماع إلى« الأصوات الأصلية للحياة والثقافة». لا تستمع طوال الزيارة سوى إلى سلسلة من المدائح فى صورة مقولات مقبولة سياسيا لدرجة اللامعقول، وكل ما يتبقى منها فى الذاكرة هو أن حكمة الشعوب الهندية لا مثيل لها، وأن التقاليد -التى يؤكدون أنها مازالت حية- هى تعاليم ثمينة وأن الفن النابع من تلك الحضارات يمكنه أن يصل إلى القمة. لا ينم هذا الكلام عن أى سخرية وإنما هو تعبير عن راحة ضمير المنتصرين، وهم يحاولون أن يستمدوا فخرا من تواضعهم المصطنع أمام ثقافات طواها الموت.

فى خريف 1998 خُصّص معرض ضخم فى فينيسيا لشعوب المايا، هؤلاء « القوم العظام الذين اخترعوا الصِفْر واللانهائى » حسبما جاء فى كاتالوج المعرض. فى ذلك المكان أيضا يرنُ تكريم أوروبا فى الأذن، فيما هو أبعد من الانبهار بأسرار الحضارة ما قبل الكولومبية، كما لو أنه مسامحة للذات بعد فوات الأوان[28]. أما الأحياء فهم يستحقون معاملة أخرى.

هو ذاته، وأشكاله المختلفة

الآخر لا يمكنه أن يصل أبدا إلى نوع من الكمال، أو إلى مرحلة قريبة من ذلك، إلا عندما يريد بالفعل أن يصبح غربيا، ليس فقط عصريا أو ديموقراطيا

---

28. ولأنها مسامحة للذات فهى ما يشبه الإعتراف بالآخر لا تجد غضاضة فى التعايش مع نفى الآخر. وهكذا فإن التاريخ بالطريقة التى يسردونها علينا، عن أمريكا المسماة لاتينية، لا يزال يُقْصِى المتمرد. الفاعلون المعترف بهم هم أحفاد الغزاة الذين يفترض أنهم يمثلون وحدهم مصير شبه القارة. والأمثلة على هذا الإقصاء عديدة، يجب فى هذا الصدد قراءة حكم الإدانة النهائى للآداب المحلية الذى يطلقه الكاتب البيروفى ماريو فارجاس يوزا :
Mario VARGAS LLOSA dans *L'Utopie archaïque. José Maria Arguedas et les fictions de l'indigénisme* (Gallimard, Paris, 1998).

-لأن هاتين الرغبتين وإن كانتا جديرتين بالثناء، إلا أنهما تظلان فى أحد أركانهما غير كافيتين- وإنما غريبا؛ مثل هذه الحالة تفتح له على العموم سبل الحداثة والديموقراطية. فى إحدى المقالات التى لا تعد ولا تحصى المخصصة للجزائر فى الصحافة الفرنسية منذ بداية التسعينيات، يحىّ الصحفى برنار قطة، مثل تلك الرغبة فى كل الثقة التى يمنحها له يقينه: وتعبر إحدى الشخصيات التى أظهرها فى أحد ريبورتاجاته الصحفية عن « الجزائر الديموقراطية، أى كل ذلك الجزء الضخم من البلاد الذى يعيش بالكامل فى تزامنٍ مع أوروبا »[29]. قد يكفى أن يكون مظهر الشخص غرْبيًا حتى يعتبر ديموقراطيا؛ فكثيرا ما يصنع الرداء هوية الفرد فى البلاد التى لا يزال معظم مواطنيها مقتنعين بأنهم يشكلون النموذج الذى يتعين على بقية الجنس البشرى التمثل به.

لقد وعى عدد كبير من مسئولى الجنوب ذلك، فأخذوا يعتنون أولا بالمظهر ليصبحوا محترمين دوليا. ومازلنا فى الجزائر حيث يعتبر محفوظ نحناح -أحد قادة حماس- أحد الأحزاب الإسلامية الشرعية الممثلة فى البرلمان والحكومة، بطبيعة الحال أكثر اعتدالا من زعيم الجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS) عباس مدنى، بما أنه يرتدى حلة أوروبية من ثلاث قطع، على حين يصر الآخر على ارتداء *القميص*، أى ذلك الجلباب الأبيض الطويل الذى اعتمده إسلاميو البلاد العربية زيا موحدا لهم. لاشك أن الرأى العام الغربى قد وضع على الأقل فى اعتباره هيئتهما، بمثل ما وضعه فى مشاريعهما السياسية، فى تصنيفه لهذين المنادين بالدول الإسلامية. ولقد لعبت كثيرا رئيسة وزراء تركيا السابقة -تانسوشيلر- فى حينه وببراعة على هذا الوتر لخلط الأمور. حداثتها بيّنة، ترتدى تاييرات باريسية هى قمة فى الأناقة، تمتعت هذه المرأة الرمز لتركيا الكمالية فى العواصم الغربية بسمعة واسعة بأنها ترغب -وذلك غير صحيح على الإطلاق- فى تدعيم الديموقراطية فى حياة

29. Bernard GUETTA, «Les islamistes et la démocratie», *Le Monde*, 14 sptembre 1999

بلادها السياسية. هى على العكس من ذلك تماما، فقد أدخلت الذئب الإسلامى إلى الحظيرة الحكومية بأن وافقت على تشكيل حكومتها بإشراكه فيها وعلاقاتها المستمرة مع المافيا المحلية معروفة للجميع.

لهجة بينظير بوتو الأكسفوردية جدا حجبت لفترة طويلة، بالنسبة لها أيضا، قلة جاذبية الديموقراطية بالنسبة لها كما حجبت تحالفاتها مع الأصوليين وأساليبها الاستثنائية التى تلجأ إليها كلما إستدعى الأمر الدفاع عن سلطتها أو أموالها؛ هذه السيدة الأرستوقراطية الباكستانية -التى شغلت منصب رئيس الوزراء مرتين- وهى تبدو للغربيين أكثر إثارة للفضول لما هو أجنبى، أكثر على العموم من زميلتها التركية، تعودت بالتأكيد على تغطية شعرها بحجاب خفيف، إلا أن مثل هذه السمة الهندامية المثيرة لخيال الباحث عن غُربة سياحية، لا تؤثر بالضرورة عملياً على محاكاة الآخر. إن إرتداء البوبو (الجلباب) الأفريقى، أو السارى الهندى أو غطاء الرأس الملون يتميز بجعل الغرب يعتقد بأن رعشة الفضول التى تثيرها جرأة التحلى بها تساوى الاعتراف بغيرية الآخر.

مثل هذا الإصرار على المحاكاة قد يبدو غير ضار لو أنه تلخص فى بعض المؤثرات المرئية؛ ولكن يتعين ألا نخطئ فنخلط بين الأمور: إن الحداثة الحقيقية والديموقراطية الحقة لا يمكن أن يكون لهما سوى وجه واحد ولا يُسمح بالرجوع فيما يخصهما إلا إلى مجموعة مرجعيات واحدة: أىُ فرضٍ عن احتمال وجود تعدد لصورهما أو كثرةٍ ممكنة فى الطرق التى قد تؤدى إليهما، يُحدث تشكيكاً ويؤدى إلى التقليل من مداهما. أى محاولة لرصد بعض من مظاهرهما حيث لا تسودان بصفة رسمية، تعتبر رغبة فى تحريف معنيهما. أحاديث الآخر أو ممارساته لا يؤخذ بها إلا إذا أعادت الغرب إلى يقينه بتأكيد وضعه كمثال. يعمل هذا الأخير كما لو أنه آلة ضخمة تشكل الآخر فى صورته هو، وهى الصور التى تتراكم فوق كل واقع وتجعل قراءته غامضة.

لا يوجد مجال واحد يقف بمنأى عن هذا التشكيل حسب المعايير. ولما كان الأمر يتعلق قبل كل شيء بالصورة، فمن السهل أن ندرك أن سينما هوليوود تقف رائدة في هذا المضمار بعد أن برعت لعدة عقود في تصنيع الآخر وعلى وجه الخصوص في هيئة الهندي الهمجي والمخيف، إلا أن العصر الذي كان من المناسب فيه الإشادة الصريحة بتفوق الرجل الأبيض قد ولّى. فقد تكرر التأكيد على أن الناس جميعا أصبحوا الآن متساويين، ويتعين ألا يؤخذ مثل هذا التقدم باستهتار. يتعين على الآخر، حتى لا يرى مبدأ مساواته يعاد للتساؤل، أن يتوصل إلى الاعتراف الكامل به.

فيلم *أميستاد* الذي أخرجه ستيفن سبيلبرج وقدم عام 1998 والذي يعرض لثورة ولمحاكمة الأفارقة الذين رُحّلوا بالقوة من ديارهم والذين أُجبروا على الرق في أمريكا في بداية القرن التاسع عشر، يجتهد لكي يجعل الآخر قابلا للاعتراف به. قائد هذه الثورة: تشينكوي، وقد أبعده المخرج بالتدريج من قارته الأفريقية كما تتصورها الروايات المقروءة المصورة (الكوميكز) ثم حوله إلى مانيكان طبقا للمقاييس الجمالية السائدة، هذا العاشق للحرية، أصبح مستحقًا لأن يكون أمريكيا حقا: التحول الذي أجراه له المخرج سمح له بتبوء هذه المكانة.

لا تعتبر الرمزية التي استخدمها سبيلبرج وأسلوب الإخراج الهوليوودي الذي استعان به، ظاهرة منعزلة، فهي إن نُقِلَت إلى المجال السياسي ستكشف عن ميل مماثل لكي نصنع المماثل. وتقدم لنا قراءة معظم وسائل الإعلام الفرنسيية والمثقفين أيضًا للمأساة الجزائرية في التسعينيات، مثالا حيا على ذلك. ففي تلك الحرب الأهلية، المفترض أن الجبهتين المتصارعتين فيها شديدا التباين، كان اعتبار من ينتمي للديموقراطيين ينم عن تناسب ما يقوله مع ما كان منتظرا منه في فرنسا، أكثر من كونه مؤمنا حقا بالمبادئ المحددة لدولة القانون وبالاستراتيجيات المعروضة للخروج من المأزق. فلما كانت مناهضة التيار الإسلامي، ذلك الذي -

كما تقول عالمة الإجتماع الفرنسية فريرونيك ناحوم-جراب[30]- «يعيد تدوير كافة الأحقاد ذات الأشكال المتعددة» فإن أفضل الديموقراطيين الجزائريين هو القادم من منطقة القبائل والفرانكوفوني. فبما أن العروبة هي التي أوجدت الإسلام، فهي تنتج إذن بصورة طبيعية التيار الإسلامي، على حين يكون الميل للحداثة أحد أبعاد القبائلية لما كانت إنتماءاتها أقل وضوحا. أما اللغة الفرنسية فهي بذاتها ناقلة «للقيم الجمهورية» -غير المحددة- واللغة العربية غير قادرة على ذلك، كما أنها غير مواتية لإنتاج فكر، بما أنه لا يمكن أن يوجد مفكرون مثقفون يتحدثون العربية[31].

في هذه الحالة أيضا تتبع الصورة المثالية للمثقف-الديموقراطي الجزائري كما هو مفضل تصوره في فرنسا، من عملية قياس بدائية: اخترع العرب الإسلام - وهي الديانة التي يقال أنها تجمع داخلها كل ماهو رجعي متهافت- وفرضوا لغتهم غير القابلة للحداثة؛ أبناء القبائل الجزائريون الذين لا يحبون العرب، هم إذن من أهل الحداثة وهم علمانيون ومحبون للفرنسية. في يناير 1992، بُعَيْدَ إلغاء الجيش للانتخابات التشريعية التي انتصرت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ، نشرت صحيفة لوموند مقالا وضعت له العنوان التالي: «منطقة القبائل الديموقراطية تتنفس الصعداء»[32]. وأصبح التعبير شائعا؛ ففي أحد أعداد عام 1998 لمجلة *لونوفال اوبسرفاتور*، جعل جاك جوليار في إفتتاحيته، منطقة القبائل «المعبرة عن تلك الجزائر العلمانية والديموقراطية التي شكلت أمل كل الجزائريين الوطنيين ومناصري إنهاء الاستعمار من الفرنسيين[33]». قبل ذلك بثلاث سنوات نشرت نفس

---

30. Véronique NAHOUM-GRAPPE, «Algérie: sang et brouillard», *Chimères*, 1997.

31. رفض الإعتراف بصفة المثقفين للمتحدثين بالعربية من التيار الإسلامي، منع جزءا كاملا من الانتليجنسيا الفرنسية من إدراك طريقة تكوين التيار الإسلامي الجزائري، وبالتالي مواجهته بحجج أقل بدائية من الحجج التي كان يسوقها.

32. *Le Monde*, 19 Janvier 1992.

33. *Le Nouvel Observateur*, 2-8 Juillet 1998.

المجلة *لونوفال أوبسرفاتور*[34] ريبورتاجا عن قرية في القبائل شكلت إحدى أولى الميليشيات للدفاع الذاتي ضد غارات الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) نقلت فيه ما قاله أحد السكان: « إننا نعيش العدوان كل يوم، نواجه في كل لحظة خطر أن ينتزع منا شرفنا. إن أقل شيء يجب أن نفعله هو الدفاع عن أنفسنا». وإذ تأثر كاتب الريبورتاج إعجابا بمثل هذه الشجاعة، لم يتردد في رفع الشرف إلى مرتبة الحسنات الديموقراطية دون أن يتوقف للحظة لمعرفة المعنى الذي تأخذه هذه الكلمة في تراث المنطقة: ولم يذهب أحد ليرى، عبر كل هذه السنوات من التغطية الإعلامية الواسعة للمستعمرة السابقة، كيف تعيش أمهات وزوجات وبنات الديموقراطيين القبائليين في قراهن، وما هي حقوقهن ولا ما هو الواقع الحقيقي للدين عند أبطال العلمانية هؤلاء.

ولا يزال النبع فياضا ومستخدما، جاعلين من ابن القبائل نموذجا أعلى للعربي الطيب. ففي مارس 1997 نجحت محطة الإذاعة الفرنسية الرسمية فرانس انتار في تحويل مغني الرأي الجزائري الشاب خالد إلى " مغني قبائلي " خاصة وأن شعبيته زادت جدا لدى الجمهور الفرنسي، فلم يكن من الممكن أن يبقى على ما هو عليه بالفعل أي من مدينة وهران. في يوليو 1998 غداة انتصار فرنسا في مونديال كرة القدم صرخ النائب البرلماني جان–فرانسوا دونيو أمام ميكروفون محطة الإذاعة ذاتها معبرا عن فرحته: « إن فرنسا صيغتها الجمع !! شكرا للأراضي الفرنسية الموجودة عبر البحار، شكرا لأفريقيا وشكرا لمنطقة القبائل ». وهكذا تم ترقية البطل زيدان إلى ابن القبائل الشرقي، وبكلمة واحدة، جرد من كل صلة له بالجزائر.

---

34. *Le Nouvel Observateur*, 19-25 Janvier 1995.

لإضفاء ثقل أكبر لهذه الجزائر غير العربية التى تتعرف على ذاتها فى فرنسا نفسها، لجأت أقلام عديدة للبلاغة الاستعمارية الحديثة تنهل منها لكى تواجه العروبة المستوردة من الأرض المغاربية بثقافة البربر الأصيلة وموطنها البلد ذاته والمرتبطة تاريخيا بشمال البحر المتوسط بماضيها المصنوع من اللاتينية والمسيحية. ففى صحيفة *ليبراسيون*[35] نشر الباحث روبار جولان فى 1991 فى مقال بعنوان « المغرب بربرى»، جاء فيه: « عدد العرب الذين أقاموا فيه عبر القرون لا يتعدى عشرات الألوف، أى أنهم أقل عددا من الواندال لا أكثر، بل هم أقل من الرومان ومن الأتراك ومن الفرنسيين. السمة التى خلفوها هى لغوية أكثر من كونها ثقافية، وهى حديثة، ساعد الاستعمار الفرنسى على تدعيمها، وهى لم تنطلق انطلاقتها الفعلى سوى خلال نصف القرن الماضى [...] كان هذا التراث ولايزال أكثر من أى وقت مضى يهيم بحمل مشعل الاستبداد، وهو ما يتواكب مع السطحية.» الموضوع إذن هو فى حكم المُنتَهى بالنسبة لهذا الكاتب ولآخرين مثله: لم يصبح المغرب عربيا-بربريا قط وأن أى تأكيد على بعده العربى يدخل فى إطار السرقة؛ وحتى إن افترضنا أنه يمكن التحقق من وجود هذا البعد فهو على العموم محمل -التيار الإسلامى- « بظلامية أعادت هذا البلد إلى العصور الوسطى عهد المحاربين الأمويين أو الحماديين ». حسبما جاء فى مجلة *لوبوان*[36].

لكن يبقى الإسلام الذى يصعب إخراجه من الهوية المغربية أكثر من إخراج العروبة منها. بما أنه من المستحيل إنكار أن المغرب مسلم، فإن الازدواجية بين العرب -المتمثلين بشكل أو بآخر صراحة فى الإسلاميين- وبين الجزائريين

35. *Libération*, 1er mars 1991.

36. *لوبوان*، عدد رقم 1124، 2 أبريل 1994. قد تندهش لأن الصحفي أختار -لكى يجسد الظلامية- الفترة اللامعة من عهد الأسرة الأموية التى يعبد إليها المؤرخون بداية العصر الذهبى العربى، وإن كان يريد أن يبقى مغربيا، كان بإمكانه أن يختار الأسرة الحاكمة البربرية: الموحدون، التى تميزت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بتشددها الدينى. ولكن، حتى لو إفترضنا أنه سمع حتى بوجودها، فان التعصب يجب أن يكون عربيا لا بربريا.

«الحقيقيين»، قامت هنا أيضا بدورها: ينسب إلى الأوائل إسلام متعصب، متشدد فى عدم تسامحه، وفى كلمة واحدة استبدادى: وإلى الآخرين دين مهذب« إسلام جزائرى صرف، إسلام متسامح، إسلام هو الهوية، لأننا نتلقاه مع لبن الأم»[37].

اللجوء إلى إستخدام المسألة البربرية أداة سياسية وهى المسألة الحقيقية التى فجرتها القومية العربية ومركزية الدولة المتعنتة[38] كما تمسك بها القادة الجزائريون، بداية من الثمانينيات، ساعدت بذلك على ابتداع "جزائرى" مثالى، القليل منه جدا عربى وهو مقرب لفرنسا ويستحق لذلك الدفاع عنه. وعلى نفس المنوال، جعل العداء الإسلامى للمرأة، من النساء، الضحية المثلى للهمجية الملتحية التى قَدِمَت فجأة من كوكب آخر، لا للذكورية المعهودة فى المجتمع الجزائرى.

على الجانب الآخر من البحر المتوسط، أسرع تيار بأكمله سميٌ بـ «الاستئصالى» من الصفوة المثقفة (الإنتليجنسيا) الجزائرية بالانصهار فى القالب الذى مدّوه لها، مطالبين بمساندة الرأى العام الفرنسى، وهى تعمل جاهدة على التشبه بأقصى ما يمكن بصورته المثلى، موجهة حديثها إلى الرأى العام الفرنسى أكثر من توجيهه إلى مواطنيها. فى هذا الاتجاه جاء، كمحور من مَحَاوِر حججها، التشبيه بين النازية والإسلامية. التفاوض مع « الجبهة الإسلامية للإنقاذ هو تعاون مع القتلة، مثلما تعاون بيتان عندكم مع النازيين » صرح بذلك فى حدة الروائى رشيد بوجدرا فى مجلة *لونوفال أوبسرفاتور*[39]، فى الوقت الذى كان العديد من الأحزاب الجزائرية ومنها جبهة الإنقاذ تحاول فى روما وضع حد للعنف بإعطاء

---

37. *Courrier international*, n° 179, 7-15 avril 1994

مقال منقول عن صحيفة: (*Algérie Actualité*)

38. المستلهمة بشكل مباشر -وهل يجب التذكير بذلك ؟- من تاريخ الدولة الإستعمارية (فرنسا). لقد أثار العديد من الوطنيين الجزائريين -ومنهم عدد من القبائليين- تأييداً لسياستهم، مثل فرنسا حيث استخدم الإلغاء السلطوى للغات مختلف المقاطعات كأداة مفضلة من أجل بناء الدولة وفكرة الأمة الفرنسية.

39. *Le Nouvel Observateur*, 19-25 Janvier 1995.

حق التعبير للنقاش السياسي. « الحجاب، هو نجمتنا الصفراء». جـاء ذلـك علـى لسان المناضلة النسائية وقائدة التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية (RCD) خـالدة مسعودي[40]. كما أن هذه الشخصية المسموعة جدا في فرنسا أكثرت مـن اسـتخدام حجة السمة الأجنبية للإسلاميين، واصفـة هجماتهـم، ضمـن نعـوت أخـرى، بـ «حرب على الجزائر[41]» أو مؤكدة أن « الجزائر تناضل منذ فترة طويلة ضـد اضطهاد النساء وضد الأصولية[42]». يتعين علـى الديموقراطيـن الفرنسـيين أن ينهضوا لنجدة « الجزائر الشاسعة، الجزائر السخية، الجزائـر البطلـة، الجزائـر الشامخة...» التي يهددها الغزاة الخطرون، أفغان وإيرانيون وسعوديون وسـودانيون و« أبناء الحركى[43]». لقد لبى العديد منهم النداء واستطاع جاك لانج أن يكتب بعـد زيارة سريعة للجزائر العاصمة: « روح الجزائر هـي فـي أن تكـون حـرة.[44]» الجزائر تلك هي بطبيعة الحال علمانية وديموقراطية: « توجـد ممارسـة حقيقيـة للعلمانية في مجتمعنا التقليدي: رئيس مجلس القرية أو زعيم القبيلة ليس هو الشـيخ المنوط به إقامة الشعائر »، هذا ما صرح به بكل جدية وبغير تهكم إلـى صحيفـة *لوموند*[45] سكرتير عام التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية (RCD) سعيد سعدي.

في هذا البلد المتسامح، الذي يصوره في شكله هـذا صنـاع الـرأي العـام الفرنسي وجزء من الإنتليجنسيا الجزائرية، يُشبه الجزائريين الحقيقيان-بشيء مـن الإعجاز- الفرنسيين. ليس المتمردون أعضاء المجموعات المسلحة الإسلامية مـن أبناء GIA في هذا البلد المسالم من أبناء المجتمع الجزائري الضالين، فالهمجية غـير

40. في عديد من التصريحات والمقابلات الصحفية، ومنها ما أذاعته محطة إذاعة لوكسمبرج RTL في عام 1994.

41. *Courrier international*, n° 179, 7-15 avril 1994 (reprise d'une interview de Khalida Messaoudi par Malika Boussouf dans *Le Soir d'Algérie*).

42. *Elle* du 5 décembre 1994.

43. *Courrier international*, n° 179.

44. *Le Monde*, 5 mars 1998.

45. *Le Monde*, 27 octobre 1994.

موجودة إلا فى جانب واحد من جانبى الصراع والعنف ليست له أصول متوطنة فى هذا البلد المسالم، كما أن قانون الأسرة الذى يكرس شرعًا دونية المرأة لم يتم التصويت عليه فى الجمعية الوطنية الجزائرية دون أن يثير ذلك حفيظة متقفية[46]، والقلاع الإسلامية داخل الأحياء الشعبية فى العاصمة الجزائرية لا يسكنها مهاجرون بعضهم من القبائل، كما أنه لا يوجد قبائليون بين صفوف الملتحين! حجب هذا الوهم الذى أُبْطِن فى النفوس -والذى يُبجل جبرًا الشعور الوطنى على الجانب الجزائرى ويعظم المشاعر العاطفية للتاثير الفرنسى على ذلك البلد المسالم فى الجانب الآخر، كل ذلك حجب« الجزائر الأخرى [...] متعددة الجاليات، تتسم علاقاتها الاجتماعية بشدة تعلقها بالدين والتى لم تكن صلاتها بفرنسا يشوبها أى غموض» حسبما جاء على لسان المؤرخ محمد حربى[47]. ولكنها فى الواقع جزائر المشاكل، تشغلها تعددية مكوناتها، وريثة المؤثرات المتناقضة، أسيرة تداعيات تاريخها المعقد، وهى تعصى جدا على الفهم وعلى القبول.

تعبيرٌ مُسْتَعَد

ها هو الطريق الوحيد المفتوح أمام طالبى الكلىّ-الكونىّ، بعد أن أُجْبِروا على أن يكونوا فقط مستهلكى حداثة جاهزة تسليم مفتاح: لا تبتعدوا أبدًا على النموذج ولا تبتغوا قط التحرر منه. وعلى العموم لا يوجد بديل آخر لعدم الخيار هذا، بما أن كل ما يتعلق سواء بالكلىّ أو بالحداثة ينتمى بالاختصاص للمجال الغربى.

---

46. لم يكن للرجال وجود تقريبا فى المظاهرات التى خرجت للإحتجاج على مشروع القانون والتى نظمتها النساء فى الثمانينيات. وناضلت النساء وحدهن من 1980 إلى 1984، ضد السلطة للدفاع عن حقوقهن وقد خسرن. راجع، حول نضال الجزائريات ضد القانون:

Sophie BESSIS (avec Souhayr Belhassen), *Femmes du Maghreb, l'enjeu*, J.-C. Lattès, Paris, 1992.

47. *Le Monde*, 20 avril 1994.

ظاهرة التملك هذه -التى هى نسخة أخرى من إنكار وجود الآخر- يمكنها أن تـأخذ أشكالا عديدة من الأكثر بساطة إلى الأعوص تركيبا. هل يعتبر القديس أوجوستين ديبون، المولود فى تاجاست -المسماة سوق أخرس فى جزائر اليوم- أشهر أبناء الكنيسة قاطبةً ؟ إنه إذن من فرنسيِّ الجزائر (أصحاب الأقدام السوداء)، هـذا ما يؤكده فى منتهى الهدوء اليقينى صحفى فرنسىّ متخصص فى الإعلام الدينى[48]؛ إذ لا يمكن لرجل لاهوت ذى تأثير حاسم فى تشكيل العقيدة المسيحية أن يكون من أهل البلد الأصليين حتى لو كان ذلك فى عهد الرومان. ها هو إذن أشهر الأوروبيين، قد هاجر فقط إلى الأرض الأفريقية.

هل تعتبر تركيا أمة علمانية ؟ إنها إذن لا تشكل « جزءا كاملا من العالم الإسلامى» حسبما يقول عالم السياسة بيير لولوش[49]، الذى أسرع بضم بُعْدِها الحديث للغرب. ها هو إذن « عالم الإسلام» وقد بُترت منه التحولات الحداثية التى يمكن أن تحدث فيه، منكمشا داخل مجالاته السلفية المتهالكة ولا يستطيع بسبب ذلك أن يخرج عنه أى تقدم.

مثل هذه الحرية التى سمح بها البعض لأنفسهم فى تعاملهم مع الواقع تبدو فى النهاية من التُرهّات إذا ما قورنت بقضية استيلاء تمت بواسطة عملية ضم عجيبة الشأن، ولكنها أصبحت مع ذلك عادية لدرجة أننا نسينا كم هي فادحة. فتعبير « يهودى-مسيحى» الذى يعود ويتكرر فى الكتابات كافة، ما أن تنتهى جملة إلا وتراه فى التى تليها، لم يعد يثير أى تساؤل، من كثرة ما يبدو الآن تجاور اللفظين نابعا من البيّنات ذاتها. ومع ذلك فإن الإمر لم يكن على هذا النحو دائما، والحظ السعيد الذى لاقاه هذا التعبير يثير الريبة أكثر مما يدفع وضعه العادى

48. Henri TINCQ, série Les génies du christianisme n° 3, *Le Monde*, 15 Juillet 1999.

49. Pierre LELLOUCHE, *Le Nouveau Monde. De l'ordre de Yalta au désordre des nations*, Grasset, Paris, 1992.

الحالى إلى الإقتناع به. لاشك أن استخداماته العلمية ترجع إلى أبعاد التاريخ، ويعود وجوده إلى الأسبقية التاريخية للديانة اليهودية والمسيحية، على الإسلام، آخر ديانات الوحى الموحدة بالله. ودون أن أدعى الدخول فى مناقشة لاهوتية-تاريخية، يتعين أن نبقى فى ذاكرتنا واقع أن أوروبا هى « ابنة التوراة واليونان» كما يُعَرِّفُها الفيلسوف إمانويل ليفيناس؛ إلا أن مرور التعبير إلى اللغة الدارجة التى تسلل إليها منذ عشرين عاما محتلا الساحة كلها، يأخذ معنى آخر تماما إذا ما وضعنا فى اهتمامنا دراسة الاستخدام السياسى لهذا التعبير.

كل شيء فى الحضارة الغربية أصبح اليوم يهوديا-مسيحيا لدرجة أن تلك الحضارة أصبحت تتلخص تقريبا بالكامل داخل هذا الرحم المزدوج الذى تبدو مكوناته كما لو أنهما توأمان سياميان متطابقان: كل قيم تلك الحضارة وأسسها ذاتها، وثقافتها تنبع من هذا الرحم المزدوج بالكامل. يرجع رجال السياسة إلى هذا التعبير لتبرير أعمالهم، إذ أكد أحد المتنافسين فى انتخابات الرياسة الأمريكية فى عام 2000« كَوْن الولايات المتحدة القوة الأعظم الوحيدة يلقى عليها بمسئوليات وعلى الأخص مسئولية التدخل خارج حدودها للمحافظة على القيم اليهودية-المسيحية[50]». ينقسم العالم بين « ثقافات يهودية-مسيحية» والثقافات الأخرى[51]. وفى فرنسا خصصت إحدى الندوات فى عام 1998 لـ « الدمج السياسى للفرنسيين المسلمين ومكانهم فى المجال اليهودى-المسيحى[52] ». هل الكلام عن الإقتصاد ؟ - سيعود القلم إلى مرجعية هذا التعبير[53]. عن الثقافة ؟ هنا المرجعية تصبح واجبة.

---

50. من أقوال السيناتور ماكين، نقلتها عنه صحيفة *لوموند*، 17 فبراير 2000.

51. ملخص المداولة الرابعة حول عملية تنظيم " التحالف من أجل عالم مسئول ومتضامن " (مؤسسة شارل ليوبولد ماير من أجل تقدم الإنسان، باريس 1998).

52. *Libération*, 20 avril 1998.

53. Michel BEAUD, *Le Basculement du monde, op. cit.* ; GEMDEV, *Mondialisation, les mots et les choses, op. cit.*

وفى جميع الأحوال تحيل هذه الصفة المزدوجة إلى المجال الغربى. الكتابات الحالية لا ترصد -فى الواقع- أى أثر لـ «اليهودى-المسيحى» سوى داخل الحدود التى أقامها الغرب لنفسه. هذا النجاح الذى لا مثيل له -(بل ان الأسطورة التى شاع استخدامها عن « الفجر الإغريقى» لم تلق مثل هذا الرواج)- لا يمكن تفسيره سوى عن طريق عملية مثلثة من التعتيم والاستيلاء والإقصاء التى يؤدى لها الاستخدام المنظم لهذا التعبير.

التعتيم أولا، إذا وضعنا فى الاعتبار أن هذا الإزدواج يسمح بإلقاء ساتر على نحو ألفيتين من الحقد المناهض لليهود وعلى إنكار الكنيسة الكاثوليكية الطويل لانتمائها للسبط الإبراهيمى. من السهل أن نتفق فى الواقع أن حضارة ما لا تستطيع أن تحقد على ما تشير إليه على أنه جزء من كيانها: إقامة الهوية «اليهودية-المسيحية» وتقديسها بعد ذلك سمح بوضع حد بجرة قلم لعصر مناهضة اليهود من المسيحية[54]. وهكذا تمكنت البلاد ذات التراث المسيحى من التنصل من ماضيها ومن جزء من حاضرها بأقل تكلفة.

قد لا يكون الأمر الاهم والجوهرى متمثلا فى هذه النقطة: إن هذه الهوية الجماعية الجديدة التى أعطاها الغرب لنفسه بصورة رسمية -بعد أن ظل يرفض طويلا صلة القربى تلك بين هاتين النسختين من الوحى الإبراهيمى اليهودية والمسيحية، تسمح فى الأساس بضم اليهودى وحده إلى المجال الغربى و-بنفس هذه الحركة الواحدة- التأمين على تملكه وحده للجانب الكلىّ الذى يُعْزَى إليها. الواقع أن بزوغ اليهودى-المسيحى كموضوع جماعى أخفى عن الأعين موضوع

54. وهو الذى لم يرحم كذلك مختلف أشكال البروتستانتية، التى هى أقرب من المصادر التوراتية للمسيحية من الكاثوليكية، التى كانت قد تخلصت حتى وقت قريب جدا من كل أثر لليهودية بصيغتها الالامية. لا يمكن فى الواقع نسيان عنف مناهضة مارتن لوثر لليهود وهو الذى أسس حركة الاصلاح.

اليهودى، ذلك التجسيد للآخر الذى كان يُستَحضَر من مكان شرقى نـاء[55]، علما بأنه كان مفروضا فيه، بقوة الأمر الواقع، أن يكون أول المعبّرين التاريخيين عن الكلىّ الموحد بالله. اختفت المسائل التى لا حل لها الخاصة بالانتساب أو بالميراث[56]، وظهور « اليهودى-المسيحى» بدون تمييز يجعل الغرب يبدو كما لو أنه المخترع الوحيد للكلىّ-الكونى وهو أعاد بذلك كافة جذوره إلى بلادها. يعنى ذلك: أنه إذا لم يكن من الممكن إقصاء الآخر فى غيرية كاملة، فهو يُستَوعَب تماما بطريقة ما ومعه كافة مميزاته وممتلكاته.

وأخيرا فبعد أن أعلن أن « اليهودى-المسيحى» هو النواة الأصلية للهوية الغربية -وحدها- فالتعبير أصبح يعمل الآن كآلة طاردة وبذلك أصبح الإسلام طبقا لهذه البنية، الثالث المستثنى من الوحى الإبراهيمى، وبالتالى من هذا الكلىّ الموحد بالله الذى جعلوا منه الداعية للحقوق الدنيوية وللحداثة. لن يتبادر إلى ذهن أحد، فيما عدا بعض الأوساط المسكونية ذات التأثير المحدود، من المستخدمين للموضوع -الذى غدا دارجًا- عن اليهودى-المسيحى أن يدمج الإسلام فى ذلك أو أن يقيم - على أقل تقدير - أى علاقات معه؛ ولن يشفع له قط أنه أقرب لليهودية -فيما يتعلق بالممارسة الدينية وبالمحرمات التى تواكبها- من أى من المسيحيتين، ولا أن جزءا جوهريا من الوحى فيه موجود فى اليهودية ولا أن النص القرآنى به كثير من الإشارات إلى دينى الوحى اللذين سبقاه تاريخيا[57]. يعيد الكلىّ اليهودى

---

55. حتى العصر الحديث ظل اليهودى فى الآداب الغربية هو المجسد للشرقى، سواء فى هندامه أو فى مآكله وكان الجيتو يوصف فى أغلب الأحيان بأنه من مخلفات حطام الشرق إندفعت حتى قلب المدينة الأوروبية. أغلب الكتابات المناهضة للسامية كانت تقترح -إن هى تنازلت عن إبادتهم- طرد اليهود إلى «آسيا» كما كان يقول برودون.

56. حول موضوع الميراث هذا يمكن الرجوع إلى الدراسة التى قام بها الفيلسوف الإسرائيلى يشاياهو ليبوفيتس. كان هذا المفكر العاقل العجوز يقول «المسيحية تقدم نفسها على أنها [...] وريثة اليهودية - وأن كان لا يمكن أن تـرث شخص لم يمت بعد». (لوموند، 13 أكتوبر 1992).

57. يمكن الرجوع فى موضوع أشكال القرب والمسافات التى تفصل بين الديانات الثلاث إلى محاولات كل من:
Roger ARNALDEZ, *Trois messagers pour un seul Dieu*, Albin Michel, Paris, 1991; Abdesselem CHEDDADI, «L'universel dans les chroniques arabes», *in* Ali BENMAKHLOUF (dir), *Routes et déroutes de l'universel*, Éditions le Fennec, Casablanca, 1997 ; Fethi BENSLAMA, «La répudiation originaire», *Cahiers Intersignes*, n° 13, automne 1998, Paris,

المسيحى –الذى جعل الغرب من نفسه مالكه الأوحد– الإسلام إلى غيريته، محـــددا له أراضية، التى هى خصوصيته. وحتى لو أننا افترضنا أن من الممكن التعـــرف على هذه الخصوصية، فإن وجود ثلاثية إبراهيمية يدخل فقط فى المجـــال الدينـــى؛ وهو لا يتخطاه إلى الحقول الثقافية ولا السياسية حيث تأكيد الفواصل التـــى تفـــرق بين صور الوحى الثلاث، يدعم الحدود الفاصلة بين الشـــمال الـــذى هـــو موطـــن الصورتين الأوليين ومختلف أشكال الجنوب حيث تقع الثالثة.

إذا كانت عملية الضم والإقصاء تلك قد عرفت هذا النجاح الساحق المعـــروف فذلك لأن الأطراف المعنية جميعا –فيما وراء الغرب نفسه– قـــد اســـتولت علـــى الموضوع حتى تتمكن من دفع استخداماته إلى أبعد مدى لها ممكن. لقد ساهم العـــالم العربى كثيرا فى توسيع نطاق هذا الاستخدام بأن لجأ إليه بطريقة منظمة من أجـــل دعم حججه الوطنية فى نضاله ضد إسرائيل. هكذا أصبحت « المؤامـــرة اليهوديـــة المسيحية[58]» ومنها إنشاء الدولة العبرية –هذا الجسم الغريب المزروع فى قلـــب *دار الإسلام*، هى أكثر الأمثلة الفاضحة على المؤامرة، حتى أصبحت محـــور خطابـــه المناهض للغرب. لقد اتسع استخدام هذا التعبير ولعدة عقود، مـــن كافـــة مكونـــات المجرة الإسلامية من إيران حتى الغرب: ها هو إذن العـــدو– هـــذا «اليـــهودى– المسيحى» الذى خصص كافة طاقاته الرهيبة لإضعاف الإسلام، آخـــر النبـــوءات، الذى له وحده الحق فى أن يكون كليًا.

تناسب إذن " تغريب " «اليهودى–المسيحى»، مع أبلسته على يد الإسلام، مـــع تقوقعه داخل خصوصياته، رافضا أن يتعرف على ذاته داخل هذا الكلىّ–الكونـــىّ، علما بأن حقه فى الواقع أن يطالب بانتمائه إليه. ولكن إســـتخدامات التعبـــير التـــى

58. بدأ هذا التعبير مهمته الحديثة فى العشرينيات من القرن العشرين عندما رأى العلماء المحافظون المتشـــددين مـــن الإمبراطورية العثمانية المريضة فى عملية إلغاء الخلافة مؤامرة يهودية–مسيحية (راجع:
Gema MARTIN MUÑOZ, *El Estado arabe,Crisis de legitimidad y contestacion islamista, op. cit.)*

جرى تعميمها فى العالم العربى ليست فقط من قبيل رد الفعل. إذ أنه قام -بعملية عكسية قام بها الغرب- لدى استخدامه لها عندما أراد أن ينفض عنه جانبه اليهودى. لقد سمح تعيين اليهودى المسيحى على وجه الحصر، على أنه الواقع الثقافى الغربى، بدفن اليهودى-العربى، وبأن يستأصل الوجود التاريخى لليهودية الشرقية ومحو آثار ذلك الوجود من الذاكرة الجماعية. العالم العربى -بعد أن جرى طرده من الكلىّ الغربى بواسطة الحظ السعيد الذى لاقاه أحد التعبيرات- يستخدمه بدوره للتعتيم والإقصاء.

يبدو العالم اليهودى من جانبه، لأول وهلة متباعدا عن هذا الموضوع وهو الوحيد الذى لا يضفى عليه أى قدسية. ومع ذلك فقد ساعد على تعميم* استخدامه بان قطع هو أيضا علاقاته بجانبه الشرقى[59]. وجدت الوجوه السياسية المهيمنة على اليهودية فى اختطاف الغرب لهذا الدين وسيلة من وسائل ربط مصيرهم بالغرب فى مواجهة العالم العربى وتدعيم تضامنات قائمة على متانة المركزية الأوروبية وعلى الإقصاءات ذاتها. دولة إسرائيل، وليدة الوطنية المعاصرة وبنت فكرة الدولة-الأمة التى تمخضت عنها أوروبا، وهى التى أسسها وحكمها لعدة عقود ممثلون يهود للإنتليجنسيا الأوروبية، أرادت أن تكون وظلت غربية، متمسكة فى إصرار على رفض أى خطر يجعلها شرقية؛ ومن أجل ذلك أبطن أهل الصفوة بكل ولاء لأفكارهم خطابا خاصا للتفوق تم تجهيزه من أجل هيمنات أخرى.

إذا كان الفلسطينيون، المواطنون من الدرجة الثانية، وسكان الضفة الغربية مازالوا يدفعون ثمن ذلك، فإن سكان إسرائيل اليهود القادمون من العالم العربى وجدوا أنفسهم وقد حددت آفاقهم داخل هامشية ضيقة، ثقافية وسياسية وقد جردوا

---

59. ساعده فى ذلك بكل تأكيد السياسة المناهضة لليهود التى قامت بها الدول العربية منذ قيام إسرائيل. ولكن لم يكن ذلك فقط هو العامل الوحيد، ذلك لأن الحركة العامة "لتغريب" العالم اليهودى توازت مع الهجرات المتتالية لشتاته إلى الديموقراطيات الغربية التى أصبحت تأوى الآن الأغلبية العظمى لسكان العالم من اليهود.

تماما من أى وجود ثقافى؛ كما أن مثقفيها -بما فى ذلك هؤلاء المناصرين للسلام- يصعب عليهم جدا أن يموقعوا بلدهم داخل نطاق الشرق الذى يبعدهم كل شىء فيه عنه، ماعدا موقعهم الجغرافى. إنهم يرون أن الخطر المتمثل فى انزلاق بلدهم إلى الشرق لا يمكن درءه سوى بمميزات لا لبس فيها تربطها بالكوكب الغربى. ولذلك فإن أى علامات مميزة من هذا النوع يرحب بها.

هذه الفكرة السريعة عن الطرق العديدة لاستخدامات أحد الاختراعات الغربية لا تعتبر خروجا عن الموضوع، بل إنها تمهد لوصف العلاقات المركبة التى يرتبط بها «الآخرون» مع النماذج والمعايير المعدة فى الغرب. وبالنسبة للعالم العربى فقد تراكمت تشنجات ردود الأفعال فوق عمليات الإقصاء المتأصلة لتدعيم الانغلاقات على النفس لدعم الهوية والتى تُدرك على أنها أسوار دفاعية تقى من هيمنة غير محتملة من العدو التاريخى.

تحديد الإقامة فى الاختلافات

غير أن الآخر لا يصبح فى كافة الأحوال شيئا مغايرا يقترب أو يبتعد عن الأصل؛ فقد سبق أن قلنا أنه قد يحدث أن يظل آخرا، ويمكن فى مثل تلك الحالة أن يعاد إلى وحشيته الأصلية، وهى عادة ما تكون فى تناسب مع تنائيه عن العالم الغربى. الاستخدام المتزايد لهذا التعبير - (وحشيته الأصلية) للإشارة إلى المواقف المرعبة فى تطرفها التى تجتاح بعض مناطق بلاد الجنوب المختلفة يؤدى، مرة أخرى، إلى إحلال تحصيل الحاصل المريح محل الدراسات التحليلية المتعمقة. لذلك فيما أن أفريقيا السوداء تظل مرتبطة بالخيال الجماعى الوحشى فإن البربرية الليبرية أو السيراليونية أو غيرها تُفَسَّر فى أغلب الأحيان بالسمات المتأصلة داخل

سكانها، متخطية بذلك الظروف الخاصة التى فجرت الصراعات التى شاهدتها تلـك المناطق. يبدو إذن أن تلك الشعوب، لما عادت لتسيير أمورها بذاتها بعد أن ظلت محكومة لفترة داخل إطار السلام الاستعمارى وهو الذى كتم بداخلها« طبيعتها الحقيقية» (والتعبير كان يستخدم فى القرن الثامن عشر)، عادت إذن إلى فطرتها الأولى. ودون أن يقال ذلك علنًا فالذى يُعْنى ضمنيا عادةً هو أن سلوك المحاربين المجانين فى فريتاون أو مونروفيا ينبع من جوهرٍ إفريقيٍ، وهو الذى يعيد باستمرار وإلى الأبد هذه القارة إلى شياطينها. ليس هذا هو حال بعض المناطق الأقرب ،ن مراكز الغرب؛ تحلل القيم الاجتماعية السائد حاليا فى جزء من البلقان أصبح موضوعا لكميات هائلة من التحليلات التاريخية والسياسية، تبدأ من تحلل الإمبراطورية العثمانية لتصل إلى الآثار المترتبة عن عملية التجمد الشيوعية: هنا يأتى ذكر جوهر الشعب العربى أو الشعب الكرواتي أقل بكثير من ذكر الثوابت الأفريقية عند محاولة قراءة انحرافات هذه الشعوب كلٍ على حدا.

تحديد مكان الآخر داخل إحدى خصائصه المفترضة والتى يمكن التعرف عليها عن طريق إستقلالها عن التاريخ، لا تنبع دائما من إعادة تأكيد التفوق. بل على العكس من ذلك يوجد جيل كامل من « صرخة الرجل الأبيض[60]» ، تذمر ضد هذا الإحساس وراح يناضل من أجل حق الاختلاف. الموضوع فى جوهره هو أن الآخر يجب أن يبقى الآخر وأن إنسانيته لا تقاس بمواهبه فى المحاكاة. إلا أن هذا الاعتراف -وهو محمود فى حد ذاته- بمساواة حقيقية، سرعان ما تحول إلى أمر -معكوس عن المطلب المحاكاتى- بأن يبقى آخرا دون أن ينحرف عن ثقافته، بعد أن حكم تلك الثقافة بأن تبقى على حالها ساكنة دون حراك.

---

60. وهو عنوان كتاب باسكال بروكنر، *سابق الذكر*.

فى واقع الأمر يبتعد كثيرا عند التطبيق موقف المنادين بالتباين – الذى يؤكد تساوى كافة الثقافات بصورة غير قابلة للتفاوض ولكنه يود منها أن تبقى فى شكل مومياء بأن يحكم عليها بأنها غير قابلة لامتصاص أى جديد –عن موقف المؤكدين على تفوق القيم الغربية– الذين يرون فى الآخرين عجينة غير مكتملة من ذواتهم ويرون أن التقليد هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لهم لكى يحسنوا من أحوالهم. سواء تم تقديس الثقافات المسيطر عليها باسم حماية « الأصالة» ، أو تم إعادة الآخر غير القابل للاندماج إلى غيريته المتجمدة فإنهم يبقون هذا الأخير داخل فكرتهم عنه ويثبتونه داخل هوية لا يستطيع تعديلها. ولا يبقى أمام هذا الآخر، بعد أن مُنِع من إنتاج أى ثقافة، أى أن يبتكر، سوى أن يبقى نتاجا لثقافته. لا يوجد مكان لآخر يكون فى حالة تطور، بين هاتين النسختين لتعيين واحد للهوية: فإما إعادته إلى حالة من «الهمجية» ترفض دراسة وضعها التاريخى، وإما أن تقدس كل ما يمكن أن يوضع تحت اسم التراث، حتى لو كان ذلك غير مقبول فى بعض الأحيان[61].

النظرة " التباينية " –مثلها مثل نظرة الكلّيين المزيفين الذى تحاربهم– تسد الطريق بهذا الأسلوب أمام كافة طرق دخول الآخرين إلى كلىٍّ يعاد بناؤه معهم، بعد أن حكموا عليهم بترديد تاريخهم كما هو، وبعد أن يكون هذا التاريخ قد تلخص فى سلسلة من تجسيدات لكيانهم العميق. يمكن أن نجد داخل هذا التيار، شديد

61. ختان البنات يعطينا مثالا عن ضيق مجال هذا النقاش. فهو يبين مدى وحشية المجتمعات التى تمارسه بالنسبة للبعض، أما بالنسبة لآخرين الذين يدافعون عنه (راجع ما قيل من قبل عن هذا الموضوع) فهو يحافظ على التقاليد أو يصون الهوية. الموقفان غير مقبولين لأنهما يرفعانه بالتماثل إلى مستوى الثالث الثقافى. لم يحاول الجانبان الغربيان فى هذا الصدد عمل تحليل دينامي للظاهرة، بأن يضعها داخل منظورها ومقارنتها بنظم تقليدية أخرى توصلت إلى وسائل أخرى للتحكم فى الجنسانية النسائية. كان من الممكن أن نصل إلى خلاصة أن كل تراث يحتوى على ما هو غير مقبول وأن كل تراث محكوم عليه بأن يتغير. النضال ضد ختان البنات غطت عليه إذن إشكالية الهوية وهى التى تستبعد بالتحديد أى تفكير فى الحركة. وعلى وجه التخصيص دافعت أفريقيات كثيرات خطأ عن تلك العادة لفترات طويلة كرد فعل لوصف مجتمعاتهن بالوحشية.

التباين فى مكوناته، من يشككون عن وعى فى فائدة أى مشروع كلىّ إذ يعتبرونه بمثابة رغبة لتدمير الآخر مع سبق الإصرار[62]. إلا أن ذلك التيار يذهب إلى أبعد بكثير من هؤلاء المتطرفين دفاعًا عما هو خاص، فيشمل تيارات أوسع ويغذى بمياهه قطاعا كاملا من الفكر الغربى، الذى أعاد علاقاته بفلسفة ثقافية تتفاوت درجة ثقتها بنفسها.

بالنسبة لمناصرى التيار الإسلامى فهم يعتبرونه الأفق الوحيد وهو مفروض فرضا على البلاد المسلمة، ولا يوجد أمام سكانها غير خيار واحد هو أن يأخذوا على عاتقهم هذا المظهر الأخير لتاريخ هويتهم. عنوان أول كتاب للدارس الإسلام الفرنسى فرانسوا بورجا *التيار الإسلامى فى المغرب: صوت الجنوب*[63] لايفتح ابواب المستقبل امام عالم من المسلمين تم تعميمه بغرابة على الجنوب بأكمله؛ ثم وحّد، كله ضد كل ما هو حقيقى تحت لواء الإسلام السياسى. أدت هذه المنطقة من العالم، فى نهاية السبعينيات، إلى إحدى الصور الأكثر روعة للقراءة الثقافية للاحداث المعاصرة اعتبر العديد من المثقفين الغربيين الثورة الإيرانية بعد أن وقعوا تحت تأثير سحرها عليهم مرحلة واجبة من مراحل تطور هذا البلد كما اعتبروا انحرافاتها من الوقائع الثقافية التى يجب عدم انتقادها. وكان الفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكو فى فترة من الفترات على رأس ذلك التيار، قبل أن ينأى

---

62. اكثر المدافعين تشددا عن النسبية الثقافية يدعون الآخرين صراحة إلى حماية أنفسهم من إستحالة وصولهم ومن لا ... حيث قد يفقدون أصالتهم النقية فى هذه العملية. طبيبة علم النفس الإثنى (الخاص بالأجناس) الفر...ية فرانسواز سيرونى تتهم فى هذا الصدد «تصور "حقوق الإنسان" بأنه يؤدى دور أدوات التسلل الحقيقية داخل ...عات ... له آثارا ماحية للثقافات».

(Françoise SIRONI, «L'universalité est-elle une torture ?», *Nouvelle Revue d'ethnopsychiatrie* n° 34, 1997).

63. François BURGAT, *L'Islamisme au Maghreb: la voix du sud*, Karthala, Paris, 1988

... الصياغة ... المؤلف فى كتاب تالى:

(François BURGAT, *L'Islamisme en face, La Découverte, Paris, 1995)*.

حيث يصف الكاتب التيار الإسلامى بأنه «دينامية إعادة تحديد المواقف الأيديولوجية فى الجنوب».

بنفسه عن ذلك النظام الذى نبع من ثورة كانت قد أثارت إعجابه[64]. سار آخرون على نهجه، وانضم إليهم العديد من صحفيي صحيفة *ليبراسيون* على أساس خليط غريب من الحماسة لثورة لم تنهج بكل تأكيد الطرق المعهودة، ولكنها أفنت تماما النظام القائم، وذلك على أساس احترامهم لـ « أصالة» أشكالها الثقافية[65].

هل يوجد فى ذلك ما يستوجب إثارة دهشتنا ؟ ما آلت إليه أوضاع المرأة على يد النظام الجديد لم ينل كثيرا من إعجاب هؤلاء الغربيين؛ فهم فى سعيهم الدءوب لرصد إشارات عن إعادة بناء شرعية هوية مجتمع مهدد بفقدان ثقافته، انشغلوا تماما عن التفكير فى أن مثل تلك العملية تمر حتما بتقنين التفرقة بين الجنسين.. لقد تساموا " بالتشادور " الذى فرض على النساء، بعد أن تعايشوا مع فكرته، إلى مستوى رمز الثورة الثقافية التى راحوا يتأملونها فى طهران. لقد كتب سارج جولى عام 1979 « السواد منتشر فى كافة أرجاء العاصمة الإيرانية [...] إنه يحجب [...] النساء الإيرانيات بكونه رمزا للنضال، وبكونه إعلانا عن مناهضة الشاه، وهو يعتبر أيضا، مأوى إذ تظهر خلاله فجأة أعينهن كما لو كنَّ مومياوات حيَّة[66]». لم يتبق على الساحة سوى بعض المناضلات من أجل حقوق المرأة -أعادهن بسرعة المحللون " الجادون " للشأن الإيرانى إلى هيستيريتهن - فقد أكثرن من احتجاجاتهم إزاء عداء النظام فى طهران للمرأة، وهو النظام الذى خفض سن زواج البنات إلى تسع سنوات وأصدر قانون رجم الزانية. بعد ذلك بعدة سنوات سجل أحد الصحفيين لصالح الثورة الإيرانية « أنها طالبت باستمرار بدور

---

64. يبرر موقفه، ضمن كتابات أخرى، فى وجهة نظر نشرت فى *لوموند* فى 11 مايو 1979 بعنوان ((«لاداعى لأن نثور ؟»)) حيث يفسر إعجابه «بحركة قوية لدرجة أنها أكثر النظم تسليحا فيما يبدو، مع بقائها قريبة من أحلام قديمة راودت الغرب فيما سبق، عندما كان المراد هو وضع صور القيم الروحية على الأرضية السياسية».

65. بعد عشر سنوات، قال مارك كرافاتس إن «هذه الثورة التى أشيد بها أحيانا بطريقة ساذجة، على يد بعض ممثلى المثقفين الغربيين وغيرهم أيضا، على أنها البشارة بعهد جديد، وإنتصار القيم الروحية والإنسان على الإفلاس الأيديولوجى فى الشرق والغرب... » (*Libération* des 11-12 février 1989).

66. Serge JULY, *Dis maman, c'est quoi l'avant-guerre ?*, Alain Moreau, Paris, 1980.

نشط للمرأة: فهي تعمل وتنتخب وتشارك في الحياة السياسية[67].» ماذا تردن أكثر من ذلك! ولماذا هن دائمات الشكوى ؟ أي أن، بكلمات عادية جدا، المسألة النسائية نادرا ما يأخذها المتخصصون الغربيون في الإسلام السياسي في الحسبان ولا اعتبروها ضمن الموضوعات الجديرة حقا بالإهتمام[68].

يقوم تبرير الظروف المفروضة على النساء في أكثر المجتمعات محافظة - بدور الثوابت في خطاب الثقافيين. ولازلنا نقف داخل المجال الإسلامي، حيث علق صحفي من المجلة الأسبوعية *إكسبريس* بهذه الكلمات على الآفاق المفتوحة أمام النساء، لو أن جبهة الإنقاذ الإسلامي كانت قد وصلت إلى سدة الحكم في الجزائر: « ما هو المصير الذي حددوه للمرأة في هذه الحالة ؟ إنه لا يخيف سوى الأقلية المتحدثة بالفرنسية التي تعيش -داخل "جيتو" الأحياء الثرية- بأسلوب غربي تتزايد صعوبة السير فيه. [...] لاشك أن مسألة حتمية إرتداء الحجاب مطروحة هنا. وإذا كانت المسألة تكتسي أهمية في فرنسا [...] فإن الموضوع يبدو أقل غرابة في الجزائر (المرأة الفرنسية لم تكن تخرج للشارع بدون قبعتها في بداية القرن)[69] ... ». أما بخصوص القضية الفرنسية للحجاب الإسلامي، فإن معظم الأصوات التي ارتفعت محتجة -عن وجه حق على طرد البنات المحجبات من المدارس- إذ أن الطرد لم يحل أي مشكلة، احتجت على ذلك باسم إحترام «الهوية»؛ إلا أنها لم تكلف نفسها عناء التساؤل عن أسس تلك الهوية. « قبول ارتداء الحجاب [...] هو بمثابة الإعتراف برغبة في إثبات الهوية. نقول نعم

67. Alain GRESH, «Quand l'islamisme menace le monde», *Le Monde diplomatique*, décembre 1993.

68. هذه الملحوظة لا تنطبق فقط على دارسي الإسلام الفرنسيين وحدهم بل على الأمريكيين والبريطانيين أيضا، على الرغم من أن تُبْتهم الكُتبي عن الإسلام السياسي وافرة للغاية ومتنوعة جدا.

69. Jacques GIRARDON, «La fin inéluctable d'un régime détesté», *Les Cahiers de L'Express*, n° 29: «Algérie, de la révolution à l'intégrisme», septembre 1994.

لفصل الكنائس عن الدولة، ولكننا نقول لا لنفى هوية الاخر » هذا هو ما أعلنه فى عام 1989 أمين عام التجمع التعليمى[70].

حول نفس هذا الموضوع ولكن فيما هو أبعد من المجال الإسلامى - ثار، خلال السنوات الماضية، تيار قوى مناهض لإدانة الممارسات التقليدية مثل تعدد الزوجات أو ختان البنات. فقد كتب عالم الإجتماع آلان توران يقول: « مازلت مصرًا على أنى لا أفهم على أساس أى مبدأ يتعين تحريم تعدد الزوجات»[71] ومن ناحية يعبر عالم الأجناس والطبيب النفسانى توبى ناثان عن أسفه لمهاجمة ختان البنات إذ يرى فيه ممارسة اجتماعية بنيوية، بدونها « تظهر على العديد من البنات الأفريقيات الصغيرات المقيمات فى فرنسا [...] أعراض مرضية خطيرة [...] فإن لم يمارس هذا الطقس تعتبر المرأة ناقصة [...] وتبحث عن طقوس شعائرية تعويضية مثل الحصول على أول « حقنة مخدرات» أو القيام بأول سرقة. يعلم أطباء علم النفس والأجناس جيدا أن الشابة المختتنة لا تقع أبدا فى مثل هذه الأخطاء. إن ختان البنات [...] من الفوائد الاجتماعية العظيمة، ويتعين على المجتمع الفرنسى الإسراع بإعادة النظر فيه[72] ». لقد ذهب رائد علم نفس الأجناس الفرنسي، بمنطقه المتطرف إلى أبعد مدى له فيما يتعلق بالتباينية بأن حرم على الآخرين اللجوء إلى السجلات الغربية عن « ثقافتهم الأصلية» آمرًا إياهم بأن

---

70. مذكورفى: *Idées en mouvement*, no 58, *op. cit.* إلا أن مسألة الدوافع لارتداء الحجاب الإسلامي تظل مركبة وحاولت العديد من الباحثات فهم الدافع إلى جعل هذا العدد الكبير من البنات والنساء يرتدينه، إذ أن الضغط الاجتماعى والدينى لا يفسران بالفعل كل شىء. الأخذ به قد يعنى أيضا وضع إستراتيجيات يقبلها الأهل للخروج عن التراث. راجع:

Nilüfer GÖLE, *Musulmanes et modernes*, La Découverte, Paris, 1993 ; Gema MARTIN MUÑOZ (dir.). *Mujeres, democracia y desarollo en el Maghreb*, Ed. Pablo Iglesias, Madrid, 1995; Djedjiga IMACHE et Inès NOUR, *Algériennes entre islam et islamisme*, Edisud, Aix-en-Provence, 1994; Sophie BESSIS (avec S. BELHASSEN), *Femmes du Maghreb...*, *op. cit.*

لكن الشىء الذى لم يعمل المعلقون الغربيون على محاولة إدراكه قط هو أن الهوية الجماعية التى يحملونها هى هوية ذات سمة جنسية متميزة بوضوح.

71. *In* Michel WIEVIORKA (dir.), *Une société fragmentée ?*, La Découverte, Paris, 1996

72. مجلة *Science et Nature.* ، فبراير 1995ز أعلن توبى ناثان، بعد الفضيحة التى أثارها موقفه هذا، أن الصحفى الذى أخذ أقواله قد حور أقواله بعض الشىء بالتشديد على جوانب منه، إلا أنه لم ينف أقواله قط.

يلخصوا أنفسهم تماما داخلها[73]. وهو يوضح رأيه فى أحد نصوصه الأخرى قـائلا: «قل لى من هم أجدادك وسأقول لك من أنت ! وقد يكون ذلك هو التعبير الذى يفتـح أبواب [...] النظم العلاجية»[74].

كما كان سيزار يستنكر قبل نصف قرن -وهو يشجب الأحـاديث الأوروبيـة عن فلسفة البانتو-[75] فإن الثقافة الأصلية -أو ما يُفترض أن يحل محلها- قد تعينت بشكل حاسم على أنها النموذج الذى يحتذى والـذى يحـق لأغلـب مـن هـم غير-غربيين أن يعلنوا إنتسابهم له، بعيدا عن أى شكل من أشكال التعددية. بـل أن بعض المحللين الأكثر توخيا للفوارق الموجودة فـى الصراعـات المعـاصرة ذات البعد الثقافى لم يتفادوا من الوقوع فى هذا الشـرك. فقـد رأت عالمـة الاجتمـاع الفرنسية جوسلين سيزارى، فى نقد كتبته عن الأفكـار المسـبقة الإسـلامية[76]، أن المساجد تمثل « المأوى الوحيد الذى قاوم الضغط الثقافى للشمال» وعـبر العـودة الظاهرية لما هو دينى [...] رد إعتبارٍ للمرجعيات، السياسية منـها علـى وجـه الخصوص، والثقافية المحلية، وهى مدعوة لإعادة البحث عـن طموحـها المفقـود للوصول إلى الكلية. بعد وهْم أغلاق قوس الجملة الاستعمارية الاعتراضيـة التـى يستخدمها أصحاب نظريات العودة إلى المشكوك فى أمره « النقاء» الأصلـى فـى

---

73. لما كان يرى أن التحليل النفسي ليس سوى علم غربي، فهو لا يشجب فقط «المحللين النفسيين البيض» بعـد إلمامهم بأنهم يريدون معالجة هؤلاء «الآخرين» بوسائلهم ولكن أيضا «وهذا هو الأخطر، المحللين النفسـيين الأفارقـة «المبيضين» في الجامعات والمعاهد الغربية، لأنهم لم يتلقوا حتى المبادئ الأولية لتدريب مهني خاص بالتقنيات العلاجيـة التقليدية.
(Thobie NATHAN, «L'Afrique n'est pas une terre à conquérir», *Le Monde diplomatique*, octobre 1989).

74. Tobie NATHAN, «La psychanalyse: nouvel avatar de l'hérésie chrétienne», *Pardès, revue européenne d'études et de culture Juive*, n° 27, 1999-2000.

75. يهاجم سيزار بضراوة في "*خطاب عن الاستعمار*" *(الذى سبق ذكره)* كتاب الأب تامبلس الذى إشـتهر في الخمسينات عن "*الفلسفة البانتو*" : «إذا ذهبت إلى الكونغو، إحترم، وأنا لا أقول ملكية أهـل البلـد الأصليـين (لأن الشركات البلجيكية الكبرى قد تأخذ ذلك على أنه تعدى على إختصاصاتها) ولا أقول إحترم حرية أهل البلد الأصليـين (إذ قد يرى المستعمرون البلجيكيون في ذلك كلامًا تخريبيًا) وأنا لا أقول: إحترم الوطن الكونغولي (فقد تأخذ الحكومـة البلجيكية الأمر على نحو سيئ للغاية) بل أقول: إذا ذهبت إلى الكونغو إحترم الفلسفة البانتو !».

76. Jocelyne CESARI, *Faut-il avoir peur de l'islam ?*, Presses de Scienes Po, Paris, 1997.

الجنوب أيضا. وكذلك تقديس التراث الجماعي، يتجاهل وجود تراكمات ترسيبية مركبة تركها التاريخ فتشكلت منها كافة المجتمعات، ويؤيد انتماءات واحدة تحجرت بصورة خطيرة.

لا توجد مبادئ إذن، لا توجد سوى هُويات، كل منها تشكل لنفسها فقط قواعدها الخاصة. ما يمكن أن يكون عاملا للتفسخ الاجتماعي لا يكمن هنا في طبيعة الإتصال بين الثقافات المختلفة وإنما في الإتصال ذاته. إن ما يشكل البنية الأساسية للموضوع، ليس الرغبة المشروعة في حماية من هم ضعفاء من هيمنة الأقوياء وإمبرياليتهم الثقافية ذات التجليات المُثبتة يوميا، وإنما يشكله إعادة كل فرد إلى ما يفترض أنه يشكل جوهره الحق. لا يمكن لأي تنظيم للقواعد الثقافية حول قبول مشترك للمبادئ الكلية أن يحظى -طبقا لهذا المنطق- بتفوق خاص به ومحدد.

كان الغرب يحرم فيما مضى التناسل المختلط بين الأجناس لكي يحافظ على نقاء جنسه؛ ويوجد الآن تيار فكري كامل يرى أن اختلاط الثقافات مستحيل وهو يحبس بذلك مستقبل البشرية داخل ماض تحجرت كافة مكوناته. إلا أن هذا الانغلاق لا يتعلق بالغربيين فقط لأن المنادين به يتملصون منه باستمرار، مدعين امتلاكهم لوسائل وأدوات ليست في أيدي غيرهم لكي يهربوا من ذواتهم ولكي يدرسوا العالم في مجموعه. ليس هذا التصنيف للبشر في فئتين: الأولى للواقعين في أسر أفقهم المحلي والأخرى للذين يأخذون الأرض كلها مجالا لأبحاثهم، ليس من منتجات التيار الثقافاتي وحده. هؤلاء الذين لا ينظرون للآخر إلا إذا عكس لهم صورة منهم ينضوون تحت لوائه ما أن يتوقف عن أن يعكس لهم صورتهم يصبح مختلفاً حقّاً. ولكن، ما أن يعبر هذا الاختلاف عن ذاته إلا وترتب على ذلك الكثير من الآثار. ليست للآخر، هذا الفرد أسير جذوره، المستغرق تماما في هويته

ليست له الطموحات ذاتها ولا الإحتياج للحقوق نفسه الذى يحتاجه معاصروه أصحاب الآفاق الأكثر رحابة: تكاد تكون هذه هى المقولة الضمنية، التى تفسر تسامح الشمال إزاء الخرق المتعدد للحقوق والذى يقع سكان الجنوب فى مناطقه المختلفة ضحيةً له.

لاشك أن الانتهازية السياسية تلعب دورا فى ذلك، ولكنها ليست وحدها. عندما يؤكد جاك شيراك بقوة وبأعلى صوته أن تعدد الأحزاب لا يناسب أفريقيا[77] فهو قد يعمل حساب ما يعتقد أنه المصلحة العامة، ولكن عندما يحيى برنار-هنرى ليفى فى القائد الأفغانى مسعود[78] مناضلاً من أجل الحرية -وهو ممثل لإسلام إقطاعى يطمح فى تنظيم الحياة الإجتماعية فى مجملها بصورة قد تكون أقل تشددا إزاء النساء من نظام *طالبان* ولكنه يحترم جدا الهيراركيات التقليدية- فهو لا يعطى للكلمات المعنى نفسه طبقا للمكان الجغرافى الذى يقف فيه. إذا نحن فكرنا بهذا المنطق فإننا نستطيع أن نعطى للاستبداد من ناحية، وللنظام الديموقراطى من ناحية أخرى، صفة علامة هوية، ونكون قد أغلقنا من جديد الباب فى وجه أى تحرك.

مطابقاً أو طامحاً فى أن يكون كذلك، خطيرا أو همجيا، أو ناقلا لثقافة محملة بثقل الأبدية، أين يقف فى حقيقة الأمر هذا الآخر من الأوامر التى يتلقاها والممنوعات المفروضة عليه. وما هى إمكانية التحرك المتاحة له لكى يعيد ابتكار ذاته ؟ مجموع الأوامر التى يتعرض لها والفئات التى يسجن داخلها تعطى فى بادئ الأمر انطباعا بأن الغرب غير قادر على التفكير بالنسبة له فى التعددية ولا يستطيع الآخرون طبقا لهذا التفكير فى التحول من وضعهم ككيانات بسيطة إلى حقائق

77. لقد أعلن فى 1990 من سيصبح بعد ذلك رئيسا للجمهورية أنه «لا يمكن الحكم على ديموقراطية بلد ما على أساس أن به تعددية حزبية أم لا [...] توجد نظم ذات حزب واحد تحترم فيها الديموقراطية تماما: أذكر منها كوت ديفوار» - علما بأن أى صوت غير مؤيد كان يعاقب بكل قوة فى ذلك الوقت (*لوموند*، 24 يوليو 1997).

78. برنار-هنرى ليفى، «مع مسعود»، *لوموند*، 13 أكتوبر 1998. هذا الريبورتاج يعتبر قصيدة حقيقية فى حلب القائد مسعود والذى شبه تارة بشى جيفارا وتارة أخرى بديجول.

مركبة، تحركها مقتضيات متعددة وطموحات متناقضة. هل يعود السبب فـــي ذلـــك إلى عمى السلطان والوعى به ؟ أم هو رفض أخذ الآخر على ما هـــو عليـــه، لأن فى ذلك إعترافًا بالسمة الجديدة لوجوده فى العالـــم ؟ هل تختـــرع ثقافة الهيمنـــة – المحضة ضد أى عملية تدمير لها– مرة أخرى حمايات جديدة لنفسها لكى تتحاشـــى التفكير فى أن هذا الآخر قد يتغير ويجبر الغرب على تعديل مكانته فيه ؟

لكن، هؤلاء الذين أسميناهم حتى الآن الآخرين –ولم ننظـــر إليـــهم إلا مـــن منظور الأقوياء– ما هى نظرتهم إلى العالم ؟ وما هى مساحات الاســـتقلال الذاتـــى التى يخلقونها لأنفسهم من قراءتهم لهذا العالم ؟ ما هى التفاعلات التى تظـــهر بيـــن تشنجات ردود الفعل والانفجارات الخاصة بالهوية التى كنا قد بدأنا الحديـــث عنـــها والدخول إلى ما هو جديد، وهو أبعد ما يكون من مرادفات التقدم ؟ يتعين علينـــا أن نحاول المرور إلى الجهة الأخرى من المرآة لنعرف أيـــن يوجـــد هـــذا« الجـــانب الجنوبى للحرية[79]» الذى تتم على ساحته المقامرة بمستقبل العالم القريب.

---

79. نستخدم هنا عنوان كتاب محمود حسين:

Mahmoud HUSSEIN, *Versant sud de la liberté*, La Découverte, Paris, 1989.

– 12 –

على الجانب الآخر من المرآة

ما هى العلاقة التى قد توجد بين حركة حرب العصابات البيروفية (من بيرو) الدرب المضيء، والمؤرخ السنغالى أنتا ديوب والزعيم الإسلامى الجزائرى على بن حاج والمرحوم الرئيس الزائيرى موبوتو سيسى.سيكو ؟ للوهلة الأولى، لا شيء. لا شيء يقرب بين حرب عصابات ماوية الاتجاه، فيها شبه كبير مع حركة الخمير الحمر الكمبوديه، وعالم مثير للجدل وللاحترام أيضا ظل مدافعا باستمرار عن التعددية الحزبية في بلاده، وممثل للجناح الأكثر راديكالية للإسلام السياسى الجزائرى، والدكتاتور الثرى للغاية صاحب غطاء الرأس المصنوع من فراء الفهود صنيعة القوى الغربية والمجوّع لشعبه. قد يكون هناك خيط رفيع جدا –ولكنه موجود على كل حال– يجمعهم معا وهو رغبتهم فى أن يميزوا أنفسهم عن الغروب، وهى رغبة وقد تأخذ فى هذه الحالة –كما فى حالات أخرى– صورا مختلفة، ولكننا نعثر عليها دائمًا. لم يمنع التحالف الإستراتيجى الذى عقده المستبد الزائيرى مع أسياده المستعمرين القدماء والمساندة الكاملة التى منحتها له واشنطن من تغيير اسمه الأصلى جوزيف ديزيه بـ سيسى سيكو الذى يرن فى الأذن بنغمات اللغة المحلية الـ " لينجالا ". واضطر ماركس ولينين، وهما الأبوان الروحيان لأبيمائيل جوزمان ورفاقه، إلى التعايش مع آلهة الإنكا فى السفوح العليا البيروفية. لقى

أمضى الشيخ أنتا ديوب عمره يحاول أن يثبت أن أوروبا مدينة له. والغرب بالنسبة لعلى بن حاج هو الشر الذى تجسد فيه كل ما يتعين الابتعاد عنه بأى ثمن.

قد يكون المهزوم قد تتلمذ على مفكرى ذلك الغرب وقد يكون منبهرا بقوته متأثرا بروائع إبداعاته التقنية أو مؤمنًا بقيمه، إلا أنه من غير الممكن أن يحبه جميع من يعتقدون أنهم أضيروا من التاريخ الذى صنعه، وأن يقيموا معه علاقات على أساس الخلافات التى تنوء بحمل هزائمهم. كل من دخلوا فى نزاع مع صورة أو أخرى من صور هيمنته يودون الانتقام منه؛ ولما كان تأثيره يَجُبُّ العالم كله فالعالم بأكمله يتذكر دائما الأشياء التى يلومها عليه. لا يوجد اليوم فى المجرة المتسعة والمتباينة جدا لمكونات الجنوب حركة واحدة، أو موقفٌ جماعىٌ، أو حتى تحليل أو مشروع سياسى لا يشتمل فى بُعْدٍ من أبعاده على مناهضة للغرب تتراوح درجة تأصلها.

وجود الغرب فى كل مكان وقوته الطاغية -حقيقية كانت أو مبالغ فيها حسب كل حالة- يمكن أن يقاس بالمكانة التى يحتلها فى العقول فى كل مكان، حتى لو كانت ردود الفعل التى يثيرها تتخذ صورا مختلفة ومتنوعة للغاية ولا تعبر عن نفسها جميعا فى صورة عداء سافر. أحاديث أهل الصفوة من بلاد الجنوب، حتى لو نهلوا من مصادر أخرى أو استدعوا نماذج أخرى غير التى صنعها، تتشكل دائما فى علاقة مع ما يقوله أو يصنعه، حتى عندما يتحدث أهل الصفوة إلى مواطنيهم فإن ظلاله تمتد فلا يكون بعيدا، جاعلين منه المسئول عن كافة بلايا العالم أو مطالبين إياه بإيجاد حل لها. كل شيء يحدث على أساس أن كل فقرة من سلسلة الأعمال التوسعية الغربية -أو بقول أكثر دقة من الذكريات التى تركتها فى الأذهان- وكل إجراء من إجراءات هيمنته وكل حجة تساق لإثبات مشروعيتها النظرية - تحث عند أهل الجنوب على تشييد دفاعات ترفع كما لو أنها إجابات على الاعتداءات التى وقعت عليهم.

هذا يفسر تنوع أحاديث ردود الفعل التى تأخذ شكل صورة مقلوبة مطابقة لأحاديث التفوق. كما يعكس الشحنة التى تحملها، وتعبيرها العنيف أحيانا، لأنها تكفلت بمهمة الرد على خمسة قرون من التاريخ -بل وأكثر من ذلك أحيانا- والرد فى الوقت نفسه على أشكال السيطرة المعاصرة، وهى التى تواصل علاقات اعتماد المهزوم على من هزمه. وهى أحاديث لا تستطيع -(بما أنها تقوم بدور تصفية الحسابات وفى الوقت نفسه دور الإستراتيجية السياسية ومشروع اجتماعى بديل)- أن تناقش مجالات منفصلة عن علاقات القوى الوطنية والعالمية التى تطبعها ببصمتها. ويبدو كما لو أن العالم ينبنى حول سلسلة من ازدواجيات يتواجه فيها الأسياد ومناقضوهم؛ وإن كنا لا نستطيع أن نكتفى بهذه القراءة للأمور وإذا كانت كل حركة من الحركات الفاعلة في جنوب كوكب الأرض هى على وجه الخصوص الناتج المعقد لتطوراته، فإن العديد من هذه الحركات قد تولد عن رغبة فى وضع حد للدور الذى يؤديه الغرب، وهو فى آن واحد دور مرفوض ومغالى فى قيمته، فى بناء المستقبل الجماعي لشعوبه.

كيف يمكن الوجود أن يكون فى مواجهة هذا الكيان الذى لا يزال يعبر عن قوته كل يوم من أيام السنة والاستقلال الذاتى غدا مستحيلا ؟ حاول البعض ذلك - بعد الحصول على الاستقلال- مترجما أحلام الاكتفاء الذاتى إلى واقع اقتصادى وسياسى أحيانا. نعرف جميعا ما أسفر عنه ذلك. يمكن فى المقابل الوجود عن طريق النقيض، بالإعلان عن حق الاختلاف، بأن تُرى الذات فى مستوى متعال وعند ضرورة تقديم البراهين على ذلك إلى من هم فى المواجهة الواثقين من أنفسهم لدرجة أن كافة تحليلاتهم لمشاكل بلاد الجنوب المختلفة لم تتعد -منذ عشرات السنين- وضع قوائم بما تحتاجه تلك الشعوب: احتياج للسيولة المالية والمعرفة والكوادر، عدم وجود بورجوازية أو طبقة عاملة، غياب الأسس الصناعية والتكنولوجية ... هكذا تم تقديم، لكل منطقة من مناطق الجنوب، قائمة

بكل ما ليس فى حوزتها وما يجعل النموذج بعيد المنال. الرغبة فى تفنيد تـــأويلات الواقع تلك، لها علاقة وثيقة بالتاريخ الحديث لمختلف بلاد الجنوب ومن الجاليـــات القادمة منها (داخل الغرب). إنها تحكى ثورات غضبها وإحباطاتها وحنينها للزمـــن الذى كان، الذى يعاد اختراعه من أجل بناء ذكريات أخرى ليـــس مـــن المســتحيل التعايش معها. إنها تنسج أيضا إطار العلاقات التـــى تربـــط بيـــن نصفـــى الكـــرة الأرضية، جاعلةً من الغرب السبب وراء كل المآسى التى تحل بكوكب الأرض.

ماذا لو أن تفوق هذا الأخير ليس سوى وهم مـــن الأوهـــام، أو أنـــه أخبـــث الأسلحة التى اخترعها لإقناع الآخرين بدونيتهم ؟ ماذا لو أن هذا الســلاح لا يرفـــع إلا ليجعل الناس تنسى كل ما هو مدين به لبقية أنحاء العالم، أى ما لختلسه منـــه ؟ ماذا لو كانت الحضارة التى ابتدعها -واضعا إياها على قمة هرم مـــن المســتويات من صنعه هو- ليست حاملة إلا لقيم مشكوك فيها، أو هى أقل قيمة على كل حـــال، حتى تعمم، عن تلك التى للمجتمعات التى يريد تدميرها ؟ ماذا لو أنـــه -خشيـــة على نفسه- يمنع بكافة الوسائل هذه الأخيرة من رفع رأســـها ومـــن أن تســتعيد جزءا من عظمتها المفقودة ؟ أليس فى تلك الرغبة العارمة للسيطرة، الحاجـــة إلـــى البحث عن السبب فى خيبة آمالها وليس فى عدم قدراتها الذاتية، ؟ ماذا لـــو كـــانت توجد نماذج أخرى تحتذى، ومصادر إلهام مختلفة عن تلك القادمة من الشمال، لكـــى يخرجوا من حالة اليأس والهزال وحتى يعودوا إلى طريق النمو والرخاء ؟ ماذا لـــو كان الجنوب ذاته يحتوى من الوسائل والمصادر، أكثر مما لحاضر الآخريـــن، مـــا يستعيد بها كرامته ؟ هذه هى الأسئلة التى تشكل الهيكل الذى ينبنى عليه الفكر الـــرد فعلى لأهل الجنوب؛ والأجوبة عليها تنبع من الأطر التى تحيط بها وتأخذ حججـــها من المعين ذاته وهى فى جزء كبير منها مرتبطة بطبيعة الصدمـــة الناشـــئة عـــن مواجهة كل منطقة بإحدى مراحل الإمبريالية الغربية؛ وهى تريد جميعـــا -ســـواء مجدت فى الماضى السابق على الاستعمار الذى يعاد تشكيله بطريقـــة أو بـــأخرى

لخدمة القضية، أو أنها ارتدت إلى الماضى لتبنى فوق أصالة تجد فيها من أسباب الفخر ما يصعب وجوده فى وضعها الراهن- تريد جميعها وفى كافة الأحوال أن تواجه ثقافة الازدراء التى يتسم بها الغازى أو المحتل أو الوصى القادم من الشمال، بدفاعات خاصة بها. أما فيما يخص أكثر الواثقين بأنفسهم الذين يقدمون تلك الأجوبة، فهم يجادلون الغرب فى حقه فى تحديد المعايير، وهم يقدمون معاييرهم هم فى مواجهة كلىّ لا يرون فيه سوى أحد عناصر ترسانته الهيمنتية.

من الصين إلى العالم العربى، من أراضى أمريكا الهندية إلى أفريقيا السوداء من الهند إلى جزر الكاريبى تصاغ بهذا الإسلوب أحاديث الآخرين، مستلهمين فى آن واحد، من التاريخ ومن الأساطير، ما يسمح لهم بأن يخترعوا لأنفسهم مستقبلا مغايرا لما هو معروض عليهم. بعض هذه الأحاديث يستشف منها المطالبة بالاعتراف بالجميل، على حين تسرد أخرى ما عانته من كوابيس، كما يتزايد اللجوء إلى الخطب الرنانة التى هى ردود أفعال لحماية الامتيازات ولمحاربة الخصوم المحليين أو للسماح لأهل الصفوة الجنوبيين بالتملص من مسئولياتهم عما تعانيه بلادهم من آلام. يمكن أن يستخدم تقديس التقاليد -خاصة إذا أعيد تشكيلها لتواكب الحاضر- بالفعل كسد يتصدى لأى رغبة فى التجديد قد تهدد السلطة القائمة.

ومع ذلك بدأ بعضهم يهجر الماضى، أو يبتعد عن لهجة المطالبين، ليضع فى حساباته الحقائق الجديدة المترتبة على تحولات نصف القرن الماضى. يوجد آخرون يريدون التخلص من دكتاتوريات الهوية دون أن يقطعوا علاقاتهم بذاتهم، لكى يشيدوا بنيانًا جديدًا لا تتوازى فيه الرغبة فى الحرية مع خيانة الانتماء. يكشف التعايش مع تلك المواقف المتناقضة، وهو من المفارقات التى يزداد تصارعها، تعقد العلاقات التى تربط الجنوب بما يسمى الحداثة.

لكن إذا كان الجدل الدائر فى الجنوب قد تخطى حدود المواجهة مع الشمال، فإن علاقته مع الغرب لا تزال تشكل بعدا جوهريا منه يصعب تخطيه في الظروف الحالية.

الماضى ينتقم

المجد إذن للماضى ! تناغمه السعيد سقط صريع الهيمنة الغربية، والتحية للأجداد العظماء الذين ازدراهم الغرب حتى ينسب لنفسه كل فضائل الإبداع البشرى ولكى ينفى أى دور فى التاريخ أداه هؤلاء الذين وقعوا تحت سيطرته. فى مناطق الجنوب، حيث الماضى يكتنفه الظلام ويغلف القلق غده، يأخذ المستقبل فى كثير من الأحيان، عبر الأحلام، ألوان الماضى بعد التسامى به إلى مستوى اليوتوبيا أو أرض الميعاد أو المدينة الفاضلة. ولكن يتعين -لعمل ذلك- أن يكون الماضى جديرا بالتمجيد وأن يجعل الذين يَدعُون الإنتساب إليه فخورين بأنهم من ورثته.

ظهرت منذ بضعة عقود بعض عمليات طموحة لتفكيك التاريخ كما يراه السادة القدامى، متخذةً من القول المأثور « طالما أن الأسود ليس لها مؤرخون، فإن تاريخ القنص سيظل يمجد الصياد» وأعادت مناقشة طرق دراسة التاريخ الغربية، وراحت تهز ما كان يعتبر يقينا، مرغمة الباحثين المعتمدين على إعادة النظر في عقائدهم والرجوع عما أغفلوه وإعادة فتح ملفات ظلت مغلقة منذ فترة طويلة، وتجرأت على تحدى الفكر الأكاديمى الغربى بأن رفضت منح سمة الحقيقة إلى بنيات تاريخية استُخدِمَت فى الأصل لتدعيم الحديث عن التفوق. ومع ذلك فإن الغرب لا يمتلك وحده -فى هذا السياق- حق الامتياز الأوحد فى التلاعب بالتاريخ، كما أن ضيوف جامعاته تمكنوا فيما بعد من قياس القيمة الهائلة للرهان

فى لعبة إعادة كتابة التاريخ. وأجه القائمون بعمليات تفكيك التاريخ تفسيراتهم الخاصة لقراءة الماضى المتمركزة حول أوروبا، وأعادوا للمهزومين مرتبة الفاعلين فى التاريخ، تقتفى خطواتهم الآثار التى تركها المنتصرون عليهم وتبادلوا الأدوار معه دون أن يبتعدوا عن منطق هؤلاء.

هل لأن الغرب لم يعترف لهم حتى بحق أن يكون لهم تاريخ، أن دفع الأفارقة بل والعالم الأسود كله، إعادة كتابة التاريخ إلى هذا المدى البعيد ؟ لقد سمح عملهم على العموم السير على طريق عملية ارتدادية. تبدأ بتباشيرها الشرعية، لتصل إلى تشييد أسطورة مضادة تأسيسية تستهدف غسل القارة من كافة الإهانات التى تعرضت لها. لم يكتفيا، للتوصل إلى ذلك بتفكيك عدم صحة ما يدعيه الغرب من أن مرجعية القارة السوداء لا تتعدى كونها نوعا من مراحل ما قبل التاريخ وبأنها مجردة من أى وجود تاريخى وأن العالم لا يدين لها بشىء. تعين إذن إثبات أن أفريقيا هى مصدر كافة التواريخ وأن الآخرين يدينون لها بالتالى بكل شىء. علم التاريخ الكلاسيكى الغربى، مع تقليله من أهمية تأثير مصر على بقية العالم القديم، قرر أن حضارتها على درجة عالية جدا من الروعة حتى لا يمكن الإقرار أنها أفريقية[1]. بدأ مؤرخون من الجالية الأمريكية السوداء، منذ القرن التاسع عشر، وفى أفريقيا جنوب الصحراء، إبتداءً من خمسينيات (القرن العشرين) عن طريق الأبحاث التى قام بها شيخ انتا ديوب الذى أعاد تجديد هذا النوع من الدراسات، بدأوا أولا بإعادة مصر القديمة إلى قارتها بأن أتوا بالبراهين على أفريقيتها. لقد غيرت هذه الثورة الحقيقية من رؤية العالم لإحدى أقدم حضارات الكرة الأرضية، حتى أن أحدًا من المؤرخين لا يستطيع أن يغامر اليوم بالتعتيم على جانبها الأفريقى.

---

1. راجع الفصل 3.

ولكن استخدمت العملية باتباعها سلسلة من السبل المختصرة، كنقطة انطلاق لكتابة نظرية المركزية الأفريقية، التى أضحت اليوم قانون إيمان لما يعتنقه جزء لايستهان به من المثقفين الأفريقيين ومن شتاتهم المنتشر فى العالم. أعطى المؤرخ السنغالى لمصر، التى ظلت « مهد الحضارة لمدة 10 000 عاما، فى الوقت الذى كان العالم فيه غارقا فى خضم الهمجية[2] »، مكانة الرحم الذى تولد عنه العالم المتحضر، وجعل من الأفريقانية المرادف للإنتماء للجنس الزنجى، مقيمًا على ذلك نظرية «أسْبقية الحضارات الزنجية[3]». كما تم تأسيس اللغة المصرية القديمة كمصدر لمجموعة اللغات الزنجية–الأفريقية، متخذة بذلك من جانبها الدور الذى أوكل للغة السنسكريتية بالنسبة للغات الهندو–أوروبية، وهو ما سمح بربط كافة حضارات نصف القارة بالجذع الفرعونى المشترك.

تبدو نظرية شيخ أنتا ديوب فى بينيانهاهذا وبمريديها، النظير الكُفء لمقولة المركزية–الأوروبية. محاورها الأساسية هى الموضوعات الخاصة بالأسبقية وبتفوق حضارة حقيقية واحدة ومنها خرجت الحضارات الأخرى جميعا. تتخذ حجتها العنصرية مكانا متصدرا فيها، بما أن العنصر أو الجنس هو المنتج للحضارة[4] وأنه يتعين أن تكون زنجيا لكى تكون أفريقيا؛ وفى نهاية الأمر فإن

2. Cheikh ANTA DIOP, *Nations nègres et culture*, Présence africaine, Paris, 1954.

3. هو عنوان أحد أهم مؤلفات شيخ انتا ديوب:
Cheikh ANTA DIOP, *Antériorité des civilisations nègres: mythe ou vérité historique?*, Présence africaine, Paris, 1967.

4. يضع شيخ أنتا ديوب فى كتابه (Présence africaine, Paris, 1981) *Civilisation ou barbarie* «كشفا كرونولوجيا لتطور البشرية عامة والعالم الأسود خاصة» يوضح بطريقة كاريكاتورية إمانه بقراءة عنصرية للتطور التاريخى. ويظهر هذا التسلسل التاريخى فى عام – 000 20 صورة«الكرو–مانيون، النموذج الأصلى للأجناس اللوكودرمية (= البيضاء)» فى عام – 000 10 ظهور أجناس الـ «ميزوسيفاليا والبراشيسيفاليا» كما يظهر هذا الجدول الزمنى أن فى عام – 5000 «لم يكن الساميون قد ظهروا بعد» وأن الفترة من – 4326 و– 750 هى التى إتسمت «بتفوق السود». يبتعد بنا هذا الكلام كثيرا عما كان يؤكده فرانز فانون منذ نهاية الخمسينات«ليس من حقى أنا، الرجل الملون، أن أبحث فيما يجعل من جنسى أعلى أو أدنى من جنس آخر [...]» . لا توجد مهمة زنجية، ولا توجد مسئولية بيضاء. [...] كلاهما عليه أن يبتعد عن الممارسات اللا إنسانية التى قام بها أجدادهما وذلك لكى يبدأ تواصل حقيقى (المرجع: *Peau noire, masques blancs*, Seuil, Paris, 1965).

الرغبة فى إقامة طرق لإثبات الانتساب الحاضر للماضى مثل تلك التى وضعتها أوروبا، تجعل من مصر القديمة بلاد اليونان بالنسبة لأفريقيا؛ ويقول شيخ أنتا ديوب فى كتابه الأخير « تعتبر العودة إلى مصر فى كافة الميادين -بالنسبة لنا- الشرط الضرورى لتصالح الحضارات الأفريقية مع التاريخ. [...] ستؤدى مصر فى الثقافة الأفريقية بعد إعادة التفكير فيها وتجديدها، الدور نفسه الذى أدته الحضارات الإغريقية-اللاتينية القديمة فى الثقافة الغربية[5]. »

على أساس هذه المرجعية العقائدية تفرع مذهب مركزية أفريقيا إلى أن جعل من نفسه النظرية المفسرة لأكثر الأحداث أهمية فى تاريخ البشرية. بدأ أولا بالتأكيد بشكل وسواس ضاغط على زنجية المصريين، وبشكل أوسع معظم الشخصيات العظيمة فى التاريخ الأفريقى بأن سَوَّدَ -ضمن آخرين- لون بشرة الإغريقية الشهيرة جدا كليوباترا، والكارتاجينى هانيبال وابن نوميديا القديس أوجوستين؛ كما حول الفروض القائلة بأن الأفريقيين اكتشفوا أمريكا قبل كولومبوس بقرون، إلى حقائق لا تقبل الجدل، إذ نسب الكشف إلى المصريين-النوبيين، الذين يقال أنهم نزلوا إلى شواطئ العالم الجديد فى نحو - 650 وهم الذين بدأوا الحضارة الأولميكية، أو إلى البحارة التابعين للملك الماندنجى: أبو بكر فى القرن الرابع عشر، أو إلى الاثنين معا. بما يفصل بينهما - أى ألفيتين كاملتين. وطبقا لمصادر مركزية أفريقية فإن السمة الأفريقية التى لا تقبل الجدل للآثار التى تركتها العديد من الحضارات الأمريكية الهندية[6] تثبت بما لا يدع مجالا للشك صحة هذه النظرية.

---

5. Cheikh ANTA DIOP, *Civilisation ou barbarie, op. cit.*

6. أحد أهم المدافعين عن إكتشاف الأفريقيين لأمريكا هو إيفان فان سيرتيما، مؤلف كتاب *They Came before Colombus* (*إنهم جاءوا قبل كولومبوس*) (Flammarion, Paris, 1976). راجع أيضا بالنسبة لنظرية الإكتشاف فى القرن الرابع عشر والتى تستند إلى ورود ذكر إرسال حملة بحرية ماندنجية عند المؤرخين العرب:
Muhammad HAMIDULLAH, « L'Afrique découvre l'Amérique avant Chistophe Colomb», *Présence africaine*, n° 17-18, févier-mai 1958; et Pathé DIAGNE, «Du centenaire du Nouveau Monde par Bakari II en 1312 et Christophe Colomb en 1492», novembre 1990, document préparatoire au colloque de l'université C.A.Diop de Dakar.

لماذا لم تفرض مثل تلك البنيات التاريخية نفسها على المعرفة الكلية العالمية؟ كيف نجحت عملية النصب التى قامت بها المعجزة الإغريقية -التى تدين فى واقع الأمر بالكثير إلى مصر التى إبتدعت فيها كافة الفروع المعرفية- فى أن تصبح حقيقة ؟ ما هو المخطط الذى إستطاع التعتيم على المساهمات الجوهرية لأفريقيا السوداء فى الحضارة الأوروبية ؟ وإذ وقع النص المركزى الأفريقى أسيرَ تفكيره المُلِح حول تساويه مع سميّه الغربى، لم يكتف بإثبات حقيقة مساهمته بل كان عليه أن يثبت أسبقيتها التاريخية عليها، وبالتالى تفوقها، بالنسبة للاكتشافات الغربية؛ وقد تناول الأمريكى جورج جيمس النظرية وطورها فى كتاب ظهر عام 1954 *التراث المسروق*، *Stolen Legacy* وأصاب نجاحا كبيرا، وقد تتابع تناول هذه النظرية بعد ذلك وهى تؤكد سرقة بلاد الاغريق الكاملة للتراث المصرى وهو أصل كافة عمليات السطو التالية على ذلك[7].

استطاع خطاب المحورية الأفريقية، بعد أن أصبح محصناً من النقد بواسطة نظرية مؤامرة الجنس الأبيض، أن يؤكد أن منتقديه فى تكرارهم لارتكاب الجريمة ليسوا سوى ورثة عاديين لناسخى نصوص المعرفة المصرية من الإغريق. إنها محورية أوروبية حقيقية، ولكنها مقلوبة، وهى بكونها الرد الزنجى على ثقافة التفوق الغربية أخذت منها كافة عيوبها. فهى ترد على عنصرية المؤرخين البيض الذين يعتبرون أنه من غير المعقول أن تأتى من أفريقيا أى حضارة عظيمة بوضع أسطورة التفوق الحضارى لكيان عنصرى، متجاهلة ضمن أشياء كثيرة أخرى، إتساع عمليات التهجين بين الأجناس التى حدثت فى العالم الأفريقى-البحر متوسطى القديم عبر آلاف السنين؛ ولكى تضفى على الجنس الأسود رؤية تاريخية

---

7. يقال أن أرسطو مع آخرين سرق مادة أهم أعماله من مكتبة الإسكندرية. نصوص أخرى توضح نظرية السرقة هذه من مولدها، بإيعاز ماسونى يمكن مراجعة:
Mary R. LEFKOWITZ et Guy M. ROGERS, *Black Athena Revisited*, Chapel Hill, Londres, et University of North Carolina Press, 1996, En français voir: François-Xavier FAUVELLE-AYMARD, Jean-Pierre CHRÉTIEN et Claude- Hélène PERROT (dir.), *Afrocentrismes*, Karthala, Paris, 2000.
إلا أن ما يعيب هذا الكتاب هو أنه لم يتضمن مشاركة واحدة من مؤرخ أفريقى ناقد لتيار المركزية الأفريقية.

لا تتلخص فى قائمة من التجارب المؤلمة، فهى لا تكتفى بالبحث فى أمـــر إعادتـــه إلى مكانته التى أنكروها عليه فى قلب التاريخ الكونى الكلى بل إنها تعمـــل علـــى «تزنيج» التاريخ الكلى: لأن التماثل يفرض ذلك.

لم تكتف عملية إعادة كتابة التاريخ هذه بإستهداف من كانت تجاربـــهم فقـــط، فهى بمخاطبتها أيضا، (بل على وجه الخصوص) الشعوب المهزومة التـــى أرادت أن تعطيها أسبابا للإيمان بماضيها، شكلت قـــاعدة عمليـــة لإعـــادة بنـــاء الهويـــة وارتكزت فى ذلك على تمجيد الماضى لكى تجد فى الحاضر صورا أكـــثر قيمـــة للوجود. رد الفعل هذا كان أكثر عنفًا فى الولايات المتحدة حيث تعاظم للحظـــة مـــا الأمل فى الاندماج داخل المجتمع المهيمن، فجعل من المحورية الأفريقية، ليس فقـــط ردًا مشكوكًا فيه على غطرسة اليقين الغربى، بل جعل منها أيضـــا أســـلوب حيـــاة حقيقيًا. هناك موضوع الجذور، منذ عصر العبودية، ثم عصر الأبرتايد، ثم الإعـــلان بأن *الأسود جميل Black is beautiful* الذى كان بمثابة أحد خطوط الدفاع عن جاليـــة سوداء كان مآلها إلى الآلام قبل أن يكون إلى الازدراء، إلا أنها كانت قد وهنت فـــى الستينيات والسبعينيات، فى الوقت الذى اعتقد فيه السود أن الحصول على حقوقـــهم المدنية سيفتح لهم دون رجعة باب الدخول إلـــى *بوتقـــة الانصـــهار melting pot* الأمريكية.

بمقدار ما ازدادت خيبة أمل شعب ازداد تهميشه عبر القسوة التى اتسمت بـــها الثمانينيات والتسعينيات، استعادت المحورية الأفريقية عنفوانها، ولجـــأ جـــزء مـــن «الأفارقة-الأمريكيين» إليها كما لو كانت منفى داخليا. جزء كـــامل مـــن الســـكان السود يعيش اليوم ساعة الهوية يتصوره كما لو أنه "*عودة إلى أفريقيـــا*". لديـــهم واضعو أيديولوجات أعطوا لأنفسهم كنايات وأسماء «أفريقية»، ولديـــهم احتفـــال رأس سنة خاص بهم: الـــ -كوانزاء- وملابسهم الخاصة، وتعليم خاص يتمتعـــون

بفوائده فى العديد من الجامعات[8]، هى بذلك ثقافة-مضادة حقيقية، مرجعيتها هى« النوعية الخاصة » لأفريقيا الوهمية، رافضة لأى حل وسط ثقافى مع العالم الأبيض المهيمن. وإذا كان فى إمكانها أن تشكل قاعدة نظرية لتأكيد الذات بالنسبة لجالية أقلية فى الولايات المتحدة -وهى الوحيدة التى ذهبت إلى هناك ضد رغبتها- فهى بطبيعة الحال لا يمكن أن تأخذ الصور نفسها فى أفريقيا. الموضوعات والنظريات الخاصة بـ شيخ أنتا ديوب، وإن كانت مترسخة فى الأوساط المثقفة، فهى لم تنتج إبداعات ثقافية مناظرة للتى إزدهرت على الجانب الآخر من الأطلنطى. أفريقيا داخل أفريقيا ليست موضوعا وهميًا ولا تستطيع أى عودة إلى وطن أصلى حتى لو زينه الخيال بأجمل الأوصاف أن تستخدم كمهرب من الحاضر.

عبادات الذكريات

الماضى يتيح فرصًا أفضل. ليس فقط ماضى الأزمنة السحيقة التى لا يعرف -كثير من الأفارقة فى واقع الأمر وقائعه المختلفة، إنما هو أيضا شئ شامل يمتد عبر الزمان كله « الذى يسبق مجئ البيض». ففى جميع أنحاء الجنوب، وليس فقط فى أفريقيا- يُرى الخط الفاصل الذى نشأ عن الغزو الغربى بين مرحلة سابقة على وصول الغزاة والعصر الذى بدأ باحتلالهم للبلاد، على أنه الحدود التى تفصل بين زمن الأمجاد والسعادة وزمن القهر وفقدان الذات. فالكارثة الاستعمارية بتدميرها وبقلبها للأمور السابقة عليها رأسا على عقب وبافتتاحها مرحلة مليئة بالتمزقات، لا مثيل لها فى تاريخ الشعوب المحتلة، قد طبعت الفترات السابقة عليها

8. الكُوانزاء هو صورة من صور العالم الجديد الأفريقي-الأمريكي، إبتدعه فى عام 1966 مولانا كارنجا، أحد مؤسسى المحورية الأفريقية، وأتباعه يصل عددهم اليوم إلى مليون فرد. أما أهم منظرى المحورية الأفريقية فهو موليفى أسانتى، مؤلف كتاب عنوانه *فكرة المحورية الأفريقية* *The Afrocentric Idea* (Temple University Press, Philadelphie) ظهر فى عام 1987. ومن جهة أخرى جرى إعتماد برامج دراسية محورية أفريقية فى العديد من المدارس والجامعات.

بصورة فردوسية؛ وتقابل مرحلة الإستعمار المحملة بالفوضى بفترة التناغم التي عمت المرحلة السابقة عليه التي لم تعرف الصراعات، إطارها هو التراث المكلف بحماية كافة التوازنات.

ومع ذلك فالجميع يعرف، في كافة مجتمعات الجنوب وحوافه الشمالية، أن الزمن لا يعود إلى الوراء: وهم يعرفون جيدا أنهم تحولوا دون رجعة بفعل التجديدات التي أدخلت منذ المرحلة الاستعمارية على حياتهم، قابلين معظمها ومطالبين ببعض منها التي يضعف تأثيرها. التيار المناصر للسكان الأصليين الأمريكيين زين الثقافات الهندية بعدد لا حصر له من الفضائل، والقرية الأفريقية تظل ساحة نقاء الجذور في مواجهة تلك المدن التي يجري إدراكها على أنها نقيض أفريقيا« العميقة» التي يستحيل تدريجيا العثور عليها، ولايزال العرب يجترون الروائع التي كانت لعصرهم الذهبي، مع العلم بأن الجميع يعي تماما أن تلك الصور، التي يضاف إلى تمجيدها تمجيدٌ. ستبقى منزوية داخل الماضي. فيما عدا بعض الحركات الهامشية -وإن كانت هامشيتها هذه لا تقلل شيئا من إمكانيات أضرارها- التي تصر على رغبتها على إحياء أو على الحياة فيما تعتقد أنه تكرار للماضي، فالجميع يكتفي اليوم بالتمجيد. من أفغانستان إلى الجزائر، لا يمثل الأمراء، الذين بايعوا أنفسهم أمراء على أكثر هوامش الإسلام السياسي تطرفا وإذ يعطرون لحاهم ويكحلون عيونهم تشبهًا بالرسول كما يقال، لا يمثلون لا مجتمعهم ولا حتى توجها يمثل أغلبية تيار الحركة الإسلامية.

أما السرد بالأقوال التعزيمية فهو ما يفضله الذين يودون عن طريقه إبعاد ما يأتي به الحاضر من خيبة أمل؛ وهكذا ينشغل العالم العربي بعبادة الماضي، ويقيس الحاضر باستمرار بمعايير المجد السالف لدرجة أصبحت تُغيِّم تماما على نظرته للمستقبل. والحنين إلى أزمان ملوكه العظماء الذين حكمت أسرهم الحوض المتوسطي يحل هنا محل رغبة الوجود في أعين الغرب؛ هذا الغرب الذي تشكله

ذاكرة مختلفة عن ذاكرة شعوب الهنود الحمر التى ترى فيه سبب تخلفها وقصورها وعن ذاكرة العالم الأسود الذى يعتبره مدانا بأشنع الجرائم فى حقه، هذا الغرب يراه العالم العربى إمبراطورية منافسة، لم تتوان، منذ الحروب الصليبية، عن التعرض لعظمته مدفوعة بغيرة ناهشة لقلبه من تألقه وإشعاعه. هل يعتبر ذلك -كما يعتقد الكثيرون- إشارة إلى رغبة إمبريالية مكبوتة ؟ إن علاقة العرب بالغرب تعبر عن نفسها فى أغلب الأحيان بتعبيرات المواجهة. فقد أقامت ميثولوجيا وطنية خطابها كله على التذكير بأمجاد الأمويين والعباسيين أو على التألق الأندلسى، واعدا من يسمعه بمحو ذل قرون الانحطاط -وهما كلمتان أساسيتان فى القاموس السياسى العربى- بنسخة مجددة معاصرة لتلك الفترة المجيدة. النغمة هى إذن نغمة الترميم والعودة إلى عظمة الماضى أكثر من كونها نغمة التكرار، تلك التى تستخدمها بلاغة القومية العربية[9] لوضع قائمة حججها من أجل الإنتقام.

كل حلقة معاصرة من حلقات تلك المواجهة التى عمرت لعدة قرون تجد مكافئًا لها فى الماضى، والأمل فى نصر معاصر يستهدف صراحةً جدارة التشبه بالأجداد أو محو ذكريات هزائم الماضى، كل شىء يدل على أن الزمن لم يقم بتصفية أىٍ منها ولسنا بعيدين عن الاعتقاد بأن الوجود الإسبانى فى الأندلس يتسم بشىء من عدم الشرعية وهو الأندلس الذى لن تُمْحَ أحزانُه أبدا. لقد لجأ صدام حسين أثناء حرب الخليج إلى النهل من هذا النبع لتصويراته دون أى حرج. فعلى حين كان يصوره الغربيون فى ملامح هتلر، إرتدى هو دروع صلاح الدين واعدًا الجماهير العربية، التى تميل إلى تصديقه، بأنه سيكرر أمجاده، وكما نجح هذا العاهل الرمز فى دحر المسيحيين خارج الشرق، فهو من جانبه سيلقن صليبيىّ اليوم درسًا فى الذل لن ينسوه.

---

9. لم تكن جميع حركات التحرر الوطنى تأخذ مفردات خطابها من هذا المنبع بل إن بعض قادتها، مثل التونسى بورقيبة، لم يكف عن التنديد بعقم مثل هذا التفكير.

الماضى لا يُستدعى لمباركة الحرب فقط فى مواجهة الواقع، بل يتم اللجوء إليه لصياغة الرد على كل نقد يوجهه الغرب للعرب. فعرب اليوم حسبما يقال - والمسلمون منهم على وجه الخصوص- هم أسرى القيود التى يفرضها الدين مانعا إياهم من التفتح على الحداثة ؟ الرد جاهز باستدعاء ابن رشد ليرد بأن التنوير العربى سبق بعدة قرون الجامعات الأوروبية التى استثمرت تراث القرطبى. وإذا اتهم العالم العربى اليوم بأنه يجعل من الأقليات سكانا من الدرجة الثانية ويضع الإنتماء لدين الدولة فوق حق المواطنة ؟ يكون الرد هو: إن التعايش بين الديانات السماوية الثلاث فى الأندلس، والتسامح العثمانى الذى ساد الأقليات الدينية التى عوملت بأفضل بكثير من معاملة المسيحية لها، يجب أن يجعل الأوروبيين أكثر تواضعا. وهكذا يرى الماضى نفسه مكلفا بمهمة رفع الإدانة عن الحاضر، دون أن يطرح التساؤل (فيما عدا الأقليات) حول السبب الذى لا يجعل هذا الحاضر أمينا على تراثه بهذه الدرجة الكبيرة. فى هذه النقطة أيضا يتناسب القول فى تماثل تام مع الخطاب الغربى ويرد على تعتيم هذا الأخير على ما أعطاه عصر العرب الذهبى بنوع من المنافسة بتسجيل النقاط هنا وهناك، حيث يتم التذكير بأننا كنا الأقوى والأكثر ثقافة والأعمق فلسفة والأوسع انفتاحا عن الذين جعلوا من أنفسهم أساتذة فى تلك الأمور. ويبدو أن المباراة ستطول فى الوقت الحاضر مادام الشريكان المتنافسان لا يريدان التوقف عن التلاعب بالتاريخ.

البلاغة فى عملية ترميم الماضى واسترجاعه المستخدمة كأداة لحصول القومية العربية والنظم الدكتاتورية المنبثقة عنها، على الشرعية تعتبر أيضا من محاور الخطاب الإسلامى؛ المعروف أن موضوع خيانة الجذور قد استخدم كعمود ارتكاز قامت عليه نظريات العديد من المفكرين الذين سعوا منذ أكثر من قرن كامل، فى البحث عن أسباب سهولة وقوع *دار الإسلام* تحت سطوة القوى الغربية. فى نهاية القرن التاسع عشر طالبت الحركة الثقافية العربية *النهضة* - تلك

«النهضة» المبشرة ببدايات متجددة والتى تعتبر احد الأرحام التى خرجت منها الأصولية الحديثة- بتحديث إسلام الجذور، الذى أدى الابتعاد عنه إلى بداية التحلل الذى أصاب المجتمعات المسلمة[10].

جعلت التيارات الإسلامية الحديثة من تلك الحركة الثقافية وهى تسير فى أثرها -عاملا مركزيا لمحاجتها، منادية بأنه لا يوجد خلاص ولا عظمة خارج العودة إلى«القيم الإسلامية» وأشكال التنظيم السياسى والاجتماعى التى تأمر باتباعها. الجزء الأكبر من هذا الخطاب المقدّس للماضى -الذى حوله تمركزه داخل المجال الدينى إلى «حلم أبدى[11]» يجعل بطبيعة الحال بوادر هذا الانهيار سابقة على اختراق الغرب لحدود الدار، بما أنه أحد أسبابه، إلا أن تأصل التأثير الغربى على الأماكن التى هو غريب عنها الذى يجعل عصر الانحطاط من غير مخرج. وبناءً عليه فهذا التأثير هو الذى تتعين محاربته بما أن وجوده المستمر يذكرهم فى قسوة بأن ما كان، لم يعد له وجود، ولذلك فبمعارضة كافة صور هيمنته، من أكثرها وضوحا إلى أشدها خبثا، يمكن أن يشرق الأمل فى إمكانية التواصل مع أمجاد زمان أو على أقل تقدير بقاء الحال على ما هو عليه.

ليس من المهم الطريقة التى تختارها هذه الكينونة فى تعيين ذاتها. يرى الأصوليون الإسلاميون، هؤلاء الذين يزدهرون فى ظل أصوليى الديانتين الموحدتين الأخريين، أو أصوليين آخرين مثل الهندوسيين، فى تصدر المعيار الدينى الوسيلة الأكثر ضمانا للحفاظ عليها فى كمالها. إلا أن هذه الرغبة فى درء خطر تحلل الذات وفى استعادة النقاء الذى مسته صور التفوق الغربى المختلفة

10. أهم مفكرى هذا التيار هما الهندى جمال الدين الأفغانى والمصرى محمد عبده الذين يعتبران مؤسسى التيار السلفى -أو العودة إلى الأصول- وهو الذى تغذى عليه كل الفكر العربى-المسلم الحديث، ولم يكن المنظرون لهذا التيار رواد التيار الفكرى للأخوان المسلمين -وهى الحركة التى نشأت فى مصر بعد أقل من أربعين عاما من وفاة الإمام محمد عبده- بل كان لهم طوال القرن العشرين تأثير حاسم على عدد كبير من القادة القوميين ومن المثقفين.

11. أخذنا هذا التعبير عن:

Monique SCHNEIDER, *Généalogie du masculin*, Aubier, Paris, 2000.

-وهى تعاش جميعا كاعتداءات على الذات- ليست رغبة خاصة بـــهم وحدهـــم. إذ نلتقى بها فى كل مكان وفى صورها المختلفة ومنها من تسمى بالهوية، مـــهما قيــل وكتب عن أن هذا القرن ينفتح على انتصارها وأن الدفاع عما هو خـــاص متمــيز بسد الفراغات التى تخلفت عن كافة إخفاقات زمننا. من موت الوهم الشيوعيى فــى خزى وبلا مجد، إلى الملف الكامل للإحباطات الناجمة عــن تناقضـــات العولمــة. الارتداد نحو انتماءات ملموسة وإلى أحضان تضامنات يسهل اســـتدعاؤها يــؤدى دور الرد على غرق اليوتوبيات الإشتراكية وعلى تحلل المهمات الحمائية للـــدول، وإلى تداعى الدولة-الأمة وإلى متاهات ما يسمى بالعولمة.

تبدو الهويات الفوق قومية -ومنها الدين الذى يعتبر أهم أساس مـــن أسســـها- أو الهويات المحلية -فى واقع الأمر- الأكثر ظهورا وتعلن عن نفسها على العـــالم عن طريق عنف الصراعات التى يرفع من درجة حرارتها التنافس القائم بين هـــذه التعبيرات المتشنجة عن الذات. إلا أن الظاهرة ســـابقةٌ علـــى الصراعـــات التـــى انفجرت بعد الحرب الباردة: الهويات الحديثة خرجت إلى الوجود فى جنوب العـالم، فى مواجهة الغرب والزلازل التى ترتبت على تدخلاته المختلفة. ويمكن تلخيصــــها فى كثير من الأحيان فى واقع عدم كون الإنسان غريبًا وعن رغبتـــه فـــى إقامـــة دفاعات ضد إمكان حدوث ذلك. وإذ تولدت هذه الهويات من مواجهة مع « آخـــر» هو أقوى بدرجة لا نهائية من كل ما عرف تاريخيا قبله، فهى تُعَيِّنُ ذاتَـــها بالنســـبة له. كل غموض يكتنف التعبير يكمن فى ذلك الوجود داخل فضـــاء. فـــهل يرجـــع السبب إلى أن « من خشى أن يفقد هويته خسرها بـــالفعل[12] » ؟ إن ســـجل الهويـــة يعرض نفسه فى صورة كشفِ جردٍ للإستراتيجيات الدفاعية التى أثارهـــا التفـــوق الذى يخشى البعض عن حق أنه قد يكون سجل بالفعل فى هـــذا المجـــال انتصـــارا حاسما.

12. كما لخص ذلك دارس اللاهوت الهندى-الإسبانى ريمون بانيكار، *لوموند*، 2 أبريل 1996.

حيل القدرة المتناهية

لأن الغرب لا يكتفى بتجسيد القدرة المتناهية، وهو يتميز أيضا برغبتــه فــي الإحتفاظ بامتيازها الوحيد لذاته، وتمنحه هيمنته التى لا يخرج شيء عــن نطاقهــا -لكى يحقق ذلك- ترسانة من الوسائل التى يبدو أن أى مقاومة لها تبدو غــير ذات جدوى؛ وبما أن سلطان القوى الكبرى لم يترك مجالا واحدا يخرج عن سيطرته فقــد أصبح على درجة من الضخامة بحيث تنسب إليه قدرات أكبر ليست له بالفعل. مــن وجهة نظر الجنوب تبدو كافة الكوارث -تقريبا- التى تنزل عليه، ما يساوى عددهــا براهين على وجود إستراتيجية موضوعة عن قصد لإبقاءه تحت الأقدام ولــو أن أى محاولة لإخراج رأسه توأد مهدها فلا يتحرر من الوصاية المفروضة عليه ومن ثــم لا يعترض طريقها الغرب. لا يمكن أن ينتج أى حدث سلبى مـــن الصدفــة أو أن تكون الأسباب التى أدت إليه داخلية، بل هو أثر لعبقرية الشــر التــى تسـتطيع أن تصنع فيروسا قاتلا أو أن تؤدى إلى انهيار اقتصاد بلدٍ ما.

حتى الأعمال الخيرية التى يقوم بها الشمال يمكنها أن تخفــى عــن الأنظــار أهدافا سوداء وأن تخدم مشروعه فى البقاء وحده سيد العالم. كل ما يأتى من جهتــه، سواء فى السياسة أو الإقتصاد او أى مجال آخــر، يصبــح موضــع تساؤل حتــى قبل معرفة الدافع الحقيقى وراء ذلك -أحيانا-. لا توجد حركـــة واحـدة ولا تيــار فكرى واحد لم يلجأ، فى لحظة أو فى أخرى، عبر العقود الأخـــيرة، إلــى نظريــة المؤامرة الغربية لتفسير فشل العمليات التى يفترض أنها ستسمح للجنـــوب برفــع الهامة. لقد تتابع الماركسيون ومناصرو العالم الثالث من كافة الميول والمنـــاضلون الوطنيون جميعا ومن بعدهم الإسلاميون من العالم المســلم الواحــد تلــو الآخــر- متلاقين فى بعض الأحيان لينسبوا إلى الغرب قدرة علـــى الإســاءة لا حــد لــها فيأخذون فى العديد من المواقف وجهة النظر المقابلة له تماما فى كل مــا يعرضـــه

وهو ما يعبر عن الخوف العميق من الوقوع فى الفخاخ التى يفترض أنه يضعها على الطريق.

هل هو من مناصرى مالتوس ؟ الإجابة هى: أن فى ذلك مصلحته. ويفضل إذن أن نظل من مؤيدى زيادة السكان وأن ننظر بعين الشك والريبة إلى اهتمامه بأن يرى النمو السكانى فى الجنوب ينحسر وأن نقف فى وجه برامج تحديد النسل التى يريد أن يضعها موضع التنفيذ. لأنه بتمويله لها لا يستهدف سوى إضعاف الجنوب متظاهرا بتقديم المساعدة له. لقد ظل ولفترة طويلة الاعتقاد منتشرا بأن أى مبادرة فى هذا الاتجاه لا تخدم سوى هدف ماكيافيللى مما أدى إلى التعتيم على خطورة المشاكل الناجمة عن الزيادة السكانية التى أصبحت خارجة عن نطاق السيطرة والتى لم يثبت اقتصاد واحد، مهما بلغت درجة ديناميته، على مقدرته على قبول تحديها له.

حتى بداية الثمانينيات، وفيما بعدها أيضا فى بعض الحالات، ظل معظم أهل الصفوة من العالم الثالث -سواء كانوا من الحكام أو من المعارضين- متضامنين فيى يد واحدة فى اعتقادهم بأن تشجيع الغرب لهم فى تخفيض خصوبتهم لم يكن يستهدف سوى تحقيق حلمه فى وضع حد لوجودهم الجماعى[13]. « قرأت فى صحيفة فرنسية خبرا مقلقا عن تخفيض نسبة خصوبة المرأة فى المغرب. [...] قدمت الصحيفة الأمر على أنه نبأ سعيد [...] بغض النظر عن العنصرية المسمومة التى تحتويها هذه المعلومة التى لا ترى فى منطقتنا الرائعة سوى مركزا لتوليد أصناف خطر من البشر، [...] فقد وقع النبأ علىّ كالصاعقة. يا إلهى ! ماذا

13. هربت بعض البلاد، مثل تونس، من هذا الموقف الجماعى بأن إعتمدت منذ الستينيات سياسات للتحكم الديموجرافى. كما أن الإنتقال إلى مرحلة ديموجرافية هادئة فى شرق آسيا وفى القمع الجنوبى الأمريكى بدأ أيضا فى مرحلة مبكرة نوعا، على عكس أفريقيا السوداء والشرق الأوسط، حيث بدأت هذه المرحلة لتوها.

حدث لنا ؟» هذا الرأى المنشور فى صحيفة تنتمى إلى أهم الأحـــزاب[14] اليســارية المغربية ليس من الأمور النادرة؛ وعلى الرغم من أن هذه التحالفات المؤيدة للزيـادة السكانية قد وهنت بعض الشيء بسبب الوعى المتزايد للآثار السيئة الناجمـــة عـن النمو السكانى السريع، فهى لم تختف تماما من الساحة. فصوتها لا يزال مســموعا فى الساجات الدولية وقد يختلط الآن مع أصوات التيارات التقليدية المعارضة مـــن ناحية المبدأ لأى سياسة تحكم فى المواليد[15].

لم تتوقف الشكوك المتولدة عن الإستراتيجيات المالتوسية التـــى ينـادى بـها الشمال عند هذا الحد: فبما أنها بدأت تؤتى النتـــائج المتوقعـــة، فقـد رأت بعـض الأوساط فى الجنوب أن الانتشار المخيف لوباء الإيدز على مســتوى العـالم ليـس نتيجة للصدفة بل إن هذا البلاء -وقد إعتبر أيضا إحدى النتائج المباشرة المترتبـــة على الانهيار الأخلاقى فى الغرب- قد صدر عن قصد إلى المناطق الأكـثر كثافـة سكانية، فبما أنهم استمروا فى التناسل بأعداد كبيرة، أصبح من المُلـــح أن يموتـوا بنسب مقابلة لذلك: فبعد أن أنتجت المعامل الأمريكية وأطلقت فيروس فى أى إتـش (المسبب لمرض الإيدز/سيدا) راحت تغطى على جريمتها باختراع وهم أنه نشأ فـى أفريقيا، وعلى الرغم من أن المعطيات قد أثبتت عـــدم صحـــة ذلـك، فـإن تلـك النظريات قد أصبحت لها صفة الحقيقة الواقعة فى العديد من بلاد الجنـــوب. مـن الهند إلى أفريقيا جنوب الصحراء، حيث أشار إلى ذلك علنيا بعض القادة هناك[16].

14. «هجوم رهيب»، *الاتحاد الاشتراكى*، 17 مارس 1991 (جاء ذكره فى مجلة *بانوراميك*، رقم 3 الفصـــل الأول (1992) جاء هذا النقد العنيف ردا على مقال الصحيفة *لوموند* ينقل بلهجة محايدة وبعيدا عن أى «عنصرية مســمومة» تطورات الخصوبة المغربية.

15. ظلت المؤتمرات الدولية التى خصصتها الأمم المتحدة كل عشر سنوات لمسألة السكان (فى بوخارســـت عـــام 1974 ومكسيكو عام 1984 والقاهرة 1994) مسرحا تلقى فيه بيانات مؤيدى الزيادة السكانية ويشجبون فيه الغـرب متهمينه بأبشع الأهداف المغرضة.

16. نصح الرئيس الكينى دانيال آراب موى فى نهاية الثمانينيات مواطناته الكينيات بعدم إطعام أطفالهن الرضع بلـبن البودرة المستورد من الشمال، قائلا إن تلك الألبان تحتوى على مواد تستهدف جعل النساء عقيمات أو إصابة الأطفال أو كل من يشرب تلك الألبان، بمرض الإيدز/سيدا.

بالنسبة للذين يرفعون شعار أن الزيادة السكانية وزيادة شباب السكان هى أدلة على الدينامية فما دام الجنوب يقاوم تلك المحاولات فإن الغرب يتحرك أيضا على جبهات أخرى لإضعافه بأن شكل -ضمن أفعال أخرى- حركات متطرفة فى العديد من البلاد الإسلامية الهامة لإيقاف علميات التقدم الجارية فيها والتى من الممكن أن تضر بمصالح القوى العظمى. فمن مصلحتها تدمير الجزائر، هذا البلد المؤثر الذى ظل لفترة طويلة رائدا للدولة المطالبة بحقوق العالم الثالث، فحقنته بالسم الإسلامى ثم سلمته للجماعات الإسلامية المسلحة بشكل مباشر أو عن طريق الدول الموالية لها فى منطقة الخليج. فى عام 1994 عبرت خالدة مسعودى عن خشيتها من أن ترى الحرب « ضد الجزائر» تقذف بوطنها داخل « أعراض المرض اليوغوسلافى [...] وهو ما سيترتب عليه تحقيق أهداف تلك القوى الخارجية التى لا تنتظر سوى ذلك للتخلص من قادة العالم الثالث[17] ». « آلات الحرب هذه [...] تعيث فى الجزائر فسادا. ليس بكونها نوعا من القدر التاريخى، وإنما بسبب مؤامرات يحيكها نوع من الأممية الأصولية ونزولا على إرادة سادة العالم »، كما جاء على لسان أحد المؤرخين من مواطنى خالدة بعد ذلك[18].

العراق هو الذى تحمل أسوأ صور تهديد الاستقرار خبثا فى حرب الخليج -« تلك الحرب العنصرية التى قام بها البيض اليهود-المسيحيون ضد بلد من بلاد العالم الثالث على حد قول كاتب من مارتينيك[19] يفضل التعبير بلغة حادة مباشرة.

---

17. Interview de Khalida MESSAOUDI, *Courrier international*, n° 179, *loc. cit.*

18. سليمان صلاح الدين: «هشام جايت لم يفهم شيئا عن الجزائر» مقال منشور فى *جون أفريك* عدد رقم 1937، 24 فبراير 1998. كان هذا الباحث يرد على دراسة معقولة للمؤرخ التونسى هشام جايت الذى كان يرى أن الأسباب الداخلية كانت هى الحاكمة فى ظهور التيار الإسلامى الجزائرى.

19. Raphaël Constant, cité par EDWY PLENEL, «Voyage avec Colomb», *Le Monde*, 23 août 1991.

الخط اليهودي-المسيحى إستخدم كثيرا لتفسير حرب الخليج. إعتبرها المغربى مهدى المنجرة «صراعا بين الرغبة فى الهيمنة المشكلة منها للحضارة اليهودية-المسيحية والحضارات الأخرى جميعا»، راجع:

(Mehdi EL-MANDJRA, *Première guerre civilisationnelle*, Toubkal, Casablanca, 1992).

من الرباط إلى عمان، اقتنع العديد من المثقفين من كافة التوجهات فى ذلك الوقت بأن الولايات المتحدة وأتباعها الأوربيين قد شجعوا صدام حسين عن قصد لغزو الكويت ليجدوا فى ذلك الذريعة التى يبحثون عنها لكى يضعوا حدا لبنائه قوة محلية حقيقية تمثل بالنسبة لهم خطرا داهما ولكى يوئدوا أى محاولة لإقامة الوحدة العربية التى أراد الزعيم العراقى أن يكون صانعا لها. بعد أن وقع « قائد آخر شعب عربى فى الشرق الأوسط لا يزال واقفا على أقدامه » فى الفخ بصورة ساذجة للغاية حسبما جاء فى أقوال أحد كتاب الأعمدة الصحفية[20]، ذلك البسمارك المنتظر كما كان يراه آخرون[21]، أصبح من السهل كسره مثل الفرع اليابس على يد أعظم قوة فى العالم، ومعه حلم الانتقام الذى كان متمثلا فيه. « إنها حرب إبادة لهويتنا، فمنذ إسبانيا والأندلس فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، لم يواجه العرب مثل هذا التحدى» ، جاء هذا القول على لسان ولى عهد الأردن[22] ملخصا فيه الوضع بعد انتهاء الحرب، مُحَملا بذلك الغرب المسئولية التاريخية الرئيسية فيما أصاب أهله.

لا يوجد أحد فى منأى عن الخطر، وأكثر الجميع تعرضا لانتقام الذين يستهدفون تدمير العالم الثالث هى الأمم الناهضة بما أنها هى الأولى التى تتحدى هيمنتهم. الاقتصاد قد يصبح أيضا سلاحا فتاكا فى أيديهم بما أنهم يتحكمون فى كافة آلياته. فى عام 1997 وكانت الأزمة الآسيوية قد وصلت إلى قمتها، تميز رئيس الوزراء الماليزى مهاتير محمد بعنف هجومه على من اعتبرهم المسئولين عن المؤامرة اليهودية-المالية[23] التى تستهدف وضع حد لازدهار إحدى أكثر

---

20. Éditorial de Béchir BEY YAHMED, *Jeune Afrique*, no 1547, 22-28 août 1990.

21. كان العديد من المثقفين المؤيدين لقضايا القومية العربية وضعوا آمالهم فى الدكتاتور العراقى. فقد أخفى التونسى هشام جانت، رئيس الـ «لجنة الوطنية لتأييد صدام حسين» إقتناعاته الديموقراطية لكى يعبر فى ذلك الوقت عن إعجابه بصدام.

22. مقابلة صحافية مع الأمير الحسن. الشقيق الأصغر -وفى ذلك الوقت ولى العهد- للملك حسين عاهل الأردن (مجلة جون *أفريك*، عدد رقم 1571، 6-12 فبراير 1991).

23. تحددت شخصية من قام بتلك المؤامرة فى رجل المال الأمريكى اليهودى ذى الأصول المجرية جورج سوروس.

المناطق دينامية فى العالم؛ ومن ورائه تابعت كوريا الجنوبية الموضوع حيث إقتنع قطاع هام من الرأى العام بأن تعليمات صندوق النقد الدولى والضغوط التى قيل إن الرئيس كلينتون قد مارسها « على اليابان لكى لا تقدم المساعدة للكوريين الجنوبيين» كانت جزءا من مؤامرة كبرى وضعت خطوطها العامة فى وول ستريت لتدمير الاقتصاد الكورى[24] يشن إذن العدو المتغير الأشكال على الدوام حروبه على كل الجبهات ويعرف كيف يغطى، عند الضرورة، عملياته تحت عباءة الفضيلة.

هكذا تشير المعتقدات اليقينية لدى قطاع كبير من سكان بلاد الجنوب. والواقع أن بعض تلك المعتقدات لا يعدو كونه قراءات للواقع تتسم بالمغالاة، تبدو قابلة للتصديق بالنظر إلى الأهمية العظمى للوسائل التى يحركها الشمال للدفاع عن تفوقه الكامل؛ ولكنها فى الوقت ذاته تغذى بارانويا (أو ذهانا هذيانيا) يجعل أهل الجنوب يرون العالم فقط على ضوء الشر الذى يُكنّ لهم فى الصدور؛ ويزداد وقع مختلف هذه الأشكال لنظرية المؤامرة على الرأى العام بسبب لجوء عدد من القادة إليها لتبرير إخفاقاتهم؛ إذ تخدم الأعمال الشائنة الغربية، حقيقية كانت أو وهمية، وبصورة منتظمة، القادة فى تحويل الغضب الشعبى نحو كباش للفداء طيّعة ولإخفاء بعض الجرائم الداخلية جدًا أو من أجل تدعيم ولاء تكون روابطه قد أرخت وثاقها صعوبةُ الظروفِ المعيشية. إلا أن السكان هم أبعد من أن يكونوا سذجًا لكى يقبلوا باستمرار ما يقال لهم، ولكنهم يتفاعلون فى الوقت نفسه لدى سماعهم ذلك عندما يحرك فيهم نعرة الهوية، علما بأن كل شىء يساعد على تحريكها.

---

24. جاء ذلك فى مقال نشرته صحيفة كوريا الجنوبية *شوحان شوزون*، (نقلته: *courrier international* عدد رقم 476، 16 ديسمبر 1999).

إذا كانت الكتب المدرسية فى اوروبا وأمريكا الشمالية لا تطرح قط التساؤلات حول الأسس التى يقوم عليها التفوق الغربى ولا حول الوسائل التى استخدمها وتبجل باستمرار الذين صنعوا ذلك التفوق، فإن دول الجنوب تغالى فى كثير من الأحيان فى إزكاء الروح الوطنية التى لا تشجع على الإنصات للعالم بمقدار إنغلاق السادة السابقين على أنفسهم داخل أبراج تفوقهم العاجية. اللحنان المكرران والمستخدمان فى تشكيل وجدان الأجيال الجديدة عنوانهما هو الغرب الشرير وعظمة الماضى الخاص بكل بلد. فعلى حين يتعين على التلاميذ الهنود أن يروا فى عصر الفيدا« زمنا رائعا، نقيّا، مستقلاً، منظمّا، لا فساد فيه ولا اضطرابات إجتماعية»[25] فإن تلاميذ المغرب يربون بطريقة واعية على كره الآخر. فهم يتعلمون أن الإسلام والمسلمين هم ضحايا اليهود أولا ثم الماسونية ثانيا -التى هى « جمعية سرية أصلها يهودى»، وثالثا وأخيرا وفى المجموع على كره الغربيين جميعا. وفى كتب التاريخ الجزائرية، يتشكل السكان الأوروبيو الأصل فى الفترة الاستعمارية فقط من كبار المستعمرين الأثرياء وفى مرحلة الحرب من قتلة المنظمة المسلحة السرية OAS، كما أن هذه الفترة« تقدم كما لو كانت بين قوسين، قبل القوس الأول كان العصر الرومانتيكى الجميل الذى سبق 1830، والقوس الثانى هو عصر العصيان المسلح الذى بدأ فى 1954 [26]». وفى مجمل الأمر تأخذ قراءة تاريخ العالم فى الكتب المدرسية للبلاد العربية اتجاها مناهضا بعنف للغرب بصورة تجعل قراءها أسرى اجتراء العظمة العربية الإسلامية.

وعلى العموم، فمن أحاسيس البغضاء فى العالم العربى إلى الافتتان الهندى بتاريخهم القديم، وإلى تشكيل تواريخ وطنية، الوعى بها ناتج من التصادم مع

25. «À livres ouverts», *Croissance*, n° 396, septembre 1996.

26. Gilles MANCERON et Hassan REMAOUN, *D'une rive à l'autre. La guerre d'Algérie de la mémoire à l'histoire*, Syros, Paris, 1993.

الغزاة، فإن الغرب يُستخدم مرجعًا وحيدا أو أساسيًا للقصص التاريخية التى تعمل على طرده من الذاكرة الجماعية، وعلى طرده من الماضى بعد إعادة تأميمه. من أجل تطهير الذات من تلويث الغرب لها، تجرى محاولات تداول التراث الوهمى للنقاء الأصلى. بأدوات الغرب -التى هى الدولة والأمة- يكتب التاريخ الذاتى. الشعور بالكره نحو الغرب يؤدى إلى الاعتقاد بأنه عن طريق ذلك الكره يمكن تشكيل وجود مستقل من إنتشار وجود الغرب فى كل شىء وفى كل مكان يتضاعف الإحساس بالكره نحوه.

دكتاتوريات الهوية

هكذا يختلط الخوف من عدم المقدرة على الهرب من قوة جذبه والبقاء إلى الأبد ضحيةً لمخططاته التى يضعها لإخضاع الآخر لسلطانه قبل إذابته نهائيا داخل ذاته، مع المقت القديم له ومع استياء حديث ومع حنين غريب لجنة مفقودة... يختلط كل ذلك فيما يكتبه الآباء لبرامج تدرس لأبنائهم. ففى المواجهة مع العدو الغربى، الهوية هى التى يتعين الدفاع عنها، حتى لو أدى ذلك إلى التقوقع أو سجن الذات داخل قلعة يراد لها أن تكون غير قابلة للسقوط. فيظل التراث هو الموطن المفضل، وتبقى الحداثة حصان طروادة الذى يعرف العدو كيف يُصنّعه ويتعين على الجميع التخوف منه؛ ولما كان التراث يتغذى على منتجات خاصة لثقافات خاصة، فيتعينْ عليه إقصاء ما هو كلىّ تماما، فيبدو آخر منتجات الإمبريالية التى لا يمكن الشفاء منها. سواء سمى دفاعات عن التراث أو حماية الأصالة أو وقاية الخصوصية، فإن جيلا بأكمله أصبح يضع المستقبل سجين طرق مسدودة لأسر الهوية داخلها وهى تقوم بدور الخيار الآخر المتاح بدلا من دفعه إلى المحاكاة، وهو الإطار الذى يود الغرب من جانبه حصره داخله. هذه الطرق الإشكالية

المستخدمة لتأكيد الذات ستظل دائما محددة بشكل سئ لأنها توقفت منذ زمن طويل عن الوجود بذاتها فقط، فهُدِمت وأعيد بناؤها طبقا لمقتضيات من يرسمون حدودها، وهى تقوم على أوهام أو تُستعمل كأدوات سياسية صالحة لسلسلة من الخدمات موضوعة فى يد الجميع تقريبا وتستخدم ولأى غرض منذ عدة عقود.

التراث شيء محلى والحداثة شيء غربى: هذه المقولة التى تتردد دون كلل منذ أن أصبحت الكلمتان أشهر توأم لمتضادين فى علم الاجتماع المعاصر، تتضمن أنه يتعين -لكى يبقى المرء فى ذاته- أن يحترم الأول وأن يستبعد الأخرى. ومع ذلك فإن مضمون الكلمتين -التراث والحداثة- هو أبعد من أن يكون قد تعيَّن بالتحديد. وعلى عكس ما يُعتقد، فهما تتطوران منذ فترة طويلة معا، تتغذيان على بعضهما وتتهلان من معينيهم، الأول (التراث) يأخذ عنها أدوات إعادة شرعيته والأخرى (الحداثة) تستعير منه الزى الذى ستبدو فيه محلية. ولكن، على حين يبدو أن الحداثة تسير على وتيرة مستقلة، ماحيةً كل ما كان سابقًا على مَنْطِقِها وبقوتها الجاذبة وحدها، فالتراث لا يعيش سوى بمناهضته لها.

لكن من الذى يقاوم ولماذا ؟ ما هى الشرعية التى ترجع إليها هذه المقاومة وضد ماذا بالضبط تثور ؟ ما هو المعنى التى تضفيه على الحداثة وهى تقيم فى وجهها الحواجز ؟ وهل الدوافع كلها واحدة، تلك التى لعمليات إعادة تأليف التراث[27]؛ وبما أن أحدًا لا يريد بالفعل العودة إلى الماضى، ما هو الذى يراد إنقاذه من ميراثه ولماذا ؟ توجد اليوم على الكوكب الجنوبى فئتان رئيسيتان لردود الفعل على الحداثة. الأولى تدخل فى إطار الازدراء على حين تدخل الأخرى فى نظم

27. فكرة إختراع التراث التى يبحث فيها علم الاجتماع السياسى المعاصر سمحت خلال السنوات الماضية بفهم تحولاته بصورة أفضل وإدراك العلاقات التى يقيمها مع البيئة المتغيرة المحيطة به والمؤثرات الخارجية التى تحدد مضمونه. نذكر المراجع التالية فيما يخص الأفريقانية:
Jean-Loup AMSELLE et Elikia M'BOKOLO, *Au cœur de l'ethnie,* La Découverte, Paris, 1999; Jean-François BAYART *et alii, Le Politique par le bas en Afrique noire,* Karthala, Paris, 1992; Jean-François BAYART, *L'État en Afrique,* Fayard, Paris. 1993.

السلطة التى ترى نفسها مهددة بسبب المتطلبات التى تحتويها والتحولات التى تتسبب فيها؛ وقد تلتقى الفئتان وكلتاهما تتميزان بغموض علاقاتهما بموضوع رفضهما.

لكى ندرك أعماق هذا التضارب يتعين أن نسبر للحظة أغوار الماضى حتى مرحلة حركات التحرير التى حددت لنفسها -بعد أن وضعت حدا للاحتلال الأجنبى- هدفين يبدوان للوهلة الأولى متعارضين، وهما العودة إلى تراث سابق على الاستعمار يعيد نسج الهوية، وتشييد مستقبل يوضع فى إطار يدير ظهره للماضى. كان القادة يستخدمون هاتين المرجعيتين على الدوام من أجل تحقيق أوسع وحدة ممكنة تلتف حول حركاتهم: يلقون الخُطب التى تشيد بالتراث للطبقات المحافظة في مجمعاتهم وإلى كل من اعتبر الاستعمار تاريخا طويلا من السلب والنهب، ويستخدمون الخطاب الآخر ليجذبوا إليهم النخب المحلية الحداثية، ليحظوا بتعاطف التيارات اليسارية فى عواصم المستعمر السابق؛ إلا أنهم لم يتمكنوا إلا نادرا من الحفاظ على التوازن بين هذين القطبين المتناقضين بعد أن افترضوا بناء المستقبل عليهما. لقد استبعد أغلبهم التساؤلات الداخلية حول الحداثة وهى تساؤلات ظهرت خلال المرحلة الاستعمارية وجعلوا من الدفاع عن التراث أو الدين والدفاع عن الأمة شيئا واحدا؛ وتم اتهام الذين أرادوا التشكيك فى جدوى التراث أو الدين لإقامة الأمة بأنهم انضموا إلى صفوف الأعداء. الواقع هو ان القوميات قد لخصت انضمامها إلى الحداثة باستيلائها على الدولة-الوطن[28]. وهم بتفعيلهم الخلط بين التراث والأمة، اعتقدوا أن هذا الامتلاك يكفى لأن يُعرّفوا بالحداثة طالما أن

---

28. جعل المؤرخ الهندى ديبش شكرا بارتي من الإمبريالية الأوروبية ومن قوميات العالم الثالث الواضعين المشتركين لـ «تعميم الدولة-الأمة، كصورة للجماعة السياسية الأكثر تفضيلا». راجع:
(Dipesh CHAKRABARTY, «Postcolonialité et artifice de l'histoire. Qui parle au nom du passé "indien" ? », *in* Mamadou DIOUF *et alii*, *L'Historiographie indienne en débat. Colonialisme, nationalisme et sociétés postcoloniales*, Karthala-Sepis, Paris-Amsterdam, 1999).

النضال من أجل التحرر وبناء الدولة-الأمة يسيران بدون أدنى شك في اتجاه التاريخ.

عصر الاستقلال لم يضع حدا لهذا الخلط؛ فبعد أن وصل قادة الحركات إلى السلطة استمروا في البحث في السجلات الخاصة بالهوية وبالتراث ما يدعم شرعيتهم، واعدين بمحو الماضي الاستعماري للعودة إلى مراحل تاريخية أعرق، عاملين معظمهم على تحديث بلادهم طبقا للوصفات التي وضعها هؤلاء الذين كانوا يحاربونهم. ولما كان التحديث المادي والتقني يُفترض فيه انه محايد من الناحية الأيديولوجية، فقد كان عليه في أفضل الحالات أن يلبي متطلبات الطموح العام لتحقيق التقدم دون أن يتسلل السم الغربي إلى العقول. وهكذا أصبح جنوبُ العالم حديثا دون أن يدخل في عصر الحداثة.

تولدت مسوخٌ من هذا الانفصام. اعتمدت عمليات التحديث السلطوية على ذلك لإبعاد قطاعات الحداثة السياسية جميعا عن السلطة على أساس أن الحداثة أجنبية وهي تعتبر بالتالي مجردة من كل شرعية؛ وإذ جعلت السلطة من تشييد القلاع الصناعية وتنظيم أجهزة الدولة جل رغبتها في التقدم، وهي أجهزة مستبدة تراوحت درجات استبدادها، اعتبرت المطالب الخاصة بالحريات الفردية أو بأي تعديل في الأدوار التقليدية التي يقوم بها أيٌ من الجنسين تهديدات مميتةً يمكن أن تهدم مقومات الهوية من أساسها ذاته. وهكذا شُيدت مساجد في العالم العربي بنفس أعداد المصانع وحل -في عدة بلاد منه- تعليم« العلوم الإسلامية[29]» محل تعليم الفلسفة. كما رأى الأفارقة أنفسهم مضطرين إلى اعتبار السلطة التقديرية للزعيم أو تبجيله، أفضل تعبير عن احترام التراث؛ على حين شجب القادة المستبدون في الشرق

29. لا يتعلق ذلك بالدول المحافظة مثل المغرب. ففي تونس الحداثية، تم في بداية السبعينيات، تعريب لغة ومضامين التعليم الفلسفي على أمل تجفيف التربة التي تتربع عليها الحركات الماركسية وبعد نحو عشر سنوات حل الإسلاميون محلها في الجامعات.

الأقصى خيانة مؤيدى التحرر السياسى الذين تجرءوا على التشكيك فى شرعية القيم الآسيوية. لقد إستخدمت السلطات الشعوبية فى بلاد الجنوب المختلفة -فى الوقت نفسه الذى كانت تَشيدُ فيه بالتقاليد التى يعاد اختراعها- التكنولوجيات الديموقراطية كأدوات إضافية لإضفاء المشروعية على سلطاتها[30]، فاستخدمت الانتخابات بطريقة استخدام الاستفتاءات واستخدمت البرلمانات كأنها مكاتب سجلات تتسم بالوداعة تميزت المجالات السياسية التالية على المرحلة الاستعمارية تدريجيا بالفوضى المتزايدة بين الاستبداديات المحلية والطرق المستوردة لإضفاء الشرعية عليها. ما أخذ على أنه الحداثة استخدم فى تحويله إلى مجرد بُعْدٍ مادىٍ من جهة ومن جهة أخرى فى تأمين إستمرارية النظم التى كانت قد بدأت تتهالك.

تلك النظم كانت قد وعدت شعوبها على الأقل بحياة أفضل عوضا عن الحرية. إلا أن اقتصار التقدم المادى، فى العديد من البلاد على قلة صغيرة من المنتفعين أدى فى كثير من الأحيان إلى توسيع الفجوة بين الأقليات الثرية والأغلبيات التى لم تكتشف من الحداثة سوى آثارها المخلة بالاستقرار. أما فى الدول ذات السياسات الأبوية التى أوصلت طبقات أوسع إلى جنى الأرباح، فإن عدم كفاية تلك الأخيرة -بعد أن راحت تتكمش بسبب قوة الضغط السكانى واستنفاد أساليب الدخل المضمون-أدت إلى حدوث إحباطات خرجت مع مرور الزمن عن نطاق السيطرة. وبناء عليه لم يتعرف سكان دول الجنوب المختلفة فى المجالين الاجتماعى والسياسى سوى على صور كاريكاتورية للحداثة. كما أنهم لم يروا

30. فى بداية السبعينيات، لاحظ عبد الله العروى بالنسبة-للمغرب ما يلى: «ليس التراث هو الذى يعبر عن نفسه فى تلك السياسة، هذه السياسة هى التى تعيد تشكيل التراث [...] إذا كان هناك تراث ما لم يفعل النظام الحالى سوى الكشف عنه، فلم يكن بكل تأكيد هناك مجال لثلاثة تعابير مختلفة عن ذلك التراث [تعبير القرن التاسع عشر، التعبير الوطنى أثناء الحماية (الفرنسية) وتعبير اليوم]، كما يتعين فوق كل ذلك إختيار أكثر التعابير أمانة بالنسبة للتراث».
راجع:
(*La Crise des intellectuels arabes. Traditionalisme ou historicisme ?*, Maspero, Paris, 1974).

الغرب سوى من هذا المنظور المحمل أصلا بكل أحقاد فترة هيمنتــه والمغضـوب عليه بسبب كافة صور الحنين إلى هوية واضحة وهى الصـور التـى كـانت قـد ازدهرت فى ظل هيمنته.

· معظم أهل الصفوة الحداثيين من الدول المستقلة حديثا وافقوا، فى كثـير مـن الأحيان، خشية ألا يعتبروا وطنيين بدرجة كافية أو بسبب مزايدات خاصة بالهويـة، ورغبة فى الابتعاد عن غرب تسبب فى جرائم عديدة لاتسـمح بالاسـتلهام عنـه، ورغبة أيضا فى التقارب مع أعماق أوطانهم وقد شعروا أنهم متباعدون عنـها فـى مجالات عدة ، وافق إذن أهل الصفوة من بلاد الجنوب على الفصل بيـن الـتزاوج القائم بين الأدوات والمعنى، بل أن من بينهم، خرج أهـم المُنَظِّريـن لذلـك. فقـد حرموا على أنفسهم النقد الصريح للتراث أو العقيدة الخاصة بالهوية ولـم يتوقفـوا عن تقديم تساؤلاتهم للحكم عليها من حماة المعبد الآخرين، وهم بذلك قـد أضفـوا الشرعية على الفوارق التى أقيمت باسم نماذج تحتذى: وطنية أو دينية.

سار الوطنيون الحداثيون فى العالم العربى على الخطوات نفسها التـى سـار عليها المصلحون الدينيون، مقدمين« النهضة» على أنها استعادة للهوية جاعلين مـن الإسلام محورا لها. فإذا كان المصلحون قد جعلوا من الدين المعيار الـذى يتعيـن على كل شيء التقيد به، فقد رأى المثقفون الوطنيون فى ذلك أقوى الضمانات علـى تأكيد الذات، مادام أن الإسلام قد زود العالم بـ « إطار استمرارية تاريخية عمرهـا ثلاثة عشر قرنا، فى مواجهة محاولات الازدراء التى تـأتى مـن جـانب القـوى الامبريالية الغربية، وهى وساطة مقبولة بين مختلف قطاعات العالم العربـى الـذى تتبع لغته مباشرة من القرآن، وكذلك نوع من " الأيديولوجية الضمنية " فى مواجهـة الحضارة التقينة المعاصرة[31]». متخذاً إذن الإسلام تلـك القـاعدة التـى لا يمكـن

31. Anouar ABDELMALEK, *La Dialectique sociale*, Seuil, Paris, 1972.
من المصرى عبد الملك إلى المغربى عبد الله العروى والتونسى هشام جايت أو اللبنانى جورج قرم، قام العديد من المثقفين فى عصر ما بعد الإستعمار فى العالم العربى بتشريع الرجوع إلى الإسلام كقاعدة لهوية العروبة.

تخطيها، معياراً، قام جيل كامل بمواجهة تنويعات الحداثة المختلفة -من الماركسية إلى الليبرالية- يقيسون شرعية وجودهم محليا بمطابقتهم للمعايير القياسية التى تقدمها المرجعية الدينية وبعمليات منطقية مناظرة حظى عدد من القادة الدكتاتوريين -ومنهم أكثرهم مدعاة للسخرية وأكثرهم تعطشا للدماء عيدى أمين دادا- فى أفريقيا جنوب الصحراء، أو على الأقل فى السنوات الأولى من توليهم السلطة، بتسامح يشوبه الحرج من مثقفين أرادوا أن يروا فيهم مُحْيين حقيقيين للأصالة الأفريقية. بل أن محاربًا صلفًا مثل الأنجولى جوناس سافيمبى حظى هو أيضا بمساندة العديدين منهم. على أساس أنه يمثل النضال العادل للسكان الأصليين ضد السلطة « المهجنة» مختلطة الأجناس الحاكمة فى لواندا.

مازال العديد من مثقفى بلاد الجنوب المختلفة يشعرون بأنهم ملزمون بتقديم الدليل على احترامهم معيار الهوية -وهم يتعبدون فى محراب الاستبداد، وذلك كلما تعرضوا للشك فى أنهم يتخطون هذا المعيار - أى عندما يرجعون لمبادئ تؤخذ على أنها نابعة من حداثة أجنبية مثل الديموقراطية أو حقوق الإنسان. جميع من إنضموا إلى مبدأ معيار الهوية مضطرون لتجديد الشهادة بولائهم بعدد مرات دفاعهم عنه. ففى المحيط الإسلامى على سبيل المثال: هل ظهرت على المثقفين بوادر تعاطفٍ مع مبدأ فصل المجال الدينى عن الدنيا ؟ هنا يفترض فيهم إذن ارتكابهم لذنب العلمانية ويتعين عليهم على الفور أن يعلنوا أنهم مسلمون أكثر من غيرهم؛ البعض منهم يُذكِّر بأعراقه المُرَابِطِيَّة، حقيقية أو مفترضة، على حين يتذكر آخرون تدينهم الصافى فى فترة الصبا الذى لقنهم التمييز بين الخير والشر. فى عام 1994 خصصت مجلة *لونوفال اوبسرفاتور* ملفا لـ « مقاومة الأصولية» فى البلاد الإسلامية وسألت أثنى عشر مثقفا عن رأيهم فى التيار الإسلامى؛ فقبل أن يشنوا هجوما منظما على هذا الأخير بدأوا جميعا تقريبا بتقديم فروض الإجلال لإسلام« حقيقى» صعب العثور عليه، انتهكه التعصب بصورة مأساوية. فأشار

الكاتب المغربى طاهر بن جللون فى تلك الملف إلى أن « أفضل وسيلة لمحاربة هذا الانحراف هى دعم روح الإسلام، أى أسسه لا تأويلاته السطحية». المستشار القضائى المصرى السيد/ سعيد العشماوى عرف نفسه، فى مواجهة المتطرفين، بأنه« مسلم حقيقى»؛ أما السينمائية التونسية مفيدة طلاطلى فقد أوضحت: « أنا وزوجى مسلمان متمسكان للغاية بممارسة شعائرنا وتقاليدنا » على حين أصبر الروائى الجزائرى رشيد ميمونى على إعلام قارئه بأن« أبناءه جميعا يتربون طبقا للديانة المسلمة»[32].

فى عام 1999 قدم المغنى اللبنانى مارسيل خليفه للقضاء لأنه لحن جزء من سورة قرآنية؛ وسرعان ما هبّ عدد من المثقفين للدفاع عنه وهم بالطبع يشجبون «كافة صور المساس بحقوق الإنسان» ولكن بعد أن عبروا عن « دهشتهم للاتهامات الموجهة لمارسيل خليفة المعروف بوطنيته وحسه الديموقراطى ومواقفه فى الدفاع عن قضايا العرب الكبرى[33]» ... كل شيء يحدث كما لو أن ما أثار الفضيحة ليس موضوع الاتهام ولكن هو اتهام إنسان وطنى لا غبار على وطنيته.

ليس المعيار ذاته هو الذى يُطرح للمناقشة أبدًا، وإنما -وذلك فى أفضل الأحوال- صحة تأويلاته. يتعين ألا يجرى أى بحث عن الحداثة والمرء فى حالة انفصال عنها. يمكن إذن إدراك كيف أن هذا الفرض الملزم قد حدّ جدا من نطاق هذا المعيار مرجعا إياه إلى أشكال ممسوخة ترتبت عليها الآثار المعروفة.

بعضهم اعتقد أن بالإمكان الخروج من مأزق المعنى بفصل الحداثة عن مهدها الغربى وبأن يبحث عن تجارب أخرى يمكن استلهامها. وجّه العديد من

32. لانوفال أوبسرفاتور، 8-14 ديسمبر 1994. فى هذا الملف لم ير المصريان اللذان يكتبان باسم القلم: محمود حسين (عادل رفعت وبهجت النادى) والتونسية خديجة شريف والفرنسى من اصول مغربية عادل حزولى؛ داعيا لتقدم إسلاميتهم أو الرجوع إلى إسلام «حقيقى» لكى يسمحوا لأنفسهم بانتقاد الإنحرافات المتطرفة.

33. منشور قام بتوزيعه «المنتدى الثقافى اللبنانى» عند محاكمة خليفة.

مثقفي بلاد الجنوب المختلفة أنظارهم شطر اليابان التى أُخِذَت لفترة طويلــة مثــلاً يُحتَذى؛ فقد لحقت تلك المملكة الشرقية العريقة، فى ما لا يتعــدى بضعــة عقــود، بأكثر الحضارات تقدما على الأرض دون أن تفقد هويتها؛ وبما أنها أصبحت قــوة عظمى عصرية، صناعية وديموقراطية (تقريبا)، دون أن تتنكــر لأى شــيء مــن ذاتها، فهى تبين الطريق الذى يتعين السير فيــه. « اللحــاق بــالغرب دون فقــدان الذات»: ذلك البرنامج الذى رددته لبعضها كافة بــلاد الجنــوب، يعطــى المعيــار المزدوج لقوة النموذج المسيطر وللرغبة فى الابتعاد عن التعلق بتأثيره. ولم يتوقــف البندول عن التأرجح بين الانبهار والاشمئزاز من هذا الوســط المفــروض دون أن يتوقف أبدًا عند أحد الطرفين.

الفصل الذى تأسس على يد التشكيلات الوطنية بين التحديث والحداثة، نجــح، على العموم، فى أن يضمن لنفسه اســتمرارية مثــيرة للإعجــاب بمــا أن معظــم الحركات الرجعية التى ظهرت فى الجنوب عبر العقود الأخيرة أرادت الاســتمرار فيه. نأخذ من الغرب« آلاته الحديثة العظيمة» ونلفظ « فسوقه وانحلاله» ، هذا هــو البرنامج الذى أعده الزعيم الإسلامى التونسى راشد غانوشى الذى يرفض كل شــيء تقريبا يأتى من الغرب ماعدا التقنيات التى ابتدعها؛ أما عن الباقى فهو لــم يــترك لديه سوى « انطباعات سلبية فى مجملها. [...] ما كنت أراه فى ملاهى الليل كــان يصدمنى للغاية. [...] لم أكن متدينًا، إلا أن رؤية هذا الجنس المستعر كانت تثــير خجلى؛ لا شيء يوقفه عند حد ولم يكن هناك أى حياء! ». وهو يرى أن هذا الخلــل يجد تفسيره فى « المكان الذى تحتله فى النفوس كل من القيم الأخلاقيــة والغرائــز الطبيعية؛ فى الغرب الغرائز هى التى تميل إلى التحكم على حساب الأخلاق. علــى حين أن الأخلاق فى المجتمع الإسلامى هى التى تعود وتنظم وتربى الغرائــز[34]».

34. مقابلة صحفية مع راشد غنوشي في مجلة جون أفريك بلوس، العدد رقم 4، يناير-فبراير 1990.

هذه الرؤيا المرعبة[35] التي تتردد باستمرار في دعايات الحركات الإسلامية لا تختص بها وحدها؛ بل هي تشكل إحدى أشكال الأحاديث الرجعية إلتي سعت للرد بلهجة مماثلة على الازدراء الغربي؛ لقد بنى العديد منها مركزيتهم/ الأوروبية المعكوسة على موضوع الانحلال الغربي والتي تُذَكرنا مشاهد وصفها المنفرة بتلك التي كانت تشجب في زمن مضى همجية الشعوب البدائية. تلك الشعوب هي التي كان يقال عنها حينذاك بأن الغرائز هي التي تتحكم فيها. التناقض القديم بين الطبيعة والثقافة التي كان يستخدمها الغرب كحدود للحضارة، يستخدمها آخرون الآن لإعادته إلى المجالات التي ظل يلقي بهم فيها لفترات طويلة.

هل تعتبر تلك الأعراض الرجعية، التي يعبر ما هو حديث عن نفسه فيها بطريقة متناقضة، إشارات عن رغبة في الحداثة مكبوتة، يعتقد العديد من الباحثين أن بداخلها -ضمن أمور أخرى- مفتاح الألغاز الإسلامية ؟ الدراسة التحليلية للممارسات الإجتماعية السائدة في مجتمعات (أو مجتمعات مضادة) يتحكم فيها خطاب توقير وتبجيل التقاليد أو المشاريع السياسية التي تطالب بالعودة إليها، تؤدي إلى الاعتقاد بصحة ذلك: الموافقة غير المشروطة للنساء -في العالم العربي والبلاد الآسيوية- لوسائل منع الحمل في البلاد التي يتاح الحصول عليها فيها[36]، والطلب الواسع على التعليم، بما في ذلك تعليم البنات، وسط البرجوازيات الصغيرة داخل

35. لدى إنعقاد المؤتمر الدولي في فيينا لحقوق الإنسان في يونيو 1993، أعرب رئيس الوفد الإيراني علنا عن أسفه «لتزايد العنف والجريمة في المجتمعات الصناعية المتقدمة [...] والدعارة وعلى وجه الخصوص دعارة الأطفال، والإباحية في الفن [...] والسرقية والأمراض الإجتماعية الأخرى السائدة بشكل قوي داخل هذه المجتمعات». (خطاب السيد/ أ. ظريف، نائب وزير الخارجية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، 18 يونيو 1993).

36. يمكن التمييز بين المجتمعات المحافظة من تلك التي تعمل فيها التيارات الرجعية-علما بأتفاق الاثنين في العديد من النقاط- بشدة الطلب الإجتماعي على الحداثة. فبالنسبة للأولى يبقى التعليم، وخاصة تعليم البنات، ومنع الحمل نوعًا من الممارسات الضعيفة أو الهامشية. وبنفس الأسلوب حين لم يعد تعدد الزوجات سوى عملية أيديولوجية في العالم العربي حيث أصبح هامشيا على الرغم من أن مؤيديه يرفضون إلغاءه خشية تهديد البنيان المعياري القائم على المرجعية الدينية، فهو يظل شائعا في أغلب المناطق الأفريقية جنوب الصحراء. ففي تلك المنطقة من العالم حيث سادت المجتمعات الريفية حتى زمن قريب للغاية وحيث إعتبر أي شيء قادم من الخارج مرادفا للكارثة، لايزال التيار الإجتماعي المحافظ يعتبر كإستراتيجية للحماية والدفاع.

المدن التى خرجت لتوها من وضعها الريفى، والحلول الوسط التجديدية التى يمكن التوصل إليها بين الأساليب التقليدية لتنظيم الأسرة والأسرة الزواجية، كل ذلك يمثل دون أدنى شك المسيرة نحو الحداثة. وإذا كانت صيغها والمضامين التى أعطيت لها مازالت مشكوكًا فيها لدرجة لا تسمح باعتمادها بشكل واضح، فهى على الرغم من ذلك تفرض تطورات حاكمة تتخذ مع الوقت أبعادا محلية.

عن الاستخدام السليم للتقاليد

قد يكون من التبسيط المخل أن نقرأ مقاومات مختلف بلاد الجنوب لتطوراتها الذاتية على ضوء نظريات ردود الفعل وحدها وهى النظريات التى استهدفت الرد على خطاب الهيمنة الغربى. تخصيصات الهوية وإعادة إبتداع التقاليد تمثل أيضا وسائل لا مثيل لها من وسائل السلطة، وضعت ليس فقط فى أيدى الطبقات الحاكمة التى تبقى نفسها على رأس النظم الاستبدادية، وإنما فى أيضا متناول فئات أوسع بكثير من ذلك، قد تخسر كل شيء لو انفجرت الأطر المعيارية المتمثلة في بنيان سيطرتها على المجتمع.

تجد تلك المجموعات، التى تتراوح أحجامها حسب كل منطقة، فى " أبلسة " الحداثة شرطا لإستمرار تسلطها بعد أن تكون قد أقصت من التعليم المتاح لشعوبها النقد القادر على إمداد كوادرها بسبل النقاش ومرجعياته، وبعد أن تكون قد حددت المسئولية الوحيدة عن سوء التطور الذي ينخر في جسد بلادها، في التفوق الغربى وعدم عدالة العلاقات العالمية، وبعد أن تكون قد مارست (وهى لا تزال تمارس) تسلطها الاجتماعى أو الدينى على شعوبها. يتعين أن تظل الحداثةُ مدركةً على أنها أجنبية وأن أعظم الأخطار هو أن تصبح محلية فيخسر الخطاب السائد إحدى حججه الجوهرية. لاشك أن الحداثة السياسية هى أحد الأهداف التى تعمل

الإستراتيجيات الحمائية تلك على النيل منها. ولكن ليس ذلك فقط: إن بعدها الاجتماعى يُدرك عن حق على أنه أكثر التهديدات التى تلوح اليوم فى الأفق خطورةً على هذه النظم القائمة. فى المعركة التى تشنها هذه الأخيرة، يُرفع سلاح الخصوصية باستمرار فى مواجهة خطر الذوبان فى الغرب وهو الخطر المتضمن فى الخطاب الكلى الكونى. إلا أنه يتعين فى الوقت ذاته العمل طبقا للقوانين التى تُسيِّر اليوم العلاقات الدولية، ولا يمكن -إن أرادوا أن يُسمِعوا أصواتهم- الانسحابُ منها ولا انتقادها، بل إنه من الأفضل اعتماد لغتها وصب مقاومتها فى القوالب التى ترسمها لكى يتم الضغط على محتواها.

عندما استدعيت خصوصية المعيار الدينى لنجدة التيار المحافظ الاجتماعى السياسى وهو الذى لايزال يسود فى معظم أنحاء العالم العربى الإسلامى، حاولت هذه الخصوصية، أن تدخل فى كوادر جديدة فى هذا الإطار. وهكذا اعتمدت منظمة المؤتمر الإسلامى، الذى يضم الجزء الأكبر من الدول ذات الأغلبية المسلمة فى عام 1990 «إعلانا عن حقوق الإنسان فى الإسلام» وهو على الرغم من استخدامه لمفردات هذه الحقوق، يبدو كما لو أنه نفىٌ كامل لها. يعلن الموقعون على الإعلان -أى جميع الدول العربية، بما فى ذلك تلك التى يصر الغرب على وضعها فى صف العلمانيين- أنهم « مقتنعون أن الحقوق الأساسية والحريات العامة فى الإسلام تشكل جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، وأنه ليس من حق أحد مبدئيًا أن يعترض عليها [...] أو أن يخرقها أو أن يتجاهلها». يلى ذلك على الفور إعلان المبادئ هذا، وهو الجدير بكل ثناء، سلسلة من البنود التى تشرّع، ضمن ما تشرع، عقوبة الموت وعدم تكافؤ الجنسين وكل ذلك ينبع من أكثر التفسيرات المحافظة *للشريعة*، المشار إليها بوضوح على أنها « المصدر الوحيد لتفسير أو تأويل أى من

البنود الواردة فى هذا الإعلان»[37]. مطلوب إذن من العالم الإسلامى أن يجد نفسه فقط فيما تنص الشريعة عليه. ولما كان من المفروض أنه يجسد خصوصية ذلك العالم فيتعين عليه أن يستخدم ككليّ بديلٍ للذى يعيشون فى ظل قوانينه.

للخصوصية السيادة الكاملة أيضا عندما تستخدم لتبرير أى معارضة لأى تطور حقيقى يطرأ على الأدوار التقليدية المنوطة بأى من الجنسين. ففى العديد من البلاد يعمل تحالفُ أطرافٍ متباينة من أوساط محافظ سواء قرويين يناهضون بشدة أى مساس بالتقسيم التقليدى للعمل أو سكان جدد للمدن ظلوا على تمسكهم بذلك أيضا، بالإضافة إلى أغلب أهل الصفوة الحديثة غير المهتمين بالأمر وإلى القادة الذين أصبح وضعهم هشّا [38]، عمل على إعطاء إحترام تلك القيم التقليدية الأولوية على أى محاولة لإعادة طرح عدم المساواة بين الجنسين للمناقشة. ولما كانت مقومات السلطة المطروحة هنا تعتبر جوهرية، فإن كل الترسانة الخاصة بتحديد الهوية تستدعى فى هذه الحالة لوضع حد للتطلعات النسائية فى إحداث تغيير لأوضاعهن. وعبر كافة المنابر من برلمانات وطنية إلى مؤتمرات دولية، يثار موضوعٍ خطر تحلل روح الشعوب ذاتها ما أن يطرح موضوع وضع المرأة

---

37. بند رقم 25 من إعلان حقوق الإنسان فى الإسلام (منظمة المؤتمر الإسلامى، ملحق بالقرار رقم 49/ P19، 5 أغسطس 1990).

38. يمكن التمييز بين ثلاث فئات من الدول: بعضهم، وهو نادر بعض الشيء، حاول تحريك مجتمعاتهم، من تونس البورقيبية إلى الصين الشيوعية فى العقود الأولى: البعض الآخر وهو الأكثر عددا بكثير، ظلوا جامدين فى تحفظهم حيث لا شيء يبدو ممكنا لإخراجهم من وضعهم المحافظ هذا؛ ثم يوجد مستنقع هام موزع فى النهاية بين عدة مواقف؛ تتفق جميعا فى شيء واحد هو الجبن: بعضهم حرم بشكل رسمى الممارسات التقليدية للعادات الأكثر إثارة للخزى مثل المهر فى الهند وختان الإناث فى بعض البلاد الأفريقية، متحاشين فى نفس الوقت إتخاذ الإجراءات التى تضمن إحترام القوانين وغاضين الأنظار عن خدقها؛ البعض الآخر يعترف بعدم التجرؤ على مواجهة حراس التقاليد والعادات بشكل مباشر ويعلنون أنهم يراهنون على تطور سيحدث للعادات حتى تختفى هذه الممارسات ببطء.

للنقاش[39]. وإذ جعل الخطاب السائد فى تلك البلاد من نضـال المـرأة مـن أجـل المساواة رجسًا من عمل الشيطان، يعرض على أنـه أيديولوجيـة غربيـة بحتـة، مناهضة للرجل ومحملة بأخطر الأمراض الاجتماعية، فقد نجح فى ذات الوقت فـى إشعار المرأة فى بلاد الجنوب بالذنب إن هى إهتمت بحجج العمل من أجل المسـاواة بين الجنسين. وفى جميع القارات -فيما عدا البلاد التى دخلت فى "التغريـب" منـذ فترة طويلة فى القمع الجنوبى من أمريكا اللاتينية- اكتشفت النساء اللاتى اخـترن النضال من أجل التحرر أنهن مضطرات لإنكار أى صلة بهذا السم المستورد قبـل أن تعبرن عن مطالبهن؛ وأصبح نقد أساليب وأهداف نضال المرأة الغربية فى كافـة الأنحاء عمليًا، المقدمة الضرورية قبل إثارة هذا الموضوع[40]. فى هذه القضية وفـى غيرها أيضا يستخدم شبح« التلوث» -وهو تعبير شائع الاستخدام- بواسطة القيـم الغربية فى وسم مطالبَ محليةٍ صرف بالعار.

طبقا لمنطق الدفاع عن الهوية، يساوى الحفاظ على الكيان إذن رفض وجـود كليات كونية تستطيع التسامى على خصوصيات كل ثقافة، وهى تتلخص فقط فـى كونها التعبير الخاص عن الحضارة الغربية؛ وهى تحاول -عبر إساءة اسـتخدامها لموقعها المهيمن- الإيهام بأن القيم الخاصة بثقافتها وحدها تعتـبر مجموعـة مـن المبادئ صالحة للتطبيق دون تفرقة وفى كل مكان. والواقع أن الغرب مسئول لحـد

39. تبين دراسة تحفظات العديد من البلاد الموقعة على الإتفاقية الدولية حول إلغاء كافة صور التفرقة نحـو النسـاء وعلى قرارات مؤتمر بكين فى عام 1995 أنها تثير، فى أغلبيتها العظمى، حجة الهوية لرفض الإقرار ببعـض الترتيبـات الواردة فى النصين. فى نهاية عام 1999، إدعى النواب الكويتيون وجود خطر تحلل المجتمع ليبرروا رفضهم منح النساء حق التصويت.

40. قد يكون من السذاجة الإعتقاد بأنه فى إمكان المرأة النسائية الهروب من سطوة الصراع بين الشمال والجنـوب. فنضال العديد من نساء الغرب من أجل حقوق المرأة لم يمنع العديد منهن من أن يكن ناقلات نشيطات لثقافة المهيمنـة عارضات أنفسـهن كنماذج لجميع نساء الأرض ورافضات أن يتصورن وجود طرق أخرى غير طريقتهن لتعديل العلاقات بين الجنسين. وعلى العكس من ذلك فإن رغبة العديد من نساء الجنوب بالتصارع ضد البعد الأبوى لمجتمعهن لا يخرجهن من نطاق تأثير الخطب ذات الطابع الوطنى والمدافع عن الهوية.

كبير عن هذه الأخطاء التسطيحية، بما أنه لم يتوقف -عبر القرون الأخيرة، عن استخدام الكلىّ طبقاً لإقتناعه ومصالحه. إلا أن آخرين يستخدمون اليوم النظريات المتعلقة بالثقافة سلاحًا فى رفضهم الانصياع للقواعد النابعة من المبادئ التى يتهمون الأقوياء بأنهم يريدون فرضها على الجميع. بما أن الصفات الخاصة بالحداثة السياسية وبالحريات الفردية وحتى بالنظام الديموقراطى لا تعدو أن تكون سمات خاصةً بثقافة ما، فيمكن إذن مواجهتها بخصوصيات أخرى نابعة من ثقافات أخرى.

لقد انبنى على هذه الحجة التيار الآسيوى الذى هو عملية تفنيد مُنَظَّمَة للمبادئ المسماة كلية باسم قيم خاصة بالعبقرية الآسيوية وهى التى لا تحتاج إطلاقا لاستعارة طرق تنظيمها السياسى والاجتماعى من أحد. لقى التيار الآسيوى الذى رفع من شعبيته أول زعماء سنغافورة، لى كوان يو، الذى واجه الفردية الماجنة الغربية بالتقاليد الكونفشيوسية المبنية على النظام وعلى الأسرة، لقى نجاحا باهرا لدى زملائه فى الشرق الأقصى. بعد أن لقى الكلىّ الشيوعى حتفه، أسرعت النظم الاشتراكية بالانضمام إلى هذا التيار، واجدةً فيه إيديولوجية بديلة يمكن إعادة الشرعية إلى سيطرتها المطلقة التى لا تزال تمارسها على مجتمعاتها. من ماليزيا إلى الصين أسست معظم الدول فى المنطقة نهجها الخاص على هذا الفكر الوطنى الاستبدادى الجديد لتحمى نفسها من عدوى الديموقراطية التى كادت تطولها[41].

---

41. الرجل القوى فى المجموعة الحاكمة فى بورما الجنرال خين نيونت، أخذ حجته من هذه الحاجة فى محاولته الإساءة لسمعة المعارضة الديموقراطية للسيدة أونج سان سوو كىّ: «إنها لم تربَّ فى ظروف طبيعية، تتفق مع مبادئنا الدينية وعاداتنا وتقاليدنا [...] عاشت أونج سان سوو كىّ معظم حياتها فى الخارج [...] تزوجت من رجل إنجليزى [...] وتباعدت أكثر عن وطنها [...] لو كانت عادت للعمل هنا وتزوجت من مواطن من ميانمار، لكان فى إمكانها أن تصبح زعيمة وطنية» (مقابلة صحفية أجرتها مجلة *السياسة الدولية* (*Politique Internationale*) عدد رقم 76، صيف 1997).

الواقع أن التيار الآسيوى -مثل كافة الأساليب الرجعية- ينتشر فى أبعاد متعددة. إذا كان من المتعين قراءته على أنه إستراتيجية دفاعية فى مواجهة «خطر» تعميم النظام كليا، فهو يَعتَبِر نفسه أيضا ردا على حق الامتياز الذى منحه الغرب لنفسه فى إعداد الكلى الكونى، ويقدم نفسه أيضا على أنه محاولة للبحث عن حداثة جديدة تأخذ مصادرها من الجذور الداخلية الخاصة بحضارات الشرق الأقصى. ولكن إذا كان التفكير فى تخطى الحداثة الغربية -وعلى وجه الخصوص فى اليابان- يقدم على« أنه إثراء للرسالة الحضارية للغرب[42]» دون أن تناقش كلية مبادئه، فإن النظم الاستبدادية فى المنطقة، وهى التى تلجأ إلى أكثر الأساليب إثارة للتساؤلات، جعلت من الدور الذى يؤديه التيار الآسيوى مجرد درع. ولما كانت تلك النظم تتلقى الهجمات بوجه خاص حول موضوع حقوق الإنسان، فقد قابلت ذلك باستمرار، عبر التسعينيات كلها، باولوية الجماعة على الفرد وفوائد الفاعلية الجماعية على فاعلية الحرية الفردية، ممتدحة الفضائل التنظيمية للأبوية الاستبدادية فى مواجهة عمليات حثها على أن تكون أكثر ديموقراطية.

إلا أن هذا التيار الآسيوى الدفاعى الذى حَيدته وقيدَتــه الجوانب السياسية والذى يقع فى الطرف الأبعد من بعض المحاولات التى استهدفت توسيع نطاق الكلىّ بانتزاع جذوره الغربية، هذا التيار قابل أهم معارضيه فى آسيا ذاتها، وجاء أعنف هجوم عليه من قطاع من الإنتليجنسيات فى الدول التى أنتجت النظرية. منظمات الدفاع عن الحقوق الإنسانية والمنظمات السياسية المنشقة، وهى لم تكن على استعداد للوقوع فى فخ الالتزام بالهوية، رفضت جميعها، باسم الكلّية الالتزام بالخصوصية الذى يتضمنه الالتزام بالهوية. فمنذ عام 1993 وعلى هامش المؤتمر الدولى للحقوق الإنسانية فى فيينا، عبأت الجمعيات القادمة من الشرق الأقصى جهودها فى مواجهة المحاجة الآسيوية بعد أن اعتبرتها آلة حرب جديدة فى يد

42. Philippe PONS, «Japon, vers un nouvel asiatisme», *Le Monde*, 3 décembre 1994.

السلطات الحاكمة. واجتمع أهم الفاعلين فيها في عام 1998 في جنيف للاحتجاج معا ضد «ما يسمى بالقيم الآسيوية التي تعتبر إهانة للآسيويين[43]». «التعذيب سيظل دائما هو التعذيب، أينما مورس» على حد قول مدير مركز التيبت لحقوق الإنسان والديموقراطية؛ على حين أوضح الزعيم التيموري جوزيه راموس هورتا:« ما يسمى قيمًا آسيويةً ليس سوى شعار ديماجوجي أطلقه بعد القادة المستبدين لتحييد مسار النقاش حول حقوق الإنسان» وأشار بالتحديد «للمسبحين بسمو القيم الآسيوية مثل رئيس وزراء ماليزيا أو المسئولين في سنغفورة وبكين». وينضم إليهم كافة المشتركين قائلين إن وجدت مثل تلك القيم فمن الأفضل البحث عنها في رسالة التسامح الموجودة في البوذية.

إذا كانت الأصوات قد إرتفعت في الغرب لانتقاد الثقافة المستخدمة آلة في يد التيار الآسيوي فإن الجدل حولها كان في الأصل نقاشا آسيويا. الواقعة جوهرية وتتخطى بكثير أبعاد الشرق الأقصى. في كافة أنحاء مناطق الجنوب المتناثرة، تقوم أقليات (ليست جميعها كميات مهملة) بمجهوداتها لإبعاد المبادئ الموجودة في الحداثة عند الشواطئ التي ربطها فيها الغرب، لكي تتملكها هي. إذ أرادت الإسراع برفع اللبس الذي يكتنفها، قامت في ظرف سنين قليلة بإعادة النقاش الدائر حول الكليّ إلى أوطانها لتجعل منه أحد الموضوعات الهامة المطروحة على مجتمعاتها ذاتها بدلا من إيجازه في مجرد أحد المتغيرات في مواجهات الشمال والجنوب. بدأ جيل مثقف جديد يفتح عصر ما بعد الوطنية إذ أنه يرفض الاستبدادية الهويتية التي يراد له أن يُحبس فيها، ويرفض أن يكتفي بجعل علاقاته مع الغرب تنحصر فقط في تشنجات ردود أفعال أسلافه.

---

43. ندوة حول «حقوق الإنسان والقيم الآسيوية» نظمتها الفيدرالية الدولية لجمعيات حقوق الإنسان في جنيف في 14 إبريل 1998. (النصوص مأخوذة من المستند التجميعي للفيدرالية وعرض صحيفة *لوموند* عنه في 16 إبريل 1998).

لا يعنى هذا قط أن المعيار التراثى أو ما يقوم مقامه، أى ملاجئ الهوية أو انفجارات ردود الأفعال، يعتبر من مظاهر الجنوب التى أصبح من المناسب إيجاد متاحف توضع فيها؛ بل إنها مازالت تمثل الأغلبية وتتحكم فى التغيرات الارتدادية التى طالت مناطق شاسعة من العالم، من الصراعات الدينية إلى الحروب بين الجاليات حيث أحدثت العودة إلى الهمجية الكوارث التى نعرفها. لازالت قبضتها تزداد صلابة خاصة وأن هذه الخطب واللغة المستخدمة تتفاعل، فى العديد من الحالات، مع قلق رجل الشارع والطبقات الوسطى التى صدمتها سرعة التحولات التى يتعين عليها التأثر بها أكثر من استطاعتها إثارتها. ولكن فيما بين الحقد الغامض الذى لايزال السادة القدامى يثيرونه والخوف من أن تفوقهم يستمر ويدوم، والرفض من أن يعينوا لأنفسهم هدفا واحدا هو أن يصبحوا أشباها له، والوعى بأن هويات الدفاع تفتح آفاقا أخرى، هى على أقل تقدير محدودة جدا، فقد تكون ساعة عمل الدراسات التجميعية (أو الانقطاعية ؟) قد أزفت.

نحو حداثات جديدة ؟

هدفنا ليس أن ننقل عن الغرب وإنما هو الإستحواذ على هذا المكتسب العالمى الذى هو الديموقراطية. يبدو أن الهدف الذى حدده فى خطوطه العامة المصلح الإيرانى كاظم قردوانى[44] يستخدم الآن برنامج مشتركا لجزء من قطاعات الصفوة فى بلاد الجنوب، وهذا الموضوع لا يتعلق فقط بمسألة تواصل الأجيال. لأن الجيل الذى ولد مع حروب التحرير -وهو الذى شاخ مع القرن وبدأ تدريجيا يسلم الشعلة مع بزوغ فجر القرن الذى بدأ-، هذا الجيل ضالع هو أيضا فى تساؤلات اليوم. جيل الأوهام التى تبددت والذى رأى جميع أبطاله المحبوبين

44. *Courrier international*, n° 497, 11-17 mai 2000.

يتهاوون وكل أحلامه تتقشع كسحاب لا يمطر أصبح منذ بضـــع ســنوات مُصَفّيًــا لتركة إفلاس اليوتوبيات الاشتراكية والمشروعات الوطنية التى كان قد وضع فيــها ثقته. يخرج من بين صفوف ذلك الجيل أصحاب عمليات طرح العقــائد المتحجــرة للمناقشة من جديد وهى العقائد التى ظلت متجمدة لعشرات الســنين، كمــا يخــرج المنتقدون أيضا من صفوف جيل الشباب الذى يصـــر علــى تصفيــة الحســابات ومُراجعتها.

من اسيا إلى أفريقيا لم تعد المواقف الردود فعلية وإعلانات التمســك بالهويــة تحتل ساحة الفكر وحدها؛ فلكى تخرج من نطاق قبضتها التى بررت العديـــد مــن الانحرافات وغدت العديد من الصراعات، تعمل أوساط جديدة من المفكرين علـــى أن تشارك فى التعبير عن الكلىّ بفصله عن الجغرافيا. والأسئلة المطروحـــة هـــى: كيف يُعْتَرَف للغرب بمشاركته الحاسمة في تشكيل الكلىّ الحديث وجعله فى نفـــس الوقت ملكية خاصة ؟ إذا كان من المناسب التشكيك فى حق اللذين يودون التمســك بمراكزهم والاحتفاظ بها، فما هى الطريقة التى تكتشف بواسطتها أســاليب إضفــاء الشرعية على المبادئ التى يعلنون عنها وذلك لتثبيتها فى الضمير الجماعى ؟ كيــف يمكن اعادة غزل ونسج خيوط التاريخ دون الوقوع فى شرك تأويلات ردود الفعــل التى تخنق كل فكر مستقل ؟ كيف الهروب من ديكتاتورية الأسلاف الذين يبـــدون فى هذه الأزمنة غير الآمنة وقد « ضاعفوا من ضراوتهم[45] »، دون أن نتحول إلـــى آخر، ذلك الذى لا يزال جاعلا من نفسه النموذج الذى يحتذى ومعتبرا أنه نوعٌ مـــن كمال التطور الإنسانى ؟

طرح مثل تلك الأسئلة لم يعد من المحرمات وهى تشكل هياكل التفكير الجديــد التى بدأ يرى النور فى الجنوب لاشك أنها تتنوع طبقا للإطار الذى تطـــرح فيــه.

45 انه يراود منذ مدة طويلة لان مسرحية كاتب ياسين *الأجداد يضاعفون من ضراوتهم* تعود إلى عـام 1959 (Seuil Paris)

يطالب العديد من المثقفين العرب -الذين يقاومون تحديد وضعهم داخل الخصوصية التى هى العلامة المميزة لأيديولوجياتهم السائدة- بحفظ مكان لهم داخل الكلى ويودون أن يكونوا ضمن مهندسى تشييد بناياته الجديدة. وفى المقابل تثور أجيال جديدة من مثقفى أفريقيا السوداء، أول ما تثور ضد انغلاقات التراث أو ما يقوم مقامه.

طالت هذه التساؤلات الحقل السياسى أيضا، بل إن بداية طرح العديد منها انطلقت من مجاله. صفحة مرحلة ما بعد الاستعمار التى طويت اليوم كانت صفحة الشمولية والاستبدادية بالنسبة لجزء كبير من قارات الجنوب. عاثت الدكتاتوريات فسادا فى كل مكان برعاية من « العالم الحر » أو من الاشتراكية، تسد الطريق أمام أى تطور نحو صور محلية من الحداثة السياسية. اعتقدت التفسيرات الشمولية المتنافسة، باستنادها إلى تقديس الماضى وبتنويع أحاديثها حول موضوع الأصالة، أن بإمكانها أن تشمل بديلا للإخفاقات المتتالية لعمليات التحديث الاستبدادية، وهى ترفع عنها نير التفوق الغربى. ولكن وعود التحرر تبدو اليوم، فى بلاد الجنوب المتعددة التى أنهكتها سنوات لا تنتهى من الضغوط، أكثر استمالة من النظم المستهلكة ومن القائمين عليها ومن رسلها. انتهى الأمر بتلك الدكتاتوريات وباستبدادها وبوحشية وسائلها التى اتسمت لسنوات طويلة بالتصفية المنظمة لكل من كانت تثار حوله شكوك المناهضة لها، إلى أنها أدخلت الملل إلى النفوس؛ وتدريجيا إتخذ النضال من أجل المحافظة على الكيان الجسدى للأفراد ومن أجل الدفاع عن الحقوق الأساسية مكان الأولوية، وهى المكانة التى كان يحتلها تحقيق يوتوبيات زائفة اتخذت شكل الكوابيس المفزعة والتى انتهى الأمر بها إلى أن أحدا لم يعد حتى يدعى أنه يؤمن بها.

فى جميع القارات، راحت حركات الدفاع عن الحقوق الإنسانية تطرح التساؤلات حول أولوية تلك الحقوق، وشيئا فشيئا أخذ التفكير يسود بأن أيا من

المبررات التى كانت تساق عبر عقود من زمـــن الرعـــب كـــان يكفـــى لإضفـــاء المشروعية على انتهاك تلك الحقوق، فى كل مكان راحت تلـــك الجمعيـــات تلفـــظ «استغلال الخصوصيات الثقافية والدينية للمساس بالسمة الكلية لحقـــوق الإنســـان» وراحت تنادى بـــ« اعتبار الآليات الدولية لحماية حقوق الإنسان أدنى مطلب وهـــو غير قابل للرفض باسم النوعيات والخصوصيات»[46]. كانت نهاية الحرب البـــاردة، بجعلها الكليات المنافسة التى تشكلت فى أحضان الاشتراكية تسلم الروح، قد ســـهلت من عودة ذلك الكلىّ إلى الصدارة على مسرح الأحداث؛ ومن بعـــده بـــدأت فكـــرة الديموقراطية فى الجنوب تعنى شيئا. بصرف النظر عـــن الصـــور الكاريكاتوريـــة العديدة للغاية التى تستهدف إرضاء المتطلبات الغربية الجديدة، بدأت تظهر صـــور من الحلول الوسط السياسية عن طريق التفاوض فى التسعينيات، من تـــايوان إلـــى كوريا الجنوبية أو السنغال، وتترجم على أرض الواقع بتبادل سلمى للســـلطة، ممـــا زود هيكل قواعد الديموقراطية بسُمْكِ الواقع ولم تعـــد تـــدرك علـــى أنـــها مـــن المستوردات الغربية بعد أن اتخذت لها جذورا محلية.

ولما كان هذا النوع من التساؤلات قد ظهر بعد عمليات نضج بطيئة فهو لـــم يختص بالجانب السياسى فقط. فبعد وضع كشفٍ جارد للعوامل الداخليـــة الخاضـــة التى قد ضمنت كل هذا العمر الطويل لنظم باتت مرفوضة، أخذ عدد من المثقفيـــن يوسّع مجال استكشافاته إلى كافة المجالات. بعضهم اســـتخدم بـــدوره الـــتراث، لا يبحث فيه عما يبرر انحرافات استبدادية وإنما ليستخرج منه حججا تضفى الشـــرعية على طموحاتهم الجديدة. فى أفريقيا وعلى المرتفعات الأنديزية أيضا، لم يعـــد مـــا ورثه الأجداد يوظف فى عبادة الرئيس ولكنه أخذ يبين ما كان موجودا فى النظـــام

---

46. إعلان الدار البيضاء الذى إتخذه المؤتمر الدولى الأول للحركة العربية لحقوق الإنسان، الدار البيضـــاء، 23-25 ابريل 1999.

القديم للقرى من طرق مؤدية لبدايات ديموقراطية تسمح لبشر اليوم أن يأخذوا عنها -دون أن يخونوها- وسائل تشييد حداثات جديدة.

في العالم العربي، إلى جوار حركات قليلة تعلن بوضوح عن علمانيتها، يحاول تيار فكري منذ عدة سنوات مصالحة الإسلام مع القرن، كما لو أنه يعيد الاعتراف من جديد بالضرورة الملحة لتحديثه، بعد أن كانت المحاولات التي جرت لعدة عقود تستهدف« أسلمة الحداثة». الإعادات المتباينة المذاهب لقراءة النصوص المقدسة أخذت تتضاعف على الرغم من أن أصحابها يعلمون جيدا أنهم يعرضون أنفسهم لصواعق الأوساط المحافظة وصواعق من أهم أخطر أي الأمراء المتطرفين. يواصل المصري نصر حامد أبو زيد في أوروبا، بعد *الفتوى* التي أصدرها ضده رجال الدين في بلده، أبحاثه غير التقليدية عن تاريخية النص القرآني. بعض الآخرين الذين سبقوه أو الذين ساروا على نهجه يريدون أيضا العمل على إعادة الإسلام إلى التاريخ. منذ منتصف التسعينات تجمع مجلة *Prologues* (*مقدمات*) في مشروع لـ « تجديد الفكر العربي-الإسلامي المعاصر» بعض المثقفين الذين يودون أن يروا « الفكر الديني المسلم يقيم علاقة حية داخلية مع الأخلاق الحديثة أي الديموقراطية وحقوق الإنسان[47] ». وتقترح بعض دور النشر التوفيق بين « الإسلام والنزعة الإنسانية[48]» عن طريق نشر نصوص تعيد فتح السبل أمام التساؤلات بعد زمن اليقين. أو تصبو إلى إعادة عقد علاقات مع الآخر لكي تضع حذا لانغلاق طال أمده.

البعض الآخر يريد أن يذهب إلى أبعد من ذلك. ولازلنا في العالم العربي حيث أن الذين يناضلون من أجل جعل مجتمعاتهم مدنية ومن أجل علمنة حقوق الفرد. راحوا يرفعون أصواتهم بالتدريج، على الرغم من أن الثوابت الدينية التي

---

47. *Prologues*, n° 10, 3e trimestre 1997.

48. عنوان سلسلة تنشرها دار النشر المغربية Le Fennec.

تحرك عواطف الجماهير ورفض الدول الوقوف أمام معايير يقال إنها مقدسة، قد جعلتها غير مسموعة فى كثير من الأحيان. تفتح بعض الصحف صفحاتها لأقوال كانت من الممكن أن تثير الفضائح قبل بضعة عقود[49]؛ ومن جانبها أخذت بعض الحركات النسائية تهاجم بقوة متزايدة الهيراركيات التقليدية ونظم التفرقة المنشقة عنها.

يبدو أن ساعة التخلص من القيود قد حانت. فى تعليق على *الفتوى* التى أصدرها آية الله الخمينى فى عام 1989 ضد الروائى سلمان رُشدى المتهم بالكفر، أكد الكاتب الفلسطينى عبد القادر ياسين أن « النضال من أجل الحريات هو وحده الذى سيعطى للعرب سبل العودة إلى مسيرتهم للأمام[50] ». وفى عام 1993؛ جمع مائة من المثقفين من العالم العربى والإسلامى النصوص التى كتبوها لكى ينأوا بأنفسهم عن التكفير الإيرانى فى كتاب بعنوان من أجل رشدى[51]؛ وإذا لم يكونوا قد قطعوا جميعا بهذه المناسبة علاقاتهم بشبه الالتزام بتوقير ما هو مؤشر على الحفاظ على الهوية، فإن معظمهم يعتقد، مثل الجزائرى رباخ بالعمرى أن« المجتمع الذى يرفض أن يطرح التساؤلات حول ذاته والذى يُنكِر على فنانيه ومفكريه حق إثارة الشك [...] لا توجد لديه أية فرصة للازدهار. سيستمر فى سباته وسط [...] قيم أجداده المتصلبة». لا يجد كثيرون منهم غضاضة فى رغبتهم السير على الدروب التى ظلت مغلقة لفترات طويلة أمام الحرية.

---

49. على وجه الخصوص صحيفة *الحياة* التى تصدر باللغة العربية فى لندن التى تؤدى منذ عدة سنوات دورا لا يستهان به فى نقد الإستبداد العربى المعاصر وفى التفكير الذى بدأ منذ فترة واتسع حول مصير العلاقات العربية-الإسرائيلية وبشكل أوسع-العربية-اليهودية.

50. Abdel Kader YASSINE, «La forme extrême de la censure», *Libération*, 17 mars 1992.

51. Eglal ERRERA et Nadia TAZI (dir.), *Pour Rushdie. Cent intellectuels arabes et musulmans pour la liberté d'expression*, La Découverte/Carrefour des littératures/Colibri, Paris, 1993.

أفريقيا أيضا مشغولة بهذه التساؤلات: « هل هي في حاجة إلى سياسة مراجعة ثقافية ؟» كما يتساءل الكامروني دانيال إيتونجا مانجويللي[52]، في الوقت الذي تتساءل فيه مواطنته أكسيل كابو لماذا تصر قارتها على « رفض التنمية[53] » وتذكرها بشيء من عدم التسامح أن « كل شعب [...] مسئول عن تاريخه بالكامل». الزيادة الكبيرة في النصوص التي تتحدث عن اتساع حجم خيبة الأمل والإحباطات، على حين تعمل الطبقات التي ظلت طويلا مستبعدة من حقها في التعبير على استعادة حق الكلام وحتى في أقاصي الريف. إن الجنوب يتحرك حتى لو أن الشمال غير واعٍ على العموم بهذا التململ.

هذا الانتشار والتفتح لا يزال مع ذلك يتم على استحياء وسيكون ضرب من الجنون إن اعتقدنا أنه سينحو عنا سريعًا. إنه يصطدم في كل مكان بمقاومات عديدة لدرجة أنه من الممكن اعتباره سلسلة من الظواهر المحكوم عليها بأن تبقى منعزلة؛ وحتى مفكروه والمتحدثون باسمه تخرج عنهم إشارات متباينة، لصعوبة الابتعاد عن المعايير الموضوعة دون أن يتهم المرء بالخيانة ولصعوبة ابتكار أقاويل غير تلك التي اعتبرت لفترات طويلة معبرة عن الحقيقة. حتى لو افترضنا أن مثل تلك الحركة ترسم صورة للمستقبل، فهي في جميع الحالات لا يمكن أن تسير على خط واحد وقد تحدث ردات قد تؤخر كثيرا من تقدمها؛ ذلك لأن الأغلبيات تبدو كما لو أنها تريد اليوم الشيء وعكسه؛ فهي تثور إذا ما أمكنها ذلك، على سلطات باتت ثقيلة وضاغطة أكثر مما ينبغي، دون أن تخاطر في الوقت نفسه بالابتعاد عن العلامات التي على الطريق التي تظل تدرك على أنها إستحكامات تحمي من تهديدات قادمة من أماكن أخرى ومن نوائب لابد أن المستقبل محمل بها.

52. Daniel ETOUNGA MANGUELLE, *L'Afrique a-t-elle besoin d'un programme d'ajustement culturel ?,* Paris, Nouvelles du Sud, 1993.

53. Axelle KABOU, *Et si l'Afrique refusait le développement ?,* L'Harmattan, Paris, 1991.

هل يمكن رغم ذلك أن نرى فى تلك الأقوال وفى تزايد قوة المجاميع التى تنقلها، بداية لحظة جديدة فى تاريخ بلاد الجنوب المختلفة ؟ هل يمكن تصور بزوغ متطور لأفكار ومواقف لا تحتاج إحداث ردود أفعال أو تقديس انتماء لكى تثبت وجودها وتبحث عن طرق جديدة للوجود فى هذا العالم ؟ وبعد أن تستهلك كافة الصور الكاريكاتورية للحداثة الغربية التي ازدهرت فيها، مثل الألف وسيلة لنقض شرعيتها، هل أصبحنا بصدد إبداع توليفات يجد فيها الكلىّ لغات محلية لتصنيع حداثات مقبولة ؟ لاشك أن تلك الحداثات تشق طريقا لها فى مختلف بلاد الجنوب وهى لا تكل عن البحث عن ذاتها. وهى وإن كانت غير سهلة القراءة دائما فذلك لأنها تتردد ثم تتوقف، قبل أن تستعيد مسيرتها، وتسّنُ مصطلحات خاصة للتعبير عن ذاتها .. لم تعد لغة الغرب وحدها هى التى تصوغ الحداثة، كما أنه من الممكن ألا تكون وحدها التى تعبر عن الكلىّ.

ظهور تمثيلات للذات تلي مرحلة ردود الفعل فى الجنوب، والبحث عن طرق جماعية للتعبير تلي مرحلة التأكيد على الهوية هى شروط لعولمة الجنوب. ولكن إن هو أراد ألا يظل يؤخذ على أنه آخر مظاهر " تغريب " العالم، فيتعين على الغرب أيضا ألا يعتبر نفسه الوجه الوحيد لمستقبل البشرية. ثقافته القائمة على الإحساس بالتفوق غير القابلة للإقتلاع ورغبته فى الهيمنة التى لا يزال يؤكدها فى جميع المجالات والرغبة الملحة فى الحفاظ على محوريته، ظلت إلى اليوم التربة شديدة الخصوبة لنمو الأحاسيس الرد فعلية العنيفة التى مازالت بلاد الجنوب المختلفة تتأثر بها. ومع ذلك فإن هذا التخلى المزدوج للغرب عن يقينه والآخرين عن تشنجهم هو الذى قد يُسفر عن بدايات جديدة.

هل سيترك الغرب الكلىّ يهرب منه ليصبح أخيرا ما هو مفترض أن يكون أى تلك المجموعة من المعارف والأقوال التى يمكن للبشرية جمعاء أن تتعرف على ذاتها فيها أخيرا؟ هل نستطيع، مثلما يريد المؤرخ الهندى ديباش شكرا بارتى،

«تريف أوروبا» حتى يمكن« إعادة كتابة [...] نصوص أخـــرى عــن التقـــارب الإنساني يدعمها ماض ومستقبل خياليان لا تُعَرِّف فيه الشعوب بطقوس المواطنـــة ولا بكابوس « التراث» المتولد عن « الحداثة[54]» ؟ تساؤلات بلاد الجنوب المختلفـــة والرغبات الصادرة فيها فى أن يصبح جزءً من عالم لم يُشَكِّل ويؤلَّف بعيـــدًا عنـــها تمثل بلا شك جزءً من إعادة الكتابة تلك. ولكن مازال حــــراس المعبـــد الأبديـــون يتحركون على جانبى المرآة، ولم يتخلوا عن تحديد ما يتعين أن يكون عليه العـــــالم ولا عن رغبتهم فى التحصن منه.

54. Dipesh CHAKRABARTY, «Postcolonialité et artifice de l'histoire», *loc. cit.*

خلاصة

ما الذى يمكن قراءته فى إعادة تشكيل كوكب الأرض التى تحدث أمام أعيننا؟ ما هو مضمون هذه الصفحة من صفحات التاريخ الذى تفتتحه لإعادة التشكيك تلك؟ وبدلا من أن تُقرأ على أنها « نهاية التاريخ» التى تشير إلى نهاية " تغريب " العالم، أليست هى بالأحرى إعلان عن بداية فترة يرى الغرب فيها نفسه مضطرا لأن يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين ؟

إعادة التشكيل الحالية يدركها البعض على أنها خطوط عامة لعلاقات جديدة بين الشمال والجنوب بمختلف مكوناته لا تتجدد من خلالها السهيمنات السابقة، إلا أنها مازالت على منطقها الذى يعطى للغرب وسائل إطالة أمد هيمنته التى بناها عبر القرون الخمسة الماضية. إنه يمتلك فى سبيل ذلك القوة والثراء والتقنية والاقتناع بـ «قَدَرِه البيِّن» المحتوم. مازال كل شيء يعيِّنه نموذجًا يجب على بقية البشرية أن تحذو حذوه مستهدفة من أجل ذلك نسخه كما هو. إنه نموذج مثير للجدل بالتأكيد ولكنه يستمد نجاحه من غياب بدائل له مرغوبة وجديرة بالثقة للرؤيا التى يقترحها للعالم.

إذن، قد لا يكون مؤكدًا أن هذا التفوق ليس فى طريقه إلى التدهور، إلا أن آليات ممارسته تتعدل تحت تأثير بزوغ تفوقات أخرى، خرجت بالتدريج من الظل منذ خمسين عاما وأضحت ظاهرة للعيان اليوم. لعل ما جدَّ حقيقةً فى التاريخ الحالى يكمن فى أن الغرب لا يستطيع أن يتجاهل تمامًا وجود حالات التفوق المؤثر تلك ولا أن يسقط من حساباته ملف مطالبها الضخم. إذا كان هذا الجزء من العالم قد تمكن لفترة طويلة أن يمارس وحده سلطة كوكبية لا يزال يعتقد أنها غير قابلة للنقض، فذلك يعود فى جزء منه إلى أن المجتمعات التى وقعت تحت سيطرته

-كما يقول ليفي-ستراوس، «صعقتها تلك الكارثة الوحشية وغير المفهومة [...] التي هي تطور وإزدهار الحضارة الغربية». ان الذين بقوا على قيد الحياة بعد أن دخلوا في علاقات معه يقومون اليوم بتصفية حساباتهم مع سيدهم السابق وهم إذ يذكرونه بمبادئه لا يعترفون له بحق بناء المستقبل بدونهم وهو المستقبل الذي يريد أن يستنفع به وحده. فبعد أن كانوا كالمخدرين من عنف حركة المد التي جرفتهم أمامها، وبعد أن رأوا أنفسهم محبوسين داخل صور عنهم يعكسونها لهم، يريد الآخرون اعتبارا من الآن استعادة ملكية العالم وإرغام الغرب على وضع وجودهم في الاعتبار.

من مثل هذه الأنواع من اللقاءات تتولد صراعات جديدة؛ وبما أن عمليات السيطرة لم تعد على الحال التي كانت عليه فإن المقاومات تأخذ هي أيضا أشكالا مختلفة، يمكنها أن تعمق من انقسامات العالم دون أن تعدل حقيقة من النظام الذي يقوم عليه. الأغلبيات المستبعدة من حالة " التغريب " التي أصبح عليها العالم، ومن نصيبها في الأرباح التي تجلبها، للمستفيدين منها قد تضاعف من أعداد حالات التمرد التي تثور في وجه هيمنته التي لم يعد أحد يستطيع تحملها. مثل تلك الحركات التي تزكيها الخطب المنافسة لإقامة شرعيات أخرى قد تتمكن من إثارة الإضطراب في الآلة المهيمنة إلا أنها غير قادرة على إيقافها.

ظهور الآخرين خلق أيضا إطارا لم يعد فيه الغرب -على الرغم من جبروته- واثقا تماما من نفسه، لأن الإسقاطات السلبية للنموذج الذي ظل يؤدي وحده دور الحقيقة ذاتها بدأت تؤثر حتى في مركزه ذاته، ولأن للعولمة التي يريدها قادته لا يمكن أن تتم إلا بمشاركة بقية كوكب الأرض. المرحلة النهائية من عملية التطور ذات الجذور القديمة قلبت نظامًا للعلاقات الدولية، بدا لفترة ما أنه سيظل غير قابل للتعديل، وهي المرحلة التي كان السادة يتصرفون فيها كما لو أنهم وحدهم تقريبا على الأرض. توحيد الكوكب الذي يتم اليوم تحت رعاية الغرب،

والذى يسمى عولمة، يفرض عليه بالمفارقة اختراع لغات جديدة وعلاقـــات جديـــدة مع الآخرين، بل تفرض عليه أيضا أن يتوقف عـــن إبداعـــها وحـــده وأن يـــترك الآخرين يشاركونه فى ذلك.

لا شيء يشير الآن إلى أن الغرب مقتنع بمثل تلك الضرورة ولا أنـــه قـــادر على ترجمة ذلك فى الواقع. إلا أنه يجد نفسه مدفوعًا في هذا الطريق مـــن مطلـــب عالمى -وهو طلب لا يزال غير واثق من نفسه ومضطرباً ولكنه لم يعد على كـــل حال هامشياً- لكليّات تستحق اسمها بالفعل. مثل هذا البحث الذى هـــو زميـــل -لا إرادى ولكنه مفروض- للعولمة هل يستطيع فتح آفاق أخرى غير تلك التى رســـمها أصحاب المنطق المهيمن ؟ ليفى-ستراوس كتب يقول أيضاً:« لا شيء انتهى، وفـــى استطاعتنا أن نبدأ كل شيء من جديد. إن ما تم عمله وأخفق يمكن أن يُصنع مـــن جديد». يمكن أن نرى -دون أن نوافق تماماً على تلـــك المقولـــة- أن التحـــولات المعاصرة فى طريقها لاختتام المرحلة الطويلة جدًا التى ظل فيها فاعل واحد يشـــكل مصير البشرية.

فهـــرس

الجزء الثالث

على جانبي المرآه



هذا الكتاب



الغرب، هذا الكيان غير المعيَّن جغرافيا بشكل محدد، الذى يفرض على الأرض كافة رؤيته لكيفية تسيير أمور العالم، من هو؟ ما الذى أعطاه تلك المكانة المهيمنة ؟ كيف توصل إلى امتلاك كل هذا التفوق ؟ هل هو نموذج يحتذى أم توجد نماذج أخرى تستطيع أن تعرض نفسها على بقية أنحاء الكرة الأرضية لكى تخرج من الحالة التى هى عليها، فتلحق بهذا الغرب المتفوق دون أن " تتغرب" ؟.

هل الغرب "الثقافى" هو الشمال "الاقتصادى والسياسى" بالنسبة "لجنوب" يضم باقى الكرة الأرضية "المعذبة فى الأرض"؟

الأسئلة من هذا النوع التى يطرحها هذا الكتاب كثيرة ومؤلفته تحاول أن تجيب على معظمها من منظور تاريخى، سياسى وحضارى عمقت من رؤيتها خبرة طويلة فى العمل الصحفى والأكاديمى التاريخى والسياسى. كتاب تنبأ عند ظهوره فى أوائل ٢٠٠١ بأن أحوال العالم حُبلى بأحداث جليلة، فتنبت أحوال العالم على ما جاء فيه بعد أشهر قليلة. فالصراع القائم حاليا بين الغرب والآخرين تولد من أن الذين بقوا على قيد الحياة، بعد مجابهة مع الغرب دامت ستة قرون، يريدون تصفية حساباتهم معه مذكرينه بمبادئه ولا يعترفون له بالحق فى بناء المستقبل بدونهم.

المؤلفة

صوفى بسيس، مؤرخة وصحفية ولها عدة مؤلفات، نذكر منها: *السلاح الغذائى* (ماسبيرو، ١٩٧٩) و*الحدود النهائية* (جـ- ك. لاتاس، ١٩٨٣)

كتاب العالم الثالث



دار العالم الثالث
٣٢ ش صبري أبو علم باب اللوق / القاهرة
جمهورية مصر العربية
ت وفاكس ٣٩٢٢٨٨٠
Email: Elguindimohamed@hotmail.com

